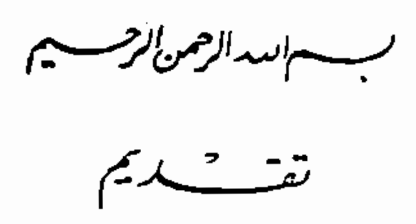


للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

أورد الجاحظ فى سياق خبر ضمنه كتابه والبيان والتبيين «مناظرة بين المكيّين والبصريّين ، تشير إلى رأيه فى معنى الفصاحة ، فقال : حدثنى أبو سعيد عبد الكريم بن روح ، قال : قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة ، فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم .

فكأن الفصاحة فى رأى الجاحظ تكمن فى اللفظ ، وفى قربها من استعمال القرآن الكريم ، وفى بعدها عن الدخيل والغريب — كما يستبين لنا من آرائه فى مواضع أخرى .

وقد أنكر بعض البلاغيين فى مراحل لاحقة أن تكون الفصاحة فى الألفاظ المفردة ، بل داخل السياق ، ومثلما اختلفت آراؤهم حول مفهوم الفصاحة اختلفوا حول علاقتها بالبلاغة والبيان ، وكثيراً ماعدت الفصاحة مرادفة للبلاغة .

وكانت الفصاحة فى كتابات البلاغيين المتأخرين تحتل مقدمة كتبهم فى البلاغة ، يشرحون فيها أركان فصاحة المفرد ، وفصاحة الكلام كتابة ونطقا . وفى هذه

الأركان تتداخل الفصاحة بقوة مع العلوم اللغوية بفروعها الحديثة المختلفة، وتتداخل مع فروع من علوم البلاغة، وتتصل بعلم النفس الحديث، وعلوم أخرى كثيرة، الأمر الذى لفت بشدة أنظار الباحثين المحدثين إلى شذوذ وضع الفصاحة مقدمة سريعة فى صدور الكتب البلاغية، وملامسة علاقاتها باللغة والبلاغة. ولكن أحداً لم ينشط لتصحيح وضع الفصاحة والاستفادة من العلوم اللغوية الحديثة فى تشريح معنى الفصاحة، وتحديد دلالاتها، والانتفاع بعلم النفس الحديث وعلم وظائف الأعضاء فى دراسة مفهوم الفصاحة بالنسبة للمتكلم، وتحديد عيوب النطق والكلام.

وأحس محمد على رزق الخفاجى هذا الضيم الذى تعانيه الفصاحة، منذ كتب فى رسالته الجامعية الأولى التى نال بها درجة الماجستير عن (مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ)، وحلل مفهوم الفصاحة عند هذا الكاتب العظيم الذى كان أول من أشار إلى بعض مدلولات الفصاحة وصلتها بالبلاغة، ثم عاين ما كتبه البلاغيون المتأخرون، وما خصوا به الفصاحة من قدر ضئيل فى صدور كتبهم، مما لا يفى بحقها، ولا يطلع الباحثين على عمق دلالاتها، ومن هذه تجرد للكتابة عن الفصاحة بهدف الدعوة إلى فصلها عن كتب البلاغة، وجعلها علما مستقلا بذاته، له موضوعه وأسسه التى يقوم عليها، وتكمن فى دراسة أصوله أهداف كثيرة أهمها: إصلاح اللغة نطقا وكتابة وسماعا.

وهذا العلم لا يصح أن يكون ذيلا للبلاغة لأن موضوعه ليس بلاغيا صرفا، ولا يصح أن يكون ذيلا لعلوم اللغة، لأن موضوعه ليس لغويا صرفا، ولكنه ذو كيان خاص يتصل — شأن أى علم آخر — بعلوم البلاغة، والعلوم اللغوية، وعلم النفس، والاجتماع، والفيزياء، وعلم وظائف الأعضاء.

وقد بدأ يتحسس خطواته الأولى فى البحث عندما كنت فى غيبة عن مصر، تحت إشراف الزميل الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام، ثم عدت وسافر

الدكتور سلام ، ومازال البحث فى نقطة البداية ، فلقيت منى فكرته كل تشجيع فانطلق فى مثابرة وصبر على طريق السداد ، حتى وجدت أن البحث قد اكتملت شخصيته ، وأصبح قادراً على النهوض بدعوة صاحبه إلى تأسيس علم الفصاحة العربية ، ليأخذ مكانه بين علومنا اللغوية والبلاغية ، فنال به صاحبه درجة الدكتوراه فى الآداب بمرتبة الشرف الأولى ، ونال معها إعجاب لجنة الحكم بما فى البحث من عمق فكرة ، وأصالة رأى ، وحسن فهم وتحليل للنصوص .

وهانحن أولاء نقدمه لقراء العربية فى كل مكان ليروا فيه رأيهم ، ولا أشك أنهم سوف يقدرون حق القدر جهد صاحبه الذى يستحق فى رأيى أجرى الاجتهاد والإصابة ، والله نسأل أن ينفع به ويبارك فى عمله ؟

محمد مصطفى هدارة

أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

قصر الصفا — رمل الإسكندرية فى ٩ شوال ١٣٩٩

أول سبتمبر ١٩٧٩



تمهيد

معالجة الظواهر العلمية بالرصد والتفسير والتقويم أمر يجمع العلماء على ثقل تبعاته وكثرتها ، ويقدرون ما قد يلقاه الباحثون من معاناة عندما يواجهون الخلط والتقدير القاصر والفهم المضطرب لظاهرة ما ، وعندما تتشعب الظاهرة إلى قنوات صغيرة تمتزج فيها الأخلاط .

والفصاحة من حيث هى ظاهرة علمية متصلة باللغة لا تختلف فى هذا الشأن عن مثيلاتها من الظواهر الأخرى ، فلقد أصابها ضيم لا نتردد فى وصفه بأنه كبير ، واختلفت تصورات عدد من دارسيها عنها ، كما خلط فريق بين جوانبها ، كل هذا وغيره قد ساعد على تشتيت موضوعاتها بين البلاغيين واللغويين . وبينما يضع البلاغيون المتأخرون الفصاحة مقدمة فى كتبهم ليحددوا بها مفهوم البلاغة نرى اللغويين يصنفون الفصيح فى دروسهم ويعدونه قضية لغوية ، فالفصاحة فى كتب القدماء مشتتة بين كتب البلاغيين واللغويين .

ولا يعنى هذا أننا نصف كل الدراسات القديمة التى تناولت الفصاحة بالقصور والخلط — معاذ الله — فهناك جهود يستوجب الإشادة بها ، ولقد نوهنا وأشدنا بجهود وآراء كثيرة فى ثنايا الكتاب ، كما أن تراثنا يشهد الفصاحة كانت درسا قديما بغض النظر عما فيه من ملاحظات .

من أجل ذلك وغيره اتخذنا الفصاحة موضوعا نقيم عليه دراستنا ، وكنا نتصور فى بداية الأمر أن دراسة الفصاحة ستكون محصورة بين الدراسات البلاغية واللغوية ، لكننا لم نكد نأخذ فى معالجة الموضوع حتى وجدنا أنفسنا مدفوعين

إلى أن نوسع من مجالاتنا ، وإلى اتخاذ وسائل جديدة يمكن أن تسدى إلينا النفع فى دراستنا ، فهناك جوانب من الفصاحة يجب أن تفسر على ضوء ما أسفرت عنه علوم العصر مثل : علم النفس ، وعلم الاصوات اللغوية ، وعلم الاجتماع ، وعلم الفيزياء ، وعلم الدلالة ، وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، هذا بالاضافة إلى ما ترتكز عليه دراستنا من علو عريقة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب ، ولقد حاولنا أن يكون تفسيرنا لجوانب الفصاحة تفسيرا علميا بقدر ما يتاح لنا من وسائل علمية وفنية ، وبقدر تلك النتائج التى توصلت إليها هذه العلوم ، وبقدر تعلقها بدراستنا . ونحن ندرك أن أى تفسير عصرى وأية دعوة إلى التجديد إنما تقوم على أساس متين من التراث القديم ، ذلك منهج قويم قد رسمه لنا أستاذنا المرحوم أمين الخولى فى قوله : (إن أول التجديد هو قتل القديم بحثاً) .

ودراستنا للفصاحة قد انطلقت مما قد استقر عنها عند الأقدمين ، أى أننا قد ارتضينا ما أورده القزوينى عن الفصاحة ليكون الأساس الذى ننطلق منه لدراسة الفصاحة ، وذلك لأن القزوينى من البلاغيين المتأخرين الذين قد استقرت المصطلحات على أيديهم ، كما أن ما أورده من قضايا وموضوعات بلاغية يعد ثمرة جهود البلاغيين السابقين . كما أن إضافات شراح التلخيص قد دارت فى الإطار الذى حدد القزوينى معالمه . وهذا لا يعنى أننا قد توقفنا عند القزوينى ، وإنما قد اتخذنا آراءه المعيار الذى نتعرف به على جهود سابقيه ولاحقيه. كما أن دراستنا للفصاحة دراسة طولية من الرأس إلى القدم ، ولقد تتبعنا ملامح الظاهرة فى أصولها الأولى من العصر الجاهلى حتى عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، ولقد حاولنا فى دراستنا هذه أن نرى اللغة من الأدب ، والأدب من اللغة ، أى نوطد الصلة بين الذوق واللغة من ناحية ، والعقل والأدب من ناحية أخرى ، فنحن ما زلنا نرى أن علوم اللغة تدرس لذاتها ، وكأنها ترف علمى ، بينها حدود فاصلة ، ومناطق حرام . بينما نجد الدراسات الأسلوبية فى اللغات الأوربية قد وصلت إلى درجة كبيرة ومزجت بين علوم اللغة أو أوصافها .

وقد لاح لنا ونحن ندرس جوانب الفصاحة أن تناثرها بين علوم مختلفة يجب أن تبرز نهايته ، فيجمع شتاتها ، وترأب شعابها ليكون لها كيان مستقل، وقوام ظاهر ، تستطيع بهما أن تتبوأ مكانتها التى تتلاءم معها كظاهرة علمية ، أو كإطار تعالج من خلاله اللغة فى جانب أو أكثر من جوانبها ، بل لا نبالغ إذا دعونا إلى جعلها علما مستقلا كغيرها من العلوم اللغوية الأخرى التى استقلت وبرزت، وفى رأينا أن الفصاحة لها مقومات كثيرة تصبو إلى جعلها علما له موضوعاته وأهدافه وأسسه التى يقوم عليها ، ولقد حاولنا أن نرسم ملامح هذا العلم فى الدعوة التى سجلناها فى نهاية هذا الكتاب ، وهذا العلم ليس تكرارا لما تضمنته العلوم اللغوية الأخرى كالبلاغة والنحو والصرف والصوتيات وعلم اللغة ، وهذا لا يمنع من استعانته بها لتفسير بعض جوانبه ، والفصاحة كما بدت لنا من خلال دراستنا لها ما يزكيها لتكون علما ، ومجالاتها أكثر وأوسع من مجالات بعض العلوم التى استقلت وبرزت ، بل اننا لا نبالغ إذا قلنا : إن فصاحة المتكلم وهى أحد أقسام الفصاحة الثلاث — يمكن أن يكون علما مستقلا بذاته ، ويستطيع القارىء أن يدرك المجالات التى تتناولها فصاحة المتكلم ، هذا بالإضافة إلى الموضوعات العديدة التى تضمها فصاحة المفرد .

وشعورنا القوى بما للفصاحة من أثر يمكن أن تؤديه كعلم مستقل — قد دفعنا إلى تغيير عنوان هذه الدراسة فلقد كان عنوانها : (مفاهيم الفصاحة العربية) فصارت (علم الفصاحة العربية) . وهذا الكتاب مقدمة فى هذا العلم للقارىء العربى ، وهو خطوة فى طريق الفصاحة ، كما أننا مزجنا فيه بين الجانبين النظرى والتطبيقى ، لكننا لم نلجأ إلى الإفاضة فى الجانب التطبيقى لأن حدوده لا نهاية لها ، وعلى الباحث أن يرسم الخطى ، ويوضح معالم الطريق ، ويترك الجانب التطبيقى لمن أراد أن يسلك هاتيك الدروب . ومن عمل الباحث أيضا أن يكون

هدفه الكشف عن حقائق علمية ، لكن الانتفاع بتلك الحقائق أهداف تربوية قد تولدت من الأهداف العلمية التي كشف عنها الباحثون .

ونحن ندرك أن الاهتمام بأي علم من العلوم إنما يرتبط بملابسات تتصل بالمريدين أو القائمين عليه ، كما أن درجة تقبل أي علم من العلوم تتعلق بالحاجة إليه ، وعلم الفصاحة الذي ندعو إليه يمكن أن يجد الاهتمام الذي نرجوه له ، والتقبل من متفهميه . ولا نبالغ إذا قلنا : إننا في حاجة إلى إطار ومنهج مناسب لوصف أو دراسة اللغة ، وعلم الفصاحة بمجالاته وموضوعاته أنسب شيء إلى ذلك .

لقد ورد في تراثنا كلمة علم مضافة إلى الفصاحة ، ونخص بالذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي ذكر (علم الفصاحة) مرات ومرات ، لكن عبد القاهر الجرجاني لم يكن يعني بقوله (علم الفصاحة) ما تدعو إليه هنا ، وإنما كان يقصد بذلك (علم البلاغة) ، ولقد ذكرنا ذلك في ثنايا هذا الكتاب وأوضحنا أن عبد القاهر يستخدم لفظتي فصاحة وبلاغة بمعنى واحد ، فعلم الفصاحة الذي يردده عبد القاهر الجرجاني لا صلة له بعلم الفصاحة الذي تدعو إليه ، ونرجو له أن يكشف عن حقائق علمية يمكن الاستفادة بها في إصلاح لغتنا العربية نطقا وكتابة وسماعا .

كما أننا ندرك أن نتائج العلوم اللغوية أو العلوم الإنسانية عامة ليست صارمة محددة تمام التحديد كنتائج العلوم التجريبية مثلا ، لكنها لا تخلو من قدر من النسبية ، ونتائج علم الفصاحة لا تختلف عن نتائج العلوم اللغوية الأخرى، وذلك على الرغم من استعانة الفصاحة ببعض العلوم التجريبية مثل علم الفيزياء وعلم الأصوات التجريبي .

وإذا كان إحساسنا بالمسئولية قد تضاعف ونحن ندرس الفصاحة بهذا

المنهج وتلك الوسائل فإن ذلك الإحساس قد زاد تضاعفه عندما واتتنا الجرأة على الدعوة إلى تأسيس علم الفصاحة ، كما أننا نعترف أن دورنا قد حدد معالم الطريق لمن شاء أن يسلك دروب الفصاحة ، كما يظهر دورنا أيضا فى جمع شتاتها المتفرق فى ثنايا كتب البلاغة واللغة على إختلاف عصورها ، كما أننا لا ندعى أننا وصلنا إلى نهاية طريق الفصاحة ، والدرجة الموصوفة بالكمال ، فالكمال لله وحده .

ويسعدنى أن أتقدم بالشكر إلى أستاذى الجليل محمد مصطفى هدارة وإلى أسرة معمل الصوتيات بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، وعلى رأسها أستاذى العالم الجليل بخاطره الشافعى نصر .

وفى النهاية ، أرجو الله سبحانه أن يجعل هذا العمل نافعاً للدين والوطن والإنسانية .

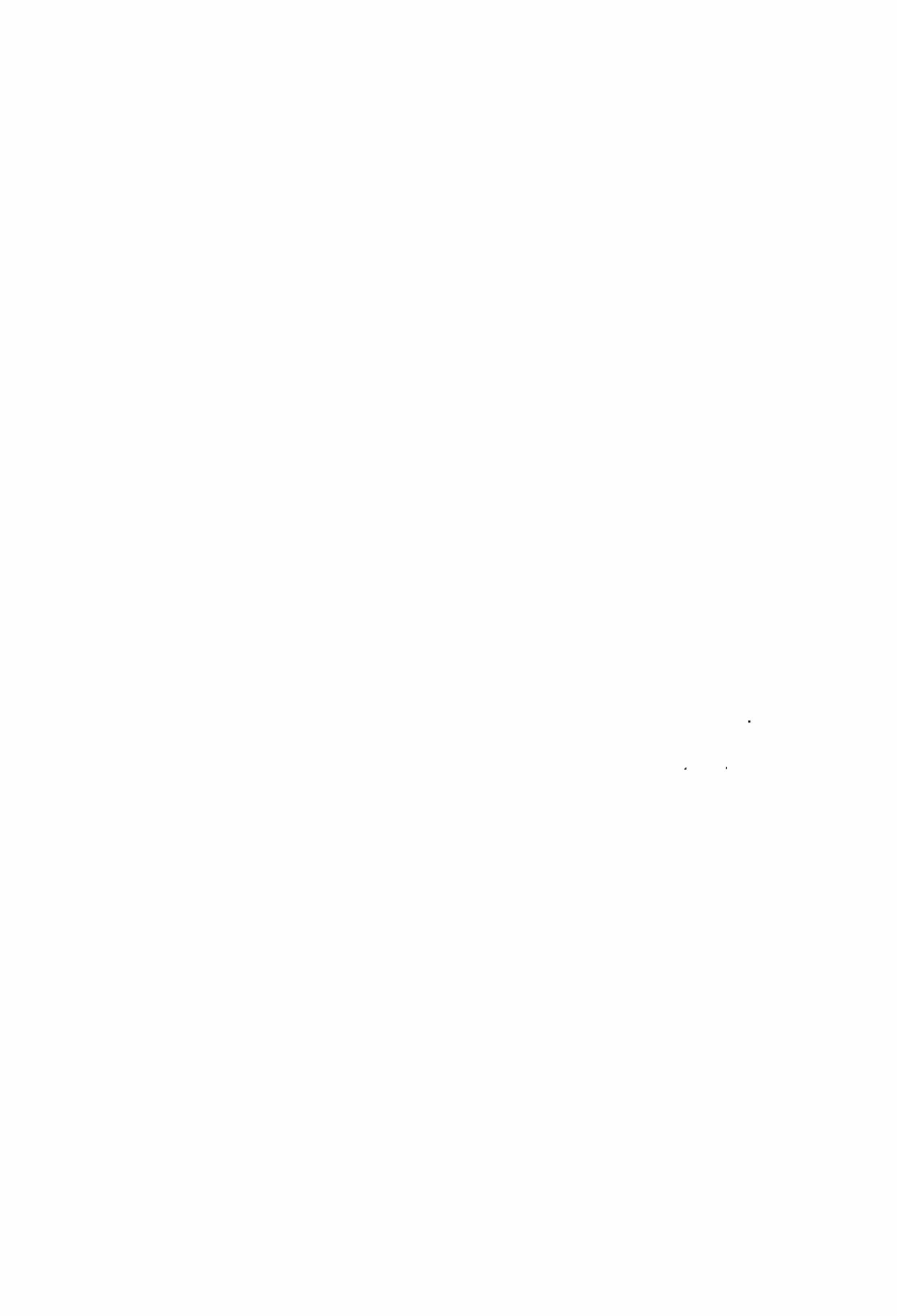
محمد على رزق الخفاجى

المقـــــدمة

وتتضمن جزءين

الأول: الفصاحة فى الأصل اللغوى واستعمال العرب لها.

الثانى: الخلاف حول مدلولها ومدلول البلاغة وأسبابه.



المقـــــدمة

أولا ـ الفصاحة فى الأصل اللغوى واستعمال العـرب لهـا :

حظيت الفصاحة باهتمام البلاغيين واللغويين ، فلقد حاول البلاغيون أن يصنفوها فى مباحث البلاغة ، كما حاول اللغويون أن يجعلوا الفصيح قضية لغوية عامة .

وهذا الاهتمام الذى ظهر من جانب البلاغيين واللغويين كان لا بد له أن يأخذ اتجاهات ومفاهيم ، قد تتفق ، وقد تختلف ، وقد يشوبها الخلط فى بعض الأحيان .

ونرى ونحن نتلمس الفصاحة بالدرس ، ومفاهيمها بالتأصيل والتقويم أن نسلك فى ذلك منهجا يقوم على أساس الاستقراء لأطراف ظاهرة الفصاحة المتفرقة فى كتب البلاغة واللغة ، كما أن دراسة هذه الظاهرة اللغوية تستوجب منا فى بعض النواحى أن نسلك منهجا وصفيا . كما نرى أن تحديد الفصاحة بمقياس كل عصر على حدة لا يفى بحاجتنا ، ولهذا سنحاول أن نحددها بمقاييس عامة قد استقرت ووضحت وسنفصل ذلك فى حينه ــ إن شاء الله .

وكلمة (فصاحة) مصدر للفعل الثلاثى المضموم العين « فَصُحَ » فالفاء والصاد والحاء أصل يدل على الخلوص والنقاء ، ويرى ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة أن أصل المادة يرجع إلى اللبن : « والأصل أفصح اللبن : سكنت رغْوَتُه . . وحكى : فصح اللبن فهو فصيح ، إذا أخذت عنه الرَّغوة . »[1]

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة «فصح» . تحقيق عبد السلام هارون ط دار أحياء الكتب العربية ط الحلبى) ١٣٦٦ ـ ١٣٦٩ هـ .

وجاء فى لسان العرب مايؤيد هذا المعنى وذلك كما جاء فى قول فضلة السلمى:

رأوه فازدروه وهو خرق ... وينفع أهله الرجل القبيح
فلم يخشوا مصالته عليهم ... وتحت الرغوة اللبن الفصيح

ويذكر ابن منظور فى اختصاص أصل المادة باللبن أن أفصح اللبن « ذهب اللبأ عنه. وأفصحت الشاة : إذا انقطع لبؤها ، وجاء اللبن بعد. وربما سمى اللبن فصحاً وفصيحاً » . (٢)

واستعملت هذه المادة بمعنى الصفاء والخلوص لغير اللبن ، وذلك كما يورد ابن منظور عن ابن الاعرابى قوله : أفصح البول كأنه صفا ، ويورد ابن منظور قول رجل مرض : قد أفصح بولى اليوم ، وكان أمس مثل الحناء . (٣)

وينقل ابن منظور عن الازهرى مايدل على أن مادة (فصح) قد استخدمت لتدل على الكشف والظهور ، فيقال : يوم مفصح : لاغيم فيه ولا قر والفصح: الصحو من القر . وأفصح الصبح بدا ضوءه واستبان . وكل ماوضح فقد أفصح، وكل واضح مفصح ، ويقال : فصحك الصبح : أى بان لك وغلبك ضوءه(٤) .

ويرى الزمخشرى أن استخدام هذه المادة للصبح يدخل فى الاستخدام المجازى(٥) ثم استعملت مادة « فصح » لتدل على الظهور والبيان فى الكلام والخلوص من اللكنة ، وهو عند الزمخشرى من المجاز أيضاً ويقول : أفصح العجمى : تكلم

---

(٢) لسان العرب لابن منظور فصل الفاء حرف الحاء (مادة فصح) ط . مصوره عن بولاق .
(٣) لسان العرب لابن منظور فصل الفاء حرف الحاء (مادة فصح) ط . مصوره عن بولاق .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) أساس البلاغة للزمخشرى مادة « فصح » ط بيروت سنة ١٩٦٥ م .

العربية ، وفصح : انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللكنة [٦] .

واستعمال « فصح » بمعنى الإجادة فى اللغة والخلوص من اللحن ، وكذلك استعمال « أفصح » بمعنى تكلم العربية بلا إجادة — قد ذكرهما ابنُ فارس فى معجم مقاييس اللغة ، كما غلّط ابنَ دريد لاستعماله كلمة « أفصح » بمعنى « فصُح » فى قوله : أفصح العربى إفصاحا ، وفصح العجمى فصاحة إذا تكلم بالعربية . . . وأراه غلطا ، والقول هو الأول . . [٧] .

وقد استخدمت « أفصح » للصبى إذا فهمنا مايقول فى أول كلامه ، كما تستخدم للأغتم إذا فهم كلامه بعد غتمته .

كما قد تستخدم كلمة فصيح لغير الإنسان كما جاء فى قول أبى النجم : [٨]

أعْجَم فى آذانها فَصيحاً

يعنى صوت الحمار أنه أعجم ، وهو فى آذان الأتُن فصيح بيّن .

وقد تستخدم كلمة « فصيح »صفة للمال الكثير الذى يظهر بين الناس ، وهو على سبيل المجاز عند الزمخشرى مستدلا على ذلك بالبيت الآتى : [٩]

وقد كُنْتُ ذا مالٍ فصيحٍ وصامتٍ   وذا إبلٍ قدْ تعلمين وذا غَنمِ

كما قد تستخدم كلمة « فصيح » ويراد بها الإنسان فى مقابل كلمة « أعجم » ويراد بها البهائم، كما جاء فى الحديث : « غُفِر له بعدد كل فصيح وأعجم ... » .

---

(٦) أساس البلاغة للزمخشرى مادة « فصح » ط بيروت سنة ١٩٦٥ م .
(٧) معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ ٤ ص ٥٠٦ .
(٨) لسان العرب مادة « فصح » .
(٩) أساس البلاغة (مادة فصح) .

أما كلمة « الفِصْح » بكسر الفاء فهى عيد للنصارى مثل الفِطْر وزنا ومعنى ويجمع « فِصْح » على « فُصُوح » مثل حِمْل وحُمُول ، وكلمة «الفصح» الدّالة الدال على عيد النصارى ، ليست من « الفصاحة » بشىء ، لأنها من مادة أخرى ليست عربية الأصل .

أما المعنى الذى شاع واستقر فى أذهان البيئات الثقافية منذ ظهور الإسلام لهذه المادة « فَصُح » فهو طلاقة اللسان بالكلام العربى وذلك المعنى مستخلص من كلام ابن فارس الذى يقول : « الفاء والصاد والحاء أصل يدل على اللسان الفصيح : الطليق ، والكلام الفصيح : العربى »[١٠] ـ ومن قول ابن منظور : « . . يقال : ماكان فصيحا ، ولقد فصح فصاحة وهو : البّين فى اللسان والبلاغة.. »[١١] .

ولقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى أى بطلاقة اللسان وذلك فى سورة القصص عندما وصف سيدنا موسى عليه السلام أخاه هارون : « ... وأخى هرُونُ هو أفصحُ منى لساناً فأرْسلْهُ معى رِدْءاً يُصدِّقنى إنىِّ أخاف أن يُكذِّبُون . قال: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخِيكَ ونَجْعَلُ لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتَّبعكُماَ الغالبون . »[١٢] .

ومع أن القرآن لم يستخدم مادة « فصح » إلا فى هذه الآية إلا أنه هو الاستخدام الذى استقر وشاع فيما بعد ، ومازالت هذه المادة تحمل دلالة طلاقة اللسان ووضوح المعنى حتى الآن ، فالقرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز عندما ميز الفصاحة باللسان ؛ فسلامة النطق هى لب الفصاحة .وسيتضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

---

(١٠) معجم مقاييس اللغة جـ ٤ ص ٥٠٦ .
(١١) لسان العرب مادة « فصح » .
(١٢) سورة القصص ٣٤ ـ ٣٥ .

ولقد ورد هذا المعنى فى تناول الأحاديث الشريفة لهذه المادة «فصح» فيروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنه قال : « يارسول الله ، مَا لَكَ أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا . ؟ قال : كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ فجاء بها جبريل عليه السلام فحَفَّظَنِيها ، فحفظتها .. »[١٣] .

ولقد نقل السيوطى حديثا آخر يؤكد معنى هذه المادة ، بل يضيف إليها شيئاً آخر ، يقول السيوطى : « .. وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمىّ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم دَجْن : كيف ترون بواسقها . ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها قال : كيف ترون قواعدها .. ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها .. قال : .. قال : كيف ترون جونها .. ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : كيف ترون رحاها استدارت .. ؟ قالوا : نعم ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : كيف ترون برقها . ؟ أخفيا أم وميضا أم يشق شقا .. ؟ قالوا : بل يشق شقا .. فقال : الحياءُ . فقال رجل : يارسول الله ، ما أفصَحَكَ .. ما رأينا الذى هو أعرب منك .. قال : حق لى ، فإنما أنزل القرآن على بلسان عربى مبين .. »[١٤] .

ونستخلص من هذا الحديث أن تناول الرسول لها والمسلمين فى ذلك الوقت إنما يوحى بطلاقة اللسان وسلامة النطق ، ويضاف إلى ذلك عروبة الألفاظ وسلامتها فى تراكيبها من اللحن والخطأ . وهذان المدلولان قد صارا فيما بعد شرطين من شروط الفصاحة .

ولدينا حديث آخر يؤكد المعنى المتداول لكلمة « فصح » فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أفصح العرب . » ، وروى هذا الحديث بلفظ :

---

(١٣) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ج ١ باب الباء مع السين ، انظر البيهقى أيضا نفس المادة .

(١٤) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .

« أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر . . »[١٥] .

وتدل كلمة « أفصح » هنا على أنها تنحصر فى النطق الصحيح للغة ألفاظا وجملا . وأن الرسول أفصح العرب جميعاً وهو من قريش التى هى أفصح العرب كما يذكر السيوطى ناقلا عن طائفة من العلماء معللا فصاحة ألسنتها وصفاء لغتها بأن الله قد اختارهم من جميع العرب واختار منهم النبى ، وجعلهم قُطَّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب .[١٦] .

ولذلك تخلصت قريش من العيوب التى تقلل من الفصاحة والتى التصقت ببعض القبائل فى كلامهم مثل عنعنة تميم ، وعَجْرَفيّة قيس ، وكشكشة أسد ، وكسكسة ربيعة ، وكسر أسد وقيس .

أما بنو سعد بن بكر — وهم الذين قد قضى الرسول بينهم فترة صباه الأولى — فهم من عُلْيَا هوازن الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عُلْيا هوازن وسفلى تميم .

ويروى عن ابن عباس أن القرآن نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن .

ويفسر السيوطى « عجز هوازن » بقوله : « وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية

---

(١٥) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .
(١٦) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .

وثقيف ... » ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : « أفصح العرب عليا هوازن ، وسفلى تميم »[١٧] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أفصح الخلق ، وقد جاءته الفصاحة من الله الذى خلق له لسانا طلقا ، وعقلا راجحا ، والذى وضعه وأوجده فى قريش ، وهيأ له أن ينشأ فى بنى سعد بن بكر أفصح قبيلة فى هوازن التى نزل القرآن بخمس لغات منها .

• • •

نستطيع أن نستخلص من هذا العرض لاستعمال العرب لمادة « فصح » ولأصلها اللغوى — أن هذه الكلمة فى بدء نشأتها كانت مرتبطة بالحياة المادية فى البيئة البدوية وأن الأصل فى استعمالها مرتبط باللبن الفصيح الذى سكنت رغوته أو كشفت عنه، ثم استخدمت اللفظة لتدل على الخلوص والصفاء والوضوح مثل أفصح البول ، وأفصح الصبح ، ثم انتقلت اللفظة بعد ذلك إلى المعنى المجازى لها لتختص باللسان واللغة لتدل على الإبانة حتى لو كانت من الأعجمى أو الطفل، واستقرت اللفظة أخيرا لتدل على اللسان المنطلق والنطق السليم بألفاظ عربية جيدة . وهذا الاستعمال الأخير للفظة هو الذى شاع واستقر فى أكثر عصورها .

كما نستطيع أن نستخلص أن معنى كلمة « فَصُح » يقع فى مكانة وسطى بين كلمتى « فسح » و « فضح » ، فالفاء والسين والحاء كلمة تدل على سعة واتساع ، ولكنها سعة محدودة وبمقدار كقوله تعالى : « يأيُّها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحُوا فى المجالس فافْسَحُوا يفسح اللهُ لكم ، وإذا قيل انشزوا فانْشُزُوا يرْفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعملون خبير »[١٨] .

أما الفاء والضاد والحاء مادة تدل على الغلبة والشمول وقد ارتبطت هذه المادة غالبا بكشف القبح والمساوىء ، ويقال للنائم وقت الصباح : فضَحَكَ

(١٧) المزهر ص ٢١٠ .
(١٨) سورة المجادلة آية ١١ .

الصبح فقمْ ، ومعناه كما يذكر ابن منظور « أن الصبْحَ قد استنار وتبين حتى بيّنك لمن يراك وشهرك ، وقد يقال أيضاً : فَصَحَك الصبح بالصاد ، ومعناهما متقارب »[١٩] .

و « فضح الصبح » من المجاز عند الزمخشري مثل[٢٠] :

حتى إذا ما الديكُ نادى الفَجْرا ... وفَضَحَ الصبحُ النجومَ الزُّهرا

وفي الحديث أن بلالاً رضي الله عنه أتى ليؤذن بالصبح فشغلت عائشة بلالا حتى فضَحَهُ الصبحُ أي دهمته فضحة الصبح وهي بياضه وكشفته وبيّنته للأعين فصار كما يفتضح بعيب ظهر منه .

ولقد استخدم القرآن الكريم مادة « فضح » بهذا المعنى ، ولم ترد هذه المادة في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى في سورة الحجر على لسان لوط : « قالَ إنّ هؤلاء ضيفي فلا تفضَحُونِ ، واتّقوا اللهَ ولا تخزونِ » .

فالكشف والإبانة في كلمة « فصُح » يقع في مكانة وسطى كما ذكرنا بين مادتي « فسح » التي تفيد السعة والكشف بمقدار و « فضح » التي تفيد الكشف في غلبة وشمول .

كما نلاحظ أن مادة « فصع » قريبة جداً من « فصح » ، فالفاء والصاد والعين تدل على خروج شيء من شيء وظهوره ، ويقال فصَع الرُّطَبة إذا قشرها[٢١] .

ومن المؤكد أن كثيراً من الكلمات المتقاربة في اللفظ تتقارب معانيها ، وإذا نظرنا إلى المواد التي اجتمعت فيها الفاء مع الصاد أو الصاد مع الحاء نجدها ترتبط بمعنى الوضوح والإبانة بكثير أو قليل فمادة « صاح » تفيد إبانة الصوت مع

---

(١٩) لسان العرب مادة « فصح » .
(٢٠) أساس البلاغة مادة « فصح » .
(٢١) معجم مقاييس اللغة جـ ٤ ص ٥٠٦ مادة « فصح » .

الاستغاثة و « صـحّ » تفيد ظهور العافية و « صحا » تفيد كشف الجفنين عن العينين و« فصل » تفيد ظهور المدود ...

وعلى أية حال فانما يهمنا هو مادة فصح التى نحن بصددها ، ونلاحظ أن مصدر « فصح » وهو فصاحة قد ندر استعماله حتى صدر الاسلام ولم نعثر بعد على نص يتضمن هذه اللفظة « فصاحة » مما يجعلنا نميل إلى أن هذه اللفظة حادثة فى الاسلام كما أن مدلولها اللغوى والاصطلاحى لم يتحدد إلا بعد الاسلام.

ثانيا ــ الخلاف حول مدلولها ومدلول البلاغة وأسبابه :

هل هناك خلاف حول مدلول كلمة « فصاحة » ومدلول كلمة « بلاغة » ؟ .. وما المدى الذى يمكن أن يصل إليه ذلك الخلاف إن وجد .. ؟

لقد رأينا فيما سبق دلالة كلمة « فصاحة » وأنها قد اتخذت لها مدلولا مجازيا ينحصر فى طلاقة اللسان بكلمات عربية نقية . ولقد ظلت تستعمل بمعناها اللغوى فترة طويلة حتى أخذ معناها الاصطلاحى فى الظهور والاكتمال عند شراح تلخيص المفتاح . وسنفصل ذلك فيما بعد ــ إن شاء الله .

أمـــا كلمة « بلاغة » فهى أكثر انتشاراً واستعمالا من كلمة « فصاحة » ، والمتتبع لتاريخ اللفظة يجد أن استعمالها لم ينتشر إلا بعد القرن الأول تقريبا .

والقرآن الكريم لم يستخدم لفظة « بلاغة » ليعبر بها عن معانيه كما أنه لم يستخدم لفظة « فصاحة » مع أنه قد استخدم لفظة « أفصح » كما ذكرنا .

ولقد استعمل القرآن الكريم مادة « بلَغ » بفتح اللام فى كثير من الآيات القرآنية لتدل على بلوغ الحُلُمُ كما جاء فى سورة يوسف[٢٢] وسورة النور[٢٣]

---

(٢٢) الآية ٢٢ .

(٢٣) الآيتين ٥٨ ، ٥٩ .

وسورة القصص[٢٤] وسورة النساء[٢٥] وسورة الأنعام[٢٦] وسورة الكهف[٢٧]. كما استخدم القرآن هذه المادة « بلغ » بمعنى الوصول فى كثير من الآيات ونذكر من هذا الاستعمال على سبيل المثال ما جاء فى سورة الكهف[٢٨] والصافات[٢٩] والأحقاف[٣٠] ومريم[٣١] والبقرة[٣٢]. واستخدم القرآن الكريم كلمة «بلاغ» بمعنى كفاية وبرهان كما جاء فى صورة إبراهيم[٣٣] والنحل[٣٤] ويس[٣٥] والأنبياء[٣٦] والجن[٣٧].

أما « بلغُ » بضم اللام فهى فعل لازم مصدره يأتى على وزن «فعالة» «بلاغة» وهو مصدر سماعى ، والقرآن الكريم لم يستخدم هذه المادة إلا مرة واحد فقط فى قوله تعالى : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا[٣٨].

وكلمة « بليغ » وصف يطلق على القول كما جاء فى الآية الكريمة ، كما يطلق على القائل أيضا ، والرجل البليغ هو ماكان كلامه حسنا فصيحا يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما فى قلبه ، وجاء فى لسان العرب أن « البَلْغ » و « البِلْغ » هو البليغ من الرجال ، كما أورد : « البِلَغْن : البلاغة » ناقلا ذلك عن السيرافى وسيبويه.

ويقرر ابن منظور أن معنى البلاغة هو : الفصاحة[٣٩].

وسنحاول أن نتتبع لفظتى « بلاغة » و « فصاحة » لنتعرف على مدلوليهما

---

(٢٤) الآية ١٤ . (٢٥) الآية ٦ .
(٢٦) الآية ١٥٢ . (٢٧) الآية ٨٢ .
(٢٨) الآيات ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٣ . (٢٩) الآية ١٠٢ .
(٣٠) الآية ١٥ . (٣١) الآية ٨ .
(٣٢) الآيات ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ .
(٣٣) الآية ٥٢ . (٣٤) الآيات ٣٥ ، ٨٢ .
(٣٥) الآية ١٧ . (٣٦) الآية ١٠٦ .
(٣٧) الآية ٢٣ . (٣٨) النساء ٦٣ .
(٣٩) لسان العرب المجلد الثامن ص ٤١٩ : ٤٢١ مادة « بلغ » .

بقدر مايتاح لنا من نصوص، ونستطيع ان نقول : إن استعمال لفظى «فصاحة» و «بلاغة» لم نظفر به حتى آخر القرن الاول تقريبا، ومن أقدم النصوص العربية التى وصلت إلينا متضمنة لفظة «بلاغة» ما أورده الجاحظ عن ابن المقفع (توفى سنة ١٤٣ هـ)، فلقد سئل : ماالبلاغة ؟ فقال مجيبا : «البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحىُ فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين، وفى إصلاح ذات البين، فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال[٤٠]».

وابن المقفع أديب مترجم نقل عن الأدب الفارسى كتبا كثيرة اشتهر بعض منها فى تراثنا وكان معاصرا لعمرو بن عبيد المعتزلى المتوفى سنة ١٤٤ هـ والذى سئل عن معنى البلاغة ومفهومها عنده كما سئل معاصره ابن المقفع فقال : «.. إنك أن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنه فى الآذان، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب[٤١]».

وشيوع كلمة «بلاغة» فى زمن ابن المقفع وعمرو بن عبيد وعدم عثورنا عليها قبل هذين النصين يجعلنا نميل إلى أن هذه اللفظة حادثة فى الاسلام مع أن مادتها عربية خالصة وأنها لم تنتشر قبل بداية القرن الثانى الهجرى وأنها ذاعت على

---

(٤٠) البيان جـ ١ ص ١١٥ .
(٤١) البيان جـ ١ ص ١١٤ .

ألسنة المتكلمين من المعتزلة ـ مثل عمرو بن عبيد ـ الذين حاولوا أن يتسلحوا بالقدرة اللسانية ليواجهوا بها خصومهم ، وليفسروا بها روعة النص القرآني . أي أنها ارتبطت بالنشاط الفكري للمعتزلة .

أما ترددها على لسان رجل كابن المقفع فله ما يبرره ، فهو أديب مترجم ويستطيع أن يوضح مفهوم البلاغة على ضوء ثقافته ، وبالنظر في ما أورده الجاحظ عنه نرى ملاحظات ناضجة عن المقام والإيجاز والإطناب والمواقف التي يحسن فيها كلاهما وبراعة الاستهلال ورد الأعجاز على الصدور كما نرى إشارة سريعة تتصل بالفصاحة في قوله : « .. إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك[٤٢] » .

فقوله « أرضيت من يعرف حقوق الكلام » نفهم منه أنه يجب أن يكون الكلام ملتزما بقواعد اللغة ولا يخالف ما اصطلح عليه علماء اللغة ونطق العرب الفصحاء ، وقد يعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضا .

ونستطيع أن نستخلص من القطعة المروية عن عمرو بن عبيد أن كلمة «بلاغة» تشمل موضوعات صارت فيما بعد من مباحث «الفصاحة» فقوله : « ... بالألفاظ المستحسنة في الآذان » تعني أن الألفاظ تقع في الآذان موقعا حسنا فلا تنافر بين حروف كلماتها أو بين كلماتها ، ولا غرابة في ألفاظها . وقوله : « المقبولة عند الأذهان .. » تعني أن الأذهان تقبلها لخلوها من التعقيد اللفظي أو التعقيد المعنوي ، وبعدها عن الوحشي والسوقي من الألفاظ .

وينهى عمرو بن عبيد عن التكلف في قطعة أخرى لأنه يذهب بالبلاغة «لاخير

---

(٤٢) البيان جـ ١ ص ١١٥ ـ ص ١١٦ .

فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ، ولا خير فى شىء يأتيك به التكلف[٤٣] » .

ونستطيع أن نقول : إن استعمال كلمة « بلاغة » عند ابن المقفع وعمرو بن عبيد ومن عاصرهما يشمل موضوعات صارت فيما بعد من موضوعات الفصاحة . ولعل استعمال العتّابى للفظة بلاغة وفهمه لها يوضح لنا ذلك ، فلقد سئل عن البلاغة فأجاب قائلا : « .. كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ ، فان أردتَ اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق » .

ويفسر الجاحظ مقصد العتّابى من قوله « أفهمك حاجته » بأنه الإفهام على مجارى كلام العرب الفصحاء « .. والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديّين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة .. . وإنمـــا عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى العرب الفصحاء[٤٤] » .

ولو كانت البلاغة إفهاما فقط لاختلط الخطأ بالصواب والإغلاق بالإبانة والملحون بالمعرب ولكنه إفهام بالكلام العربى الفصيح .

ونلاحظ هنا أن العتابى يفسر البلاغة بالفصاحة ، فمعظم الذى ذكره يدخل فى موضوعات الفصاحة كما استقرت فيما بعد مثال ذلك قوله « .. كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ .. » فالإعادة والحبسة والاستعانة من عيوب الفصاحة . ومن الأشياء التى يعاب بها الخطيب ويفسر

---

(٤٣) البيان جـ ١ ص ١١٥ .
(٤٤) البيان جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

العتابى لسائله معنى الاستعانة فيقول : « . . ألا تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: ياهناه ، وياهذا ، ياهيه، واسمع منى ، واستمع إلىّ ، وافهم عنى ،أو لست تفهم أو لست تعقل ، فهذا كله وما أشبهه عىّ وفساد » . (٤٥)

كما نستطيع أن نتلمس هذا الاستعمال فيما ورد لنا من الصحيفة الهندية التى أحضرها بهلة الهندى وترجمها أبو الأشعث وهى ملاحظات تدخل معظمها فى الفصاحة وخاصة مايتصل بفصاحة المتكلم ، فالخطيب يجب أن يكون « رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ . . » وأن يكون عارفا لمقدرته فلا يغتر بنفسه ولا تتزعزع ثقته بها ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصدا »(٤٦) .

كما تهتم الصحيفة أيضا بالألفاظ ومدى ملاءمتها لمعانيها والمقام الذى قليت فيه ، فلا ينقح المتكلم ألفاظه كل التنقيح إلا إذا كان السامع حكيما أو فيلسوفا ، لأن الكلمات الاصطلاحية لايفهمها إلا أهل طوائفها ، ولأن التعمق يؤدى إلى الغموض والغموض يؤدى إلى التعقيد فتنتج الغرابة التى يجب أى يخلو منها الكلام والألفاظ .

أما الجاحظ وهو مؤسس البلاغة العربية ، قد تحدث عن أشياء كثيرة استقرت فى مباحث الفصاحة فيما بعد ، والجاحظ لم يفرق بين مدلول كلمتى « بلاغة » و « فصاحة » مع أنه أول من استخدم كلمة « فصاحة » استخداما قريبا من معناها الذى استقر أخيرا . ونستطيع أن نرى ذلك من تعليقة على كلام العتابى عن البلاغة « . . . والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده بالكلام الملحون والملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة . »

---

(٤٥) البيان جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .
(٤٦) البيان جـ ١ ص ٩٣ .

ويعلق الجاحظ على الذين يفهمون كلام الأعاجم الملحون قائلا : « فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا . »(٤٧)

فالفصاحة عكس اللكنة ، أو إن اللكنة تفسد الفصاحة ، والبلاغة ليست إفهاما فقط ولكنه إفهام على مجارى كلام العرب الفصحاء الذى يخلو من اللكنة والخطأ والإغلاق واللحن. فالبلاغة تتحقق بما يحقق الفصاحة، وتفسد بما يفسدها .

والجاحظ تحدث عن التنافر والغرابة وجريان الكلام على قواعد اللغة لكنه لم يصنّف هذه الموضوعات تحت الفصاحة كما أنه قد تحدث عن موضوعات بلاغية بلاغية كثيرة لكنه لم يصنفها تحت البلاغة ومع ذلك لم يتوقف الجاحظ عند هاتين اللفظين ليحدد مدلولها أو ليفرق بينهما .

ومدلول اللفظتين يكاد يكون متقاربا عند الذين تحدثوا عنهما فى عصر الجاحظ ومن سبقوه ، مع أن الجاحظ هو أول من اقترب من مدلول كلمة « فصاحة » . (٤٨)

أما الاستعمالات التى تلت الجاحظ فلقد ظلت فترة طويلة غامضة ، ولا يستطيع القارىء أن يظفر باستعمال دقيق وواضح للفظة فصاحة بحيث يستقل معناها عن لفظة بلاغة .

فابن قتيبه المتوفى سنة ٢٧٦ هـ قد تحدث عن قضايا بلاغية فى « تأويل مشكل القرآن » الذى يرد فيه على الملاحدة الذين يطعنون فى نظم القرآن فبدأ بعرض آيات القرآن التى بها صور وأخيلة ومجاز وتقديم وتأخير . . . ، ولعله قد لمس الفصاحة

---

(٤٧) البيان جـ ١ ص ١٦١ .

(٤٨) أنظر رسالة الماجستير التى قدمناها الى آداب القاهرة تحت عنوان مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ فى البيـــان والتبيين والحيـوان . عـــام ١٩٧٠ .

فى الفصل الذى ذكره عن الألفاظ المتعددة المعانى وماذكره عن دلالات حروف المعانى وتبادلها فى الكلام .

كما أننا نجد ابن قتيبه قد لمس بعض موضوعات الفصاحة فى كتاب « الشعر والشعراء » عندما تحدث عن الألفاظ التى تفسد المعنى لقبحها أو لغرابتها وكذلك عندما تحدث عن الشعر الذى حسن لفظه وقلّ معناه والشعر الذى حسن لفظه ومعناه وهما يدخلان فى عدم التنافر الذى هو شرط للفصاحة فيما بعد .

ومع ذلك فإن ابن قتيبه لم يستعمل « الفصاحة » و « البلاغة » استعمالا مستقلا محددا .

والذى نجده عند ابن قتيبة نجده عند المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ . فهو لم يقدم لنا استعمالا محددا للفظتين مع أنه قد أفاض الحديث عن التشبيه كما شمل كتاب الكامل تعليقات بلاغية على النماذج الأدبية تدور حول الاستعارة والإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير .

ولا نستطيع أن نلمس شيئا يتصل بالفصاحة عند المبرد إلا تلك الشذرات القليلة التى أوردها عن الألفاظ الخسيسة الفاحشة وطريقة الكناية عنها بما يدل على معناها .

أما ابن المعتز (توفى ٢٩٦) هـ صاحب كتاب البديع فهو لم يذكر كلمة « فصاحة » فى كتابة وإنما قد نقل عن غيره معنى كلمة بلاغة فى قوله : « سئل آخر عن البلاغة فقال : دنوّ المأخذ ، ونزع الحجة ، وقليل من كثير » [٤٩] .

وهو يجعل البديع مشتملا على الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الأعجاز على ماتقدمها والمذهب الكلامى ، كما نجده قد ابتعد عن التعريفات كغيره ممن يتجهون اتجاها محافظا على خلاف من تأثروا بالثقافة اليونانية .

---

(٤٩) البديع لابن المعتز ص ٢٣ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ ط مصطفى البالى الحلبى .

أما عن الرسالة العذراء المنسوبة إلى إبراهيم بن المدبر (توفى ٢٧٩) هـ والتى وردت فى مجموعة رسائل البلغاء التى جمعها محمد كرد على [٥٠] فالذى يعنينا منها ما أورده عن الألفاظ وتناسبها مع المقامات المختلفة ، فطبقات الكلام عنده ثمانية أقسام ، أربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعةدونهاوبعد أن يفصل ابن المدبر درجة كل طبقه ، يوضح مايجب أن يستعمل من ألفاظ عنه كل منها « . . ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ، ينبغى للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه . . [٥١] ومن أجل ذلك كان من الألفاظ ماهو مرغوب عنها ، وما هو مرغوب فيها فن الألفاظ المرغوب عنها فى كتب السادات والأمراء والملوك ، على اتفاق المعانى ، مثل « أبقاك الله طويلا وعمرك مليّا » ويروى أنه لافرق بين قولهم : « أطال الله بقاءك وبين قولهم : « أبقاك الله طويلا » ولايجد تفسيرا لهذا التفضيل إلا اتباع من سبقوه فى قولهم : « هذا أرجح وزنا ، وأنبه قدرا فى مخاطبة الملوك » . [٥٢]

كما أنهم جعلوا : « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلة فى كتب الأدباء والظرفاء : « جعلت فداك على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداءه من من الخير ، كما يكون فداء له من الشر ، كما لايجوز أن يكتب إلى الاخوان «أبقاك الله وأمتع بك » .

كما يجب على الكاتب وجوب التحفظ فى الفاتحة والخاتمة « . . فلا يجعل ما ينبغى له أن يكتب فى آخر كتابه فى أوّله ، ولا أوّله فى آخره . . [٥٣]

ومما يدخل فى الفصاحة أيضا نهيه عن تجنب الغموض والإبهام الذى يؤدى إلى التعقيد الذى ينشأ عن التركيبات الغامضة .

---

(٥٠) رسائل اللبغاء ص ٢٢٧ اختيار وتصنيف محمد كرد على الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٦ ط لجنة التاليف والترجمة .
(٥١) رسائل البلغاء ص ٢٣٢ .
(٥٢) رسائل البلغاء ص ٢٣١ .
(٥٣) رسائل البلغاء ص ٢٣٤ .

كما أشار إلى ضرورة التفريق بين مايجوز فى الشعر وما يجوز فى الرسائل ، لأن الشعر موضع اضطرار ، ثم ذكرصورا من الضرورات الشعرية (٥٤) .

والذى يعنينا من هذه الرسالة ذلك الجانب المتعلق بصفات الألفاظ ومناسبتها أو عدم مناسبتها للمقامات وهى مقامات من توجه إليهم الرسائل فهم ملوك وأمراء وسادات وقضاة وعلماء ، أى مقامات متعلقة بمجالس الآداب والعلم ، وهى تخالف مقامات الخطابة التى يمتزج فيها أخلاط من الثقافات والنوازع . وكلمة (الألفاظ) عند ابن المدبر لاتعنى المفردات ،وإنما يستعملها بمعنى الكلام أو التراكيب .

كما نلاحظ أن كثير من أفكار هذه الرسالة مأخوذ من آراء الجاحظ المنثورة، فى البيان والتبيين والحيوان وبعض رسائله، ومع ذلك يسميها ابن المدبر «الرسالة العذراء» ويعلل تسميته لها بذلك لأنها — فى نظره بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولالمستها أكف المفوهين ، ولاغاصت عليها فطن المتكلمين ، ولاسبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين . (٥٥)

أما أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابى البستى « ٣١٩ — ٣٨٨ هـ » فإنه يرى أن عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة . (٥٦)

أما ما يوضح تصوره عن الفصاحة فهو ما ذكره من الألفاظ المتقاربة المعنى والتى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة مراد الخطاب ولكنها مختلفة

---

(٥٤) رسائل البلغاء ص ٢٣٥ .

(٥٥) رسائل البلغاء ص ٢٥٣ .

(٥٦) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ص ٢٦ تحقيق محمد خلف الله أحمد ، د. زغلول سلام ط دار المعارف .

فى درجة دلالتها ، وهذه الألفاظ التى ذكرها الخطابى ست عشرة لفظة ويحاول أن يفرق بين كل اثنتين منها مثل : العلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، والنعت والصفة اقعدْ واجلسْ وبلى ونعَم ، وذلك وذاك ، ومن وعن[٥٧] كما يتعرض لبعض الاستعمالات اللغوية . . . .

ومن الأشياء الجديرة بالذكر حديثه عن الغرابة واتهام بعض الناس للقرآن بالابتذال لخلوه منها ورد الخطابى على ذلك .

أما أبو الحسن على عيسى الرمانى « ٢٩٦ — ٣٨٦ ه » فإنه يرى أن البلاغة وجه من وجوه إعجاز القرآن ، والبلاغة عنده ليست إفهاما فقط — كما ذكر الجاحظ — لأنه قد يحدث الإفهام باللفظ الغث المستكره والنافر المتكلف ، وإنما البلاغة فى نظره : « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ[٥٨] » .

والبلاغة عند الرمانى عشرة أقسام هى : الإيجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

ولعل ما كتبه عن التلاؤم هو الذى يدخل فى الفصاحة ، فهو يرى أن التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف فى التأليف . ويقسم التأليف إلى ثلاثة أقسام ؛ متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا[٥٩] .

وهنا يبدو تأثره الواضح بالجاحظ وخاصة عندما توقف ليوضح أسباب التنافر مستشهداً بما أورده الجاحظ من أمثلة .

---

(٥٧) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ص ٢٦ تحقيق محمد خلف الله أحمد ، د. زغلول سلام ط دار المعارف .

(٥٨) ثلاث رسائل ص ٦٩ .

(٥٩) ثلاث رسائل ص ٨٧ .

وإذا ما انتقلنا إلى أبى بكر الباقلانى متوفى سنة ٤٠٣ فإننا نلاحظ بسهولة خلطه بين اللفظين وهو يستعملهما بمدلول واحد مع أنه تحدث عن موضوعات تتعلق بكل واحدة منهما ، كما نلاحظ أنه يضيف لفظة ثالثة إليهما تقترب من مدلوليهما وهى كلمة : « براعة » ولدينا فقرة شملت الألفاظ الثلاث ، يقول : « .. ونضيف ما يجب وصفه من القول فى تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب ، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة[٦٠] .

والباقلانى يكثر من استخدام لفظة فصاحة ليدل بها على البلاغة ويمكن أن يتضح ذلك أيضا من قوله : « .. ولذلك قلنا إن المتناهى فى الفصاحة والعلم والأساليب التى يقع فيها التفاصح ، متى سمع عرف أنه معجز ، لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثلما يعرف من حال نفسه ، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو[٦١] .

ومن الموضوعات التى ذكرها الباقلانى ويمكن أن تصنف ضمن موضوعات الفصاحة ما ذكره عن الترادف ، وهو ظاهرة لغوية تؤدى إلى التضخم فى اللغة وتعيب الفصاحة ولقد امتدحه الباقلانى وجعله من عيزات اللغة العربية .

ومن الموضوعات التى يمكن أن تدرج أيضا تحت الفصاحة ما ذكره عن صفات الحروف كالمهموس والمجهور والحروف الحلقية وغير الحلقية ، والحروف

---

(٦٠) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٣١ ط صبيح سنة ١٩٥١ م .
(٦١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٢ ط صبيح سنة ١٩٥١ م .

الشديدة وغير الشديدة والمطبقة والمنفتحة ومثل هذه الأشياء التي اختص بها علم الأصوات اللغوية[٦٢] .

ومع أن الباقلاني قد خلط بين مدلولات البلاغة والفصاحة والبراعة نجده في الجزء الأخير من كتابه إعجاز القرآن يورد تعريفات لهذه الألفاظ ، ونجده يورد الحوار المشهور الذي جاء في البيان والتبيين عن البلاغة عند الفارسي واليوناني والرومي والهندي ولا يذكر لنا بعد ذلك تعريفا لها كما يتصوره . « .. ويذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبين أن الفارسي سئل ما البلاغة .. فقال : معرفة الفصل والوصل ، وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة . وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة .[٦٣] كما ينقل عن الجاحظ في معنى البلاغة بعض مختارات من الصحيفة الهندية .

وأكثر هذه الملاحظات السريعة تدور حول مراعاة مقتضى الحال والإيجاز والاطناب والفصل والوصل ، وكما ذكرنا آنفا نقول : إن الباقلاني لم يعرّف البلاغة بلفظ من عنده كما أنه لم يتخير رأيا من الآراء التي ذكرها وأوردها من كتاب البيان والتبيين .

ونجده يفسر كلمة « براعة » بقوله : « .. وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة: الحذق بطريقة الكلام وتجويده ، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة[٦٤] وكلمة براعة — كما يبدو من كلام الباقلاني — تشمل البلاغة والفصاحة وأن المقصود بها هي التفوق في كلتيهما ويتضح ذلك من قوله « . فإن قال قائل:

---

(٦٢) اعجاز القرآن ص ٧٣ ــ ص ٧٥ .
(٦٣) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .
(٦٤) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .

فقد نجد فى آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وإنما تكون البراعة عندك منه فى مقدار ما يزيد على الكلمات المفردة، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستبدة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به[٦٥].

والباقلانى يستخدم كلمة براعة فيما يقابل « اللكنة » كما يستخدم فصاحة فيما يقابل « العىّ » ، ونرى تعليقه على بيت من لامية البحترى التى نقدها فى كتابه حيث قال متحدثا عن السيف وصاحبه :

وكأن شاهره إذا استضوى به الز — حفان يعصى بالسماك الأعزلِ

حملت حمائله القديمة بقلة — من عهد عاد غضة لم تذبل

ويعلق الباقلانى على البيت الثانى قائلا : « .. ثم انظر إلى هذا المقطع الذى هو بالعىّ أشبه منه بالفصاحة ، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة ..وقد بيّنا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لابد منه ، وأن الإخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ويأخذ ماءه وبهاءه[٦٦] .

من ذلك نلمس أن الباقلانى يستخدم كلمة « براعة » وهو يعنى « البلاغة » و « الفصاحة » والتفوق فيهما ، لكننا فى الحقيقة نحس أن كلمة (براعة) ليست مساوية كل المساواة لكلمة (فصاحة) أو (بلاغة) .

وكما لم يورد لنا الباقلانى تعريفا للبلاغة خاصة بها واكتفى بما أورده الجاحظ عن الأمم ، نراه لا يورد للفصاحة تعريفا خاصا بها أيضا وإنما يكتفى بما ذكر عنها قبله ، يقول الباقلانى :

---

(٦٥) اعجاز القرآن ص ٢٣٣ .
(٦٦) اعجاز القرآن ص ٢٦٣ ــ ص ٢٦٤ .

، وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها : منهم من عبر عن معناها بأنه : ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها : الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس ، على عبارات جلية ، ومعان نقية بهية[٦٧] .

وهذان الرأيان اللذان أوردهما الباقلانى أحدهما يتصل بالألفاظ ومدى ملاءمتها لمعانيها إلا أنه ذكر الجزالة فقط والجزالة تناسب المعانى الفخمة القوية، والمعانى ليست كذلك فقط ، فهناك معان رقيقة ولابد لها من ألفاظ تناسبها، ولا تصلح لها الألفاظ الجزلة .

أما الرأى الثانى فانه يتصل بما استقر بعد ذلك وعرف باسم فصاحة المتكلم وهذه النقطة أكثر وضوحا والتصاقا بالفصاحة لأن القدرة على إبانة المعانى الكامنة فى النفوس بعبارات جلية يتطلب موهبة فطرية ، وقدرة على التمييز بين الألفاظ المختارة ، وإخراج تلك الألفاظ من مخارجها كاملة من غير عيب يتصل بالنطق سواء كان عيبا ناتجا عن قصور فى أجهزة النطق أم عيبا ناتجا عن أداء هذه الأعضاء لوظائفها . ولعل ذلك يفسر كلمة (براعة) فهى ملكة متعلقة بفصاحة وبلاغة المتكلم .

أما عبد القاهر الجرجانى النحوى البليغ المتكلم على مذهب الأشعرى ، الفقيه على مذهب الشافعى المتوفى سنة ٤٧١ هـ[٦٨] فانه يبدو أكثر وضوحا من سابقيه فى موقفه من لفظة ، فصاحة ، ولفظة ، بلاغة ، وعبد القاهر الجرجانى ينثر آراء متفرقة فى كتبه ، ونراه فى الرسالة الشافية يصرح بما يأتى :

---

(٦٧) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .

(٦٨) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى ج ٢ ص ٢٤٢ .

١ ــ الفصاحة علم ، وهى علم يصعب تعليمه : « اعلم أن البلاء والداء العياء أن ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تفهمه مَنْ شئت ومتى شئت »[٦٩] .

٢ ــ علم الفصاحة يحتاج من يتصدى لأن يتعلمه أن يكون عنده استعداد فطرى « .. حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته ورى ، وقلب إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك لا يرى ما تريه ، ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت معه كالنافخ فى الفحم من غير نار .. »[٧٠] .

ويعلل عبد القاهر سبب هذه الصعوبة بأن علم الفصاحة لم تكتمل له قوانينه وأصوله كما اكتملت للعلوم الأخرى ، وهذه العلوم التى اكتملت لها قوانينها قد كثر فيها الخلاف :

« وإذا كانت العلوم التى لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العلم بها واتفقوا على أن البناء عليها والرد اليها إذا أخطأ فيها المخطىء ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه وصرفه عن الرأى الذى رأى . . . فكيف أن يرد الناس عن رأيهم فى أمر الفصاحة وأصلك الذى تردهم اليه وتعول فى محاجتهم عليه استشهاد القرآن ، وسبر النفوس وفَلْيها وما يعرض فيها من الأدعية عندما تسمع وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأى ، ويفتى ويقضى إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه ، وتمت أداته.. »[٧١].

وإذا كانت الفصاحة علما عند عبد القاهر الجرجانى فما تصوره عنه .. ؟

فى الواقع نرى عبد القاهر يعقد فصلا يوضح فيه مراده من « البلاغة » و « الفصاحة » وكل لفظة تعبر عن الفن الكلامى يقول عبد القاهر : « .. فصل

(٦٩) ثلاث رسائل فى الاعجاز ص ١٤٣ .
(٧٠) المصدر نفسه ص ١٤٣ .
(٧١) المصدر نفسه ص ١٤٤ .

فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة ، وكل ما شا كل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا أو تكلموا ، وأخبروا السامعين من الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »[٧٢] .

ويرى عبد القاهر البلاغة والفصاحة والبراعة وما شابهها لا معنى لها غير وصف الكلام بحسن الدلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين لتستولى على هوى النفس وتميل اليها القلوب .

فالبلاغة والفصاحة لفظتان تكاد ترادف كل منهما الأخرى فى نظر عبد القاهر ، وعبد القاهر الجرجانى نراه انطلاقا من هذا المفهوم ينكر فصاحة اللفظة المفردة ولا يرى لها مزية تنفرد بها ، كما أن الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها وهى مفردة ، وإنما التفاضل فى الألفاظ من خلال وضعها فى التراكيب ويلح عبد القاهر على هذه الفكرة فى مواضع كثيرة فى كتابيه « دلائل الاعجاز » ، « أسرار البلاغة » مثل : « .. وهل تجد أحدا يقول : هذه لفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ... وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافه : قلقة ونابية ، ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَـلِقْ بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها .. »[٧٣] .

ويستدل عبد القاهر على فكرته ـ لا مزية للألفاظ من حيث هى ألفاظ

---

(٧٢) دلائل الاعجاز ص ٨٧ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .
(٧٣) دلائل الاعجاز ص ٨٨ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

بقوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيضَ الماءُ ، وقُضِىَ الأمرُ واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين .. » .

كما يستدل على ذلك بكلمة « الأخدع » وكلمة « الشىء » مؤكداً أن اللفظة الواحدة قد تروقنا فى موضع ، وتثقل علينا فى موضع آخر(٧٤) .

ومع أن عبد القاهر يؤكد عدم وجود مزيه للفظة المفردة وأن الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها وهى مفردة — يذكر أن للألفاظ مزايا وأن التفاضل بين لفظة مفردة وأخرى ممكن ، لكنه يقلل ويستهين بهذه القيمة يقول : « . . . وهل يقع فى وهم — وان جُهِد — أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية... أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ... ومما يكدّ اللسان أبعد .. ؟ » .

فهذه مزايا للألفاظ تتفاضل بها وهى مفردة لكنها فى نظر عبد القاهر لا أثر لها فى الفصاحة .

أما المتأخرون فقد جعلوا هذه الأشياء موضوعات وشروطاً فيما عرف بعد ذلك بفصاحة المفرد .

ونستطيع أن نقول : إن مفهوم كلمة « فصاحة » عند عبد القاهر الجرجانى هو مفهومه لكلمة « بلاغة » ، وأن البلاغة أو الفصاحة تتحقق بالنظم أى نظم المعانى المرتبة فى النفس بألفاظ مرتبة فى النطق(٧٥) . لأن الألفاظ خدم للمعانى عند عبد القاهر ، ولأن الفضيلة « ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك ، وتراجع عقلك ، وتستنجد

---

(٧٤) دلائل الاعجاز من ص ٨٩ : ص ٩٢ .
(٧٥) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

فى الجملة فهمك »[٧٦] .

ولعل هذا المفهوم الذى استقر عليه عبد القاهر فى نظرته إلى الفصاحة قد أخذه من القاضى عبد الجبار الأسد أبادى المعتزلى قاضى قضاة الدولة البويهية بايران والمتوفى سنة ٤١٥ ه فيقول فى كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة . ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة ، التى تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هـــذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لهذا الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها .. »[٧٧] .

فإنكار فصاحة الكلمة المفردة ، وإثبات الفصاحة للكلمات المضمومة بطريقة مخصوصة ، والإعراب الذى هو وسيلة النحو فى إظهار وظائف الكلمات ورتبها . كل ذلك نجده عند عبد القاهر الجرجانى الذى يعترف ضمنا بسبق القاضى عبد الجبار له فيما وصل اليه « ... إنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة . فتراهم فى الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية فى معانى النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا .. »[٧٨] .

ومما يحمد للقاضى عبد الجبار أيضا أنه أورد لنا رأى أستاذه أبى هاشم الجبائى فى الفصاحة ، وهو رأى هام فى تاريخ البلاغة والفصاحة ، ويقول القاضى عبد

---

(٧٦) دلائل الاعجاز ص ١٠٣ .
(٧٧) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ج ١٦ ص ١٩٩ .
(٧٨) دلائل الاعجاز ص ٢٣٠ .

الجبار عن أستاذه : « قال شيخنا أبو هاشم : إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولابد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعدّ فصيحا ، فاذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين . وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحدا ، وتقع المزية فى الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه يتبين فى كل نظم وكل طريقة ، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء : يسبق اليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه فى ذلك النظم ، ومن يفضل عليه يفضله فى ذلك النظم .. »(٧٩) .

ويبدو من كلام أبى هاشم أن الفصاحة راجعة إلى اللفظ الجزل والمعنى الحسن فقط ولا شيء غيرهما ، ويوضح القاضى عبد الجبار رأى أستاذه أبى هاشم فى نفى الأهمية عن النظم وإرجاعها إلى الفصاحة التى هى جزالة اللفظ وحسن المعنى « .. إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره فصارت الطرق التى عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة . كما أن قدر الفصاحة معتاد ، فلابد من مزية فيهما ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة التى هى جزالة اللفظ وحسن المعنى ، ومتى قال القائل : إنى وإن اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية فى الفصاحة فقد عاد إلى ما أوردناه »(٨٠) .

ولقد رأينا أن القاضى عبد الجبار قد وضح رأى أستاذه بإضافات كانت الأساس الذى بنى عليه عبد القاهر الجرجانى فكرته فى النظم وذلك عندما قال

---

(٧٩) المغنى ج ١٦ ص ١٩٧ .
(٨٠) المصدر نفسه ص ١٩٧ ــ ص ١٩٨ .

القاضي عبد الجبار : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ...

ولا يتوقف الأثر الذى تركه أبو هاشم الجبائى عند تلميذه القاضى عبد الجبار الذى أوحى لعبد القاهر بفكرة النظم بمفهومها الجديد ، و إنما يظهر واضحا فى « سر الفصاحة »لابن سنان الخفاجى ، و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا :إن الكتاب يدور حول الفصاحة الجبائية أى جزالة اللفظ وحسن المعنى .

وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجى قد توفى سنة ٤٦٦ هـ ، ولقد اهتم بالفصاحة وحاول أن يفسرها بمفاهيم عصره ،وقد قدم لحديثه عن الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات ومخارجها والمجهور منها والمهموس ..

ثم بدأ ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة فقال : « والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، لا يقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها : بليغة ، وإن قيل فيها : فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ،وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه[٨١] .

ويمضى ابن سنان الخفاجى فى سرد تعريفات البلاغة عند من سبقوه وخاصة تلك التى جمعها الجاحظ فى البيان والتبيين ، ويصرح الخفاجى أن الفصاحة شطر من البلاغة ،والكلام عن الفصاحة فى نظره عام ولا يظهر معناها إلا فى الاستعمال.. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأماسوى

---

(٨١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق عبد المتعال المعيدى ص ٤٩ — ص ٥٠ .

ذلك فعام لا يختص ،وخليط لا ينقسم ، وسأذكر بمشيئة الله ما يخطر لى،ويسنح بفكرى فى موضعه[٨٢] .

ثم يحاول ابن سنان أن يوضح الفصاحة فيراها تتحقق فى الألفاظ بشروط عدة ، وأن تلك الشروط تنقسم إلى قسمين : الأول يوجد فى اللفظة الواحدةعلى انفرادها ، والثانى يوجدفى الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض ، وبعد هذين القسمين ذكر أن من عرف هذه الشروط يصل إلى حقيقة الفصاحة ، ثم يتكلم بعد ذلك عن المعانى بانفرادها حتى يصبح الكتاب وافيا بالكلام عن الفصاحة والبلاغة لما أورده من أن البلاغة تتعلق مع الألفاظ بالمعانى .

وهكذا نجد كتاب سر الفصاحة منقسما إلى الأقسام الثلاثة الآتية :

الكلام على شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة ، والكلام على شروطها فى الألفاظ المنظومة ، والكلام فى المعانى مفردة عن الألفاظ .

ونستطيع أن نقول : إن دروس البلاغة والفصاحة قد أصابها الجمود بعد انتهاء القرن الخامس تقريبا ، ويمكن أن نتوقف عند رجلين لهما الأثر الكبير فيمن جاءوا بعدهما سواء كان هذا الأثر مفيدا أم ضارا ، هذان الرجلان هما فخر الدين الرازى «٥٤٤ — ٦٠٦ هـ» صاحب كتاب «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» ، والرجل الثانى هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى «٥٥٥ — ٦٢٦هـ» صاحب كتاب «مفتاح العلوم» .

وكتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، كما يبدو من عنوانه تلخيص للآراء التى سبقته والمتصفح له يستطيع أن يلمح آراء عبدالقاهر الجرجانى والقاضى عبدالجبار وأبى هاشم الجبائى وأبى الحسن الرومانى — متضمنة بين أبوابه وفصوله .

---

(٢١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص ٥٠ ـ ص ٥١ .

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا مفهوم الفصاحة والبلاغة عنده ؛ والرازى يصرح فى الفصل الأول من مقدمة الكتاب أن السر فى إعجاز القرآن هو فصاحته ويرفض كل المذاهب التى تخالف ذلك كالصرفة التى نادى بها النظام أو اشتمال القرآن على الغيوب ، كما قال به الباقلانى ، كذلك رفض مذهب من قالوا بمخالفة أسلوبه عن أساليب الشعر والخطب والرسائل .

والفصاحة عند الرازى أشرف العلوم وأجلها لأنها طريق معرفة الإعجاز القرآنى ، وترجع الفصاحة فى نظره إلى الألفاظ والمعانى[٨٣] وهنا نجد صدى أبى هاشم الجبائى وتلميذه القاضى عبد الجبار وعبد القاهر الجرجانى أيضا . وهنا نستطيع أن نقول : إن كلمة « فصاحة » عند فخر الدين الرازى مستعملة بمعنى (بلاغة) وأن لفظة (فصاحة) لم تأخذ عنده معناها الاصطلاحى الذى ثبّت أساسه ابن سنان الخفاجى ومن أجل ذلك نراه يقسم كتابه إلى قسمين أساسين سمى كل قسم جملة[٨٤] ونجد الجملة الأولى تختص بالمفردات ويحاول أن يثبت فى هذه الجملة أن إقامة الحجة لإثبات الفصاحة والبلاغة لا يتأتى بالدلالة اللفظية وإنما تجىء من الدلالة المعنوية بالصور البيانية . أما الجملة الثانية التى تختص بالدلالة المعنوية فهى خاصة بالنظم والتأليف .. وهنا نرى صدى عبد القاهر واضحا .

كما نرى أثر الجاحظ واضحا فيما ذكره عن الكلامة وما استقر فيها بعد باسم

---

(٨٣) أنظر نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز ص ١١٥ ط الآداب والمؤيد سنة ١٣١٧ هـ .

(٨٤) يقسم الفخر الرازى الجملة الاولى الى مقدمة وقسمين . والمقدمة خاصة بالمفردات وهى فصلان : الأول هو أقسام دلالة اللفظ على المعنى والثانى حقيقة الفصاحة والبلاغة . وتنقسم الجملة الاولى الى قسمين وكل قسم له فصوله . والذى يهمنا فى هذا الكتاب هو مفهومه عن الفصاحة وهو يتوسع فى استعمالها حتى تاخذ مدلول كلمة « بلاغة » .

فصاحة المفرد كجريان الكلمة على مقاييس اللغة وخلوها من الغرابة وكونها عربية مستعملة عند العرب لكن الفخر الرازى لا يعد هذه الشروط الأساس القوى للفصاحة والتى تفسر به ..

أما أبو يعقوب يوسف السكاكى فقد خص القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) للبلاغة وهى عنده ترجع إلى علمى المعانى والبيان ،ويرى أن المعانى والبيان هما مرجعا البلاغة، ويرى أن هناك أشياء غيرهما ، هى وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها بقصد تحسين الكلام ،وهذه الوجوه هى ما عرف بعلم البديع ، وهى عنده قسمان[٨٥] قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ .

ويرى السكاكى بعد أن يفرغ من مباحث المعانى والبيان أن يتوقف ليوضح معنى كلمة (بلاغة) وكلمة (فصاحة) يقول عن البلاغة : « البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ولها أعنى البلاغة — طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما ، وبينهما مراتب — تكاد تفوت الحصر — متفاوته ، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر الذى إذا أنقص منه شىء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به فى صدر الكتاب من أصوات الحيوانات ، ثم تأخذ فى التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز . وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه[٨٦] » .

أما الفصاحة عند السكاكى فهى قسمان : قسم راجع إلى المعنى ، وآخر راجع إلى اللفظ ، والذى يرجع إلى المعنى معناه : « خلوص الكلام عن التعقيد ،

---

(٨٥) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٠٠ .
(٨٦) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ .

ويوضح أبو يعقوب مراده بكلمة « التعقيد » بقوله : والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك فى متصرفه ويشيك طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك إلى أن لاتدرى من أين تتوصل، وبأى طريق معناه يتحصل كقول الفرزدق :

وما مثلهُ فى الناسِ إلا مملَّكاً   أبو أمِّه حىٌّ أبوه يقاربُه[٨٧]

أما القسم الثانى من الفصاحة وهو ما يرجع إلى اللفظ فقد حدده السكاكى بحدود هى :

« .. أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر، لامما أحدثه المولدون ، ولامما أخطأت فيه العامة . وأن تكون أجرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر »[٨٨] .

أما صاحب الطراز « يحى بن حمزة العلوى » فإنه يفسر الفصاحة تفسيراً لغويا وآخر اصطلاحيا . والتفسير اللغوى، لايخرج عما قاله سابقوه عن ارتباطه باللبن والصبح والشاة ، أما تفسيره الاصطلاحى فإنه يقول فيه : « .. وفى مصطلح البيان : خلوص اللفظ عن التعقيد فى تركيب الأحرف والألفاظ جميعا ، فمتى سلمت اللفظة الواحدة عن تنافر تركيبها ، ولم تكن من قبيل قولنا : « عقجق » ولامن قولهم : « هعخع » ، وهو شجر ، وسلم تركيب الألفاظ عن التنافر أيضاً كما قيل :

« وليس قرب قبر حرب قبر » .

لأن التنافر فى الأول إنما كان من أجل تقارب مخارج تلك الأحرف، وحصل

---

(٨٧) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ .
(٨٨) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ .

التنافر فى الثانى من جهة تركيب الألفاظ المتقاربة ، لحصل من أجل ذلك عثار فى اللسان ، وتوعر فى المخارج فلأجل ذلك كان متنافرا ، فالألفاظ فى سهولة تركيبها وعثورته وسلاسته ووعورته بمنزلة الأصوات فى طنينها ولذة سماعها ، ولهذا فإنه يستلذ بصوت القمرى ويكره صوت الغراب »[٨٩] .

وواضح من كلامه عن المعنى الاصطلاحى للفصاحة أنه يسمى التنافر تعقيداً، وهذا يخالف ما استقر عليه البلاغيون عندما خصوا التعقيد بفصاحة الكلام وقسموه إلى لفظى ومعنوى كما أنه يفسر التنافر تفسيراً ممزوجا بالخلط ، فهو يرد تنافر الحروف إلى المخارج ، بينما لا يرد تنافر الألفاظ إليها ، كما أنه يفرق بين الحروف والأصوات .

كما نلاحظ عدم دقته عندما قسم الحروف باعتبار مخارجها وجعلها ثلاثة مخارج :

الأول مخرج الحلق ، والثانى للشفة ، والثالث اللسان . وجعل لمخرج الحلق سبعة أحرف هى ، الهمزة والهاء والألف ، والعين والحاء ، والغين والخاء . والمعروف أن الألف من الصوائت أو حروف اللين، ووضعها مع حروف الحلق خطأ .

والشفهية هى : « الباء والفاء والميم والواو » .

أما المخرج الثالث عنده فهو حروف اللسان وهى عنده الحروف التى ليست حلقية ولا شفهية[٩٠] .

والملاحظ أن تصنيف الحروف بحسب مخارجها عنده تصنيف غير دقيق .

---

(٨٩) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ج ١ ص ١٠٣ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

(٩٠) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ج ١ ص ١٠٣ ـ ص ١٠٥ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

أما عن مفهومه للفظة بلاغة وعلاقتها بالفصاحة فإنه يرى أن البلاغة متضمنة الفصاحة على نحو ماصرح الخفاجى ويتضح ذلك من قوله : « اعلم أنه لاخلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لايوصف بكونه بليغا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ ، ولايكون بليغا إلا بمجموع الأمرين كليهما ، فقد صارت البلاغة وصفا عارضا للألفاظ والمعانى كما ترى .. »(٩١) .

ومع أنه يصرح بأنه الفصاحة مختصة بالألفاظ على نحو ما رأينا إلا أنه يعود ويربطها بالمعنى ويقول فى ذلك : « .. الفصاحة مقولة على الأمرين جميعاً ، فتكون مفيدة لهما جميعا فيكون الأمران جميعا أعنى المعانى والألفاظ من مسمى قولنا فصاحة .. »(٩٢) .

ويلح يحيى بن حمزة العلوى على تأكيد أن الفصاحة من عوارض الألفاظ بالإضافة إلى المعانى ، أى أنها باعتبار الأمرين ويؤكد فكرته بوجوه ثلاثة هى :

١ — قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إنَّ من البيان لسحرا » والبيان هو الفصاحة .

٢ — أنهم يقولون فى الوصف كلام فصيح ومعنى بليغ ، ولايقولون معنى فصيح فدلّ ذلك على أن الفصاحة من متعلقات الألفاظ وأن فصاحته باعتبار مادل عليه من حسن المعنى ورشاقته ، وفى هذا — فى نظره — دلالة ظاهرة على وجوب اعتبار الأمرين فى فصيح الكلام .

٣ — تفضيل لفظة على لفظة مع اتفاقهما فى المعنى يدل ذلك على أن تعلق الفصاحة إنما هو بالألفاظ العذبة والكلمة الطيبة مثل استحسانهم للديمة والمزنة

---

(٩١) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ج ١ ص ١٢٨ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

(٩٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ج ١ ص ١٢٩ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

واستقباحهم لابعاق[١] .

وخلاصة رأيه أنه يرى أن الفصاحة تتحقق باللفظ والمعنى معا . كما أنه يجعل الفصاحة متضمنة فى البلاغة كما أشرنا فيما سبق .

ونستطيع أن نستخلص من هذا العرض السريع أن كلمة « فصاحة » وكلمة « بلاغة » قد كثر الخلاف حول مدلوليهما وقد مر ذلك الخلاف بمراحل يمكن أن نلخصها فيما يلى :

المرحلة الاولى : وهى التى استعملت فيها اللفظتان بمدلولهما اللغوى ويبدو ذلك واضحا من التراث الأدبى والدينى وتمتد هذه الفترة حتى نهاية القرن الأول الهجرى .

المرحلة الثانية : وهى المرحلة التى استخدمت فيها اللفظتان بمعنى واحد ، وصارت كلمة « فصاحة » تدل على موضوعات البلاغة ، وظهر ذلك واضحاً عند عبد القاهر الجرجانى ، والباقلانى والرمانى ، وتمتد هذه المرحلة حتى منتصف القرن الخامس .

ونستثنى من هذه المرحلة الجاحظ الذى استخدم كثيراً لفظة « فصاحة » لتدل على موضوعات ومباحث صارت من اختصاص الفصاحة فى عهود استقرارها ، كما استخدم لفظة بلاغة بمدلولها الذى استقر فيها بعد .

كما كثر استخدام كلمة « براعة » وكلمة « بيان » لتكون الكلمات الاربع ذوات دلالات تكاد تكون واحدة وخاصة عند عبد القاهر والبلاقلانى .

المرحلة الثالثة : وهى المرحلة التى استخدمت فيها كلمة « فصاحة » بمعناها الاصطلاحى وبدأت جذورها عند الجاحظ وتمت على يد ابن سنان الخفاجى ونضجت على يد السكاكى والقزوينى وبهاء الدين السبكى وغيرهم .

---

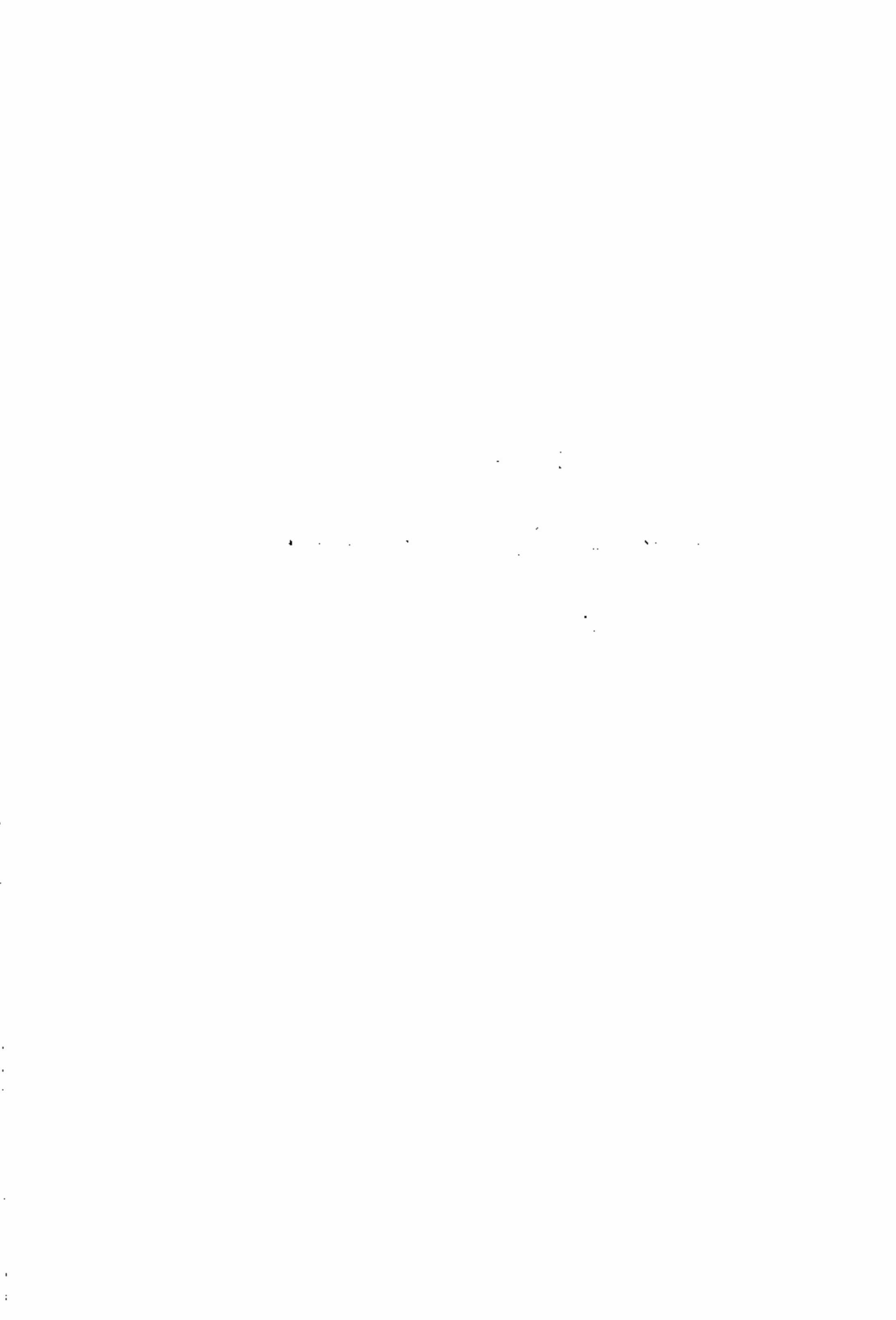
(١) المصدر نفسه ص ١٢٩ .

الباب الأول

مفهوم الفصاحة عند البلاغيين والنقاد

الفصل الأول : مفهومها الاصطلاحى وعلاقتها بالبلاغة

الفصل الثانى : قواعد الفصاحة ٠



الفصل الأول

المفهوم الاصطلاحى

رأينا فيما سبق أن المعنى الاصطلاحى لـكلمة « فصاحة » لم يتضح إلا فى العصور المتأخرة ، وأن استعمال هذه اللفظة قد اضطرب بين دلالتها اللغوية وترادفها لـكلمة « بلاغة » ،ونستطيع أن نقول: إنّ المعنى الاصطلاحى للفصاحة قد مر بثلاث مراحل حتى اكتمل ونضج بالصورة التى يراها البلاغيون ، وهذه المراحل هى :

أولا ـ مرحلة النشأة :

وهى المرحلة التى بدأت ملامحها فى الظهور على يد أبى عثمان الجاحظ ومن سار على نهجه .

ثانيا ـ المرحلة الثانية :

وهى مرحلة ظهر فيها مفهوم الفصاحة بصورة منفصلة عن مفهوم البلاغة ، ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الخفاجى .

ثالثا ـ مرحلة الاكتمال والنضج :

وهى المرحلة التى استقر فيها المفهوم الاصطلاحى للفظة ، وبدأها السكاكى ، وأكملها شراح التلخيص .

وسنفصل القول فى كل مرحلة حتى تتضح معالم الطريق .

اولا ـ المرحلة الأولى :

نستطيع أن أن نلمح فى هذه المرحلة أن أعلامها قد تحدثوا عن أشياء كثيرة

صارت فيما بعد من شروط الفصاحة وقواعدها ، لكنهم لم يصنفوها تحت كلمة « فصاحة » بل نجدها شرحا لكلمة « بيان » أو « بلاغة » كالذى يرويه ثمامة بن أشرس عن جعفر بن يحيى البرمكى فى شرح كلمة « بيان » فيقول : « . . أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل »[1] .

فالسلامة من التعقيد ، والبعد عن التأويل ، من شروط الفصاحة لأنّ ما يؤول هو الغريب الغامض ، والتعقيد قد اشترط البلاغيون خلوص فصاحة الكلام منه ، أما الغرابة فهى شرط فى فصاحة المفرد عند المتأخرين .

ونجد ثمامة بن أشرس أيضا يصف جعفر نفسه فيقول : « ما رأيت أحدا كان لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتدارا ، ولا أقل تكلّفا ، من جعفر بن يحيى[2] .

ووصف ثمامة لجعفر بهذه الصفات يمكن أن يوضع فيما يسمى « فصاحة المتكلم » الذى يجب أن يتمتع بسلامة النطق فيخلو من اللثغة والتمتمة والفأفأة وغيرها ، والاستغناء عن الاشارة يوحى بأنه كان يعطى الكلمات النطق الكامل مع حسن الأداء ومراعاة النبر ، كما أن تجنب الاحتباس والتوقف واللجلجة دليل على الموهبة وسرعة البديهة التى تمكنه من اختيار أنسب الألفاظ للمعانى المراد التعبير عنها .

ولقد رأينا فيما سبق — أن كلمة بلاغة كانت تقصر بأشياء تضمنتها الفصاحة فيما بعد ، كما استخدمت كلمة « فصاحة » بمعنى « بلاغة » فى فترات مختلفة .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ ، عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٢) البيـان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ .

ولعل أقرب الذين استعملوا لفظة «فصاحة» إلى مدلولها الاصطلاحي هو الجاحظ ويبدو ذلك من عبارته التي وضّح بها مراد العتابي في توضيح رأيه في البلاغة فلقد قال شارحا معنى كلمة «بلاغة» ... «... كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ».

ويوضح الجاحظ ماقصده العتابي بالإفهام في هذه العبارة قائلا : «والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة، وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري العرب الفصحاء ..»[٣].

فالكلام البليغ لابد أن يكون فصيحا حتى يتم الإفهام بطريقة العرب المثقفين أو أصحاب السليقة الخالصة من العرب واللسان الذي لم تشبه شائبة، لأن القضية ليست إفهاما فقط، فقد يحدث الإفهام بطرق لاتمت إلى الفصاحة والبلاغة بشيء، ويؤكد أبو عثمان هذا المعنى قائلا : «.. فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب كله سواء، وكله بيانا، وكيف يكون ذلك كله بيانا، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا، وأهل هذه اللغة وأرباب البيان لايستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم، كما لايعرفون رطانة الرومي والصقلبي. وأن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم — فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته، وكذلك الكلب والحمار والصبي

---

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ .

الوضيع ..)[٤] .

ونستطيع أن نوجز القول فى هذه المرحلة فنقول: إنّ كلمة فصاحة لم تستخدم بصورتها التى استقرت فيها بعد ، ولكنها مع ذلك كان لها جذور متمثلة فى تلك الموضوعات والقواعد التى اشترطها الجاحظ ومعاصروه للبيان أو البلاغة ، كما أن كلمة فصاحة كانت تستعمل كثيراً بمعنى سلامة النطق ، وهذا قريب مما عرف عنها أخيراً ، وخاصة ما ذكر عن التنافر وعيوب النطق والغرابة ، وسيأتى تفصيل ذلك فى حينه — إنْ شاء الله تعالى .

وإذا ما تركنا الجاحظ الذى يمثل المرحلة الأولى فإننا نجد أنفسنا عند ابن سنان الخفاجى الذى ترتبط به مانسميه :

ثانيا ـ المرحلة الثانية :

وهى المرحلة التى ظهر فيها المفهوم الاصطلاحى بصورة واضحة ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الخفاجى الذى أشار كثيراً إلى فضل الجاحظ فيما توصل إليه ، ويرى الخفاجى أن العارفين بالفصاحة قليلون ، وأن الأدعياء الذين ينسبون أنفسهم إليها كثيرون، ويرى الخفاجى أن هذا داء قديم قد أعيا أبا عثمان الجاحظ والآمدى من بعده[٥] .

والحقيقة أن الخفاجى قد أقام كتابه « سر الفصاحة » على أساس الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، وسيبدو ذلك من تناولنا لمفهوم الفصاحة عنده .

ويفرق الخفاجى بين البلاغة والفصاحة فيقول: « والفرق بين الفصاحة والبلاغة

---

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٦٢ .
جاء فى رسالتنا « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ » مفهوم الفصاحة مفصلا عند الجاحظ .
(٥) سر الفصاحة ص ٥٣ .

أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، لايقال فى كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه .. »[٦] .

وهذا التفريق الذى وضعه الخفاجى قد شاع بعده كثيراً واستمر عندكثير من البلاغيين ، واستمر هذا التفريق بعد ذلك أساساً للمفهوم الاصطلاحى الذى نضج فيما بعد .

ويؤكد الخفاجى هذا التفريق بين اللفظتين فى موضع آخر قائلا :

« .. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها ، فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ماقدمت ذكره ، فأما ماسوى ذلك فعام لايختص ، وخليط لاينقسم، وسأذكر بمشيئة الله مايخطر لى ، ويسنح بفكرى فى موضعه .. »[٧] .

فالفصاحة جزء والبلاغة كل ، وكلامه لذلك عنهما سيكون واحداً إلا فى المواضع التى يجب التفريق بينهما ، ومن أجل ذلك نرى الكتاب كله مقاما على أساس الكلام عنهما .

ولقد اعترض بهاء الدين السبكى على ما قاله ابن الأثير وذلك عندما ذكر أن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة علاقة عموم وخصوص ، وأكد بهاء الدين أن العلاقة بينهما علاقة الكل والجزء مؤكدا بذلك ماقاله الخفاجى : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى فهى أخص من الفصاحة ، كالانسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا .

---

(٦) سر الفصاحة ص ٤٩ — ص ٥٠ .
(٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

قلت : هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة ، ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمى المركب تركيبا غير حلي أخص ، والمفرد أعم ، وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتمالها على الأمرين ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء[٨] ..

ولقد اعترض السبكي على حازم القرطاجني بالاعتراض نفسه الذي سبق أن نقد به رأى ابن الاثير[٩] ..

ومهما تكن الفصاحة فإنها في رأى ابن سنان نعت للألفاظ بشروط عدة ، وأعلى درجاتها تلك التي قد اكتملت فيها الشروط ، كما تختلف درجات الفصاحة في الألفاظ بحسب الشروط الموجودة فيها ، كما أن الفصاحة تنعدم بانعدام شروطها أو بوجود شروط مضادة ، وهذه الشروط عند الخفاجي قسمان :

الأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثاني : يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض[١٠] .

وهذه الشروط التي اشرطها ابن السنان قد صارت فيما بعد متضمنة في المعنى الاصطلاحي للفصاحة وسيتضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

ونستطيع أن نشير إلى هذه الشروط إشارة مجملة حتى يظهر الأثر الذي تركه الخفاجي في المتأخرين بعده .

لقد جعل ابن سنان الشروط التي توجد في اللفظة الواحدة ثمانية أشياء نوجزها فيما يلي :

١ ــ تباعد مخارج حروف اللفظة وعلة ذلك في نظره .

---

(٨) عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .
(٩) عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .
(١٠) سر الفصاحة ص ٥٤ .

٢ — حسن تأليفها وأثره فى السمع .

٣ — أن تكون اللفظة غير متوعرة وحشية ، وهذا الشرط قد صرّح الخفاجى أنه قد أخذه عن أبى عثمان الجاحظ .

٤ — كون الكلمة غير ساقطة سوقية ، وهذا الشرط مأخــوذ أيضا عن أبى عثمان الجاحظ .

٥ — أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح ، خالية مما يراه علماء النحو أو الصرف مفسدا ، ونحن نستطيع أن نجد لهذا الشرط أصولا عند أبى عثمان الجاحظ .

٦ — ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧ — أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف .

٨ — أن تكون الكلمة مصغرة تصغيرا تحسن به .

وهذه الشروط قد انتظمتها البلاغيون فيما بعد فى تعريف الفصاحة كما جعلوا بعض هذه الشروط مضمومة فى شرط واحد ، وسيبدو ذلك فيما بعد .

كما أننا نستطيع أن نجمل شروط القسم الثانى وهى : الشروط التى يجب أن تكون موجودة فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، وهى بإيجاز :

١ — ما يوجد من الشروط الثمانية الخاصة بالقسم الأول وله علاقة بالألفاظ المنظوم بعضها مع بعض مثل تجنب الكلمات ذوات الحروف المتقاربة ، ومثل مراعاة العرف العربى الفصيح فى الاعراب والاشتقاق ..

٢ — أن توضع الألفاظ موضعها المناسب حقيقة ومجازا .

٣ — ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير يؤدى إلى فساد المعنى أو الإعراب .

٤ — ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجه .

٥ — حسن الاستعارة .

٦ ــ عدم وضع الكلمة موضع الحشو من أجل القافية أو غير ذلك .

٧ ــ أن يكون خاليا من التركيب المتداخل أى خلوه من المعاظلة .

٨ ــ عدم استعمال ألفاظ المدح فى الذم أو ألفاظ الذم فى المدح .

٩ ــ تجنب المصطلحات المهنية أو الفنية .

١٠ ــ المناسبة بين اللفظين فى الصيغة أو المعنى .

١١ ــ الإيجاز وحذف فضول الكلام وهذا فى نظره أشهر دلائل الفصاحة والبلاغة .

١٢ ــ أن يكون معنى الكلام واضحا لا يحتاج إلى تأمل وتفكير .

١٣ ــ تجنب الخطأ فى استعمال الإرداف والتتبيع (الكناية) .

١٤ ــ تجنب الخطأ فى استعمال التمثيل (الاستعارة بالمركب) .

وهذه الشروط التى أجملناها تمثل معظم كتابه بل نستطيع أن نقول إنها الأساس الذى قام عليه كتاب سر الفصاحة ، ولقد لجأنا إلى عرض هذا التلخيص ليظهر أمامنا فيما بعد أثر الخفاجى فيمن جاءوا بعده ، ومدى استفادتهم بما كتبه عن الفصاحة . وما استطاعوا أن يضيفوه .

آراء النقـــــاد :

وللنقاد القدماء آراء وملاحظات ساهمت كثيرا فى تحديد المعنى الاصطلاحى للفصاحة بعد ذلك ، ووسعت من موضوعاتها ، ونخص بالذكر كتاب الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦هـ ، ويبرز دورهم فى عدة نواح نستطيع أن نوجزها فيما يلى :

١ ــ اهتمامهم الكبير بأغاليط الشعراء فى اللفظ والمعنى ، مما دفع البلاغيين فيما بعد إلى اشتراط (الخلوص من مخالفة القياس اللغوى) فى فصاحة المفرد ،

و (الخلوص من ضعف التأليف) الذى استقر وضعه فى فصاحة الكلام ، وهذا من ناحية أخطاء الشعراء اللغوية ، أما أخطاؤهم المتعلقة بالمعنى والتى قد تتبعها النقاد هيأت للبلاغيين مجالا للحديث عن التعقيد الذى صار اشتراط الخلوص منه من فصاحة الكلام . ولقد ظهر اهتمام النقاد بأغاليط الشعراء اللفظية والمعنوية فيما عقده الجرجانى والآمدى عن أخطاء أبى تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم من سابقيهم ولا حقيهم من الشعراء[11] .

٢ ـ تقصّى النقاد للوحشى من الألفاظ عند الشعراء قد صار من اهتمام البلاغيين واللغويين ، فلقد ردوا (الغرابة) إلى الكلام الوحشى وغيره ، والغرابة قد اشترط البلاغيون خلوص الكلمة المفردة منها[12] .

كما أن ما أخذ على الشعراء لاستعمالهم الساقط من الألفاظ قد دخل فى مباحث الفصاحة عندما حذروا من استعمال الساقط السوقى .

٣ ـ تتبع الصور الخيالية والمجاز قد أتاح للباحثين فى اللغة أن تتعمق نظراتهم إلى المعنى الحقيقى والمعنى المجازى للألفاظ ، مما يساعد على تغاير المعانى المتعلقة بها ، كما قد يؤدى إلى النظر فى غرابة الالفاظ وابتذالها ، وارتباط ذلك بعصر دون عصر[13] .

٤ ـ تناول النقاد لألوان البديع اللفظى كالجناس والسجع ـ يدخل فى مباحث الفصاحة التى تتناول الحكاية الصوتية ، أو الصورة الصوتية ومدى تناسبها مع معانيها[14] .

---

(١١) انظر الوساطة ص ٤ ، ١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٤١ ، الموازنة ص ١٣٦ ، ١٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ .
(١٢) الموازنة ص ٢٧٦ ـ ص ٢٨٧ .
(١٣) الوساطة ص ٣٤ ـ ص ٥٤٠ ، الموازنه ص ١٥١ ، ٢٤٣ .
(١٤) الوســاطة ص ٤١ ، ٤٤ .

كل هذه الأشياء وغيرها تناوله النقاد له علاقة كبيرة بتحديد المعنى الذى استقرت عليه لفظة فصاحة، وبالموضوعات التى صارت فيما بعد مباحث للفصاحة العربية، وستتضح علاقة هذه الموضوعات التى أشرنا اليها بقواعد الفصاحة التى سنعالجها فى هذا الباب، والباب الذى يليه إن شاء الله تعالى.

علاقــة عمــود الشعر بالفصــاحة :

نستطيع أن نقول : إن المفهوم الاصطلاحى لكلمة فصاحة له علاقة وثيقة بالقواعد الفنية التى تعلقت بالشعر العربى، ونعنى بذلك ماعرف باسم عمود التقليدى كما فهمه النقاد والرواة . فلقد جاء فيما أورده — المرزوقى فى مقدمة ديوان الحماسة عدة أسس يقوم عليها عمود الشعر العربى التقليدى وهى : شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف والمقاربة فى التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لامنافرة بينهما . (١٥)

وهذه الشروط وما لها من مقاييس يرتبط أكثرها بمفهوم الفصاحة وموضوعاتها التى صارت مجالات للبحث . ونخص بالذكر ما أشار إليه فى العمود عن المعانى والألفاظ .

فالمعنى يشترط أن يكون شريفا ومقبولا لدى العقل ، وهل يعنى ذلك أن معانى الشعر لايصح أن تكون سوقية أو شعبية . . . ؟

لقد أوضح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أن معانى الشعر قد أصابها التغيير فى القرن الثانى الهجرى ، مما قدأغضب كثيرا من النقاد والرواة وأصبحت القصائد تضم بين جوانحها معانى لاتتصف بالشرف فى نظر أولئك النقاد مثل

---

(١٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١ — ١١ ، اتجاهات الشعر العربى للدكتور محمد هدارة ص ١٦٠ .

الأبيات والقصائد التى تنسب إلى أبى الشمقمق وأبى فرعون الساسى .[١٦] وهى قصائد تصف حالات الفقر والجوع التى تمزق صبر أولئك الشعراء .

كما يجب أن نلاحظ أن شرف المعانى مسألة نسبية قد تتغير من عصر إلى آخر، وقد نرى الآن فى عصرنا هذا شعراء قد تناولوا معانى لاتتصف بالشرف إذا قيست بالمعيار القديم ، لكنها فى نظر المحدثين معانى قد تتصف بالعمق أو الجمال أو الابتكار .. ..

لكن الذى يهمنا فى قضية المعنى هو مدى وضوحه وصدقه وملاءمته ، لأن المعنى لايشرف — قديما وحديثا — إذا اتصف بالغموض والفساد والابتذال وهذا ما يشترطه البلاغيون من وجوب خلوص الكلام من التعقيد المتعلق بالمعنى .

ومن الراجح لدينا أن البلاغيين عندما اشترطوا خلوص الكلام من التعقيد حتى يتصف بالفصاحة — قد كان فى أذهانهم تلك القواعد الفنية المتعلقة بفن الشعر .

أما مايخص الألفاظ فيما ورد عن عمود الشعر العربى التقليدى فانه يتصل كذلك بالفصاحة ، فلقد وضع مقياس للفظ هو الطبع والرواية والاستعمال ، لكن هذا المقياس يجب أن يتغير إذا وضعنا فى اعتبارنا أن اللغة كائن حى ينمو ويتغير كما يتغير الإنسان فى مراحل عمره ، ولقد تغيرت الألفاظ فعلا ، فلم تعد الألفاظ الجزلة هى المطلب الذى يسعى اليه الشعراء ، ولقد أوضح أستاذنا الدكتور هدارة هذا عندما تحدث عن شعراء القرن الثانى الهجرى ويرى : « أن المحدثين قد خرجوا خروجا متعمدا على عيار اللفظ فى عمود الشعر التقليدى لينقلوا الشعر من أرستقراطية البيئات العلية ومجالس البلاط إلى الشوارع والأزقة

---

(١٦) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٦١ ، ص ١٧٦ — ١٧٩ — الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٧٠ .

حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة على المجتمع ، وبذلك تراجعت إلى حد كبير الألفاظ الجزلة الضخمة التى كانت تملأ الفم وتقتحم السمع ، وغلبت على شعر المحدثين فى القرن الثانى الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة التى تعتبر ضعيفة فى بيئات العلماء والرواة ، كما يعتبر بعضها ساقطا من ناحية اللغة ، وهى الألفاظ التى كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة فى السوق أو الطريق ، لا من أفواه علماء اللغة ورواتها الذين كانوا مهتمين فى هذا القرن بجمع شاردها وواردها .[١٧] ويتضح ذلك من قصائد أبى الشمقمق والعمانى وأبى فرعون الساسى التى أشرنا اليها وكذلك فى شعر أبى نواس .

ونستطيع أن نلاحظ بيسر العلاقة الوثيقة بين هذا الأساس أو الشرط الذى يقوم عليه عمود الشعر ، فلقد استقر فى مباحث الفصاحة أقوال وموضوعات تتناول صفات الألفاظ ، كالجزالة والفخامة ، والوحشى والسوقى ، والخطأ والملحون ، والمعربّ والدخيل والمولّد . . كما ظهرت صفات أخرى مثل المترادف والمشترك والأضداد ، مما أتاح مجالا واسعا لعلماء اللغة ، بل ظهرت كتب فى هذه الصفات المتعلقة بالألفاظ ، وسنتناول إن شاء الله أكثر هذه الصفات اللفظية فيما سنكتبه عن عيوب الفصاحة .

فاتصاف الألفاظ بصفة ثابتة أمر ينافى طبيعة تطور الأحياء واللغة كائن حىّ لابد أن يطرأ عليه تغيير فى الكلمات والتراكيب والأصوات كما يطرأ على الإنسان تغيرّ فى أنسجته وخلاياه .

فعمود الشعر التقليدى له علاقة وثيقة بالفصاحة ويظهر ذلك فيما ذكرناه عن شرف المعنى ووضاعته ، كما يظهر فى جزالة اللفظ وما قد يطرأ عليها من صفات أخرى .

---

(١٧) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٦٢ .

ونجد أنفسنا الآن أمام ما أسميناه بمرحلة النضج وهى :

ثالثا ـ المرحلة الثالثة :

وهى المرحلة التى اكتمل وتبلور فيها المفهوم الاصطلاحى للفظة فصاحة ، ومن أبرز أعلامها أبو يعقوب السكاكى والقزوينى والسبكى والتفتازانى وغيرهم ممن اهتموا بشرح تلخيص المفتاح .

ويعرف السكاكى الفصاحة قائلا : « . . وأما الفصاحة فهى قسمان : راجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد . وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا مما أحدثها المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة .

وأن تكون أجرى على قوانين اللغة . وأن تكون سليمة عن التنافر .

والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك فى متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك إلى أن لاتدرى من أين تتوصل ، وبأى طريق معناه يتحصل ، كقول الفرزدق :

وما مثلُه فى الناسِ الا مملّكا ... أبو أمِّه حىٌ أبوه يقاربُه

وكقول أبى تمام :

ثانيهِ فى كبِدِ السّماء ولمْ يكن ... كاثنَيْنِ ثانٍ إذْ هما فى الغار(١٨)

---

(١٨) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ . ويرى الآمدى فى الموازنة ص ٢٩ انه يجب أن يقول فى البيت : « ولم يكن لاثنين ثانيا » لأنه خبر يكن ، واسمها الضمير العائد على بابك فليس الى غير النصب سبيل والا بطل المعنى ومعنى البيت أن بابك صار فى الصلب جارا لما زيار وهو ثانيه فى كبد السماء، والصلب رذيلة ، ولم يكن ثانيا لاثنين فى الغار لأن تلك فضيلة ، كما يتمثل التعقيد فى قوله ثانى اثنين مع أن عددهما اثنان فقط لان الاثنين أحدهما ثانى الآخر ، وهذا خطأ ، ولو قال كانا اثنين وليس لهما ثالث لكان صحيحا .

ونستطيع أن نرى مباشرة تقسيم السكاكى للفصاحة إلى قسمين : أحدهما راجع إلى المعنى والثانى يرجع إلى اللفظ . ولعل السكاكى يقصد بقوله : « راجع إلى المعنى » ما عرف فيما بعد بفصاحة الكلام، أو ما ذكره الخفاجى عن فصاحة الألفاظ المنظومة بعضها إلى بعض ، ولقد فسر السكاكى ما أسماه « بفصاحة المعنى » بشىء واحد فقط هو « خلوه من التعقيد » لأن التعقيد يغلق الطريق إلى المعنى . وهذا هو الذى قصده الخفاجى فى الشرط السابع والشرط الثانى عشر اللذين يشترطان وضوح المعنى وعدم اللجوء إلى التراكيب المتداخلة والتى تؤدى إلى المماطلة .

أما الفصاحة التى ترجع إلى اللفظ فلقد وضع السكاكى لها شروطا ثلاثة هى:

١ ــ كون الكلمة عربية أصلية .

٢ ــ كونها جارية على قوانين اللغة .

٣ ــ سلامتها من التنافر .

وهذه الشروط الثلاثة قد أخذها عن الخفاجى والجاحظ من قبله ، فلقد رأينا اشتراط الجاحظ الإفهام أن يكون بكلام العرب الفصحاء . كما رأينا ابن سنان الخفاجى يطلب فى الشرط الخامس من شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح . هذا عن كون الكلمة عربية أصلية .

أما عن ضرورة جريانها على قوانين اللغة ، فلقد سبقه الجاحظ والخفاجى فى ذلك ونرى الخفاجى يشترط فى الشرط الخامس أيضا أن تكون الكلمة خالية عما يراه علماء النحو والصرف مفسدا .

أما عن سلامتها من التنافر فلقد أفاض الجاحظ فيه وتبعه الخفاجى فى تفسير التنافر وأسبابه .

فالسكاكى لم يأت بجديد فى تفسير الفصاحة تقريبا ، وينحصر جهده فى توضيح المفهوم الاصطلاحى للفظة وتضمينه لشروطها فى التعريف . بل اننا نرى بوضوح أن السكاكى لم يستوف شروط الفصاحة التى ذكرها ابن سنان .

أما الخطيب القزوينى فإنه يزيد على السكاكى تقسيمه الفصاحة إلى ثلاثة أقسام ، فلقد جعل فصاحة المفرد ، وأخرى للكلام ، وثالثة للمتكلم .

وفصاحة المفرد عند القزوينى هى : « .. خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .. »[١٩] .

ومردّ الغرابة عند القزوينى هو ، كما يذكر فى الإيضاح ، بسبب كونها وحشية وهو يستشهد على ذلك بما رواه الجاحظ عن عيسى بن عمر النحوى عندما سقط عن حماره .

والشروط الثلاثة قد وردت عن الجاحظ والخفاجى ، كما أن القزوينى الذى لخص « المفتاح » وشرح تلخيصه له قد وضع الخلوص من « الغرابة » كشرط لفصاحة المفرد مكان شرط كونها عربية أصيلة عند السكاكى .

ويضيف القزوينى شرطا رابعا إلى فصاحة المفرد وهو « الكراهة فى السمع » ولكنه لا يضعه فى تعريف فصاحة المفرد لأن فيه نظرا كما يقول[٢٠] .

أما فصاحة الكلام فهى فى نظر القزوينى : « خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها »[٢١] .

وهذه الشروط قد ذكرها الخفاجى وأشار الجاحظ إلى بعضها ، فلقد أشار الجاحظ إلى تنافر الكلمات فى أكثر من موضع فى البيان والتبيين ، وكذلك ينصح

---

(١٩) شروح التلخيص ص ٧٥ .
(٢٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .
(٢١) شروح التلخيص ص ٩٥ .

ملتمس البيان بالبعد عن التعقيد ، أما الخفاجى فلقد أفاض فى شرح هذه الشروط التى لخصناها فيما سبق .

ويضيف القزوينى إلى هذه الشروط شرطا آخر هو : خلوص الكلام من كثرة التكرار ومن تتابع الإضافات ، ولكنه لم يوضع فى تعريف فصاحة الكلام لأن الخطيب القزوينى يرى أن فيه نظرا[٢٢] .

ويوضح القزوينى المفهوم الاصطلاحى لفصاحة المتكلم بأنها « .. ملكة مقصودة بلفظ فصيح فصيحا ، إلا إذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير غير المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه ، وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب .. »[٢٣] .

ولقد وجه شراح « تلخيص المفتاح » للقزوينى بعض المآخذ تخص المعنى الاصطلاحى للفصاحة وسنحاول أن نجملها فيما يأتى : —

أولا : يرى بهاء الدين السبكى أن المصنف قد عدل عن إيراد حد شامل للفصاحة يصدق عليها ، ولجأ إلى فصل تعريف فصاحة المفرد عن فصاحة الكلام . ويرى السبكى أنه لم يأت فى ذلك بجديد فلقد سبقه إلى هذا الخفاجى فى كتاب سر الفصاحة[٢٤] .

ثانيا : أخذ على القزوينى قوله : « الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام » فلقد رأى سعد الدين التفتازانى فى مختصره على شرح « تلخيص المفتاح » أن كلمة « الكلام » تشمل المركب الإسنادى وغيره[٢٥] . ويرى ابن يعقوب المغربى صاحب « مواهب الفتاح فى شرح وتلخيص المفتاح » أن هذا الوصف لا يخلو

---

(٢٢) شروح التلخيص ص ١١٢ — ص ١١٣ .
(٢٣) شروح التلخيص ص ١٢٤ .
(٢٤) شروح التلخيص ص ٧٣ .
(٢٥) شروح التلخيص ص ٧١ .

من الملابسة[٢٦] . أما بهاء الدين السبكى صاحب « عروس الأفراح » فيرى أن جعل الفصاحة للمفرد والكلام يهمل المركب الإضافى مثل « عبد الله » والجملة الموصول بها ، كما لا يدخل فيه كل واحدة من جملتى الشرط وجوابه ، ويرى أنه كان من الأفضل للقزوينى أن يضع كلمة « المركب » مكان « الكلام » لأنها أشمل وتضم المفيد وغير المفيد[٢٧] .

ثالثا : أخذ على القزوينى لفظة « الخلوص » فى تعريفه لفصاحة المفرد بقوله : « .. خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس » ، فالتفتازانى يرى أن تفسير الفصاحة « بالخلوص » لا يخلو من تسامح[٢٨] . وهذا التفسير المخصوص بالعدمية كان من الأفضل اجتنابه كما يرى السبكى ، وهو يرى أنه « كان الأحسن اجتناب لفظ الخلوص لغلبة استعماله فى الانفكاك عن الشىء بعد الكون فيه ، وليس الأمر هناك كذلك .. » . إن الخلوص من هذه الأمور عبارة عن عدمها . فهو تعريف بالأمور العدمية ، وإنما يكون التعريف بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، فكان ينبغى أن يقال : الفصاحة : التئام الحروف ، وكثرة الاستعمال ، وموافقة القياس .. »[٢٩] .

ويقصد الشيخ بهاء الدين بكلمة « القياس » قياس التصريف ، كما يقصد بكلمة « الاستعمال » استعمال العرب .

رابعا : وقد أخذ عليه أيضا قوله « مخالفة القياس اللغوى » ، فلقد ذكر الشيخ بهاء الدين السبكى أنه كان ينبغى أن يقال : إن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع فى القرآن[٣٠] لأن الذى خالف القياس وكثر استعماله

---

(٢٦) شروح التلخيص ص ٧١ .
(٢٧) شروح التلخيص ص ٧٣ ـ ص ٧٤ .
(٢٨) المصــدر نفسه ص ٧٧ .
(٢٩) المصــدر نفسه ص ٧٦ ـ ص ٧٧ .
(٣٠) المصــدر نفسه ص ٨٨ .

وورد فى القرآن يعد فصيحا ، فضابط المخالفة عند السبكى هو اجتماع عـــدم الاستعمال مع عدم الورود فى القرآن الكريم .

خامسا : وقد أخذ عليه قوله فى فصاحة الكلام : « خلوصه مما ذكر ، ومن كثرة التكرار ، وتتابع الإضافات .. »[٣١] ، فلقد ذكر السبكى أنه لم يتبين مقصود المصنف وفى ذلك نظر فى رأى السبكى: « قد يكره تتابع الإضافات بشروط أن تكون ثلاثا فأكثر ، وألا يكون واحد منها جزءا أو كالجزء ، وألا يكون المضاف اليه الأخير ضميرا ، وأن يكون فيها إضافة فى علم كقول أبى سفيان : لقد أَمَر أَمْر ابن أبى كبشة . فليس فى ذلك استكراه .. »[٣٢].

هذه بعض الآراء التى انتقد بها شراح التلخيص الخطيب القزوينى ، وهى فى فى جملتها توضح المفهوم الاصطلاحى لكلمة « فصاحة » الذى استقر وضعه عند القزوينى .

ويرى السبكى أن أكثر الناس قد عرفوا الفصاحة تعريفات لا تخرج عما قاله الخطيب القزوينى تقريبا فهى فى مضمونها تعريف واحد ، لكن تعريفاتهم لفصاحة المتكلم كثيرة جدا ، وهى مستمدة مما ذكره الخطيب القزوينى فى الإيضاح

وإذا كان هذا هو المفهوم الاصطلاحى للفصاحة ، فما العلاقة التى بينها وبين البلاغة ... ؟

العلاقة بين الفصاحة والبلاغة

رأينا فيما سبق مراحل تطور المفهوم الاصطلاحى للفصاحة ويجدر بنا ونحن نلتمس العلاقة بين الفصاحة والبلاغة أن نذكر المفهوم الاصطلاحى للبلاغة بالصورة التى استقر عليها أخيرا كما حددها رجل كالخطيب القزوينى ومن سار فى ركابه

وللمتقدمين الذين تحدثوا عن البلاغة أقوال كثيرة وهى تصف جوانب

---

(٣١) المصـــدر نفسه ص ١١٢ .
(٣٢) المصـــدر نفسه ص ١١٧ .

للبلاغة فقط ولا يقصد بها التعريف الشامل كالتى جمعها الجاحظ فى البيان والتبيين ونقلها عنه المتأخرون من بعده ، مثل الحوار الذى جاء فى البيان والتبيين عن معنى البلاغة عند الفارسى والرومى والهندى واليونانى ، والذى ورد فى الصحيفة الهندية ، وما ورد أيضا عن ابن المقفع وسهل بن هارون ، وعمرو بن عبيد وبشر ابن المعتمر وثمامة بن أشرس وغيرهم . فهذه أوصاف البلاغة ربما تمثل فى مجموعها صورة كاملة للبلاغة .

ولقد استطاع الخطيب القزوينى أن يستخلص تعريفا لها وهو مستمد من آراء من سبقوه ، يقول فى الإيضاح : « . . وأما بلاغة الكلام فهى : « مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[٣٣] .

ويرى الخطيب أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى ما يسميه عبد القاهر بالنظم وينقل عبد القاهر قوله : النظم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام .

لذلك يصف البلاغة بأنها : « صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب . وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا . وهو مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره فى دلائل الاعجاز[٣٤] .

هذا عن بلاغة الكلام ، أما رأيه فى بلاغة المتكلم فهى فى نظره :

« ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » . .

ويحاول القزوينى أن يخلص من كلامه هذا إلى أمرين هامين كان لهما الأثر الكبير فى توجيه البلاغة من بعده ، وأحدهما : أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ، وليس كل فصيح بليغا . وهذا المفهوم قد أخذه عن الخفاجى كما أشرنا قبل ذلك .

---

(٣٣) شروح التلخيص ص ١٢٢ .
(٣٤) شروح التلخيص من ص ١٣٤ : ص ١٣٦ .

والثانى : أن البلاغة فى الكلام مرجعها : أ — إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، ب — إلى تمييز الكلام الفصيح من غيره .

وهو بهذا القول يحاول أن يحدد موضوعات علوم البلاغة التى أكملها بعد السكاكى ، ويرى أن مايحترز به عن الخطأ هو علم المعانى .وما يحترز به عن التعقيد هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعدرعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، وفصاحته هو علم البديع(٣٥) .

لكننا نرى أن كثيرا من علماء البلاغة قد يسمى العلوم الثلاثة بالبيان ، وبعضهم سمى الأول علم المعانى ، وبعضهم سمى علم البيان والبديع علم البيان ، كما نرى أن علم البديع كان أحيانا يطلق على الثلاثة . والذى وضع هذه العلوم هو السكاكى وأكملها القزوينى وغيره ..

والذى يهمنا الآن أن نتبين العلاقة بين البلاغة والفصاحة ، وتظهر العلاقة بين اللفظتين لو أعدنا النظر فى المعنى الاصطلاحى الذى استقر لهما .

ونلاحظ منذ البداية أنهم عرّفوا فصاحة المفرد والكلام والمتكلم ، ولكنهم لم يعرفوا إلا بلاغة الكلام والمتكلم فقط ، ولذلك نجدهم يقولون : « . . كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة . . . »(٣٦) .

ومن ذلك نجد أن كلمتى « فصاحة » و « بلاغة » تشتركان فى أن كل واحدة منهما تقع صفة لشيئين، أحدهما :وقوعهما صفة للكلام كما نقول قصيدة فصيحة أو بليغة وجملة فصيحة أو بليغة ، والثانى : وقوعهما صفة للمتكلم مثل قولنا هذا شاعر فصيح أو بليغ وكاتب فصيح أو بليغ .

وتنفرد الفصاحة — كما ذكرنا — فى كونها صفة للمفرد فنقول كلمة

---

(٣٥) شروح التلخيص ص ١٤٩ — ص ١٥١ .
(٣٦) شروح التلخيص ص ٧٤ .

فصيحة ولانقول : كلمة بليغة ، إلا إذا دلت لفظة « كلمة » على « الكلام » واستعملت مجازية كما فى قولنا : « ألقى المعلم على تلاميذه كلمة بليغة » . فكلمة هنا مجاز مرسل ذكر الجزء وأراد الكل .

ولعلنا نجد فى تعريف « البلاغة » — كما استقر أخير اعلاقة بين اللفظتين ، فالبلاغة كما حددها القزوينى : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » .[٣٧] هذا عن بلاغة الكلام أما بلاغة المتكلم عنده « هى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ . . »[٣٨] .

ونلاحظ أن تعريفه الكلمة بلاغة متضمن الفصاحة ، ومعنى هذا أن الفصاحة شرط فى البلاغة . ولا توجد البلاغة إلا بفصاحة الكلام ، ومن ثم نجد أن فصاحة الكلمات شرط ضمنى لأن فصاحة الكلام لا تتحقق إلا بفصاحة الكلمات ، وعلى ذلك تسقط صفة البلاغة عن كلام قد خلا من الفصاحة حتى لو طابق الكلام مقتضى الحال .

كما نجد فى تعريفه لبلاغة المتكلم ما يبين العلاقة بينها وبين الفصاحة فقوله : «هى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » ، مرتبط ببلاغة الكلام ، فالكلام البليغ الذى هو كالشرط فى بلاغة المتكلم يعتمد على الفصاحة كما أشرنا آنفا .

ويحاول القزوينى أن يقرر هذه الحقيقة فى صورة مختلفة ، وذلك عندما يحاول وضع عاملين ترجع البلاغة إليهما وذلك عندما يقول :

« .. وقد علم بما ذكرنا أمران : أحدهما أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ، وليس كل فصيح بليغا . والثانى أن البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره »[٣٩] .

---

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٢٢ .
(٣٨) شروح التلخيص ص ١٤٢ .
(٣٩) شروح التلخيص ص ١٤٤ — ص ١٤٥ .

ونلاحظ أن ما جاء فى الأول من كلام الخطيب القزوينى مستمد مما تحدث عنه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ، وكان منطلقا لتفسير العلاقة بين الفصاحة والبلاغة . ولقد اتجهت هذه التفسيرات اتجاهات مختلفة ومتباينة ونستطيع أن نستخلصها ونجملها فيما يلى :

أولا : اتجاه يرى الفصاحة شرط فى البلاغة لا تتحقق إلا بوجودها ، وهى أكثر مجالا من البلاغة ، وهو اتجاه القزوينى كما فعل فى الإيضاح ، ولذلك نجد القزوينى يقدم الفصاحة على البلاغة أثناء تناوله لهما بالشرح .

ثانيا : اتجاه يرى أن اللفظتين مترادفتان ، وهو اتجاه قديم ظهر من استعمال اللفظتين بمدلول واحد كما فعل الجاحظ وعبد القاهر الجرجانى والباقلانى والرمانى، ويرى صاحب مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح (ابن يعقوب المغربى) أن إطلاق لفظ الفصاحة على معنى البلاغة واقع فى ألسنة أهل الفن كثيرا[٤٠] كما ينقل بهاء الدين السبكى عن الجوهرى قوله : « البلاغة الفصاحة[٤١] » .

ويحاول السبكى أن يفسر ما قاله الجوهرى بما يتفق مع ما فى ذهنه من تصور عنها فيقول معلقا على جملة الجوهرى « والظاهر أنه يقصد بذلك أن البلاغة تكون فى الكلمة كما تكون فى الكلام ، وذلك لا يوجب ترادفا ، بل يوجب أن كل محل صلح للفصاحة صلح للبلاغة وإن اختلف معناهما . وقد صرح جماعة بأن بين البلاغة والفصاحة تغايرا ، وأن كل ما صلح لأحدهما من كلام ومتكلم وكلمة صلح للأخرى[٤٢] والسبكى هنا يحاول أن يفسر كلام الجوهرى بأن اللفظتين غير متساويتين فى المدلول .

وينتج عن هذا التفسير مخالفة لما ورد عن القزوينى والخفاجى وابن الأثير

---

(٤٠) شروح التلخيص ص ١٣٦ .
(٤١) شروح التلخيص ص ٧٤ .
(٤٢) شروح التلخيص ص ٧٤ ـ ص ٧٥ .

من أن « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا » وتكون النتيجة أن « أن كل فصيح بليغ أيضا » وحتى ولو لم يقل السبكى بالترادف فى اللفظتين .

ثالثا : اتجاه يرى العلاقة بينهما هى العموم والخصوص ، وهذا الاتجاه قد قام على ما قاله الخفاجى ونقله عنه تابعوه فى التفريق بين البلاغة والفصاحة وهو « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا » . وعلى هذا الأساس رأى بعض علماء البلاغة مثل ابن يعقوب المغربى صاحب « مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح » أن البلاغة أخص من الفصاحة ، والفصاحة أعم منها ، وذلك يتضح من قوله : « نعلم من أخذ الفصاحة فى تعريف البلاغة أن كل بليغ سواء كان ذلك البليغ متكلما أو كلاما فصيح لأن البلاغة أخص من الفصاحة ، وكلما وجد الأخص وجد الأعم ولا عكس كليا أى لا يصدق كل فصيح بليغ ، وهذا هو المعنى بالعكس اللغوى ، وذلك لأن الفصاحة أعم ، ولا يلزم من صدق الأعم صدق الأخص[٤٣] .

وينقل السبكى عن ابن الأثير مثل هذا الكلام فيقول : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى ، فهى أخص من الفصاحة . كالإنسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا[٤٤] .

كما ينقل حازم القرطاجنى قوله : « الفصاحة أخص من البلاغة[٤٥] » .

أما بهاء الدين السبكى فإنه يعترض على تحديد العلاقة بين اللفظتين بالعموم والخصوص ويرى رأى ابن الأثير فى ذلك فاسدا . ويسلك السبكى فى ذلك اتجاها مغايرا للاتجاهات السابقة . وهو الاتجاه الرابع فى تصورنا .

---

(٤٣) شروح التلخيص ص ١٤٢ .

(٤٤) شروح التلخيص ص ٧٥ .

(٤٥) شروح التلخيص ص ٧٥ ــ من الملاحظ أن ما أورده السبكى عن حازم القرطاجنى مبتور من كتاب حازم ، ولهذا فإن ما أورده السبكى يكمل ما لم يرد فى كتاب منهاج البلغاء لحازم .

رابعا : اتجاه يرى العلاقة بينهما هى الكل والجزء وهو رأى السبكى كما أشرنا فهو يصرح بأنه ليس بين حقيقتى الفصاحة والبلاغة عموم وخصوص بل هى كل وجزء ، فالبلاغة كل ذو أجزاء مترتبة ، والفصاحة جزء غير محمول .. ونراه يكمل فكرته عن العلاقة بينهما عندما يعلق على ما قاله ابن الأثير فيقول : « .. هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمى المركب تركيبا غير حملى أخص ، والمفرد أعم ،وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتمالها على الأمرين ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء[٤٦] .

ونلاحظ أن قول السبكى بأن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة تقوم على الكلية والجزئية ليس من ابتكاره بل أخذه عن الخفاجى وذلك عندما يقول فى سر الفصاحة :

« .. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها ، فكلامى على المقصود ــ وهو الفصاحة ــ غير متميز إلا فى الوضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره[٤٧] .

هذه الجوانب التى تمثل العلاقة بين اللفظتين قد استخلصناها من تناول البلاغيين لهما بالتعريف والتحديد ، وهذه العلاقات هى فى رأينا أهم ما ذكر عنهما فى هذا الصدد ، وهناك جوانب ارتباط بينهما آثرنا عدم تناولها بالتحليل لأنها متضمنة فى هذه الجوانب مثل : العلاقة التى توجد بين مقتضى الحال والفصاحة وهى علاقة نستطيع أن نسميها بالعلاقة « التكاملية » أى أن كليهما يكمل الآخر ، أو يقترن مع الآخر حتى تتحق البلاغة ، فلا بلاغة بغياب أحدهما عن الآخر . لكننا لم نفصل هذا الجانب من العلاقة لأننا أشرنا فيما سبق إلى أن الفصاحة شرط للبلاغة كما وضحنا فى « أولا » .

---

(٤٦) شروح التلخيص ص ٧٥ .
(٤٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

وهنا جانب آخر يمكن أن يوضح العلاقة بين اللفظتين وهو الاتجاه الذى يمكن أن يبين علاقة اللفظتين ببعض القضايا كعلاقتهما بقضية اللفظ والمعنى ، أى : هل العلاقة بينهما من صفات اللفظ أو المعنى ... ؟ لقد كثرت الآراء فى هذا الجانب وإنما قد اكتفينا بما أوردناه فيما سبق عن المفهوم الاصطلاحى والمدلول اللغوى لهما[٤٨] وسنعرض لهذه العلاقة فيما سوف نتناوله إن شاء الله فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم الدلالة أو المعنى .

ونجد أنفسنا الآن أمام قواعد الفصاحة أو شروطها كما فهمها البلاغيون لنتبين كل قاعدة من قواعدها ، محاولين تلمس جذورها ونشأتها وتطورها بالتأصيل والتقويم .

(٤٨) تناولنا الحديث عن علاقة اللفظ بالمعنى فيما كتبناه عن علاقة علم الدلالة بالفصاحة ـ وكذلك فى الفصل الذى كتبناه عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .

الفصـل الثـانى

« قواعد الفصاحة »

سنحاول إن شاء الله أن نتبع قواعد الفصاحة متخذين فى ذلك ماصارت اليه عند القزوينى وشراح التلخيص ــ المعيار الذى يمكن أن نقارن به مراحل تطور تلك القواعد ، محاولين أن نتوصل منها ما تملك تأصيله .

ونحن فى محاولتنا تلك سنلتزم بالتقسيم التقليدى الذى استقر فى القرنين السابع والثامن أى أننا سنتناول القواعد الخاصة بفصاحة المفرد ثم ما يخص فصاحة الكلام ، وأخيرا ماقد يتعلق بفصاحة المتكلم من شروط وقواعد .

أولا ــ القواعد التى يشترط وجودها فى المفـرد :

١ ــ الخلوص من تنافـر الحـروف :

أصل « التنافر » فى اللغة هو التفرق والإعراض ، أما التنافر فى الفصاحة الذى يشترط خلوصها منه فهو الذى يسبب ثقلا فى اللسان وعسرا فى النطق ويسمى الجاحظ الخلو من التنافر اقترانا سواء للحروف أم للألفاظ كما فى قوله : « . . . فهذا فى اقتران الألفاظ فأما فى اقتران الحروف فإن الجيم لاتقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاى لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير . . »[1] .

---

(١) البيـان والتبيين جـ ١ ص ٦٩ .

والجاحظ هو أول من تنبه من البلاغيين إلى التنافر الذى ينشأ بين الحروف والألفاظ بصورة كاملة منظمة ولقد شاع لفظ التنافر بعد الجاحظ الذى استخدمه ليدل به على وصف الألفاظ والحروف من هذه الناحية . فلقد جمع لنا طائفة من الشعر تظهر ذم الألفاظ التى لا تأتلف فلقد وصفها القدماء ببعر الكبش مثل قول أبى البيداء الرياحى .

وشعرٍ كبعْرِ الكَبْشِ فرّقَ بينَهُ   لسانُ دَعِيٍّ فى القريضِ دخيلِ

كما شبهوها بأولاد العَلّة كما فى البيت الآتى :

وبعضُ قَريضِ القومِ أولادُ عَلَّةٍ   يَكُدُّ لسانَ الناطقِ المتحفِّظِ

وأولاد العلة هم بنو الرجل الواحد من أمهات شتى .

وقد يسمىّ عدم التنافر « التلاؤم » كما فعل أبو الحسن على بن عيسى الرمانى حيث جعله القسم الرابع من أقسام البلاغة ، والتلاؤم عنده نقيض التنافر وتعديل الحروف فى التأليف[٢] .

ولقد نقل هذا القول أبو بكر الباقلانى موسعا معنى التلاؤم ليضم أشياء أخرى غير الخلوص من التنافر[٣] .

ولقد تناول بهاء الدين السبكى هذه التسمية معترضا على لفظة « خلوص » فى تعريف القزوينى للفصاحة « خلوصه من تنافر الحروف .. » وذلك لأن كلمة خلوص فى نظره تعريف بالأمور العدمية ويرى أن التعريف يكون بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، ويرى أنه كان ينبغى أن يقول القزوينى فى تعريف الفصاحة « الفصاحة التئام الحروف وكثرة الاستعمال وموافقة القياس »[٤] .

---

(٢) ثلاث رسائل فى الاعجاز ص ٨٧ .
(٣) اعجاز القرآن ص ٢٨٦ .
(٤) شروح التلخيص ص ٧٧ .

فالخلوص من التنافر قد سماه الجاحظ بالاقتران كما ذكر لفظة التنافر وحذر منها وأسماه الرماني التلاؤم . وأخيراً أطلق عليه السبكي لفظة « التئام » .

أما عن أقسام تنافر الحروف فلقد جعله القزويني قسمين : قسم تكون اللفظة بسببه متناهية في الثقل ، والقسم الثاني هو مادون ذلك من الثقل .

ومن أمثلة القسم الأول ما روى عن الخليل بن أحمد ونقله عنه ابن سنان حيث قال الخليل سمعنا كلمة شنعاء وهي « الهُعْخُع » ، ولقد جعل الخفاجي هذه اللفظة مثالا على المهمل الذي يصعب النطق به « لضرب من التقارب في الحروف فلا يكاد يجيء في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم ، وثقله .. »[٥] .

ويذكر الخفاجي تأليف كلمة « الهعخع » على هذه الصورة ، كما أنكرها الثقات من العلماء وقالوا : نعرف الخعخع ، وهذا أقرب إلى تأليفهم ، لأن الذي فيه حرفان حسب ، وحروف الحلق خاصة مما قل تأليفهم لها من غير فصل يقع بينها[٦] .

ويورد السبكي أن هذه الكلمة « الهعخع » قد وردت عند الصغاني في كتابه المسمى الصحاح بلفظ « العهمخ » ، ويذكر السبكي أن الثقاة من كلام العرب قد أنكروا هذا الاسم[٧] .

ويذكر السبكي أن كلمة « الهعخع » قد وردت بصورة رابعة هي « العهعخع » ويرى أن الصورتين الأخيرتين فيهما غرابة[٨] .

---

(٥) سر الفصاحة ص ٤٨ .
(٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .
(٧) شروح التلخيص ص ٧٩ .
(٨) شروح التلخيص ص ٧٩ .

ومن أمثلة القسم الثانى التى توقف عندها علماء البلاغة كلمة (مستشزرات) التى جاءت فى معلقة امرىء القيس فى قوله :

غدائره مُسْتَشْزِرَاتٌ الى العُلاَ تَضِلُّ المَدَارَى فى مُثَنًّى وُمرْسَلِ[٩]

وتروى مستشزرات بفتح الزاى أى مرفوعات ، وبكسرها أى مرتفعات .

ويرى السبكى أن الثقل فى كلمة مستشزرات ناتج عن توسط الشين وهى مهموسة رخوة بين التاء وهى مهموسة شديدة ، والزاى وهى مجهورة[١٠] .

أما عن العلة فى تنافر الحروف فلقد حدث خلاف فى تقرير العلة الحقيقية فى التنافر ، ولقد نقل ابن سنان رأى الخليل بن أحمد فى ذلك ونقده بعد ذلك ، ويرى الخليل : « أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ، ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال »[١١] .

ويأخذ الرمانى برأى الخليل من غير تحفظ ، أما الخفاجى فإنه يوافق على رأى الخليل والرمانى من بعده من ناحية واحدة فقط عندما يقرر أن التنافر ينشأ من قرب مخارج الحروف ، لكنه يخالف ما ورد عن الخليل والرمانى فيما ذكراه عن بُعْد المخارج : « ... والذى أذهب أنا اليه فى هذا ما قدمت ذكره ولا أرى التنافر فى بُعْد ما بين مخارج الحروف ، وإنما هو فى القرب ، ويدل على صحة ذلك الاعتبار ، فإن هذه الكلمة — ألم — غير متنافرة ، وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج ، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم

---

(٩) ديوان امرىء القيس ص ١٧ ط دار المعارف سنه ١٩٦٩ .
(١٠) شروح التلخيص ص ٧٨ .
(١١) ورد هذا النص حرفيا فى ثلاث رسائل ص ٨٨ وفى سر الفصاحة ص ٩١ .

من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما ، وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرا ، لأنه على غاية ما يمكن من البعد ، وكذلك — أم وأو — لأن الواو من أبعد الحروف عن الهمزة ، وليس هذان المثالان مثل ـ عح ولا سز ـ لما يوجد فيهما من التنافر لقرب ما بين الحرفين فى كل كلمة ، ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجها فى التنافر على ما ذكره »[١٢] .

ويرى السبكى أن كلام ابن سنان الخفاجى ليس مطلقا ، بل يورد السبكى أمثلة لبعض الكلمات التى تتكون من حروف قريبة المخرج وخالية من التنافر مثل كلمة « الشجر » و « الجيش » و « الفم » ، كما أورد مثالا على الحروف المتباعدة مع القبح الذى يصاحب اللفظة مثل كلمة « ملع » بمعنى أسرع .

ويرى السبكى ما رآه الخليل والرمانى بأن التنافر قد يكون فى الحروف المتقاربة والحروف المتباعدة على سبيل الغَلَبَة لا اللزوم[١٣] .

لكنه يعود مرة ثانية إلى ترجيح ما ذهب اليه ابن سنان الخفاجى قائلا : « .. وحيث دار الحال بين الحروف المتباعدة والمتقاربة ، فالمتباعدة أخف ،حتى جعل جماعة تباعد مخارج الحروف من صفات الحسن ، ونقله ابن الأثير فى كنز البلاغة عن علماء البيان ، وقال الخفاجى إنه شرط للفصاحة .. »[١٤] .

والحقيقة أن ابن الأثير قد نقل رأى الخفاجى وكأنه يرد عليه فقال : « قد ذكر ابن سنان الخفاجى ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ... أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه ... ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء،

---

(١٢) سر الفصاحة ص ٩١ .
(١٣) شروح التلخيص ص ٨٢ .
(١٤) شروح التلخيص ص ٨٢ .

ولا بين الزاى والسين ، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب .. »[١٥] .

ويرى الخفاجى أن تأليف الحروف ثلاثة أقسام :

الأول : تأليف الحروف المتباعدة ، وهو الأحسن المختار ، وهو أغلب كلام العرب كما يذكر السبكى .

الثانى : تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلى هذا القسم فى الحسن .

الثالث : تأليف الحروف المتجاورة ، وهو إما قليل فى كلامهم ، أو منبوذ رأسا لما قدمناه[١٦] .

ولقد نقل ابن جنى هذا التقسيم فى كتاب سر صناعة الإعراب مستدلا به على ما فعله بنو تميم عندما أرادوا إسكان عين « معهم » كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حاءين فقالوا : « محمّ » فرأوا ذلك أسهل من الحرفين المتقاربين .

ويؤكد ابن سنان الخفاجى رأيه بأن كلام العرب قد خلا من تراكيب الحروف المتجاورة فى مخارجها مثل الصاد والسين والزاى ، ولا يوجد فى كلام العرب كلمات مثل : « سصّ » ولا « صس » ، ولا « سز » ، ولا « زس » ، ولا « زص » ولا « صز » .

وواضح من هذه الأمثلة التى ساقها الخفاجى صدقه على تنافر الحروف المتقاربة المخارج ، كما يتأكد رأيه فى كون تباعد المخارج من صفات الحسن والخفة .

وسنتناول التنافر — إن شاء الله — من جانب آخر هو جانب الصوتيات وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بالأصوات اللغوية .

---

(١٥) المثل السائر ص ١٥١ ـ ص ١٥٢ ط محيى الدين عبد الحميد .
(١٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .

٢ ـ الخلوص من الغـرابة :

وأصل كلمة « الغرابة » يرجع إلى مادة « غرُب » بالضم وهى مصدر لهذه المادة وهى تفيد البعد عن الوطن، كما تفيد الكلام البعيد عن الفهم ولقد شاعت لفظتا الغرابة والغريب بين البلاغيين واللغويين كثيرا .

وتشير النصوص إلى أن الجاحظ أول من استخدم هذه المادة ليدل بها عن الكلام الخارج عن البلاغة ، كما نبّه إلى مدى خطرها وفسادها ، ويدل على ذلك تعليقه على بعض الأقوال التى تتضمن ألفاظا غريبة فيقول : « . . . فإن كانوا رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة .. وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجّاج ، وشعر الطّرمّاح ، وأشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الوصف على أكثر من ذلك[١٧] .

وكما لاحظ الجاحظ أن اللفظ الغريب يبعد عن الفصاحة نراه يلاحظ أيضاً أن المعنى الغريب له نفس الأثر ، فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوق والوحشى، ولا تجعل همّك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى . وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه .. »[١٨] .

فالجاحظ يعد أول من اشترط فى اللفظة الفصيحة أن تكون خالية من الغرابة وبذلك فتح الجاحظ آفاقا واسعة لمن جاء بعده ليضيفوا الجديد فى ميدان الغرابة .

لكننا نتساءل : ما المقياس الذى تقاس به الكلمات حتى يحكم عليها بالغرابة أو عدمها ... ؟

---

(١٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٨ .
(١٨) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٥ .

لقد قرر جماعة من البلاغيين أن الغرابة يجب أن تحمل بالنسبة للعرب العرباء الخلص من أهل البادية، ولا تحمل بالنسبة لاستعمال الناس من مولدين وغيرهم، ومن هؤلاء العلماء الجاحظ والسبكى والسيوطى وابن يعقوب المغربى. وهم بذلك يجعلون الغرابة مطلقة لأن كلام العرب العرباء عندهم هو المقياس المطلق الذى ينسحب على كل العصور.

ويقرر ابن يعقوب المغربى فى موضع آخر أن الغرابة قد تكون نسبية، فقد تكون الكلمة غريبة على المولدين لكنها فصيحة مستحسنة عند العرب الخلص[19]، وهو بذلك يتردد بين النسبية والإطلاق.

والواقع أن كلمة «غرابة» يختلف مدلولها من جيل إلى جيل، ومن بيئة إلى بيئة أخرى، كما أنها ترتبط بالأحداث الاجتماعية التى تترك أثرها على البحث العلمى، فتؤدى أحيانا إلى العمق، وأحيانا أخرى تؤدى إلى الضحولة، ومن هنا لا يكون اللفظ غريبا على وجه الاطلاق، فيجب علينا قبل أن نحكم على اللفظة بالغرابة أن نضع فى حساباتنا الملابسات التى أحاطت باللفظة عبر تاريخها الطويل وإلى تلك الظروف التى أشرنا اليها على جملتها، وبذلك نرى أن كل جيل له كلمات يعدها غريبة وينبغى عدم استعمال هذه الكلمات لأن استعمالها لا يعد فصاحة

وإذا أردنا أن نوضح مفهوم الغرابة فاننا نتساءل: ما العوامل التى قد تؤدى باللفظة إلى الغرابة ...؟

نستطيع أن نجمل هذه العوامل فيما يأتى:

العامل الأول: كون الكلمة وحشية:

وكون الكلمة وحشية أى أن معناها لا يظهر بسبب كونها غير مأنوسة الاستعمال عند من تكون الكلمة وحشية لديهم، وينتج عن كون الكلمة وحشية أن يحتاج فى معرفتها الى أحد هذين الشيئين:

---

(١٩) شروح التلخيص.

(ا) أن يبحث عنها فى كتب اللغة .

(ب) أن يخرّج لها وجه بعيد .

ومن أمثلة القسم الأول ما أورده الجاحظ عن يحي بن عمر وأبى علقمة النحوى وأبى الأسود الدؤلى ، ونقل البلاغيون ما أورده الجاحظ عن أبى علقمة النحوى ونسبوه إلى عيسى بن عمر عندما كان مارّا ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مِرّة ، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون فى أذنه ، فأفلت منهم فقال : « ما لكم تتكأكئون علىّ كما تكأكئون على ذى جنّة ، افرنقعوا عنى .. » فقال أحدهم : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية[٢٠] .

ونقل هذا الخبر كثيرون مثل العسكرى والخفاجى والجوهرى والزمخشرى كما استدل به شرّاح التلخيص . والغريب الذى لا يعرف إلا بالبحث فى كتب اللغة المبسوطة قوله : تتكأكئون بمعنى تتجمعون ، وقوله : افرنقعوا بمعنى تفرقوا .

وينقل السبكى عن الزمخشرى تفسيره لكلمة « افرنقعوا » بأنها مأخوذة من حروف الفرقة مع زيادة العين ، ويبطل السبكى هذا التفسير بقوله « العين ليست من حروف الزيادة »[٢١] ويرى الجوهرى أنها مشتقة من فرقعة الأصابع .

ومثل هذه الألفاظ الغريبة كثيرة فى شعر العجاج وابنه رؤبة ، وكان من شعراء العصر العباسى من يلجأ للغريب كأبى تمام والمتنبى ، ومن غريب أبى تمام كلمة « كهل » فى قوله :

---

(٢٠) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .
(٢١) شروح التلخيص ص ٨٧ .

لقد طلَعتْ فى وجه مصر بوجهه   بلا طائر سعد ولا طائر كهل

وساوسُ آمال ومذهب همة   تخيل لى بين المطية والرحل

وكلمة درديبس و قِنْطر فى قول أبى تمام أيضا :

بِندَاك يوسى كل جرح يعتلى   رأب الأساة بدرديبس قِنْطر

وقوله قدْكَ فى البيت الآتى :

قَدْكَ اتَّئِبْ أربيتَ فى الغُلـوَاء   كم تعذلونَ وأنتُمُ سُجرَائى

ومن أمثلة الغريب أيضا قول جرير :

وضع الخزير فقيل أين مجاشع   فشحا جحافله جراف هبلع

ومثل كلمة « بوزع » التى وردت فى قول جرير أيضا :

وتقول بوْزع قدديبتَ على العصا   هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزعُ

وقيل إن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ببوزع[٢٢] مع أن كلمة بَوْزع علم لامرأة ، لكن عبد الملك بن مروان قد استغربه .

ومن أمثلة القسم الثانى الذى يخرجّ له وجه بعيد حتى يظهر معنا ، كلمة « مسرّجا » التى وردت فى بيت العجاج :

أيام أبدت واضحا مفلجا   أغر برّاقا وطرْفا أبرجا

ومقـلةً وحاجبا مزجَّجا   وفاحـا ومَرْسِناً مسرّجا

فلقد اختلف فى تخريج قوله « مسرّجا » ، فقيل :

(أ) من قولهم سريجية أى منسوبة إلى قين يقال لها : سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى .

ويرى صاحب مواهب الفتاح أن الغرابة فى قوله « مسرّجا » لعدم جريانه

---

(٢٢) سر الفصاحة ص ٥٩ .

على النظير فن المعلوم أن « فعل » للنسبة لا يكون على سبيل التشبيه مثل : تممته فهو متمم أى نسبته إلى تميم . أما إذا كانت (فعّل) بمعنى صار كذا كقوّس صار كالقوس — فلا يصح ، إذ الواجب أن يقال : مسرِّجا بكسر الراء لعدم تعديه والرواية بالفتح ، ثم فسر مسرجا على الاحتمالين بقوله : أى كالسيف السريجى فى الدقة والاستواء[٢٣] .

(ب) فسر قوله « مسرّجا » بتشبيهه بالسراج فى البريق واللمعان ، وتفسير الأنف وتشبيهه بالسراج فيه غرابة .

(جـ) وجاء فى معنى « مسرّج » أنها بمعنى بهج وحسّن ، يقال : سرّج الله أمرك أى بهجه وحسنه . وقيل إن سرّج بمعنى حسّن يحتمل أن يكون مستحدثا[٢٤] .

وكلمة « مسرّجا » غريبة على أى وجه من الوجوه ، فلقد نقلها الأئمة وتمثلوا بها على الغرابة سواء كانت اللفظة قديمة أم مستحدثة .

العامل الثانى : الكلمات الاصطلاحيــة :

وهى الكلمات التى تفهمها طائفة دون أخرى ، وتكون لها دلالة ترتبط بثقافتهم أو مهنتهم الخاصة بهم ، ومن ثم أصبح الكلمة الاصطلاحية غريبة على أسماع وفهم عامة المثقفين والأدباء والعرب الخلص .

وأول من أدرك ما ينتج عن الكلمات الاصطلاحية من غرابة — أبو عثمان الجاحظ ولم يتبعه فى رأيه هذا إلا ابن سنان الخفاجى ، لكن عامة البلاغيين قد ردوا الغرابة إلى الوحشى من الألفاظ فقط .

واستدل الجاحظ على غرابة هذه الألفاظ باستعمال بعض الخطباء لألفاظ

---

(٢٣) شروح التلخيص ص ٨٤ ــ ص ٨٥ .
(٢٤) شروح التلخيص ص ٨٧ .

المتكلمين . ونهى الجاحظ عن ذلك المسلك قائلا : « وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم السماطين ، أو على منبر جماعة ، أو فى سدة دار الخلافة أو فى يوم جمع حفل ، إما فى إصطلاح بين العشائر ، واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم رفيع المكان : ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكّن لهم لاشاهم فتلاشوا » .

ويسخر الجاحظ من خطيب آخر قد خطب فى دار الخلافة فقال فى خطبته : « وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله فى باب الأيسية » .

ويهاجم خطيبا ثالثا لأنه قال فى خطبة له : « هذا فرق بين السار والضار ، والدفّاع والنفّاع [٢٥] .

ومثل هذه الألفاظ التى وردت فى خطب الخطباء غريبة على أسماع الحاضرين ولا تناسب المقام الذى قيلت فيه ، ولا يجوز استعمال مثل هذه الألفاظ إلا بين المتكلمين أنفسهم فهم القادرون على إدراك مدلولاتها .

ويرى الجاحظ أن مثل هذه الألفاظ قد تحسن أحيانا فى مقام التملح والتظرف كما فعل أبو نواس فى استعمال ألفاظ المتكلمين كقوله [٢٦] .

وذات خدٍّ مورَّد	قوهيّة المتجرِّد
تأمّلُ العينُ منها	محاسنا ليس تنفد
فبعضها قد تناهى	وبعضهـا يتولّد
والحسن فى كل عضو	منها معاد مردد

وكقوله :

(٢٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤١ .

يا عاقد القلب مني ... هلا تذكرت حلاّ
تركت مني قليلا ... من القليل أقلاّ
يكاد لا يتجزا ... أقل فى اللفظ من لا

العامل الثالث : الألفاظ الدخيلة من اللغات واللهجات الأجنبية :

وهذا العامل ينشأ عن احتكاك وتداخل الشعوب، واختلاط الثقافات الذى من سماته أن يترك ألفاظا فى البيئة الجديدة ، والألفاظ التى يحملها أصحابها فى البيئة الجديدة تظل غريبة فى معناها وبنائها ،وفى الحقيقة أن أية لغة لا تستطيع مقاومة تيار الأخذ والعطاء بينها وبين اللغات التى قد تحتّك بها ، لأن التطور الحضارى يدفع اللغات إلى ذلك ، وخاصة تلك اللغات التى يعانى المتكلمون بها من التخلف ومن ثم تعجز اللغة عن ملاحقة التطور باستحداث الألفاظ المناسبة لذلك ، كما أن اللغات التى تعيش فى مجتمعات متطورة لا تستطيع أن تقاوم غزو اللغات الأخرى أيضا لكن تعرضها لذلك يكون أقل .

وفى مقابل ذلك تموت ألفاظ كثيرة لا ترتبط بالحياة الاجتماعية أو الحضارية أو الدينية ، ولقد شغل علماء اللغة ببحث الدخيل الأجنبى فى العصور المتأخرة لكننا نجد الجاحظ قد نبّه على ذلك ، وأورد كلمات فارسية كثيرة قد شاعت فى البصرة والكوفة والمدينة لنزول ناس من الفرس فيهم . ولذلك نجد رجلا مثل محمد بن مناذر الشاعر يرى أن الفصاحة فى أهل مكة فقط ، وأن ألفاظ المكيين أحكى لألفاظ القرآن الكريم وأكثرها موافقة ، ويقول ابن مناذر مخاطبا أهل البصرة : « أنتم تسمون القِدْرَ بُرْمَة وتجمعون البُرْمَة على بِرَام ، ونحن نقول قِدْر ونجمعها على قدور ،وقال الله عز وجل « وجفان كالجوابى وقدور راسيات » ، وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت عُلِّيَّة وتجمعون هذا الاسم على عَلالِىّ ، ونحن نسميه غرفة ونحن نجمعها على غُرفات وغُرَف ، وقال الله تبارك وتعالى : « غُرفٌ من فوقها غرف مبنية ، وقال : « وهم فى

الـمُـزْرفـَات آمنون، ، وأنتم تسمون الطَّلْعَ الـكافورَ والإغريض،ونحن نسميه الطلع وقال تبارك وتعالى : ونخل طلعها هضيم[٢٧] .

كما يورد الجاحظ عن ابن مناذر الألفاظ الدخيلة التى شاعت فى بيئة الـكوفة والمدينة ، مستدلا بذلك على فصاحة أهل مكة .

وهذه الألفاظ غريبة على العرب الخلص الذين لم تتلوث لغتهم بالدخيل من اللغات الأجنبية الأخرى . وتظل هذه الألفاظ غريبة حتى ينفذ فيها حـكم الانتقاء الطبيعى والتطور .

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى إدخال الألفاظ الأجنبية عمدا فى شعرهم على سبيل التملح والتظرف بها كما فعل العمانى عندما ضمن شعره بعض الألفاظ الفارسية مثل قوله فى قصيدته التى مدح بها الرشيد[٢٨] .

مَنْ يَلْـقَه من بطَلٍ مُسْرَنْدِ ... فى زَغْفَةٍ مُحْـكَمةٍ بالسَّرْدِ

تجول بين رأسه والـكَرْدِ

وفى هذه القصيدة يقول أيضا :

لمّا هَوَى بَيْنَ غياض الأسْدِ ... وصار فى كفّ الهزبر الوَرْدِ

آلَى يذوق الدّهْرَ آب سَرْدْ

وكقول يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحيرى[٢٩] :

آب اسْتْ نَبيذَ اسْتْ ... عصاراتِ زبيب است

سُمَيَّه روَسپيد اسْتْ

---

(٢٧) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩ .
(٢٨) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٢ .
(٢٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٣ .

العامل الرابع : اللكنـــة :

اللكنة فى الحقيقة من عيوب المتكلم وليست من عيوب الكلمة لأن عيوب الكلمة صفة ثابتة فيها لكن قد تصير الكلمة الفصيحة غريبة بسبب ما يصيبها من لُكْنة عندما ينطق بها غير الفصيح مثل الأعاجم أو العرب الذين نشأوا بين الأعاجم ، أو من أصابتهم عوارض فى الفم أو اللسان ، فمن الأعاجم الشاعر زياد بن سلمى الذى كان يجعل السين شينًا أو الطاء تاء فكان عندما ينشد قوله :

فتى زاده السلطان فى الود رفعة   اذا غيّر السلطان كلّ خليل

فانه يقول : « فتى زاده الشّلتان » .

ويورد الجاحظ مجموعة من الكتاب والشعراء والأعاجم ممن لا يستطيعون التخلص من لكنتهم ، وكانوا يقلبون الحاء هاء والسين شينا والشين سينا ، والقاف كافا والذال دالا ، ويورد الجاحظ فى هذا المقام قول بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لكنتها :

أول ما أسمع منها فى السحر   تذكيرُها الأنثى وتأنيث الذكر
والسَّوءةُ السَّوآءُ فى القمر

وقد تكون اللكنة بتغيير حركة مثل ما يورده الجاحظ عندما فتح النبطى المكسور ، فلقد قيل له : لم ابتعت هذه الأتان ..؟ قال : أركبها وتلَد لى فقال: « تلَد » ولم يقل « تلِد » .

والعربى الفصيح من أهل البادية لا يفهم مثل هذا الكلام الذى قد تغير فهو غريب عليه ، ويحكى الكسائى أنه قال لغلام بالبادية : من خلقْك ... ؟ وجزم القاف : فلم يدْرِ الغلام ما قال ، ولم يجبه ، فأعاد الكسائى عليه السؤال ، فقال الغلام : لعلك تريد : من خلَقَك ...[٣٠] .

---

(٣٠) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٤ .

ويروى أنه قيل لأعرابى: «كَيْفَ أَهْلِك» بكسر اللام ، أجاب الأعرابى: «صَلْبًا» ، فلقد أجاب الأعراب على فهمه ، ولم يعلم أن السائل أراد السؤال عن أهله وعياله[٣١] .

فالأُكْنَة قد تؤدى إلى الغرابة عند الذين لم يتعودوا الفاسد والمعدول عن أصله .

هذه هى العوامل التى نرى أنها تؤدى إلى الغرابة . وربما يؤدى بعضها إلى أشياء غير الغرابة — قد تكون سببا فى فساد الفصاحة ، فقد تؤدى اللكنة إلى عدم الجريان على القياس اللغوى ، وقد تؤدى المصطلحات الفنية إلى التعقيد .

ويرى ابن يعقوب المغربى أن الغرابة قسمان :

١ — غرابة قبيحة مستكرهة ذوقا لعدم تداولها فى لغة خلص العرب وهم أهل البادية دون المولدين، وهذه الغرابة مخلة بالفصاحة مطلقا مثل كلمة «جحيش» للفريد أى المستبد بأمره الذى لا يشاور الناس فى رأيه .

٢ — غرابة مستحسنة ، وهى غير مخلة بالفصاحة بالنسبة إلى العرب الخلص لكنها قد تكون غريبة بالنسبة للمولدين ، ومن هذا الغريب المستحسن غريب القرآن والحديث الشريف[٣٢] .

فالغرابة المستحسنة إذن نسبية ، أى أنها غريبة عند قوم وهم المولدون ، وحسنة عند العرب الخلص .

ولا يعنى اشتمال القرآن الكريم والحديث الشريف على الغريب أنه يشتمل على غير الفصيح ، لأن غريب القرآن فصيح بالنسبة للعرب جملة لأن القرآن نزل بلغة العرب جملة ، وإن كان غالب القرآن قرشيا ، ولغة قريش شائعة

---

(٣٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٣ .
(٣٤) شروح التلخيص ص ٨٣ — ص ٨٤ .

بين العرب لمكانتهم بينهم . وإذا كان الأمر كذلك فما درجة فصاحة غريب القرآن ... ؟

يرى صاحب مواهب الفتاح أن غريب القرآن فصيح لكنه أقل من غيره فى الفصاحة ، لأنه من المسلم أن القرآن متفاوت فى نفسه فى البلاغة والفصاحة[٣٣]

فغريب القرآن فصيح عند أكثر العرب من أهل البادية وهم الذين يعتد بهم وقت نزول القرآن . أما عند المولدين وبعض العرب فهو غريب . وهؤلاء لا تقاس الغرابة بالنسبة اليهم ، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم .

ومع أن استعمال العرب الفصحاء هو مقياس الغرابة وعدمها عند جمهور البلاغيين إلا أن ابن درستويه قد ذكر فى شرح الفصيح لثعلب أن الفصاحة ليست فى كثرة الاستعمال ولا قلته ، وقد يلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها[٣٤] .

ولقد انتبه الجاحظ إلى ذلك فى البيان والتبيين ، ولكن ما يريده الجاحظ وابن درستويه لا يقصد به فى التعميم وإنما هو احتمال له ظروفه وملابساته .

هذه بعض الآراء التى تختلف فى كون الغرابة مطلقة أو نسبية وهى آراء تستحق الوقوف عندها لمناقشتها لكنها تحتاج إلى بحث مستقل مستفيض نسأل الله أن يعيننا على إنجازه . ومع ذلك فإننا نرجح نسبية الغرابة كما أشرنا آنفا .

٣ ـ الخلوص من مخالفة القياس اللغوى :

أى أن تكون الكلمة جارية على النحو الذى يرتضيه أهل اللغة ، وتكون الكلمة مخالفة إذا لم تكن على هذا السبيل . لكن ما القانون الذى يتقرر به حكم المفردات اللغوية .. يرى جمهور اللغويين والبلاغيين أن ذلك يتقرر بقانونين:

---

(٣١) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٣٢) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

(ا) القوانين الصرفية والنحوية .

(ب) كثرة استعمال العرب الفصحاء الذين يعتد بكلامهم .

ولذلك نرى رجلا كابن يعقوب المغربى يحدد المخالفة فى عبارة تشمل القانونين وهى قوله : « المخالفة كون الكلمة على خلاف ما يثبت فيها عن الواضع بالاستعمال الكثير[٣٥] .

لكن رجلا كالسبكى لا يرى أن مخالفة القياس تخل دائما بالفصاحة ، فقد توجد الفصاحة فيما خالف القياس . فمتى تكون مخالفة القياس مخلة بالفصاحة فى نظر السبكى ... ؟

يرى بهاء الدين السبكى أن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع فى القرآن الكريم[٣٦] . أى أن المخالفة وحدها لا تكفى بل لابد أن تتوافر معها قلة الاستعمال ، ولقد جاءت كلمة « سُرُر » فى القرآن الكريم مخالفة للقياس ولكنها فصيحة لورودها فى القرآن ، والقياس أن سرير يجمع على أسرّة ، لأن فعيل يجمع على أفعلة وفعلان مثل أرغفة ورغفان .

والذى جعل كلمة « سُرُر » فصيحة ورودها فى القرآن الكريم فقط .

ويرى جلال الدين السيوطى أن المخل بالفصاحة هو قلة الاستعمال وحدها[٣٧]

ومعنى هذا أن مدار الفصاحة عنده على كثرة الاستعمال وأن عدمها على قلته ...

ومن ثم نجده يرجع الغرابة ، والتنافر ، ومخالفة القياس إلى قلة الاستعمال ، وهو تقرير لا يخلو من التعميم .

---

(٣٥) شروح التلخيص ص ٨٩ .
(٣٦) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٣٧) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ١٨٨ ــ ص ١٨٩ .

ولقد أشرنا آنفا إلى رأى ابن درستويه الذى يخالف السيوطى فى ذلك وهو أن الفصاحة ليست فى كثرة الاستعمال ، ولا قلته ، وقد يلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس ، البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها ، ويدعوا المطرد المنقاس[٣٨] .

ويرى ابن درستويه أنه « لا يجب لذلك أن يقال : هذا أفصح من المتروك[٣٩] .

وفى مقابل ذلك يرى ابن درستويه أنه ليس كل ما ترك الفصحاء استعماله خطأ ، فقد يتركون استعمال الفصيح ، لاستغنائهم بفصيح آخر ، أو لعلة غير ذلك[٤٠] .

والجاحظ قد انتبه إلى ضرورة جريان اللفظ على قواعد اللغة وموافقته لطريقة استخدام العرب الفصحاء له ويقول الجاحظ : « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا « مكره أخاك لا بطل » و « إذا عز أخاك فهن » ، ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبى عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان[٤١] .

ونراه يعقد فى البيان والتبيين بابا فى اللحن وذمه وأثره فى إفساد الفصاحة ، وينقل عن عبد الملك بن مروان قوله : « اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأى » . وينقل القول الآتى فى آثار اللحن : « اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

---

(٣٨) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ٢٠٨ ـ ص ٢٩٠ .
(٣٩) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ٢٠٨ ـ ص ٢٩٠ .
(٤٠) البيان جـ ١ ص ١٦٣ .
(٤١) البيان جـ ٢ ص ٢١٦ .

ثم يورد لنا طائفة من الأقوال التي بها لحن يفسد فصاحة أصحابها .

وترجع أهمية ما أورده الجاحظ إلى أسبقيته في هذا المجال مما قد فتح المجال واسعا في هذا الموضوع أمام البلاغيين واللغويين ، كما أنه قد وضع جذور ما نستطيع أن نسميه (بالنقد اللغوي) وهو اتجاه في النقد قد شاع في فترات لكنه لم يأخذ العناية الكافية من الباحثين المحدثين حتى يتشكل في صورته المثلى .

ومن أبرز الذين اشترطوا موافقة القياس اللغوي في الفصاحة هو :

ابن سنان الخفاجي الذي أرجع المخالفة إلى مجموعة من الأسباب سنحاول أن نوجزها وأن نربط رأيه فيها برأي من جاءوا من بعده ووجوه الاختلاف إن وجدت وأسباب مخالفة القياس كما يراها البلاغيون واللغويون عامة والخفاجي خاصة وهي :

(ا) أن تكون اللفظة غير عربية مثل كلمة (المقراض) في قول أبي الشيص[٤٢] .

وجناح مقصوص تحيَّف ريشَه   رَيْبُ الزمان تحيّف المقراضِ

وقول أبي عبادة :

وأبَتْ تَركي الغديّاتِ والآ   صال حتى خُضِبْتُ بالمقراض

فيرى ابن سنان أن المقراض ليس من كلام العرب ، لكننا نرى أن أصل هذه المادة وهو (قرض) عربي ، ويبدو أن الذي دفع الخفاجي الى القول بأنه ليس من كلام العرب أنه لم يُسْمَع في كلام العرب الا مثنى ، ولم يخالف الجمهور في ذلك إلا سيبويه .

و(مقراض) اسم مشتق جاء على وزن (مفعال) ليدل على الآلة التي حدث بها الفعل .

---

(٤٢) سر الفصاحة ص ٦٧ .

ب ــ أن تكون اللفظ عربية إلا أنها قد عُبِّر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة مثل كلمة (الأيِّم)[٤٣] التى استعملوها مكان (الثيب) والأيّم هى التى لازوج لها سواء كانت بكرا أو ثيِّبا كقوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » ، وفسرت كلمة (الأيامى) بالنساء اللواتى لاأزواج لهن . ومن الذين أخطأوا فى استعمالها أبو تمام فى قوله :

حلَّتْ محل البكْر من معطىً وقد زفَّت من المعطى زفاف الأيِّم

وكقول أبى عبادة :

يشق عليه الريحُ كل عشيَّةٍ جيوب الغمام بين بِكر وأيمِ

ولقد استخدمها الشماخ بن ضرار استخداما صحيحا فى قوله :

يقر بعينى أن أحدِّث أنها وإن لم أنلها أيِّمٌ لم تزوَّج

ومثال كلمة (الأيِّم) كلمة (الصَّلف)[٤٤] فلقد أخطأ الشعراء عندما استخدموها بمعنى الكِبْر والتيه ، أما العرب فقد استخدموها صفة للمرأة التى لم تحظ عند زوجها ، كما استخدمها العرب صفة للرجل الذى كرهته المرأة . كما استخدموا هذه اللفظة ليدلوا بها على قلة الخير ، ومن الذين أخطأوا فى استخدامها أبو تمام فى قوله :

مامُقْرَبٌ يختال فى أشطانه ملآنُ من صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ

ومثال ذلك أيضا كلمة (قَسَط)[٤٥] التى استخدموها بمعنى (أقسط) وأقسط بمعنى عدل ، أما قَسَط فهى بمعنى جارَ وظلمَ كما جاء فى قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » ، ومن الذين أخطأوا فى استخدامها أبو عبادة البحترى :

---

(٤٣) سر الفصاحة ص ٦٧ .
(٤٤) سر الفصاحة ص ٦٨ .
(٤٥) سر الفصاحة ص ٦٩ .

شرطىَ الإنصافُ إن قيل اشترطْ وصديقى مَنْ إذا صاقَ ـقسطْ

جـ ــ من جهة الحذف من الكلمة أو النقص فيها ويشترطا حازم القرطاجنى فى الحذف أن يكون مجحفا[٤٦] كقول لبيد :

« درس المنا بمتالع فأبان »

أراد المنازل .

أما الخفاجى فإنه يقول بمطلق الحذف ، ومن ذلك عنده قول رؤبه ابن العجّاج :

« قواطناً مكة من وُرْق الحما »[٤٧]

يريد الحمام . وكقول خفاف بن ندبه :

كنواحِ ريش حمامةٍ نجديَّةٍ ومسحت باللثتين عصفَ الإثمدِ[٤٨]

يريد نواحى . وكقول مضرّس بن رِبْعى :

وطرتُ بمُنْصُلى فى يعملات دوامى الأيد يخبطن السريحا[٤٩]

يريد الأيدى .

وكقول النجاشى :

فلست بآتيه ولا أستطيعُه ولاكِ اسقنى إن كان ماؤك ذا فضلِ[٥٠]

يريد ولكن .

وكقول أبى الطيب المتنبى فى رثاء أخت لسيف الدولة .

---

(٤٦) شروح التلخيص ص ٨٩ .
(٤٧) سر الفصاحة ص ٦٩ .
(٤٨) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ تحقيق د. محمد مصطفى هدارة ، د. محمد زغلول سلام .
(٤٩) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ .
(٥٠) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٦ .

تعثَّرتْ به في الأفواه ألسنها والبُرْدُ في الطُرْق والأقلامُ في الكتبِ

فخفف المتنبي الهاء في كلمة (به) للوزن .

وهذا يبرهن على أن ابن سنان الخفاجي قد جعل مطلق الحذف مخلا ، وسببا في المخالفة فنراه يأتي بأمثلة قد حذف منها حرف أو أكثر ، ونراه يأتي بأمثلة قد حذفت حركة فقط منها .

ويورد ابن القزاز صورا كثيرة للحذف مما قد يجوز وما لايجوز .(٥١)

د — وفي مقابل جعله الحذف سببا للمخالفة يجعل الإضافة بزيادة حرف أو أكثر سببا آخر للمخالفة (٥٢) وذلك مثل إشباع الحركة فتصير حرفا كما قال ابن هرمة في رثاء ابنه :

وأنت على الغواية حين تُرْمَى وعن عيب الرجال بمنتزاح

أي (بمنتزح) .

ومثل :

وأنني حيثُما يسري الهوى بصري من حيثُما نظروا أدنو فأنظورُ (٥٣)

يريد أدنو فأنظر .

ومثل قول الفرزدق :

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة نفي الدراهيم تنْقاد الصياريف (٥٤)

---

(٥١) أنظر ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٣ ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ ، ص ١٣٤ .

(٥٢) سر الفصاحة ص ٧٠ .

(٥٣) سر الفصاحة ص ٧١ ويروى البيت في الضرائر :
وانني حيث ما يثني الهوى بصري
من حيث ما سلكوا أدنو فانظور
انظر ص ١٢٧ من الضرائر ، وهو منسوب في الضرائر الى ابراهيم بن هرمه .

(٥٤) الضرائر ص ١٢٨ .

يريد الدراهم والصيارف .

ه — من جهة إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل . [٥٥] وممن جاء باللغة الرديئة الشاذة البحترى فى قوله :

متحيرين فباهتٌ متعجبٌ   مما يرى أو ناظرٌ متأملُ

فقوله (باهت) لغة رديئة شاذة والعربى المستعمل هو بُهِتَ الرجل فهو مبهوت .

ومن ذلك أيضاً قول المتنبى :

وإذا الفتى طرح الكلام معرضا   فى مجلس أخذ الكلام اللذْ عنا

فان (اللذْ) لغه شاذة قليلة فى (الذى) .

ومن ذلك قول المتنبى أيضاً :

أيفطمُه التَّوْرابُ قبل فطامه   ويأكله قبل البلوغ إلى الأَكْل

فالتَّوْراب لغة شاذة وغير كثيرة (التراب) .

وقد يكون من جهة أن الكلمة بخلاف الصيغة فى الجمع أو غيره [٥٦] وذلك مثل قول الطرماح :

وأكره أن يعيب علىَّ قومى   هجاى الأرذلين ذوى الحنات

فجمع (إحنَة) على (حنات) وهو غير صحيح والجمع الصحيح (إحنٌ) . ومن ذلك أيضا :

« من نسج داود أبى سلاَّم »[٥٧]

يريد (سليمان) .

---

(٥٥) سر الفصاحة ص ٧١ .
(٥٦) سر الفصاحة ص ٧٢ .
(٥٧) ضرائر الشعر ص ٢١٢ ويروى «جدلاء محكمة من نسج سلام» .

ز ـ من جهة إبدال حرف من حروف الكلمة بغيره .[٥٨] ومن ذلك قول شاعر من بنى يشكر :

لهـــا أشارير من لحم مُتمَّرَةٌ   من الثعالى وَوَخْزٌ من أرانيها[٥٩]

يريد من الثعالب وأرانبها .

ومن ذلك أيضا :

ومنهل ليس بـــه حـــوازقُ   ولضفادى جمّه نقانـــق[٦٠]

يريد ولضفادع .

حـ ـ ومن الأسباب أيضا إظهار التضعيف فى الكلمة مثل قول الشاعر وهو قعنب بن ضمرة .

مهلاأعاذل قد جربتِ من ُخلقى   أنى أجود لاقوام وأن ضننوا

ومثل قول أبى النجم الذى تمثل به القزوينى وتبعه شراح التخليص :

الحمد لله العـــلىّ الاجلـــل   أعطى ولم يبخل ولم يبخل

لأن قياس التصريف فى الأصل هو الإدغام فى كلمة (الأجل) و(ضنّوا).

وبيت أبى النجم قد نقله السكاكى عن سيبويه بهذه الصورة ، لكن ابن يعقوب يورده بصورة أخرى هى : [٦٢]

الحمـد لله العلىّ الأجلل   الواحد الفرد القديم الأول

هذه هى الوجوه الشاذة عن العرف العربى الصحيح، والتى رددها وجمعها علماء النحو والبلاغة وأبرزها ابن سنان الخفاجى الذى يرى أنها مفسدة للفصاحة

---

(٥٨) سر الفصـاحة ص ٧٢ .
(٥٩) سر الفصاحة ص ٧٢ ويروى فى الضرائر ص ١٧٩ :
لهـا أشـــارير من لحم تتمـــرة
من الثعالى ووخـز من ارانيهـا
(٦٠) ضرائر الشعر ص ١٧٩ .
(٦١) ضرائر الشعر ص ١٧٢ .

ويجب أن تكون الكلمة خالية منها . ولقد أفرد ابن القزاز كتابا لضرائر الشعر وقد قام بتحقيقه أستاذنا الدكتور هداره .

وإلى جانب هذه المجموعة من الوجوه المفسدة يرى الخفاجى أن هناك مجموعة أخرى من الوجوه أقل تأثيراً فى إفساد فصاحة الكلمة وعلى الرغم من قلة تأثير هذه المجموعة إلا أن الخفاجى يفضل أن تصان الكلمة عنها ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها وهذه الوجوه فى نظره صفات نقص . ولذلك يجب أن تطرح . (٦٢)

وهذه الوجوه قد تقبل إذا وجدلها قدر من التأويل المقبول ، وقد تقبح إذا لم تؤول تأويلا مقبولا . .

وهذه المجموعة من الوجوه يرجع الفضل فى جمعها عن النحاة إلى الخفاجى ، وابن القزاز وحازم القرطاجنى .

ولقد قسم حازم الضرائر إلى قسمين :

أ ــ ضرائر مستقبحة وغير سائغة .

ب ــ ضرائر سائغة لاتستوحشها النفس .

ومن الوجوه ذات الأثر القليل فى إفساد فصاحة الكلمة مايأتى : ــ

أ ــ صرف مالا ينصرف مثل قول حسان بن ثابت :

وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا وروحُ القُدْسِ ليس لهاكفاءُ

ويقابل ذلك منع الصرف لما ينصرف مثل قول العباس بن مرداس .

وما كان حصْنٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مجْمعِ (٦٣).

ومثل قول البحترى :

هَزِج الصهيل كأنَّ فى نغماته نبرات معْبَدَ فى الثقيل الاول

(٦٢) شروح التلخيص ص ٨٨ ــ ص ٨٩ .
(٦٣) سر الفصاحة ص ٧٣ ، الضرائر ص ١١٢ .

ويقسم حازم القرطاجنى ضرائر الممنوع من الصرف إلى نوعين : [٦٤]

١ ــ نوع تستوحش منه النفس ولا تقبله مثل الأسماء المعدولة وأشد من الأسماء المعدولة استيحاشا ــ تنوين الصفة التى على وزن (أفعل) .

٢ ــ نوع مقبول وهو باقى الأسماء الممنوعة من الصرف .

وقد أخطأ بهاء الدين السبكى عندما ذكر أن الخفاجى « قد أطلق أن صرف مالا ينصرف وعكسه فى الضرورة مخل بالفصاحة .. » [٦٥]

وكما ذكرنا آنفا أن الخفاجى قد أوصى بصيانة الكلمة من هذه الوجوه التى تدخل النقصان على الفصاحة ، وأنها تقبل أحيانا « . . على أن ما ذكرته يختلف قبحه فى بعض المواضع دون بعض ، على قدر التأويل فيه وحكمه »[٦٦] .

فالخفاجى لم يطلق الحكم بالإخلال بالنسبة للممنوع من الصرف أو غيره كما توهم السكاكى ، وتبعه فى هذا الوهم جلال الدين السيوطى . [٦٧]

ب ــ قصر الممدود مثل قول الأعشى :

القارحَ العَدَّا وكل طِمِرَّة ما إن تنال يد الطويل قذالها

وفى مقابله مدُّ المقصور مثل :

سيغنينى الذى أغناك عنى فلا فقر يدوم ولاغناءُ

ويرى حازم القرطاجنى أن قصر الجمع الممدود ومد الجمع المقصور ليس مستقبحا . [٦٨]

---

(٦٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢٢٢ وما بعدها ، وعروس الأفراح ص ٨٩ ، والمزهر للسيوطى ج ١ ص ١٨٩ ــ ص ١٩٠ .

(٦٥) شروح التلخيص « عروس الأفراح » ص ٩٠ .

(٦٦) سر الفصاحة ص ٧٤ .

(٦٧) المزهر ج ١ ص ١٨٩ .

(٦٨) منهاج البلغاء ص ٢٢٥ تحقيق الحبيب بن خوجة ط تونس سنة ١٩٦٦ .

جـ ــ حذف الإعراب للضرورة ،مثل قول امرىء القيس بن حجر:

فاليوم أشربْ غير مستحقِبٍ   إثمـاً من الله ولا واغِلِ [٦٩]

ويرى بهاء الدين السبكى أن الضرائر المتعلقة بحركة إعراب الكلمة لاينبغى أن ينظر إليها المتكلم فى فصاحة الكلمة ؛ لأن الحركة زائدة على وضع الكلمة تحدث عند التركيب [٧٠]

ونحن نرى أنه يدخل فى باب اللحن ، واللحن مفسد الفصاحة لأن الإعراب فرع المعنى وقد يقلب المعنى رأسا على عقب ــ أحيانا ــ عند تغيير حركة الاعراب ،وعلى ذلك نرى أن الضرورة فى حركة الإعراب من أقبح الضرورات وهذا يخالف ماذهب اليه الخفاجى والسكاكى كما أشرنا .

د ــ تأنيث المذكر على بعض التأويل مثل

وتشرق بالقول الذى قد أذعته   كما شرِقَتْ صدر القناة من الدم

فلقد أنث الفعل فى قوله « شرقت صدر القناة » وتأويل التأنيث يرجع إلى إضافة كلمة صدر إلى مؤنث .

وفى مقابل ذلك تذكير المؤنث مثل قول عامر بن جوين الطائى :

فلا مُزْنةٌ وَدقتْ وَدْقها   ولا أرْضَ أبْقَلَ إبقالها [٧١]

فحذف علامة التأنيث من أبقلت والوجه إثباتها .

هـ ــ بعض الزيادات المكروهة مثل :

١ ــ إدخال الألف واللام على الفعل مثل :

يقول الخنا وأبغض العُجْمِ ناطقا   إلى ربنا صوت الحمار اليُجْدعُ

ومثل :

« ما أنت بالحكم الترضى حكومته »

---

(٦٩) ضرائر الشعر ص ١٣٧ .

(٧٠) شروح التلخيص ص ٨٩ ــ ص ٩٠ .

(٧١) ضرائر الشعر ص ١٦٠ .

٢ — تشديد الكلمة المخففة مثل قول الشاعر :

كان مهواها على الكلكلِّ

ومثل قول رؤبة :

ضخمٌ يحبُّ الخُلق الأضخمّا

٣ — تحريك الياء التى تقع قبلها كسرة فى الرفع والجر مثل قول الشاعر :

ما أن رأيت ولا أرى فى مدتى   كجوارِىَ يلعبن فى الصحراء

والشاهد فى هذا البيت هو كلمة (جوارى) جمع جاريه ، وكان حق الكلام الفصيح حذف الياء (جوارٍ) .

هذه هى الوجوه التى رآها النحويون مخالفة لجريان الكلمة على العرف العربى كما جمعها الخفاجى والقزاز وحازم القرطاجنى والسكاكى ، وهى كما رأينا قسمان : قسم مستقبح ويفسد فصاحة الكلمة ، وقسم آخر مكروه لأنه ينقص الفصاحه ومن الأفضل خلو الكلمة منه . كما رأينا وجوه الخلاف بين الخفاجى وحازم والسكاكى . وفى رأينا أن الخفاجى قد أصاب فى أكثر ماذهب إليه .

صلة الفصاحة بالضرائر الشعرية :

وبعد ، فثمة علاقة وثيقة بين ضرائر الشعر والفصاحة ، ولقد أوضحنا صورا كثيرة وأمثلة عديدة للضرائر كما رآها الخفاجى وحازم القرطاجنى ، وهى أمثلة وأنواع مستمدة من شعر الشعراء السابقين لهم ، ومن أراء النحاة والرواة على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم ومقاييسهم .

وإذا كانت الفصاحة الخاصة بالمفرد أو الكلام تشترط موافقة القياس اللغوى والخلوص من ضعف التأليف فهل يعنى هذا أن الضرائر الشعرية تنفى صفة الفصاحة عن الشعر الذى تظهر فيه . . . ؟

المعروف أن وصف تراكيب اللغة وبناء الألفاظ ، أى النحو والصرف ، قد استمدت ظواهره وقضاياه من الشعر الجاهلى والقرآن الكريم والحديث الشريف وشعراء القرن الأول ، وصارت أوصاف اللغة من الناحية التركيبية أو الاشتقاقية أو البناء — دليلا للرواة والنحاة والنقاد يهتدون به عند نظرتهم إلى اللغة وفنونها التى ابتدعت بعد ذلك .

لكن هذا لايعنى أن وصف اللغة قد اكتمل فى القرنين الأول والثانى ، فلقد ازدادت تلك الأوصاف اتساعا، كما أنها قد وصفت أوصافا أخرى غير أوصافها التركيبية ، ونعنى بذلك تلك الأوصاف المتعلقة بانتظام الكلام وتأليفه ومدى علاقتها بالذوق والجمال ، مما قد استقر وضعه فى النقد والبلاغة .

فالتجاوزات أو الضرورات التى يلجأ اليها الشعراء ويتجاوز عنها النقاد تختلف أنواعها بحسب مناهج النقاد ودارسى اللغة فالذى لايتجاوز عنه الرواة والنحاة قد يتجاوز عنه النقاد والبلاغيون ، لأنه يحقق فى نظرهم قيمة جمالية لا تتحقق بمراعاة مايراه الرواة والنحاة لازما . وهذه القيم الجمالية التى يراعيها النقاد والبلاغيون قد يرتبط بالأذن مثل النسق الموسيقى المتمثل فى الأوزان والقوافى وغيرهما ، وقد ترتبط بالتصوير أو الخيال الذى يتسع ويضيق ، ويعمق أو يتضح .

والفصاحة وهى تستهدف وصف اللغة من جوانب مغايرة ، قد تختلف وقد تتفق مع أنواع الضرورات فالضرورات التى تؤدى جوانبها إلى تغيير المعنى بما تشيعه فى اللغة من سوء الفهم والإفهام — هى مخلة للفصاحة ، ولا وجه لقبولها ، ويتمثل ذلك فى تغيير علامات الإعراب (٧٢) لأن الضرورة التى تغير

---

(٧٢) انظر ضرائر الشعر لابن القزاز تحقيق د. محمد مصطفى هداره ص ٩٠ ، ص ٩٨ ، ص ١٣٧ ، ص ١٦٨ .

العلامة إنما تغير وظيفة الكلمة فى الجملة مما يترتب عليه تغيير المعنى وهذا فى رأينا مخل بالفصاحة ، ولا نرى قبولا له ، لأنه أخل بالأساس الذى تقوم عليه الفصاحة ، وهو الفهم والإفهام بكلام العرب المشهود لهم بصفاء اللغة . ونخص بالذكر تغيير الإعراب الذى يترتب عليه إخلال بالفهم ، أما التغيير الذى لا يؤدى إلى سوء الفهم ، فهو فى رأينا لا يخل بالفصاحة مثل صرف ما لا ينصرف[٧٣] ومنع الصرف عما هو مصروف ، وذلك كما رأيناه فى الأمثلة التى أوردناها .

كما نرى أن الحذف أو الزيادة فى بناء الكلمة اللذين يؤديان إلى الإغلاق وسوء الفهم يخلان أيضاً بالفصاحة ، لأنهما يصرفان المعنى عن جهته المقصودة ، أما الحذف أو الزيادة اللذان لا يخلان بالفهم فهما لا يخلان بالفصاحة فى نظرنا .

كما أننا نرى أنه لا بأس من قبول الضرورات التى يتحقق بها نسق موسيقى ، بشرط ألا يؤدى تحقيق ذلك النسق إلى الإخلال بقواعد الفصاحة . ولقد أشرنا إلى بعض الضرورات التى لا تخل بالفصاحة فيما سبق .

والضرورات الشعرية مجال يتسع البحث فيه إذا ما تعلق بأوصاف اللغة ، أى بعلومها المختلفة ، مما قد يكون بحثا آخر منفردا .

٤ ـ الخلوص من الكراهة فى السمع :

يحدد القزوينى الكراهة فى السمع بأن تكون الكلمة ممجوجة تتبرأ من سماعها الأذن كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة[٧٤] والأصوات فى نظره منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه .

---

(٧٣) انظر ضرائر الشعر لابن القزاز تحقيق د. محمد مصطفى هداره ص ٨٣ .
(٧٤) شروح التلخيص ص ٩٠ .

وهذا تلخيص لما قاله الخفاجى قبله . فلقد اشترط الخفاجى فى فصاحة الكلمة أن نجد لتأليفها حسنا فى السمع ومزية على غيرها ، وإن تساوت هذه اللفظة مع غيرها فى التأليف من الحروف المتباعدة[٧٥] ولكن اللفظة قد تحسن فى نظر الخفاجى بخصوصية فى التأليف تتميز به على مثيلاتها المشتركة معها فى المخرج البعيد . « . . ومثاله فى الحروف — ع ذ ب — فإن السامع يجد لقولهم العـذيْب اسم موضع، وعذْبة اسم امرأة ،وعذب وعِذاب وعَذِب وعَذبات — ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف ، وليس سبب ذلك بُعْد الحروف فى المخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى فى تقديم العين على الذال ، لضرب من التأليف فى النغم يفسده التقديم والتأخير ، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا ، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط فى السمع . . »[٧٦] .

وقد يرجع حسن اللفظ فى السمع فى نظر الخفاجى إلى شىء آخر هو : « التأليف المختار فى اللفظة على جهة الاشتقاق »[٧٧] .

ويقرر الخفاجى شيئا هاما هو أن الحسن أو القبح شىء نحسه ونتركه لكننا لا نعرف أسبابه أو علله[٧٨] ومعنى هذا أن الجمال لا يخضع فى نظره لمقاييس ثابتة وإنما يرجع إلى المزاج الشخصى والتكوين النفسى للمتلق .

ومن أمثلة الكلمات الحسنة فى رأيه كلمة (تأنفت) فى قول الحسين بن على المغربى « ورعوا هشيما تأنّفتَ روضه . . » ومثل كلمة (تفاوَحَ) التى وردت فى قول المتنبى : —

---

(٧٥) سر الفصاحة ص٥٥ .
(٧٦) سر الفصاحة ص ٥٥ .
(٧٧) سر الفصاحة ص ٥٦ .
(٧٨) سر الفصاحة ص ٥٦ .

إذا سارتِ الأحداجُ فوق نباته   تفاوحَ مسكُ الغانياتِ ورندُه

ومثال الكلمات المكروهة فى السمع كلمة « الجرشىّ » التى وردت فى قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة له فى مدح سيف الدولة :

مباركُ الاسم أغرُّ اللقبْ   كريم الجرشىِّ شريف النسبْ

ومثل قول زهير ابن أبى سلمى :

تَقِىٌّ نَقِىٌّ لم يكثِّرْ غنيمةً   بنهكة ذى قربى ولا بحقلَّدِ

وكلمة (حقلّد) فى نظر الخفاجى تزيد فى القبح على كلمة « الجرشى »[٧٩] .

والحق أن ما ذكره الخفاجى عن حسن الوقع فى السمع أو الكراهة فى السمع — قد أثار جدلا كبيراً من بعده ، فلقد لخص القزوينى ما قاله الخفاجى وأتبعه بقوله : « وفيه نظر »[٨٠] أما شارحوا التلخيص فقد أوضحوا ما رأوه من وجهات نظر .

يرى سعد الدين التفتازانى فى شرحه المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى — أن الكراهة فى فى السمع إنما هى من جهة الغرابة الناتجة عن الوحشية ، وكلمة (الجرشىّ) فى نظره مثل كلمتى (تكأكأتم) و (افرنقعوا)[٨١] .

وقد تبعه فى هذا الرأى ابن يعقوب المغربى فى مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح .

ويرى ابن يعقوب أيضا أن حصر الكراهة فى السمع فى قبح النغم باطل مردود ، لأنه لو كان كذلك فلا تكون (الجرشىّ) غير مكروهة فى السمع إلا عند نطق خشن الصوت ، وهذا اللفظ فى نظره مقطوع بكراهته[٨٢] .

---

(٧٩) سر الفصاحة ص ٥٦ .
(٨٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .
(٨١) شروح التلخيص ص ٩٢ — ص ٩٣ .
(٨٢) شروح التلخيص ص ٩٣ .

إلا أن المغربي يعود إلى ما يقارب رأى الخفاجى وذلك عندما يرد الكراهة فى السمع إلى الغرابة ، وغير الغرابة[٨٣] بأى أن هناك أشياء ترجع إليها الكراهة غير الغرابة .

ويرى بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح أن الكراهة فى السمع من جهة الصوت لا تعلق لها بالفصاحة ، لأن السمع قد يستلذ بغير الفصيح بحسن الصوت وبالعكس[٨٤] .

ويقرر السبكى شيئا هاما هو أن هذا القسم الذى أورده القزوينى عن سابقيه لا مكان له فى فصاحة المفرد وإنما يجب أن يوضع فى فصاحة الكلام ، وبناء على ذلك يرى بهاء الدين السبكى أن كلمة (الجرشى) لا كراهة فيها[٨٥] .

ويورد السبكى رأى حازم القرطاجنى الذى يرى الكراهة فى كلمة «الجرشى» ويعلل هذه الكراهة بتتابع الكسرات ، وتماثل الحروف ، وكونها حوشية[٨٦] .

أما السيوطى فإنه يرى ما رآه سعد الدين التفتازانى ، فهو يرد الكراهة فى السمع فى كلمة (الجرشى) إلى الغرابة الناتجة عن كون الكلمة حوشية[٨٧] .

ونلاحظ من خلال هذا العرض السريع لآراء البلاغيين بعد الخفاجى أنهم يقيمون اعتراضهم على شرط الخلوص من الكراهة فى السمع — على كلمة (الجرشى) ، فلقد انصب أكثر الحديث على هذه الكلمة ، ولم يناقشوا الكراهة نفسها ، وأرجعت الكراهة فى كلمة الجرشى إلى الغرابة التى ترجع إلى الوحشية ولم يرجعوا الكراهة فيها إلى السمع والنغم لأن النغم قد يتوافر فى الكلمة غير

---

(٨٣) شروح التلخيص ص ٩٥ .
(٨٤) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٥) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٦) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٧) المزهر ج ١ ص ١٨٢ .

الفصيحة ، وفى رأينا أن هذا ممكن حدوثه لكنه لا يعنى أننا ننكر الأثر المترتب على ما يسمى بالجرس المتعلق بالكلمات .

ومعنى هذا أننا لا نقول بمطلق الحسن ولا بمطلق الكراهة فى السمع ، وإنما نرد ذلك إلى المقام وإلى وسيلة الأداء ، أى أن الكلمة التى قد تحسن فى مقام قد تكره فى الأذن فى مقام آخر ، والعكس صحيح ، كما أن الكلمة قد تحسن وقد تقبح بسبب طريقة أدائها ، فالقبح والحسن لا يخلوان من النسبية ، لأن مردهما أخيرا إلى الذوق .

٥ ـ اعتدال الكلمة فى عدد الحروف :

يرى بعض البلاغيين أن الاعتدال يكون فى تجنب الكثرة فقط ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجى ، ويرى البعض أن الاعتدال يكون فى تجنب الكثرة والقلة معا ، ومن هؤلاء : حازم القرطاجنى وبهاء الدين السبكى ، ويرى الخفاجى أن الكلمة متى زادت عن الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة[88] ومن الكثرة المستقبحة فى نظره كلمة (مغناطيسهنّ) التى وردت فى قول نصر بن نباتة :

وإياكُم أن تكشفوا عن رءوسكم ألا ّ إن مغناطيسهنّ الذوائبُ

ومثل قول أبى تمام :

فلأذْرِبيجانَ اختيالٌ بعدما كانت معرَّس عبرةٍ ونكالِ
سَمُجت ونبَّهنا على استسماجها ما حولها من نضرة وجمالِ

فنى بيتى أبى تمام كلمتان رديئتان لطولهما وكثرة حروفهما ، الكلمة الأولى (أذربيجان) غير العربية ، والكلمة الثانية هى (استسماجها) .

وكقول أبى تمام أيضا :

---

(٨٨) سر الفصاحة ص ٧٨ .

أنلته باستماعكته محلاً يفوت علوه الطرف الطموحا

فكلمة (باستماعكه) ظاهرة القبح فى نظر الخفاجى لكثرة حروفها .

وكقوله أيضا :

العيس تعلم أن حوباواتها ريح إذا بلغتك إن لم تنحر

فكلمة (حوباواتها) كثيرة الطول وهى جمع حوباء أى النفس .

وكقول المتنبي :

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

جميع سويداء بمعنى حبة القلب .

ومثل قول أبى تمام :

وإلى محمد ابتعثت قصائدى ورفعت للمستنشدين لوائى

ويرى الخفاجى أن مثل هذه الكلمات الطويلة قد يستدل على قبحها بأشياء أخرى غير قبحها الماثل فى كثرة الحروف . (٨٩)

ويرى حازم القرطاجنى أن الطول يأتى من سببين :

١ — أن يكون بأصل الوضع فى الكلمة .

٢ — أن تكون الكلمة متوسطة فتطيلها الصلة وغيرها .

ويستشهد على ذلك بكلمة (المستنشدين) التى وردت فى بيت أبى تمام السابق وكلمة (أعاضهاك) التى وردت فى بيت المتنبي :

خلت البلاد من الغزالة ليلها فأعاضهاك الله كى لا تحزنا

يرى حازم القرطاجنى وتبعه بهاء الدين السبكى وجلال الدين السيوطى أن القبح قد يكون فى الكثرة والقلة معا . والثلاثى فى نظر السبكى أفضل من الآحادى

---

(٨٩) سر الفصاحة ص ٧٨ .

والثانى « أن تكون الكلمة متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف، فإن كانت الكلمة على حرف واحد مثل (قِ) فى أمر الوصل - قبحت، وإن كانت على حرفين لم تقبح إلا بأن يليها مثلها . »[٩٠]

يصنف حازم الكلمات على قدر أصواتها [٩١] ويراها كما يلى :

المفرط فى القصر : ماكان على مقطع مقصور

والذى لم يفرط : ما كان على سبب

والمتوسط : ماكان على وتد ، أو على سبب ومقطع مقصور ، أو على سببين .

والذى لم يفرط فى الطول : ماكان على وتد وسبب .

والمفرط فى الطول : ماكان على وتدين ، أو على وتد وسبب

ويثير السبكى جدلا حول الحروف الزائدة فى الكلمة ،وهل الزيادة فى الحروف ترجع إليها الزيادة فى المعنى . . . ؟ وهل كثرة الحروف التى تزيد المعنى تخل بالفصاحة . . . ؟

يجيب السبكى على ذلك ويرى أن تكون إحدى الكلمتين أقل من ناحية المعنى من الأخرى وهى أفصح منها لأن شروط الفصاحة الثلاثة والتى يشترط الخلوص منها لا تعلق لها بالمعنى ،ويقصد بالشروط الثلاثة « الخلوص من التنافر، والغرابة ، ومخالفة القياس » .

وإنما يكون التفاضل بين الكلمتين اللتين لمعنى واحد ،ومن مادة واحدة فقط، أما المادتان المستقلتان فلا تفاضل بينهما[٩٢] . فيجوز التفاضل بين (اخشوشن) و (خشن) و (اقتدر) و (قدر) .

ويستغرب السبكى رأى التنوخى صاحب الأقصى القريب ، وابن الأثير

---

(٩٠) عروس الأفراح ص ٩١ .
(٩١) عروس الأفراح ص ٩١ .
(٩٢) عروس الأفراح ص ٩١ .

صاحب المثل السائر ، عندما قالا : إن صيغة (فاعل) أبلغ من (فعيل) لأن اسم الفاعل لا يكون إلا بمعنى الفاعل ، والفاعل قوى ، و (فعيل) يكون بمعنى الفاعل والمفعول ، فهو دائر بين قوى وضعيف ، وما يختص بقوى أبلغ مما دار بين قوى وضعيف . ولأن فاعل أشمل لشموله المتعدى والقاصر .

ويحاول السبكى أن يفنّد ما رآه التنوخى وابن الأثير ومن رأى أن زيادة الحروف لها ارتباط بزيادة المعنى بشيئين :

١ ـــ جموع القلة أكثر حروفا من بعض جموع الكثرة ، وأقل وزن لجموع القلة يتكون من أربعة أحرف (أفعل وفعلة) وهذا الوزن أكثر حروفا من (فُعْل ـــ فُعَل) ، بل إن أغلب جموع الكثرة لا يتجاوز جموع القلة فى عدد الحروف .

٢ ـــ أن اسم الفاعل من الثلاثى على أربعة أحرف (فاعل) واذا أردنا المبالغة حولناه إلى مثله فى العدد وهو (فَعِيل) أو أقل وهو (فَعِل) وهما صيغتان للمبالغة ، وإذا كان (فَاعِل) هو الأصل فيجدر أن يقترن به حرف أو أكثر إذا أريد المبالغة أو زيادة المعنى ولكننا نجد أن (فَعِل) قد نقص فى الحروف عن (فاعِل) وزاد فى المعنى عليه .

ويناقض السبكى نفسه عندما يعترف بأنه لا يستطيع أن ينكر أن زيادة الحروف يتبعها زيادة فى المعنى : « .. وقد يجاب عن فعيل بأنا لم ندّع أن العلامة مطردة منعكسة ، ولا قلنا : إن عدم زيادة الحروف يدل على عدم زيادة المعنى »[٩٣].

ويعود السبكى ليقول : إن الثلاثى أفصح من الرباعى والخماسى ، ولا ينفى هذا كون الكثير من الرباعى والخماسى فصيحا ، فالثلاثى أفصح من الرباعى والخماسى ولكن ذلك لا يتم إلا بشروط :

---

(٩٣) عروس الأفراح ص ٩٢ .

١ ـ أن تكون الكلمتان لمعنى واحد وتكون إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية .

٢ ـ ألا يكون هناك مرجح لإحداهما على الأخرى .

وإذا استعملت الرباعية مع توافر هذين الشرطين وتركت الثلاثية فيكون العدول عن الثلاثية عدولا عن الأفصح(٩٤) .

ويخلص السبكى من ذلك إلى قضية هامة هى أنه « ليس لكل معنى كلمتان فصيحة وغيرها ، فربما لا يكون للمعنى إلا كلمة فصيحة أو غير فصيحة، ويضطر إلى استعمالها »(٩٥) .

ونلاحظ أن الجدل الذى أقامه السبكى حول حروف الزيادة وعلاقتها بالمعنى لا يرتبط كثيرا بهذا الشرط الذى نحن بصدده ، ومن الأجدر أن يدخل هذا الجدل فيما ستتحدث فيه فى المستقبل عن (علاقة الفصاحة بعلم الدلالة) .

وشرط توسط الكلمة بين الكثرة والقلة يهدف به صيانة اللفظة عن الأثر القبيح الذى تتركه فى النفس وعدم التناسب والتلاؤم بينها وبين جاراتها .

وقد تعاب الكلمة بعيوب أخرى تصاحبها عند كثرة حروفها أو قلتها ، كالثقل على اللسان فى النطق ، والوقع السمج فى الأذن ، أو الغرابة الناشئة عن كونها دخيلة أو غير ذلك .

٦ ـ سلامة الكلمة من الابتـــذال :

وصيانة الكلمة من الابتذال شرط من شروط الفصاحة . ويعد الجاحظ أول من أشار اليه كما تشير الينا النصوص ، ويعترف الخفاجى بسبق الجاحظ له فى كثير مما ذهب اليه فى كتاب سر الفصاحة ، يقول الجاحظ مشيدا ببلاغة

---

(٩٤) عروس الأفراح ص ٩٣ .
(٩٥) عروس الأفراح ص ٩٣ .

الكتاب : « .. قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا »[٩٦] ويقول فى موضع آخر : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا[٩٧] .

ونراه فى المواضع التى يحذر فيها بتجنب الكلمات الوحشية يحذر من الكلمات السوقية المبتذلة .

وهو يبغى بذلك موقفا وسطا بين الوحشى والسوقى « ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص من غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه . . »[٨٩] ويستدل على مدح المتوسط بقول الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها　　　نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وانتشار السوقية والابتذال فى الألفاظ يرجع فى نظر الجاحظ إلى استخفاف الناس لأقل اللغتين وأضعفها ، وهؤلاء هم العامة الذين يستعملون ما هو أقل فى أصل اللغة ويدعون ما هو أظهر وأكثر .

ويشيد الجاحظ بدقة دلالة الألفاظ على معانيها فى القرآن الكريم[٩٩] ، فلم يذكر الجوع فى القرآن إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ــ والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حال القــدرة والسلامة . وكذلك كلمة (المطر) فالقرآن الكريم لا يستخدمها إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث.

ولقد تناول الخفاجى هذا الشرط وجمع بعض الكلمات العامية والمبتذلة التى

---

(٩٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٧ .
(٩٧) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٤ .
(٩٨) البيان جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٩٩) البيان جـ ١ ص ٢٠ .

فقدت كثيرا من دلالتها ، ومن هذه الكلمات التى جمعها الخفاجى كلمة (تفرعن)[١٠٠] المأخوذة عن (فرعون) لأن العامة قد تعودوا فى وصفهم للإنسان بالجبروت أن يقولوا (تفرعن فلان) ، ولقد وردت هذه الكلمة فى شعر أبى تمام :

جليتَ والموت مبدٍ حرَّ صفحته وقد تفرعن فى أفعاله الأجلُ

ومثل كلمة (فطير) العامية المبتذلة والتى وردت فى بيت لأبى نصر عبد العزيز ابن نُباته :

أقام قوامَ الدين زيغُ قناته وأنضج كىّ الجرح وهو فطيرُ

وكلمة (سراويلات) التى استخدمها المتنبى استخداما سيّئا فى قوله :

إنى على شغفى بما فى خُمُرها لأعفُّ عما فى سراويلاتها

وأقبح من كلمة (سراويلات) فى الابتذال كلمة (عنب الثعلب) فى قوله أيضا :

مخلوقة فى خلوقها سويداء من عنب الثعلب

ومن ذلك أيضا قول زهير بن أبى سلمى :

وأقسمتُ جهدا بالمنازل من مِنىً وما سحقت فيه المقادمُ والقملُ

ومما يعاب على أبى تمام كلمة (كيمياء) فى قوله :

ليزدْكَ وجداً بالسماحة ما ترى من كيمياء المجد تغنى وتغنم

وكلمة الجورب فى قول المتنبى :

تستغرق الكفُّ فوديه ومنكبه وتكتسى منه ريحُ الجورب الخَلِقِ

ومن ذلك أيضا كلمة (أوجعتها) التى جاءت فى بيت لنصر بن نباته :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجعتها الأخادع

---

(١٠٠) سر الفصاحة ص ٦٣ .

وكلمة (زنّى) فى بيت أبى تمام :

لو كان كلّفها عَبيد حاجة يوماً لزنّى شدقما وجديلا

وهذه الكلمات واضحة العيب وخاصة فى شعر كبار الشعراء لأنها تأتى بين الغرر فيزداد وضوح قبحها عما لو أفردت .

ويعلل الشيخ بهاء الدين السبكى الابتذال بشيئين :

١ ـــ أن تكون سخيفة فى أصل الوضع أو سقطت وابتذلت من كثرة استخدامها على لسان العامة .

٢ ـــ أن تغيرها العامة عن أصلها التى وضعت له .

والأمثلة التى ذكرناها آنفا ترجع إلى السبب الأول ، ومن الكلمات التى غيرتها العامة عن أصلها بالاستعمال كلمة (كنيف) التى كانت تستخدم فى الأصل لتدل على الساتر أو الترس كما ورد فى قول عروة بن الورد العبسى :

قلت لقومٍ فى الكنيفِ تروّحوا عشيةَ بتنا عند ماوانَ رُزَّحِ

غير أن هذه الكلمة قد انتقلت لتدل على الآبار التى تستر الحدث ، ولقد اشتهرت بهذا المعنى ، ولذلك صارتِ هذه الكلمة مكروهة مبتذلةبسبب معناها الجديد الذى انتقلت اليه .

ومثل كلمة (الدّلو) بمعنىالنجم قد أصبحتمكروهة مبتذلةبسبب استعمال الناس لها لتدل على (الدّلو) المعروف فى استخراج المياه من الآبار مثلما جاءت فى قول أبى تمام :

متفجر نادمتـــه فكأننى للدّلو أو للمِرْزَمَيْنِ نديمُ

ومثل كلمة (صُرْم) التى وردت فى قول أبى صخر الهذلى :

قد كان صُرْمٌ فى الممات لنا فعجلتِ قبل الموت بالصُّرْمِ

وتعاب هذه الكلمة لأن العامة قد أبدلت السين صادا فى كلمة (سرم)

بمعنى الدبر فصارت الكلمة لها نفس نطق (صُرْم) التى فى بيت أبى صخر الهزلى فقد أصابها الابتذال من هذه الجهة ومن ثم يحسن تركها .

ومن ذلك كلمة (غائط) التى وردت فى قول عمرو بن معد يكرب والتى تعنى البطن من الأرض :

وكم من غائط من دون سلمى　　قليل الأنسِ ليس به كتيعُ

ولكن هذه الكلمة أصبحت قبيحة لأن معناها قد تغير وأصبحت اللفظة تدل على شىء آخر مستقبح ومبتذل تتأفف منه النفس .

ومن الألفاظ المكروهة أيضا كلمة (الادبار) فى قول أبى تمام ،

وعزائما فى الرّوع معتصمية　　ميمونة الادبار والإقبال

وكلمة (المدبر) تشبه كلمة (الادبار) فى قول أبى تمام أيضا :

يضحكْنَ من أسف الشباب المدبرِ　　يبكينَ من ضحكاتِ شيب مقمرِ

ومما أصابه القبح أيضا كلمة (جنابة ، كما وردت فى بيت الشريف الرضى :

سلامٌ على الأطلال لا عن جنابة　　ولكنّ يأسا حين لم يبق مطمعُ(١٠١)

هذه كلمات قد أصابها العيب بعد الانتقال إلى معناها المبتذل ، لشيوعه بين العامة وعلوقة بألسنتهم . كما أن الانتقال قد يجلب للكلمة القبح لكن إحدى صيغها تظل مقبولة مثل كلمة (تصرم) ومضارعها (يتصرم) كما جاء فى قوم البحترى

تَصَرَّمَ الدهر لا وصل فيطمعنى　　فيما لديك ، ولا يأس فيسلينى

وكقول زيد بن معاوية :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة　　فكلٌ وإنْ طال المدى يَتَصَرَّمُ (١٠٢)

---

(١٠١) سر الفصاحة ص ٧٧ .
(١٠٢) سر الفصاحة ص ٧٧ .

فالمضارع والماضى فى البيتين مرضيان، لكن المصدر الثلاثى قبيح فى بيت الهذلى الذى ذكرناه فيما سبق .

وكما قد تقبح الكلمة بالنقل ، فإنها قد تحسن به أيضا ، فلقد نقل السبكى فى عروس الأفراح والسيوطى فى المزهر عن ابن النفيس فى كتابه الطريق إلى الفصاحة ما يفيد ذلك « . . قد تنقل الكلمة من صيغة إلى أخرى ، أو من وزن لآخر ، أو من مضى لاستقبال وبالعكس ، فتحسن بعد أن كانت قبيحة ، وبالعكس » .(١٠٣)

ومن الألفاظ التى حسنت بعد النقل :

(أ) كلمة « خوّد » التى بمعنى أسرع ، وفى القاموس : التخويد : سرعة السير ، وهى قبيحة فى نظر ابن النفس ولكن هذه الكلمة يقل قبحها — فى نظره — إذا جعلت اسما « خودا » وهى المرأة الناعمة .

(ب) وكذلك كلمة (ودع) تقبح فى صيغة الماضى ، لأنها لا تستعمل إلا قليلا ، لكنها تحسن فعل أمر (دعْ) أو فعلا مضارعا « يدع » ، ولقد ورد المزيد بالتضعيف فى الماضى من هذه المادة فى قوله تعالى : « ما ودّعك ربك وما قلى » وهذا يخالف المجرد الذى رآه ابن النفيس قبيحاً .

(جـ) ومن ذلك أيضا لفظ (اللب) بمعنى العقل ، فهو يقبح مفردا ، (١٠٤) لكنه لا يقبح مجموعا كقوله تعالى « ... لآيات لأولى الألباب » ويقرر ابن النفيس أن لفظ (اللب) لم يرد مفردا إلا مضافا مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من أحدكن ... » كما ورد مضافا إليه فى قول جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك له ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا

(د) وكذلك كلمة الأرجاء تحسن مجموعة كقوله تعالى : « والملك على أرجائها » كما لا تحسن مفردة إلا مضافة مثل : رجا البئر .

---

(١٠٣) عروس الأفراح ص ٥٩٤ المزهر جـ ١ صـ ١٩٨ — ص ١٩٩ .
(١٠٤) عروس الأفراح ص ٩٤ ، المزهر جـ ١ ص ١٩٨ — ص ١٩٩ .

(هـ) ومن ذلك كلمة « الأصواف » تحسن مجموعة نحو قول تعالى :« ومن أصوافها ، ولا تحسن مفردة كقول أبى تمام :

« فكأنما لبس الزمان الصوفا »

(و) وقد يحسن المفرد ويقبح الجمع مثل المصادر كلها ، وكذلك : (طيف) و (طيوف) فتحسن الأولى ، وتقبح الثانية .

أما (بقعة) فإنها لا تحسن ، وكذلك جمعها (بقاع) فانه لا يحسن إلا مضافا مثل بقاع الأرض .(١٠٥)

وقضية النقل وما تؤدى إليه من آثار فى اللغة ، من القضايا التى يطول الحديث فيها ، وهى لا تختص بلغة دون أخرى فهى ظاهرة تبدو واضحة فى اللغات الحية ، لأن طبيعة التطور الحضارى يدفع إلى النقل أو استعمال صغية وترك الأخرى ، ومقياس الحسن والقبح فى الألفاظ لا يرتبط بسبب واحد بل تساهم عدة أسباب فى ترجيح لفظة على أخرى ، وهذه الأسباب يمكن أن نوجزها فيما يأتى :

١ — ارتباط اللفظة باعتبارات دينية كما يبدو من استعمال القرآن الكريم لبعض الألفاظ ، وتفضيلها على غيرها ، فتقع تلك الألفاظ فى النفس موقعا حسنا لمكانة ذلك الكتاب المقدس فى نفوس الناس ، وللصياغة الفنية الرائعة لهذه الألفاظ ، والقرآن الكريم لا يجارى فى روعة استخدامه للألفاظ ومدى ملاءمتها لجاراتها وذلك كما رأينا فى تفضيل صيغة على أخرى ، أو استعمال الجمع وترك المفرد وغير ذلك مما فصله البلاغيون الذين أقاموا درسهم على النص القرآنى المعجز .

٢ — قد تحسن اللفظة لسهولة مخارجها ، فلا صعوبة فى نطقها ، ولا تنافر يجهد الناطق والسامع ، ولا كثرة مذمومة فى عدد أحرفها ، ولا غرابة على ناطقيها وسامعيها . فسهولة المخرج لحروف الكلمة ، وشيوعها على ألسنة الناطقين وآذان السامعين يجعلها مقبولة مستساغة موصوفة بالحسن والعذوبة ، وعدم توافر هذه العوامل يؤدى إلى القبح والنفور .

---

(١٠٥) عروس الأفراح ص ٩٤ .

٣ ـــ قد تقبح بسبب ارتباطها بالمعنى القبيح أو المنفّر الذى يتأفف منه الناس وذلك مثلما يحدث عند سماع ألفاظ الروائح الكريهة، والقاذورات ، وفضلات الإنسان والحيوان ، كما تقبح تلك الألفاظ المتصلة بالملابس الداخلية أو المتصلة بالجنس .

والملاحظ فى هذه الألفاظ أنها تتغير وتستبدل بغيرها ، وذلك لأن الناس يحاولون تجميل الحياة ، فيلجأون إلى تغليفها بغلالة جميلة من الألفاظ والمعانى ، لكن سرعان ما تستهلك وتخلق تلك الأغلفة ، وتبتذل ، فيلجأ الناس من جديد إلى ألفاظ أخرى جديدة لتغطى مايشعرون به من قبح .

وتفسيرنا لهذا التغير المستمر فى تلك الألفاظ هو أنها ألفاظ متعلقة بحاجات الإنسان وغرائزه وتلك مسائل يشترك مع الحيوان فيها ، ورغبة منه فى أن يترفع عن حيوانيته ، فإنه يتسامى بما يشعره أنه متميز فيه عن الحيوان . ونعنى بذلك الكلام أو اللغة ، فالكلام الجميل المستعذب يجمل الحياة ، وينشر السعادة والوفاق بين الناس ولانبالغ إذا قلنا : إن أكثر الخلافات التى تنشأ بين الناس يكون سببها سوء التعبير المتعمد وغير المتعمد .

ويرى السبكى أن الابتذال فى الألفاظ ليس وصفا ذاتيا ، ولاعرضا لازما ـ بل هو لاحق من اللواحق المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان ، وصقع دون صقع.[١٠٦] كما أننا نلاحظ أن الألفاظ التى تسقط فى مهاوى الابتذال والتى قد يشعر المثقفون نحوها بضرورة الترفع ـ يمكن أن تعاد إليها طلاوتها ؛ ويرجع ذلك إلى الأدباء البارعين الذين يستطيعون وحدهم أن ينقذوا أو ينتشلوا تلك الألفاظ من بحر الابتذال ، وذلك باستعمالاتهم المبتكرة الفريدة لتلك الألفاظ . وهذا سنشير إليه إن شاء الله فيما سنكتبه عن التغير الدلالى الذى يلحق بالألفاظ ، وهو تغير قد يكون انحطاطيا هابطا أو متساميا ، وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم المعنى أو الدلالة .

---

(١٠٦) عروس الأفراح ص ٩٣ .

ويرى بعض الباحثين أن هناك ترتيبا للألفاظ بحسب الحسن والقبح ، وذلك مثلما فعل حازم القرطاجنى الذى رتب الألفاظ بحسب الابتذال والغرابة وما يترتب عليهما من قبح ، وبحسب الخلوص منهما وما يترتب على ذلك من حسن ، فالكلمة عنده على أقسام :

الأول : ما استعملته العرب دون المحدثين ، وكان استعمال العرب له كثيراً فى الأشعار وغيرها ، فهذا حسن فصيح .

الثانى : ما استعمله العرب قليلا ، ولم يحسن تأليفه ولا صيغته ، فهذا لا يحسن إيراده

الثالث : ما استعمله العرب ، وخاصة المحدثين [١٠٧] دون عامتهم ، فهذا حسن جداً لأنه خلص من حوشية العرب ، وابتذال العامة .

الرابع : ما كثر فى كلام العرب وخاصة المحدثين ، وعامتهم ، ولم يكثر على ألسنة العامة ، فلا بأس به .

الخامس : ما كان كذلك ، ولكنه كثر فى ألسنه العامة ، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن ذلك ، فهذا يقبح استعماله لابتذاله .

السادس : أن يكون ذلك الاسم كثيرا عند الخاصة والعامة ، وليس له اسم آخر ، وليست العامة أحوج لذكره من الخاصة ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المهن ، فهذا لا يقبح ولا يعد مبتذلا ، مثل لفظ الرأس والعين .

السابع : أن يكون كما ذكرناه ، إلا أن حاجة العامة إليه أكثر ، فهو كثير الدوران بينهم كالصنائع ، فهو مبتذل .

الثامن : أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى ، وقد استعملها بعض العرب نادرا لمعنى آخر ، فيجب أن يجتنب هذا أيضا .

التاسع : أن تكون العرب والعامة استعملوها دون الخاصة ، وكان استعمال العامة لها من غير تغيير ، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلا ، وعلى التغيير قبيح مبتذل .

---

(١٠٧) وردت المحدثين بالياء فى المزهر وعروس الأفراح .

وهذه الأقسام التى ذكرها حازم القرطاجنى يمكن أن يكون ترتيبه لها مقبولا بوجه عام ، لكن هذه الأقسام لا تتصف بالثبات والإطلاق وذلك لما أشرنا إليه آنفا عن النقل والتغير الدلالى للألفاظ سواء كان تغيرا نحو الهبوط والانحطاط أم إلى الارتفاع والارتقاء ذلك التغير الذى يرتبط فى كثير من حالاته بموقع اللفظة فى نظم العبارة ودلالتها على المعنى ، أو فيما يعبر عنه النقد الحديث بتلازم الشكل المضمون .

ونعود فنقول : ماموقفنا من كلمة استعملها القرآن ثم ابتذلها الناس باستعمالهم لها فى عصر من العصر . . ؟ موقفنا فى الحقيقة مزدوج ، فالكلمة بلا شك فصيحة باستعمال القرآن لها ، لكننا نحكم عليها بالابتذال عندما تبتذل بالاستعمال فموقفنا فى الحقيقة مزدوج ، ويظل ذلك الموقف مزدوجا حتى يستعملها أديب بارع وينتشلها من الابتذال .

إلى جانب هذه الشرط والشروط التى اشترطها البلاغيون فى فصاحة المفرد ـ نجد الخفاجى يضع شرطا آخر قد استلهمه من أبى العباس المبرد كما يصرح هو بذلك هو :

٧ ـ خلوص الكلمة من تصغير التعظيم وتصغير الكلمة التى نطق بها العرب مصغرة :

والخفاجى يرى مايراه أبو العباس المبرد من أن التصغير فى كلام العرب لم يدخل إلا لنفى التعظيم ، ولا فائده من التصغير ــ فى نظر الخفاجى ــ إذا وضع للتحقير والتعظيم معا .[١٠٨] ومن أمثلة التصغير الذى ينكره الخفاجى تصغير التعظيم فى كلمة (دويهية) التى وردت فى البيت الآتى :

وكل أناس سوف يدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصفر منها الأنامل

وعلى هذا يحمل الخفاجى كلمة (لييلتنا) الواردة فى بيت المتنبى :

أُحادٌ أمْ سداسٌ فى أحــادِ لُيَيلتنا المنوطة بالتنادى

فتصغير التعظيم مخل بفصاحة المفرد فى نظر ابن سنان الخفاجى كما وضح فى كلمتى (دُوَيْهِيَة) و (لُيَيْلَتَنَا) [١٠٩]

---

(١٠٨) سر الفصـاحة ص ٨١ .
(١٠٩) سر الفصـاحة ص ٨١ .

ومن التصغير المعيب عند الخفاجي أيضا : تصغير الأسماء التي لم ينطق بها إلا مصغرة ، مثل كلمتى (الأُجَيْنِ) و (الثُّرَيَّا) فليس للتصغير فيهما حسن يذكر(١١٠) ولهذا عاب على المتنبي قوله :

إذا عذلوا فيها أجبت بأنَّةٍ حُبَيِّبَتَا قلبي فؤادي هَيَا جُمْلُ

أما التصغير الذي يحسن في نظره هو الذي تكون فيه الكلمة قد عبرّ بها عن شيء لطيف ، أو خفي ، أو قليل ؛ أو ما يجري مجرى ذلك ، ومن أمثلة ذلك التصغير الذي يقع موقعا حسنا قول الشريف الرضي :

يولّع الطل برديْنا وقد نسمتْ رُوَيْحَةُ الفجر بين الضَّالِ والسَّلَمِ

فكلمة (رُوَيْحَة) هنا حسنة ، لأنها تصغير للريح عندما تكون نسيما مريضا ضعيفا . ومن ذلك أيضا قول أبي العلاء صاعد بن عيسى الكاتب(١١١).

إذ لاح من برق العقيق وُمَيْضَةٌ تدقُّ على لمح العيون الشوائم

فالتصغير في كلمة (وُمَيْضَة) قد حسن ، لأن الوميضة هنا خفية تدق على من ينظرها .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعرى :

إذا شربتْ رأيت الماء فيها أُزَيْرق ليس يستره الجران

فالماء قليل يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل ، لذلك حسن وروده مصغرا

ومن أمثلة تصغير القلة الذي يحسن قول الشريف الرضي :

زال وأبق عنــــد وُرَّاثه جُذَيمَ مال عرّقَتْهُ الحقوقْ

فكلمة (جذيم) أفادت قلة المال الموروث .

ومن التصغير المختار عند الخفاجي قول المخزومي :

وغاب قُمير كنت أرجو طلوعه وروّح رُعيان ونوّم سُمَّرُ

(١١٠) سر الفصاحة ص ٨٠ .

(١١١) سر الفصاحة ص ٧٩ .

فقد جعله الشاعر هنا قمرا ، لأنه كان هلالا غير كامل ، ويمكن الدلالة على ذلك بأن يقول : إن القمر قد غاب فى أول الليل وقت نوم السمر ، والقمر إذا كان هلالا غاب فى ذلك الوقت(١١٢) .

فالتصغير الذى يقبح عند الخفاجى نوعان فقط :

١ — تصغير التعظيم .

٢ — والتصغير الذى يطرأ على الكلمة التى نطق بها مصغرة .

وهذان النوعان مخلان بفصاحة المفرد فى نظره ، أما أنواع التصغير الأخرى فإنها تحسن ، ولا تفسد فصاحة الكلمة .

وهذا الشرط قد أبرزه الخفاجى وانفرد به ، وقد استلهمه من المبرد ، ولم يصنفه البلاغيون من بعده فى شروط فصاحة المفرد أو غير المفرد .

وبعدُ ، فهذه هى القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلمة المفردة حتى تتصف بالفصاحة ، وقد وجدنا أكثرهم قد اقتصر على ذكر الشروط الثلاثة الأولى وهى الخلوص من التنافر ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى ، كما أنهم قد اختلفوا فى شرط (كراهة السمع) فقد أرجعه بعضهم إلى التنافر ، كما أرجعه البعض الآخر إلى الغرابة ، كما رأينا فى كلمة (الجرشىّ) التى وردت فى بيت المتنبى .

وقد أضاف الخفاجى شروطا أخرى قد استلهمها من سابقيه ، كالابتذال الذى اشترط الخلوص منه وقد استلهمه من الجاحظ ، وتصغير التعظيم الذى استلهمه من المبرد .

ولا شك أن الخفاجى صاحب فضل كبير فيما فعله وجمعه وقسمه ،وذكره عن فصاحة المفرد .

وقواعد المفرد التى جاءت متناثرة فى كتب البلاغيين واللغويين أوصاف للغة

---

(١١٢) سر الفصاحة ص ٧٩ .

فى جانب من جوانبها ، وهذه الأوصاف قد اجتهد علماء البلاغة واللغة لإبرازها وإخراجها كاملة ، وفى الحقيقة كانت نظرتهم قائمة على الشمول ، لأنهم قد أرادوا أن يستخلصوا قواعد عامة يمكن تطبيقها على مفردات اللغة فى كل العصور لتكون شبيهة بقواعد النحو . لكن هذا المنطلق الذى قد بدأوا منه لم يكن كافيا ، لأن النظرة إلى الدرس اللغوى فى النحو والصرف تختلف عن نظرة الدرس البلاغى إلى اللغة ، ومن الواجب أن يكمل كل منهما الآخر ، فالبلاغة — وهى فن القول — تقوم على التركيب ، أما النحو فإنه يقوم على التحليل ، وهذا التكامل يجب أن يكون فى اعتبار الدارسين عند البحث اللغوى .

ويمكن أن نوضح شيئا من ذلك فيما نحن بصدده الآن ، ففصاحة المفرد قد حددها البلاغيون بشروط قد أصبحت قوالب وأشكالا جامدة ، فتنافر الحروف مثلا شرط قد وضعه البلاغيون ، لكنهم لم ينظروا إلى التنافر نظرة لها ارتباط بالناحية المعنوية والجمالية ، بل إنهم عندما أرادوا تفسير التنافر لم يفسروه تفسيرا دقيقا ، فلقد أرجعوه إلى مطلق القرب أو البعد فى المخارج ، وقد تصدق نظرتهم العامة إلى التنافر ، لكن الدراسات الصوتية الحديثة قد أوضحت أشياء كثيرة بما لها من إمكانات ، وسنفصل ذلك فى الفصل الذى سنتناوله عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .

كما أن التنافر الذى حذر منه البلاغيون قديما له دلالة جمالية فى نظر المحدثين الذين يرون فى كثير من شواهده حكاية صوتية تتلاءم مع معانيها ، ومع أننا نتناول العلاقة بين التنافر والحكاية الصوتية بحذر إلا أن هذا لا يمنع من وجودها ، ووجود المقتنعين بها اقتناعا تاما(١١٣) .

---

(١١٣) انظر ما كتبه الدكتور محمد النويهى فى تطبيقاته للحكاية الصوتية على الشعر الجاهلى فى كتابه : الشعر الجاهلى ـ الجزء الاول .

أما الغرابة فلا ينبغى أن ينظر إليها نظرة مطلقة لأن ما هو غريب علينا اليوم لم يكن كذلك فى عصر آخر ، وما نراه اليوم فصيحا قد يوصف بالغرابة عند أجيال لاحقة . ولقد استطاع البلاغيون العرب أن يدركوا ذلك بذكاء عندما ربطوا بين الغرابة وعدم الاستعمال ، وخاصة استعمال القرآن الكريم ، فاشترطوا ورود اللفظة فى القرآن الكريم حتى تنتفى عنها الغرابة . ولقد قمنا بتفسير الغرابة بأسباب فيما سبق . كما أشرنا أيضا إلى موقفنا من إطلاق الغرابة ونسبيتها .

أما شرط الخلوص من مخالفة القياس اللغوى فيجب أن تراعى فيه اعتبارات كثيرة تتعلق بالوجوب والجواز ، كما تتعلق أيضا بلغة الشعر ولغة النثر ، فما يمكن التجاوز عنه فى لغة الشعر ، لا يجوز فى لغة النثر ، لأن التجاوز فى لغة الشعر يؤدى إلى ما يعوض عنه من قيم فنية أخرى كالنسق الموسيقى أو التصويرى، ومن ثم كانت قضية الضرائر فى الشعر من القضايا التى يجب أن تعالج من جانبين: جانب لغوى وهو الجانب النحوى الصرفى وكذلك الصوتيات ، وجانب بلاغى يعالج ما يترتب على مخالفة القياس من ألوان فنية أو جمالية . أما إذا لم يتحقق من مخالفة القياس أو الضرورات الشعرية ألوان فنية جمالية فإن ذلك يؤدى فى نظرنا إلى الفساد ، وكثرة اللجوء إلى تلك الضرورات يدفعنا إلى الشك فى قدرة الشاعر على استيعاب قوانين اللغة . لذلك لا نسلم بأن ما وقع فيه الشعراء المحدثون ضرورات شعرية ، بل هى أخطاء إذا لم تكن موكولة عن القدماء ، وذلك لأنها جاءت بعد عصر الاحتجاج .

* * *

ثانيــا : القواعد التى يشترط وجودها فى فصاحة الكلام :

رأينا فيما سبق أن كلمة (الفصاحة) وصف يطلق على المفرد مثل : كلمة فصيحة ، كما أنها وصف يطلق أيضا على الكلام مثل قولنا : كلام فصيح .

وقد اختلف البلاغيون فى مرادهم بلفظة (الكلام) ، فهل المراد بها ما ليس

بـكلمة . . ؟ أو أنها قد قصد بها المركب الإسنادى فقط . . ! أى أنها تشمل الـكلام المفيد الذى يحسن السـكوت عليه فقط . . أو أنها تشمل أيضا الـكلمات المنتظمة التى لم يكتمل معناها . . . ؟

والملاحظ أن وصف الـكلمة المفردة بالفصاحة لا إشكال فيه ولا خلاف ، وكذلك وصف المركب الإسنادى بالفصاحة ، لأنه عندئذ كلام مفيد يحسن السكوت عليه .

أما المركب غير المفيد مثل المركب الإضافى والمزجى ، وكذلك جملة الصلة ، وجملة الشرط ، وجملة الجواب — ففى ذلك آراء ثلاثة : رأى يرى أنه داخل فى الـكلام مثل بيت الشعر الذى يوصف بالفصاحة مع عدم اشتماله وحده على الإفادة ، ويرد صاحب مواهب الفتاح على هذا الرأى بأن وصفه بالفصاحة لا يستلزم تسميته كلاما حتى يدخل فى مسماه ، وإنما المقتضى لدخول المركب غير المفيد فى الـكلام أن يقال فيه مثلا : هذا كلام فصيح ، لا وصفه بالفصاحة فقط ، لأن الوصف بالفصاحة أعم من التسمية بالـكلام ، والأعم لايستلزم الأخص[١١٤] .

أما الرأى الثانى وهو الأرجح أنه داخل فى فصاحة المفرد ، وأن اتصافه بالفصاحة يكون باعتبار فصاحة المفردات ، وسبب ذلك أن الـكلام إذا أطلق فإنه ينصرف للمفيد . . ، فيـكون مقابله ما ليس كذلك ، وبذلك يدخل فى المفرد المركب غير المفيد . ويبدو ذلك واضحا إذا نظرنا إلى ما يقابل المفرد ، فإننا نرى المثنى والجمع من الناحية العددية ، ونرى المركب من الناحية اللفظية ، كما نرى الـكلام فى مقابله المفرد من الناحية المعنوية ، ويرى سعد الدين التفتازانى أن مقابلته بالـكلام قرينة دالة على أنه أريد به المعنى الأخير أى ما ليس بكلام[١١٥] .

---

(١١٤) مواهب الفتـــاح فى شرح وتلخيص المفتـــاح لابن يعقـــوب المغـــربى ص ٧١ .

(١١٥) مختصر السعد التفتازانى على تلخيص المفتاح للقزوينى ص ٧٢ .

أما الرأى الثالث فهو رأى بهاء الدين السبكى الذى يرى أن هذه الأنواع من التراكيب قد خرجت عن المفرد ولم تدخل فى الكلام ، ويرى السبكى[(١١٦)] أنه من الأفضل أن تستبدل كلمة (الكلام) بكلمة (المركب) لأن المركب يشمل المفيد وغير المفيد .

وفصاحة الكلام التى نحن بصدد الحديث عن قواعدها نقصد بها فصاحة الكلام المفيد الذى يحسن السكوت عليه، لأننا نرى أن فصاحة المركب غير الإسنادى متضمنة فى فصاحة المفرد من ناحية ، وفى فصاحة الكلام من ناحية أخرى ، فالحديث عن فصاحة المفرد وفصاحة الكلام يغطى فصاحة المركب غير الإسنادى.

وسنتناول الآن القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلام حتى يوصف بالفصاحة ، وهذه الشروط لابد أن تكون مصحوبة بفصاحة المفرد .

ولقد اشترط القزوينى ثلاثة شروط مضافة إلى فصاحة المفرد ، لكن شراح التلخيص قد أضافوا شروطا أخرى قد جمعوها عن الذين سبقوه وسنوضح ذلك فيما بعد . وسنورد قواعد فصاحة الكلام مفصلة كما يلى : —

١ ـ **خلوص الكلام من ضعف التاليف :**

والمراد بالضعف هنا أن يكون الكلام جاريا فى تركيبه على خلاف القانون المشهور عند جمهور النحويين ، وإن كان بعضهم يجوز ذلك التركيب .

ومن أمثلة الضعف التى توقف عندها البلاغيون والنحاة ـــ رجوع الضمير إلى المتأخر لفظا ورتبة مثل : (ضرب غلامُه زيدا) .

وقد اختلف فى جواز ذلك ، ويرى جمهور النحويين أن ذلك ممتنع ، وتوضيح العلة فى امتناعه أنهم اعتبروا الغلام هو الضارب ، فقد ذكر ضمير زيد قبل أن يذكر لفظ (زيد) حقيقه وتقديرا ، لأنه فى رتبة التأخير لكونه مفعولا ، ولم يذكر معناه ، وليس فى حكم المذكور ، ولذلك اعتبر هذا التأليف ضعيفا .

---

(١١٦) عروس الافراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٣ .

لكن هذا جائز فى حالة كون زيد فاعلا مثل: (ضرب غلامَه زيدٌ) فزيد هنا فى تقدير التقديم . ولا ضعف هنا .

وتوجد حالات أخرى يجوز فيها عودة الضمير على المتأخر مثل :

الإضمار بعد ذكر مايتضمن معناه كقوله تعالى : «اعدلوا هو أقرب للتقوى» فان الضمير عائد إلى العدل المفهوم من كلمة (اعدلوا) . ومثل ذلك أيضا :

جَزَى ربُّهُ عنِّى عدىَّ بن حاتم جزاءَ الكلاب العاويات وقد فعل

فان الضمير هنا عائد إلى مصدر جزى .

ويجوز الإضمار أيضا قبل ما لم يذكر لفظه ويكون فى حكم المذكور(١١٧). ويكون ذلك بأن لا يتقدم ما يدل على معناه ، ولايتقدم لفظه صريحا أو تقديرا مع وجود نكتة فى الإضمار، كالإبهام ثم البيان ليتمكن فى ذهن السامع عند اقتضاء المقام ، ويتضح ذلك فى ضمير الشأن مثل : (هو زيد قائم) . كما يتضح أيضا فى ضمير رب كقول الشاعر :

ربه فتية دعوت إلى مـــا يورث الحمد دائمـــا فأجابوا

ومن الضعف أيضا فى نظر الخفاجى تغير الكنايات ، وعدول الضمائر عن النسق(١١٨) كما فى قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

فتاتان أمّـا منهما فشبيهة الـ هلال وأخرى منهما تشبه الشمسا

فتاتان بالنجم السعيد وُلدتما ولم تلقيا يوماً هَوانا ولا نحسا

فى قوله ولدتما انتقال من الغيبة إلى الخطاب ، وكان من الواجب عليه أن يقول (ولدتا) ، وهذا التغيير جعل الكلام الثانى كالمنقطع عن الأول .

وشبيه بهذين البيتين بيت أبى الطيب المتنبى :

قومٌ تفرستِ المنايا فيكُمُ فرأت لكم فى الحرب صبر كرامِ

---

(١١٧) مواهب الفتاح ص ٩٩ .

(١١٨) سر الفصاحة ص ٩٨ .

ووجه القول أن يقول : قوم تفرست المنايا فيهم فرأت لهم .

وقد رأينا فيما سبق أن الخفاجى قد اشترط فى فصاحة الكلمة المفردة كون الكلمة خالية مما ينكره أهل اللغة ومايرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة ، ولكن الخفاجى قد ذكر خلال ذلك وجوها تصلح لأن تصنف فى الشرط الذى نحن بصدده أى خلوص الكلام من ضعف التأليف ومن ذلك حذف حركة الإعراب التى بها تظهر وظيفة الكلمة فى الجملة مثل امرىء القيس ابن حجر :

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثمـــا من الله ولا واغلِ

لحذف حركة إعراب كلمة مفردة لايتعلق بها فقط، وإنما يتعلق بها وبجاراتها عما قد يترتب عليه خلل أو تعقيد فى المعنى .

ويرى الشيخ بهاء الدين السبكى أن الضعف ربما كان فى النثر دون الشعر لأن ضرورة الشعر كما تجيز ما ليس بجائز فقد تقوّى ما هو ضعيف ، فعلى البيانى أن يعتبر ذلك فربما كان الشيء فصيحا فى الشعر ، غير فصيح فى النثر ، ولذلك جوز جماعة (ضرب غلامه زيدا) فى الشعر فقط ، وابن مالك هو المجوز لهذا فى النثر[119] .

ووجوه الضعف التى اشترط البلاغيون خلو الكلام منها حتى يصبح فصيحا ــ كثيرة ومنثورة فى كتب اللغة ، وفى دواوين الشعراء وخاصة أولئك الشعراء الذين كانوا يتعمدون كسر البناء مثل المتنبى وأبى تمام ، ولقد اهتم النقاد بتتبع شعرهم وما فيه من مآخذ قد كثر الجدل فى تفسيرها .

وشرط ضعف التأليف الذى اشترطه البلاغيون خلوص الكلام منه لايتعلق

---

(١١٩) عروس الافراح ص ٩٦ .

بقضايا النحو فقط ، بل يتعداه إلى قضايا بلاغية ونقدية ، وأهم تلك القضايا ما يتعلق بالوضوح والإبهام ، ونحن قد بينّا فيما سبق أن الإبانة والوضوح يرتبطان ارتباطا وثيقا بمفهوم الفصاحة ، فالكلام الذى يشيع فيه الغموض يؤدى إلى عدم الفهم أو سوء الفهم، وهذا لايتحقق مع الهدف الذى يسعى الكلام الفصيح إلى تحقيقه ، وهو الفهم والإفهام بالكلام الصريح الذى خلص عما يعوقه نطقا وكتابة ، المطابق لقوانين اللغة .

واللغة العربية التى تعتمد على الإعراب ، لا تُعْرَفُ وظائف الكلمات بها إلا عن طريق الإعراب الذى يتخذ علامات تدل على أركانه ، وعن طريق تلك العلامات التى توضح وظائف الألفاظ والجمل — يتحقق الفهم السليم للمعانى . أما إذا اختلفت علامات الإعراب عما هو معروف فى قوانين النحو ،فان المعانى لا بد أن تتغير تبعا لذلك ، وهذا التغير يؤدى قطعا إلى خلط المعانى وسوء الفهم .

وهذا يخالف ما نراه فى اللغات التى تخلصت من الإعراب ، فإن وظائف الكلمات فى تلك اللغات تعرف بمواضعها داخل الجمل ، وتعرف معانيها تبعا لذلك .

فضعف التأليف له علاقة وثيقة بالغموض والإبهام الذى يؤدى إلى التعقيد الذى سنفصل الحديث عنه فيما سيأتى إن شاء الله .

وضعف التأليف يؤدى إلى التعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى ، والفصاحة تستهدف وضوح المعنى لتحقيق الفهم والإفهام ، ومن أجل ذلك تراعى بساطة التركيب حتى تتلاءم مع معانيها بسهولة .

ونستطيع أن نفسر ضعف التأليف بشيئين اثنين هما :

١ ـ أن يكون المعنى الذى يريد المتكلم أن يعبر عنه غير واضح فى ذهن صاحبه ، وعندما يعبر عنه يلجأ إلى تراكيب لا تؤدى المعنى المراد .

٢ ـ أن تكون مقدرة المتكلم أو الكاتب فى الناحية اللغوية غير كاملة ، فيلجأ إلى التعبير عن معانيه بتراكيب يعتقد أنها صحيحة ، لكنها فى حقيقة الأمر ضعيفة أو غير صحيحة .

فمراعاة قواعد اللغة أمر ضرورى عند نظم الكلام حتى تتضح معانيه التى يستهدف إيصالها إلى السامع أو القارىء ، ولقد أصاب البلاغيون عندما اشترطوا هذا الشرط فى فصاحة الكلام .

وسنوضح ـ إن شاء الله ـ ما يترتب على الضعف من نتائج كالغموض أو التعقيد بنوعيه .

٣ ـ خلوصه من تنافر الكلمات :

والجاحظ أول من فصّل القول فى تنافر الكلمات وأثره ، ويرى أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

وينقل الجاحظ إحساس الشعراء والرواة بكراهة تنافر الكلمات ، ووصفهم للكلام المتنافر بأنه كأولاد العَلاّت وكبعر الكبش ، كالبيت الذى أورده عن خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد عَلّة ... يكُدُّ لسان الناطق المتحفّظ

وكبيت أبى البَيداء الرِّياحىّ :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه ... لسانُ دعىٌّ فى القريض دخيل (١٢٠)

---

(١٢٠) البيان جـ ١ ص ٦٦ ـ ص ٦٧ .

ومن أمثلة الألفاظ المتنافرة عند العرب ذلك البيت الذى أورده الجاحظ وذاع بين علماء البلاغة ، ونسبوه إلى الجن وهو :

وقبرُ حربٍ بمكان قفر ... وليس قربَ قبر حرب قبر

كما أورد بيتا لأحمد بن يسير فى أحمد بن يوسف حين استبطأه :

لم يضرْها ، والحمد لله ، شىء ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول[١٢١]

ونقل البلاغيون البيت المنسوب إلى الجن وجعلوه شاهدا على المتناهى فى الثقل ، وجعله أبو الحسن الرمانى شاهدا على المتنافر الذى هو نقيض التلاؤم — عنده ، لأن التأليف فى نظره — على ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا[١٢٢] .

ومثال المتلائم الذى فى الطبقة الوسطى عند الرمانى الأبيات التى أوردها الجاحظ عن أبى حية النميرى والتى عدّها مثالا لما لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر اجزاؤه وهى :

رمتنى وسترُ الله بينى وبينَها ... عشيةَ آرام الكناس رميمُ

رميم التى قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم ألا يزالَ يهيم

ألا رب يوم لو رمتْنى رميتُها ... ولكنّ عهدى بالنضال قديم[١٢٣]

والمتلائم فى الطبقة العليا فى نظره يتمثل فى القرآن الكريم كله .

---

(١٢١) جـ ١ ص ٦٥ ، والبيت قد سبقته الأبيات الآتية :

هل معين على البكا والعويل ... أم معز على المصاب الجليل

ميت مات وهو فى ورق العيش ... مقيم به وظل ظليل

فى عداد الموتى وفى عامر الدنيا ... أبو جعفر أخى وخليلى

لم يمت ميتة الوفاة ولكن ... مات عن كل صالح وجميل

لا أزيل الآمال بعدك انى ... بعدها بالآمال جد بخيل

كم لها وقفة بباب كريم ... رجعت من نداه بالتعطيل

(١٢٢) ثلاث رسائل ص ٨٧ .

(١٢٣) ثلاث رسائل ص ٨٧ ، البيان جـ ١ ص ٦٨ ، والبيت الثانى محذوف من الحماسة ص ٢٦٩ .

لكن ابن سنان الخفاجى يرفض هذا التقسيم ويرى أنه قسمة فاسدة لأن التأليف فى نظره على ضربين فقط : متنافر ، ومتلائم ، وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسما ثالثا ، كما يكون المتنافر ما بعضه أشد فى التنافر وأكثر من بعض كما لا يفرق الخفاجى بين القرآن الكريم وفصيح الكلام المختار من كلام العرب، وأن المتأمل فى كلام العرب يجد ما يضاهى القرآن فى تأليفه(١٢٤) .

كما يرى الخفاجى أن هذه دعوى فاسدة من أبى الحسن الرمانى ولا تثبت إعجاز القرآن ، وإنما الإعجاز فى نظر الخفاجى يتمثل فى صرف العرب عن معارضته «وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك ، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب اليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .. (١٢٥) .

والبيت المنسوب إلى الجن قد جعله القزوينى وغيره شاهدا على المتناهى فى فى الثقل كما أشرنا ، فالخطيب القزوينى يقسم المتنافر من الكلمات إلى قسمين : المتناهى فى الثقيل وما دونه . (١٢٦) .

ويفرق بهاء الدين السبكى بين التنافر الذى نتج عن تكرار الكلمة فى البيت السابق وبين قوله تعالى : « . . . وعلى أمم ممن معك » .

فكل كلمة فى البيت على انفرادها خالية من التنافر ، ولكن الذى أحدث التنافر هو تكرار الحروف ، لكن تكرار الحروف فى الآية - كما يرى السبكى - لا يحدث تنافرا لأن « . . . فى مخرجى الميم والنون وهما طرف اللسان والشفة

---

(١٢٤) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .
(١٢٥) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .
(١٢٦) شروح التلخيص ص ٩٦ - ص ١٠٠ .

وذلاقتهما وبوسطهما بين الضعف والقوة ــ ما أزال ثقل التكرار . . . ».[١٢٧]

ويرى ابن سنان الخفاجى أن الذى أحدث الثقل فى البيت المنسوب إلى الجن هو أنه مبنى من حروف متقاربة ومكررة [١٢٨] .

فالعلة فى التنافر عند الخفاجى - هى تقارب الحروف فى المخارج مع تكرارها وهو بهذا يخالف ماذهب إليه الخليل وما نقله عنه أبو الحسن الرومانى من أن التنافر يحدث من البعد الشديد فى مخارج الحروف أو القرب الشديد . « وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد ، « وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال . . . » [١٢٩] .

ويؤكد الخفاجى أن التنافر فى القريب فقط مستشهدا ببعض الكلمات البعيدة المخرج والتى لاتنافر فيها مثل كلمة (ألم) و (أو) و (أم) وهذه الكلمات تخالف الكلمات المبنية من مخارج متقاربة مثل (عع) و (سز) ويرى الخفاجى أن الإدغام والإبدال شاهدان على أن التنافر فى قرب الحروف دون بعدها ، لأنهما لايكادان يرادن فى الكلام الافترارا من تقارب الحروف.[١٣٠] ولكن الرمانى يرجع العلة فى الإدغام والإبدال إلى القرب والبعد مما مؤكدا بذلك مارآه الخليل بن أحمد .

وفى الحقيقة أن التنافر يرجع إلى ماذهب إليه الخفاجى ، أى أن قرب مخارج الحروف مع تكرارها يحدث تنافرا فى الكلمات المنظومة. فالتنافر الذى حدث فى البيت الآتى :

---

(١٢٧) عروس الافراح ص ١٠٠ .
(١٢٨) سر الفصاحة ص ٨٨ .
(١٢٩) سر الفصاحة ص ٨٨ .
(١٣٠) سر الفصاحة ص ٩١ .

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

قد حدث من تكرار الكلمات المتماثلة مع تقارب مخارج حروفها .

ومن أمثلة التكرار القبيح الذى يحدث ثقلا ، البيت الآتى :

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ... كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وقول أبى تمام الذى أنشده أمام أحمد بن أبى دواد .

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن ... يرضى المؤمل منك إلا بالرضى

وقول أبى الطيب المتنبى :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول المتنبى أيضا من قصيدة له فى مدح محمد بن عبد الله الخطيبى :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ ... ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وكقوله أيضا من قصيدة له فى مدح الحسين بن إسحاق التنوخى :

لك الخير غيرى رام من غيرك الغنى ... وغيرى بغير اللاذقية لاحق

وقوله أيضا :

رمانى خساس الناس من صائب استه ... وآخر قطن من يديه الجنادل

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل

غثاثة عيشى أن تغث كرامتى ... وليس بغث أن تغث المآكل[١]

وفى البيتين الأخرين قبح نتج عن شيئين : الأول تكرار الحروف داخل الكلمة ، والثانى تكراره للكلمة نفسها ، ويتمثل ذلك فى مادتى (قلقل) ، و (غث) .

---

(١٣١) قلقلت : حركت ، قلاقل العيس : النوق الخفيفة ، وقلاقل الثانية جمع قلقلة بمعنى الحركة ، والغثاثة ، الرداءة أى أن رداءة عيشه فى رداءة كرامته لا فى رداءة مآكله .

ومن التكرار القبيح الموجب للثقل أيضا قول مسلم بن الوليد :

سُلَّتْ وسلتْ ثم سلَّ سليلُها فأتى سليلُ سليلِها مسلولاً

وقول امرىء القيس بن حجر :

ألا إننى بالٍ على جمل بالٍ يقودُ بنا بالٍ ويتبعنا بال

أما النوع الثانى من تنافر الكلمات وهو ما ليس متناهيا فى الثقل ، فهو أقل من النوع السابق ، ويصوره القزوينى فى بيت أبى تمام :

كريم متى أمدحْهُ أمدحه والورى معى ، وإذا ما لمته لمته وحدى[١٣٢]

ويرى القزوينى أن الثقل قد نتج عن اجتماع الحاء مع الهاء وذلك لأن بينهما تنافرا ، ويخالفه بهاء الدين السبكى فى ذلك ، ويرى أن اجتماع الحاء والهاء فصيح لوروده فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ومن الليل فسبحه » .

والثقل فى البيت — كما يرى السبكى — قد نتج عن التكرار لكلمة (أمدحه) ويورد رأى حازم القرطاجنى الذى يرى أن الثقل يحدث بسبب التكرار فى (أمدحه) وفى (لمته) .

وينقل السبكى رأيا يفرق بين وضع الحاء والهاء فى البيت ووضعهما فى الآية الكريمة : وقيل : إنما حصل الثقل عن اجتماع الحاء والهاء بعد الفتحة وليس ذلك فى الآية الكريمة[١٣٣] .

ويرى ابن رشيق أن فى بيت أبى تمام لونا من ألوان المعاظلة التى تقوم على تداخل الحروف وتراكيبها وذلك فيما نقل عن الصاحب بن عباد عن ابن العميد[١٣٤] .

---

(١٣٢) يورد الخفاجى البيت بمتى فى الشطرين :

كريم متى أمنحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمته لمته وحدى

(١٣٣) عروس الافراح ص ١٠٠ — ص ١٠١ .

(١٣٤) العمدة ج ٢ ص ٢٦٤ — ص ٢٦٥ ومثله بيت لكعب بن زهير :

تبدو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وينقل السبكي في موضع آخر عن حازم رأيا يرى فيه أن بيت أبي تمام السابق حسن : « فإنه لا سبيل إلى التعبير عن هذا المعنى إلا بالتكرار . . وكذلك كل ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار فهو حسن ، فهذا بيت تكررت فيه حروف الحلق وتكررت فيه ألفاظ ، وهو يحسن . . ، ومما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار فحسن وإن خالف فيه بعضهم قول المتنبي :

وحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ وحارث لقمان ، ولقمان راشد[١٣٥]

ولقد سبقه الخفاجي في نفي القبح عن هذا البيت بسبب التكرار ، لأن المعنى المقصود — في نظره لا يتم إلا بهذه الصورة والذي نفي القبح عنه أنه ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد .

ويرى الخفاجي أنه لو ورد هذا الكلام نثرا لم يرد إلا على هذه الصفة[١٣٦].

ويسمى ابن رشيق القيرواني هذا النوع من التكرار الذي يعتمد على تتابع الأسماء (الاطراد) والاطراد يكون في نظره صنعة حسنة إذا حدث من غير تكلف ولا حشو فارغ لأن الاطراد عندئذ يدل على قوة طبع الشاعر مثل قول الأعشى[١٣٧] .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ويرى ابن رشيق أن بيت المتنبي السابق فيه تعسف وتقصير ، ووضع ذلك البيت وسط بيتين من تلك القصيدة الموجهة لسيف الدولة — ليظهر القبح الذي قصد ابن رشيق إبرازه :

---

(١٣٥) عروس الافراح ص ١١٩ .
(١٣٦) سر الفصاحة ص ٩٢ .
(١٣٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج ٢ ص ٨٢ .

فأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه ... تشابه مولود كريم ووالدُ
وحمدان حمدونٌ وحمدون حارثٌ ... وحارث لقمانٌ ولقمان راشدُ
أولئك أنياب الخلافة كلها ... وسائر أملاك البلاد الزوائد

ويرى ابن رشيق أن الذى مقت شعره هذا تكريره كل اسم مرتين فى بيت واحد ، وهم أربعة أسماء(١٣٨) .

وفكرة تنافر الكلمات التى تضمنتها شروط فصاحة الكلام — تكمل ما قيل عن التنافر المتعلق بالحروف ، لأن العوامل التى تؤدى إلى تنافر الحروف هى التى تؤدى أيضاً إلى تنافر الكلمات ، ومع أن القدماء قد اختلفوا فى تفسير التنافر على نحو ما رأينا عند البلاغيين واللغويين إلا أنهم أصحاب فضل يجب أن يذكر لهم .

ونرى أن فكرة التنافر يجب ألا تجزأ بين الحروف والكلمات كما فعل علماء البلاغة ، والعلاقة بين الثقل والتنافر هى علاقة تقوم على الخصوص والعموم أو الجزئية والكلية ، فالثقل أعم من التنافر ، أو أن التنافر جزء من الثقل ، لأن الثقل قد يحدث من التنافر وغير التنافر ، كما أن كل ما هو متنافر ثقيل على اللسان . ولو أن البلاغيين قد استبدلوا بالتنافر الثقل لكان ذلك أشمل فى نظرنا . وبعض البلاغيين قد فصل بين الثقل والتنافر وجعلوا الخلوص من الكراهة فى السمع شرطا من شروط الفصاحة يغاير التنافر ، كما اشترطوا اعتدال الكلمة فى عدد حروفها ، وهذان الشرطان يستهدفان الخلوص من الثقل إلى جانب التنافر ، فكلمة الثقل أشمل كثيرا من كلمة التنافر .

---

(١٣٨) العمدة ص ٨٤ : ومن النقد الذى وجهه ابن رشيق الى أبيات المتنبى هذه أنه جعل للخلافة أنيابا وجعلها سبعة ، والانياب المتعارف عليها أربعة ، وجعلها سبعة أنياب يقربها من صفات تمساح النيل أو الكلب مان أنياب كل واحد منهما ثمانية .

والخلوص من الثقل والتنافر الناتج عن التراكيب يجعل الكلام موصوفا السلاسة ، والعذوبة ، وحسن الوقع فى السمع ، كل هذا وغيره مطلب هام تسعى الفصاحة إلى تحقيقه ، والميل إلى الثقل إنما يرجع قبل كل شيء إلى الطبع الجافى ، والذوق الخشن ، والمزاج الشاذ ، وهى عوامل مركبة فى نفس صاحبها ، وتبعده عن الأسوياء من الناس . كل ذلك إذا كان الميل إلى الثقل إراديا ومقصودا . أما إذا كان المتكلم أو الكاتب يعبر عما يريد بألفاظ ثقيلة عن غير قصد فهو يمثل أولئك الذين تنقصهم الثقافة اللغوية الواسعة التى تهيء لصاحبها فرصة انتقاء الألفاظ التى يحلو سماعها فى الأذن ، وقد يرجع ذلك أيضا إلى وجود ذلك الانسان فى بيئة مغلقة .

وظاهرة التنافر ترجع إلى أشياء عديدة : منها التجاور المباشر فى مخارج الحروف ، وكذلك عدم شيوع اللفظة على الألسنة ، وسنحاول تعليل التنافر فى الباب الآتى — إن شاء الله — ولقد أشرنا فى فصاحة المفرد إلى ما قد ينتج عن التنافر من حكاية للأصوات توافق معانيها عما قد يراه ويتحمس له بعض الباحثين فى الأدب . وقضية التنافر قد يكون لها وجه من القبول لدى أولئك الذين يغلّبون الناحية الذوقية ، ونحن لا نمانع فى قبول التفسير الجمالى للتنافر بشرط عدم إخلاله بفصاحة الكلام ، التى تعنى أيضا عذوبة الألفاظ وسلاستها ووقعها الحسن فى المسامع .

٣ ـ الخلوص من التعقيـــــد :

ويقصد بالخلوص من التعقيد أن يكون ظاهر الدلالة على المراد ، فلقد اصطلح البلاغيون المتأخرون على تفسير التعقيد بأنه ما لايكون ظاهر الدلالة على المراد به .

وللتعقيد سببان : أحدهما يرجع إلى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ، ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه .

والثانى ما يرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهرا.

وهذا التقسيم هو ما أورده القزوينى[١٣٩] وتبعه فى ذلك شراح التلخيص وغيرهم من البلاغيين المتأخرين.

والتعقيد اللفظى:

يحدث لخلل فى نظم الكلام، وذلك بأن تكون الألفاظ على خلاف ترتيب المعانى وذلك لأسباب منها: التقديم والتأخير، أو الحذف الموجب للفساد، أو العطف على التوهم، والجر بالمجاورة، وما شابه ذلك مع عدم وجود قرينة ظاهرة لفظا أو معنى مع نكتة.

ويتوقف البلاغيون عند بيت منسوب الى الفرزدق ليستدلوا به على التعقيد اللفظى فيه وهو من أبيات يمدح بها ابراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مِثْلُهُ فى الناس إلاّ مُمَلَّكاً أبُو أمِّه حَيٌّ أبُوه يُقارِبُهْ

يريد وما مثل ابراهيم الممدوح فى الناس حىّ يقاربه إلا مملكا، وهو هشام أبو أمه، والضمير فى (أمه) للمملك، وفى (أبوه) للممدوح، ويتمثل التعقيد فى هذا البيت فيما يلى:

١ – فصل بين المبتدأ وهو (أبو أمه) والخبر وهو (أبوه) بكلمة (حىّ)

٢ – فصل بين المبتدأ وهو (مثله) والخبر وهو (حى) بقوله (فى الناس إلا مملكا أبو أمه).

٣ – فصل بين الموصوف وهو (حى) والصفة وهى جملة (يقاربه) بكلمة (أبوه).

---

(١٣٩) شروح التلخيص ص ١٠٢.

٤ ـــ قدم المستثنى وهو (مملكا) على المستثنى منه وهو (حى يقاربه)[١٤٠].

ويرى ابن رشيق القيروانى أن بيت الفرزدق هذا قد اشتمل على أسباب الإشكال فى الكلام جميعاً ، وهى ثلاثة عنده هى : هى التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، وإيقاع المشترك . وكل ذلك اجتمع فى بيت الفرزدق ، فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب ، وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله (أبو أمه ابوه) وكان يجزئه أن يقول (خاله) ، وأما المشترك فبقوله (حى يقاربه) ، لأن لفظة (حىّ) تشترك فيها القبيلة والحىّ من سائر الحيوان المتصف بالحياة[١٤١] .

ومن أمثلة هذا اللون من التعقيد قول عروة بن الورد العبسى[١٤٢] :

قلت لقوم فى الكنيف تروّحوا عشية بتنا عند مَاوَانَ رزحِ
تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم إلى مستراح من حمام مبرحِ

لأن تقديره : قلت لقوم رُزَّح فى الكنيف عشية بتنا عند ماوَانَ تَروحوا تنالوا الغنى و (ما وان) ماء أو قرية فى أودية العلاة بأرض اليمامة ، والرزح هم المهازيل الساقطون .

---

(١٤٠) فى البيت اعاريب : منها ان مملكا بدل من حى قدم فانتصب . وقيل (حىّ) بدل من (مثله) وقيل : مثله اسم ما ، ولا يصح لأنه يلزم نصب الخبر ثم الفرزدق تميمى لا يعمل ما . وأحسن من ذلك كله أن يجعل مثله فى الناس مبتدأ وخبرا ، والا مملكا فى موضعه ، وحى خبر ثان .

(١٤١) العمدة جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ ويذكر ابن رشيق ذلك عن الرمانى لكن هذا الذى ينسبه الى الرمانى لم يرد فى « النكت فى اعجاز القرآن » ولعله قد نقله من كتاب آخر .

(١٤٢) الأغانى يروى البيت كما يلى :

أقول لأصحاب للكنيف تروحوا عشية قلنا حول ما وان رزّح

ونشأ التعقيد فى هذا البيت (الاول) عن الفصل الذى حدث بين الصفة والموصوف ، والأمر وجوابه .

ومثال ذلك أيضاً قول المتنبي .

المجدُ أخسرُ والمكارمُ صفقةً من أن يعيش لها الهمام الاروع

وتقريره : المجد والمكارم أخسر صفقة .

ونشأ التعقيد فى البيت عن التقديم والتأخير ، كما فصل بين المعطوف والمعطوف عليه .

وكقول المتنبي أيضاً :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمُهْ بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمُهْ

وتقديره : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه .

ففيه فصل وتقديم وتأخير .

وكقوله أيضاً :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شِيَمٌ على الحسب الأغر دليل

ففصل بين الفعل والفاعل (جفخت شِيمُ) وما بينهما اعتراض .

وكقول الفرزدق :

وترى عطية ضاربا بفنائه رِبْقَيْنِ بين حظائر الاغنام

متقلدا لأبيه كانت عنده أرباق صاحب ثلّة وبهام

وتقدير البيت الثانى : متقلدا أرباق ثلة وبهام كانت لأبيه عنده . ففيه تقديم وتأخير .

وكقول الفرزدق أيضاً :

فليست خراسانُ التى كان خالدُ بها أسدٌ إذ كانَ سيْفاً أميرُها

وتقديره : ليست خراسان بالبلدة التى كان خالد فيها سيفا إذ كان أسد

أميرها ،ويكون رفع أسد بكان الثانية ،وأميرها نعت له ، و (كان) تكون عند ذلك تامة لا تحتاج إلى خبر ، ولها وجه آخر هو أن يكون فى (كان) ضمير الشأن، ويكون أسد وأميرها مبتدأ وخبرا فى موضع خبر الضمير . وعلى التأويلين معاً ، فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ، ووضع الألفاظ فى غير موضعها . ويرى الخفاجى أن الفرزدق أكثر الشعراء استعمالا لهذا اللون وكأنه يتعمده ويعتقد حسنه[١٤٣] .

وينقل السبكى أبياتا فى التعقيد أنشدها ابن الطراوة فى باب ما يحتمل الشعر من الكلام على أبيات سيبويه[١٤٤] ومن هذه الأبيات :

لها مقلتا عيناء طل خميلة   من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

أى لها مقلتا عيناء من الوحش ما تنفك ترعى خميلة طل عرارها .

ومثله قول الفلاح :

فما من فتى كنا من الناس واحدا   به نبتغى منهم عديلا نبادله

وقول الآخر :

وما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم   من الناس ذنبا جاءه وهو مسلما

أى ما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم مسلما من الناس ذنبا جاءه .

وأنشد السكاكى بيت أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن   كاثنين ثان إذ هما فى الغار[١٤٥]

---

(١٤٣) سر الفصاحة ص ١٠٢ .
(١٤٤) عروس الافراح ص ١٠٦ .
(١٤٥) مفتاح العلوم ص ١٩٧ ى وورد هذا البيت فى عروس الافراح ص ١٠٦ كما يلى :

كاثنين فى كبد السماء ولم يكن   كاثنين ثان اذ هما فى الغار

ويرد فى الديوان جـ ٢ ص ٢٠٧ :

ثانية فى كبد السماء ولم يكن   لاثنين ثان اذ هما فى الغار

ونشأ التعقيد فى بيت أبى تمام من إتيانه بالمنصوب فى لفظ المخفوض (لاثنين ثان) وهذه لغة للعرب عند الفراء . كما نشأ أيضا عن فساد المعنى ، ومعنى البيت أن الرجل الذى قتل وهو (مازَيَار) ثان للآخر . والرجلان مذمومان أما اللذان كانا فى الغار فهما محمودان .

ومن الممكن ألا تكون هناك ضرورة إذا أثبت التنوين فى (ثانٍ) وألقيت عليه حركة الهمزة فى (إذْ) وهذا مذهب ورش فى القراءة [١٤٦] (ثانِنِذ) .

وهل يعنى هذا أنه يمكن أن نستغنى عن التعقيد اللفظى بضعف التأليف ، أو نستغنى عن ضعف التأليف بالتعقيد اللفظى . . . ؟

يرى الشيخ بهاء الدين أن أحدهما لايغنى عن الآخر [١٤٧] لأن التعقيد قد يكون لاعن ضعف تأليف ، كما أنه قد ينشأ أحيانا عن ضعف فى التأليف كما فى :(ضرب غلامه زيدا) لأنه يوهم عودة الضمير على غير زيد .وقد يحدث الضعف بلا تعقيد وقد يحدث التعقيد من أشياء كلها جائزة إذا اجتمعت أوجبت صعوبة فى الفهم مثل تقديم المستثنى، وتقديم المفعول ، وتأخير المبتدأ ،لأن مناط التعقيد هو صعوبة الفهم ، وللطبع دور كبير فى ذلك .

هذه بعض النماذج والصور للتعقيد الذى يتعلق بنظم الألفاظ . .

التعقيد المعنوى :

هو ماكان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثانى الذى هو المراد غير ظاهر ، ولايستطاع فهمه من أول وهلة بسبب الانتقال الذى حدث بالكناية أو الاستعاره أو المجاز .

وقد توقف البلاغيون المتأخرون عند بيت للعباس بن الأحنف ليبينوا ما ما فيه من تعقيد معنوى ناتج عن الانتقال وهو قوله :

---

(١٤٦) ديوان ابى تمام جـ٢ ص ٢٠٧ .
(١٤٧) عروس الافراح ص ١٠٥ .

سأطلب بُعْدَ الدارِ عنكم لتقربوا　　وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

ويكاد يجمع البلاغيون المتأخرون (١٤٨) على أن العباس بن الأحنف قد أصاب حين كنى عن حزنه بسكب الدموع لما فعله الفراق فى نفسه .

أما التعقيد فى البيت فإن يتمثل فى خطئه عندما أراد أن يكنى عما يوجبه التلاقى من السرور بجمود العين ، لظنه أن الجمود وخلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شىء آخر بجانب السرور والراحة وهذا خطأ ؛ لأن الجمود خلو العين من البكاء ، وفى حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة بل كناية عن البخل ، ويستشهد القزوينى على أن جمود العين يراد به البخل ببيت لأبى العطاء يرثى به ابن هبيرة :

ألا إنّ عيناً لم تَجُدْ يوم واسط　　عليك بجارى دمعها لجَمُودُ

يؤكد القزوينى فكرته قائلا : « ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حالة المسرة لجاز أن يُدْعَى به للرجل فيقال : لازالت عينك جامدة ، كما يقال لا أبكى الله عينك ، وذلك مما لا يشك فى بطلانه ، وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة جماد لامطر فيها ، وناقة جماد لا لبن لها ، فكما لاتجعل السنة والناقة جمادا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لاتسخو بالدر ، لاتجعل العين جمودا إلا وهناك ما يقتضى إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفه بأنها قد جادت وإذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت » (١٤٩) .

وهذا الخلل الموجود فى بيت العباس بن الأحنف قد أدى إلى التعقيد الذى

---

(١٤٨) هذا ما ذكره القزوينى وتبعه شراح التلخيص ، وخالفهم السبكى عندما قال : « لا حاجة الى الكناية بالبكاء ، وجاز أن يكون أراد حقيقته » أنظر شروح التلخيص ص ١٠٩ ـ ص ١١٠ .

(١٤٩) الايضاح على تلخيص المفتاح ص ١١٠ ـ ص ١١١ .

نتج عن الانتقال من المعنى الأصلى للفظة إلى معنى آخر ملابس للأصلى على وجه الكناية . . والكناية فى قوله(لتجمدا) بعيد عن الفهم والواجب فى الكناية أن يكون الفهم لها سريعاً ، وأن تكون قريبة مما تعارف عليه أهل الذوق السليم . والذى يؤدى إلى البطء أو عدم فهم الكناية كثرة الوسائط والقرائن غير الواضحة لكن قد تكثر الوسائط من غير صعوبة وذلك لوضوحها لدى أهل الذوق ، وقربها مما تعارفوا عليه مثل قولهم : (كثير الرماد) كناية عن المضياف الكريم ، فنى قولهم (كثير الرماد) وسائط كثيرة ، ولكن ماتعارف عليه أهل الذوق من العرب قد جعل الانتقال إلى المعنى المراد سريعاً ومدركا بوضوح .

كما نتج عن التعقيد فى البيت محاولة البحث عن وجوه بعيدة لتوضيح مراد الشاعر ، ومن هذه الوجوه :

ما فسره المبرد عندما قال فى تفسير هذا البيت : هذا رجل فقير يبعد عن أهله ، ويسافر ليحصل على مايوجب لهم القرب ،وتسكب عيناه الدموع فى بعده لتجمد عند وصوله لهم . ويؤكد المبرد فكرته بانشاده لهذا البيت :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

ولم يستطع المبرد بهذا التفسير أن يبعد عما توجبه كلمة (تجمد) لأن الجمود هنا منسوب للعين . وعلى هذا يكون مقصد المبرد « وتسكب عيناه الدموع فى بعده لتبخل بالدموع المطلوب سكبها عند وصوله لهم » . فالمبرد لم يستطع أن يتخلص من دلالة « تجمد » عندما أراد تفسير البيت من وجهة نظر أخرى ، لأن جمود العين قد استقر فهمه مع البخل بجريان الدمع الذى يرجى جريانه .

ومن الوجوه الأخرى فى هذا البيت ما ذكره ابن يعقوب المغربى فى مواهب الفتاح ، ويتلخص ذلك الوجه فى أن الزمان والأحبة من عادتهم عكس المراد والشاعر يطلب خلاف المراد لعله يغالطهم فيأتون بالمراد . وهذا الوجه فى نظر

ابن يعقوب يحسّنه إظهار أن القائل يطلب مغالطة الزمان على وجه الظرافة والتمليح [١٥٠] .

وهذا الوجه لا يخلو من الفساد من وجهة نظرنا لأن المغالطة قد تحدث متبادلة من الجانبين أى أن الزمان قد يغالط الشاعر فيأتى بعكس ما يرجو فى الظاهر ، وفى الوقت الذى يغالط الشاعر فيه الزمان قد يأتى بعكس الظاهر من رجائه .

ويذكر ابن يعقوب المغربى وجها آخر فى البيت هو أن المراد بالطلب ارتكاب فعل الطالب بإظهار عدم الضجر الحاصل بالصبر ، وتوطين النفس على المكروه إلى إفاضة الدموع ليحصل عن ذلك دوام السرور بدوام التلاقى ، فإن الصبر مفتاح الفرج . [١٥١]

وهذا الوجه لم يخرج شيئا مقبولا لقوله (لتجمدا) وإنما قد أغفل ماتوحى به من اختلافات وتعقيد . وهذا المعنى قد أشار إليه الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز ، لكن عبد القاهر الجرجانى قد عاب على الشاعر كنايته فى قوله (لتجمدا) ، فكأنه قال : أحزن اليوم لئلا أحزن غدا ، وتبكى عيناى جهدهما لئلا تبكيا أبدا . وغلط فيما ظن ، وذاك أن الجمود هو ألا تبكى العين ، مع أن الحال حال بكاء ، ومع أن العين يراد منها أن تبكى ، ويشتكى من ألا تبكى .. [١٥٢]

وقد يحدث التعقيد أيضا من الكلام المقلوب كقول عروه بن الورد العبسى:

فلو أنى شهدت أبا سعاد غداة غد لمهجته يفوق

فديتُ بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيقُ

يريد أن يقول : فديت نفسه بنفسى .

وكقول خِدَاش بن زهير :

وتُركب خيلٌ لاهوادةَ بينها وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحُمرِ

---

(١٥٠) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١١ ، الكامل للمبرد .
(١٥١) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١٢ .
(١٥٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٩ .

والضياطره هى التى تشقى بالرماح . (١٥٣) .

وكذلك قول الفرزدق :

وأطلسَ عسالٍ وما كان صاحبا رفعتُ لنارى مَوْهناً فأتانى

وإنما النار هى المرفوعة .

وكقول النابغة الجعدى :

كانت فريضة ماتقول كما كان الزناء فريضة الرجم

وإنما الرجم فريضة الزنا .

وقد ينشأ التعقيد أيضا عن الاستعارات الفاسدة قول تأبط شرا :

نحزُّ رقابهم حتى صدعنا وأنفُ الموتِ منخرُه رثيم

فجعل للموت أنفا ومنخرا رثيما (١٥٤) .

وكقول ذى الرمة .

يعز ضعافَ القوم عزةُ نفسه ويقطع أنف الكبرياء من الكبر

فاستعار للكبرياء أنفا ، وجعل الكبرياء يتكبر .

وكقول معقل بن خوُيلد الهذلىّ :

تخاصمُ قوما لا تلقّى جوابهم وقد أخذتْ من أنف لحيتك اليد

فجعل للحية أنفا ، وقبض هذه اللحية التى لها أنف بيده كما يفعل المهموم .

وكالبيت الذى نقله الخفاجى عن أستاذه أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى (١٥٥)

إذا ذنّ أنف البرد سرتم فليتهُ عقيب التنائى كان عوقب بالجدع

فجعل للبرد أنفا تسيل منه الرطوبة .

ومن هذه الاستعارات التى تؤدى إلى الإحالة والفساد قول أبى تمام :

لدَىَ ملكٍ فى أيْكة الجود لم يزل (١٥٦) على كبد المعروف مِنْ نَيْله برْد .

---

(١٥٣) الضباطرة الضخام الاجسام الذين لا غناء عنـــدهم . انظـر ص ١٠٤ من سر الفصاحة .

(١٥٤) من قولهم رثمت أنف الرجل فهو رثيم : اذا ضربته فادمى .

(١٥٥) سر الفصاحة ص ١٢٨ . ذنّ أنف البرد : سالت منه الرطوبة .

(١٥٦) فى سر الفصاحة « الى ملك فى أيكة الجود لم يزد » ص ١٣٤ .

وكقوله أيضاً :

وماالمال أحمى عنك من جيش مدحة لها عند أبواب الملوك معسكر

لها عند آذان الرواة مزامر [١٥٧] من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمر

وكقوله أيضاً :

سعى فاستنزل الشرف اقتسارا ولو لا السعى لم تكن المساعى

فاستنزال الشرف وصف بما لايليق به من الإنزال الخفض . والمحمود فى هذا أن يقال :

« رفعت منار الشرف وشيدته » .

وكقوله :

جذبت نداه ُغدوةَ السبت جذبة ً فخرَّ صريعاً بين أيدى القصائد

فجعل الممدوح لايعطيه طوعا كما جل نداه صريعا ، وهذا لايليق فى مقام المدح .

وكقوله أيضا :

َضَعفتْ جوانحُ من أذاقتهُ النَّوى طعمَ الفراق فذمَّ طعم العلقمِ

فربط بين طعم العلقم المذموم وبينَ ضعف الجوانح ، وليس بينهما علاقة لان العلقم يتعلق بحاسة الذوق .

وقد يدخل هذا أحيانا فى باب المعاظلة ، وهى دخول بعض الكلام فيما ليس من جنسه أو مايمكن أن يطلق عليه فاحش الاستعارة .

وقد ينشأ التعقيد أيضاً من استعمال ألفاظ المدح فى الذم أو ألفاظ الذم فى المدح . كقول أبى نواس :

جاد بالاموال حتى حسبوه الناس حمقا

---

(١٥٧) سر الفصاحة « لها بين أبواب الملوك مزامر » .

وقول أبى تمام :

مازال يهذى بالمكارم دائبا حتى ظننا أنه محموم

وقوله :

وتشق الحرب منه حين تغلى مراجلها بشيطان رجيم

وقوله :

ولىّ ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حثّ النجاء وخلفه التنين

كقوله :

يا أبا جعفر جعلت فداكا فإن حسنَ الوجوه حسن قفاكا

كقول الحسين بن الضحاك :

كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

ومثل هذا كثير . ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك ما أشرنا اليه سابقا عن الكناية وما يجب أن تكون عليه من التصريح المناسب ، والبعد عن الغموض .

كما يمكن أن تصنفّ فى التعقيد ما أشرنا اليه سابقا فى الغرابة التى تنتج عن الألفاظ الخاصة بطائفة معينة كألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين وغيرهم .

وخلاصة ذلك أن التعقيد يفسد فصاحة الكلام، وأنه ينشأ عن أشياء كثيرة، وسبب ذلك قلة الطبع وحب التكلف وعدم وضوح الفكرة فى ذهن الأديب، وعدم رقى الذوق لدى المتكلم أو الكاتب، كما يرجع أيضاً إلى عدم تمكن الشاعر من أداته التعبيرية

وإلى جانب هذه الشروط التى اشترطها القزوينى وغيره فى فصاحة الكلام يوجد شروط أخرى أضيفت إلى الشروط السابقة وأهمها :

٤ ـ خلوص الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات :

ويستدل القزوينى على كثرة التكرار ببيت أبى الطيب المتنبى فى وصف فرسه :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

كما يستدل على تتابع الإضافات بقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

ويرى القزوينى أن كثرة التكرار وتتابع الإضافات لا يعد شرطا مستقلا لأن ذلك إنْ أفضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه فيما سبق الحديث عنه فى التنافر ، وإذا لم يحصل عنه ثقل فلا ضرورة للاحتراز منهما لأنهما لا يخلان بالفصاحة فى نظره[١٥٨] .

واعترض الشيخ بهاء الدين السبكى على ما ذكره القزوينى بأن التكرار المؤدى إلى الثقل قد احترز عنه فى التنافر الناتج عن الكلمات المتماثلة كما فى البيت المنسوب إلى الجن « وقبر حرب .. » ، أما التنافر الذى يحصل من تتابع الإضافات فلم يحترز عنه[١٥٩] .

وهذا فى نظرنا لا يسوِّغ له أن يفرد له شرطا مستقلا وإنما يجب أن يوضع فيما يوجب التنافر ، لأن التنافر قد يرجع إلى أشياء كثيرة منها تتابع الاضافات .

فالقزوينى لا يعد هذا شرطا مستقلا فى فصاحة الكلام ، بل ربما يكون شرطا فى الكلمات المتعددة التى لا إسناد بينها . ومن هذا الموقف استخلص السبكى أن القزوينى يقصد بالكلام ما زاد عن الكلمة . وبذلك يرى القزوينى أن حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف سيدنا يوسف عليه السلام لا خلل به بسبب التكرار وتتابع الإضافات : « .. الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » .

وهذا الحديث لا تعلق له بالإضافات ، أما التكرار الذى فيه فهو لا يرجع إلى شىء واحد بل كل اسم يختلف معناه عن الآخر ، أما بيت المتنبى فالتكرار فيه راجع إلى شىء واحد .

---

(١٥٨) شروح التلخيص ص ١١٢ ــ ص ١١٦ .
(١٥٩) شروح التلخيص ص ١١٦ .

والحقيقة ان التكرار قد يحسن فى مواضع ،وقد يقبح فى أخرى ،وقد يحدث التكرار فى الألفاظ دون المعانى ،كما يحدث فى المعانى دون الألفاظ ، وتكرار الألفاظ والمعانى يؤدى غالبا إلى القبح ،وقد يحسن التكرار على سبيل الاستعذاب والتشوق فى الغزل والنسيب ، وفى المدح على سبيل التنويه بالممدوح ، وعلى سبيل التقرير والتوبيخ ، وعلى سبيل التعظيم — وغير ذلك .

وقد يحدث القبح فى كل ذلك إذا تجاوز الحد وزاد عن الواجب كالبيت المروى عن محمد بن مناذر البصيرى فى معنى التكثير :

كم وكم كم كم وكم كم كم وكم   قال لى : أَنْجِزْ حُرٌّ ما وَعَدْ

ومن التكرار المعيب أيضا ما أورده ابن رشيق القيروانى فى العمدة من قول ابن الزيات :

أتعزُف أم تقيُم على التصابى   فقد كثرت مناقلة العتاب
إذ ذكر السلوّ عن التصابى   نفرت من اسمه نفر الصعاب
وكيف يلام مثلك فى التصابى   وأنت فتى المجانة والشباب
سأعزف إن عزفت عن التصابى   إذا ما لاح شيب بالغُراب
ألم ترنى عدلت عن التصابى   فأغرتنى الملامة بالتصابى

يقول ابن رشيق معلقا على التكرار فى هذه الأبيات : « فملأ الدنيا بالتصابى، على التصابى لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعر ، ولا سيّما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن[١٦٠] .

ويصرح الخفاجى أن التكرار هو أكثر الاشياء قدحا فى الفصاحة ،وغضا من طلاوتها ، وذلك إذا استطاع الشاعر أو الكاتب تجنبه ، ويورد أبياتا تدل على قبح التكرار ، وهذه الأبيات قد أوردنا بعضها عند الحديث عن التنافر ومن

(١٦٠) العمدة جـ ٢ ص ٧٧ .

ذلك قول مسلم بن الوليد الأنصاري[١٦١] .

سلّت وسلّت ثم سلّ سليلها　　　فأتى سليل سليلها مسلولا

وبيت امرىء القيس :

ألا إننى بالٍ على جمل بالٍ　　　يقود بنـا بالٍ ويتبعنا بالٍ

ومن ذلك قول أبى الطيب :

العارضُ الهتنُ ابنُ العارض الهتنِ ابـ　　　ـنِ العارض ابن العارِض الهتن

وهذا البيت الذى عابه الخفاجى على أبى الطيب المتنبى على نسق ما جاء فى الحديث الشريف فى وصف سيدنا يوسف عليه السلام ، أى أن كل اسم فى البيت يختلف معناه عن الآخر .

ويحاول الشيخ بهاء الدين السبكى أن يضع حدودا ومعالم لهذا الشرط سنحاول ترتيبها فيما يلى :

١ ــ أن القول بالخلوص من كثرة التكرار وتتابع الإضافات موضوعه الخلوص منهما معا وليس كل واحد بمفرده .

٢ ــ أن التكرار أقل ما يصدق عليه ذكر الشيء مرتين ، فكثرة التكرار لا تصدق بذكره ثلاثا .

٣ ــ أن يكون التكرار وتتابع الإضافات فى جملة وليس فى جمل .

٤ ــ من شروط تتابع الإضافات :

(أ) أن تكون ثلاثا فأكثر .

(ب) أن لا يكون واحد منها جزءا أو كالجزء .

(جـ) أن لا يكون المضاف إليه الأخير ضميرا .

(د) أن لا يكون فيها إضافة فى علم .

---

(١٦١) شروح التلخيص من ص ١١٧ : ص ١٢١ .

وفى الحقيقة نرى التكرار مذكورا عند البلاغيين على أنه عيب مخل بالفصاحة إذا أدى إلى التنافر والثقل ، والتعقيد اللفظى ، كما أنه عيب فى باب الإيجاز ، كما ذكر القزوينى أنه عيب من عيوب الكلام فى باب القصر . كما أنه يحسن فى مواضع أشرنا إليها فيما سبق .

ويورد الشيخ بهاء الدين السبكى شروطا أخرى اعتبرها من فصاحة الكلام منها :

٥ ـ عدم تتابع الأفعال :

ولا يورد السبكى أمثلة على ذلك إنما يورد مثالا فى القرآن لا ينطبق على ما يذكره ويقول : وليس من ذلك قوله تعالى : « فاقتلوا منها المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم » لتوسط الواو وتعلق كل بمعمول مع زيادات فى الابتداء والانتهاء .

ويبدو أن السبكى يقصد تتابع الأفعال المتعمد والذى يؤدى إلى التعقيد مثل قول أبى العميثل الأعرابى[١٦٢] .

فاصدق وعفْ وجُدْ وأنْصِفْ واحتَمِل واصفح ودارِ وكافِ واحلم واشجع

والطفْ ولِن وتأنَّ وارفق واتئد واحزم وجِدَّ وحامِ واحمِلْ وادفع

وكقول ديك الجن :

أحلُ وامْرُرْ وضرَّ وانفع ولِنْ اخشن ورِشْ وابْرِ وانتَدِبْ للمعالى

وكقول أبى الطيب المتنبى[١٦٣] .

أقِلْ أنِلْ اقطع احمل علِّ سلِّ أعِدْ زد هشَّ بشَّ تفضَّل ادْنُ سُرَّ صِلِ

---

(١٦٢) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ ، الوساطة ص ٣٣٧ .

(١٦٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٣٣٧ ، ديوان المتنبى جـ ٣ ص ٨٩ ، العمدة جـ ٢ ص ٣٠ .

ومثل (١٦٤) .

عشِ ابقَ اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انهَ رِهْ فِهِ اسرِ نَلْ
غِظِ ارمِ صُبِ احمِ اغزُ اسبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثنِ بلْ

ومثل هذه الأبيات يسميها ابن وكيع (رقية العقرب) لاحتياجها إلى الشرح لما بها من غموض ، ولعل الدافع إلى هذا التكلف هو الشغف بإظهار المهارة اللغوية فلقد استطاع المتنبى أن يجمع أربعة عشر فعلا للأمر فى بيت واحد .

ومن ذلك بيت امرىء القيس الذى أورد به ثمانية أفعال ماضية ويبدو أن الشعراء قد بالغوا فى محاكاة امرىء القيس فوقعوا فى الفساد وبيت امرىء القيس هو (١٦٥) .

أفادَ فجادَ ، وسادَ فزادَ وقادَ فذادَ ، وعادَ فأفْضَلْ

ويضيف السبكى شروطا أخرى فى فصاحة الكلام لم يذكرها القزوينى وهى :

٦ ــ عدم تتابع الصفات المترادفة :

والسبكى لم يأت بشاهد على ذلك . ومن الشواهد التى قد تصدق على ذلك قول الكميت بن زيد :

كالناطقات الصادقا تِ الواسقاتِ من الذخائر

وكقول أبى الطيب المتنبى :

الناعمات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا

ومما يدخل فى ذلك أيضا قول المتنبى :

---

(١٦٤) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ ــ ره : من الورى أى اجعل المرض فى جوف أعدائك ــ فه : من الوفاء • اسر : من سرى الليل ــ رع : من الروع ، زع : من وزعت أى كففت • د : من الديه • ل : من الولاية • بل : من الوابل •

(١٦٥) الوساطة ص ٣٣٧ ، العمدة جـ ٢ ص ٣١ ، شعراء النصرانية ص ٦٢ •

دانٍ بعيد ، محبٌّ مبغض ، بَهِجٌ　　أغرُّ ، حلو مر ، ليِّنٌ شرس
ندٍ أبيٌّ غرٍ وافٍ أخو ثقة　　جعدٌ سرى نه بادٍ رضاً ندس

ومن تلك الشروط التي أوردها السبكي(١٦٦) جملة :

٧ ـ **كثـرة الألفاظ المصغـرة :**

٨ ـ **كثـرة التجنيـــس :**

٩ ـ **كثـرة الطبـــاق .**

وهذه الشروط يمكن أن تدرج في الشروط السابقة ، كالتنافر أو التعقيد اللفظي كما أن بعضها قد يدخل في فصاحة المفرد .

وهذه الشروط التي اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام لابد أن تكون مجتمعة لأن تخلف أحد هذه الشروط يخل بالفصاحة إخلالا بيناً ، بل إن كلا منها يعتمد على الآخر إلى حد كبير ، فضعف التأليف قد يؤدي إلى التعقيد الذي يفسد المعنى ، كما أن تنافر الألفاظ يؤدي أيضا إلى التعقيد الخاص بالألفاظ ، كما تؤدي كثرة التكرار وتتابع الإضافات إلى التنافر بين الألفاظ .

فالخلوص من هذه الشروط مجتمعة يحقق الفصاحة للكلام ، وتخلف أحدها يفسد الفصاحة .

أما عن التكرار فإننا ننظر إليه من زاويتين ، زاوية الألفاظ ، وزاوية المعاني ، فالتكرار من الناحية اللفظية قد يحقق إيقاعا موسيقيا وذلك إذا كان قائما على وحدات متساوية من الأصوات التي اتصفت بالحسن ، أما إذا قام التكرار على أصوات أو ألفاظ توصف بالثقل أو الغرابة فإنها تؤدي إلى نتائج عكسية وهي التنافر وقبح الوقع في المسامع .

ونحن نرى أن التكرار المؤدي إلى حسن الوقع في السمع بما يحدثه من إيقاعات

---

(١٦٦) شروح التلخيص ص ١١٧ .

موسيقية مستساغة لايعيب الفصاحة من الناحية اللفظية ، كما نرى أن التكرار المؤدى إلى الثقل والتنافر بين الألفاظ — مخل بالفصاحة ويجب أن يجتنب .

أما التكرار من الناحية المعنوية فانه يرتبط بالإيجاز والإطناب والمساواة أى بدروس استقر وضعها فى علم البيان ، والتكرار أو الترداد يرتبط ارتباطا وثيقاً بمقامات السامعين أو القارئين ، أى أنه يحسن فى مقامات ، ولايحسن فى الأخرى ، والقرآن الكريم مثال يحتذى فى استعماله للتكرار ، فيكون الإيجاز عند مخاطبته العرب : يقول الجاحظ : « .. ورأينا الله تبارك وتعالى ، إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا ، وزاد فى الكلام .. » (١٦٧)

ويقول الجاحظ فى موضع آخر عن الترداد « وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون ، وشعيب وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبىّ غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب .. » (١٦٨) .

والجاحظ يسلك نفس المسلك القرآنى فى التكرار ، فيرى أن أحاديث القصص بوجه عام لايعيبها التكرار . كما قد سلك مسلكا تطبيقيا فى ذلك عندما حكى بعض النوادر فى كتابيه (البيان والتبيين) و (الحيوان) .

ومن ثم تتضح أمامنا محاسن التكرار وعيوبه ، فهو لايعيب الفصاحة إذا نتج عنه إيقاع موسيقى بألفاظ عذبة سهلة المخرج ، كما لايعاب أيضا فى أحاديث القصص والمواعظ والخطب إذا استهدفت أغراضا بلاغية أخرى .

---

(١٦٧) الحيوان جـ ١ ص ٩٤ .
(١٦٨) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٥ .

كما يعاب إذا نتج عن وجوده تنافر وثقل فى الألفاظ ، وإذا كان مقام الحديث يستوجب الإيجاز .

وبهذا نستطيع أن نرى أرضا مشتركة بين مجالات البحث فى فصاحة الكلام، ومجالات البحث البلاغى عامة ، كما يليق بنا أن نقرر فى هذا المقام أن الفصاحة لا تفصل دراستها عن المعنى ؛ فالألفاظ والمعانى متلازمتان فى البحث الفصاحى .

وبعد ، فهذه هى الشروط التى اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام ، ولقد اتفق المتأخرون على ثلاثة منها : هى الخلوص من الضعف فى التأليف ومن التنافر ومن التعقيدين اللفظى والمعنوى ، واختلفوا فى كثرة التكرار وتتابع الإضافات مما دفع بهاء الدين السبكى إلى وضع حدود لهذا الشرط . كما نقل شروطا أخرى لانستطيع إفرادها عن الشروط السابقة لأنها تؤدى إلى نفس ما يحترز عنه لها مثل : عدم تتابع الأفعال ، وعدم تتابع الصفات المترادفة ، والخلوص من كثرة الألفاظ المصغرة ، وكثرة التجنيس والطباق . وكما ذكرنا آنفا فان هذه الشروط يمكن أن تصنف فى الشروط الثلاثة السابقة .

* * *

ثالثا ـ فصاحة المتكلم :

وفصاحة المتكلم كما يراها القزوينى : ملكة مقصودة بلفظ فصيح ، إلا إذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه . وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب (١٦٩) .

ويعلل السبكى سبب اختيار القزوينى للفظة « ملكة » وتركه لكلمة (صفة) لأن (الملكة) كيفية نفسانية راسخة . كما يفسر اختيار القزوينى لكلمة (يقتدر) وتركه كلمة (يعبر) لأنه لايشترط النطق بالفعل . (١٧٠) أى أن المتكلم صاحب

---

(١٦٩) الايضـــاح ص ١٢١ .
(١٧٠) عروس الافراح ص ١٢٠ .

الملكة فصيح ولو لم يعبر أصلا . ومعناه أيضا أن من تكلم بكلام فيصح ولا ملكة عنده لا يعد فصيحاً .

وفى الحقيقة أن الحديث عن الملكة قديم عند العرب بل غير العرب ، فلقد ذكر أرسطو الموهبة الشعرية فى كتابه (فى الشعر) وأن الدافع إلى الشعر فى تثاره سببان هما المحاكاة وحب الموسيقى « ويبدو أن الشعر — على العموم — قد ولده سببان ،وأن ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية ، فإن المحاكاة أمر فطرى موجود للناس منذ الصغر ، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريق المحاكاة . . . ، وإذا كان وجود المحاكاة لنا أمرا راجعا إلى الطبيعة ، وكذا وجود الإيقاع والوزن وبين أن — الأعاريض أجزاء الأوزان - فإن من كانوا مجبولين عليها منذ البدء قد أخذوا يرقون بها قليلا قليلا حتى ولدوا الشعر من الأقاويل المرتجلة » (١٧١)

ومن أقدم النصوص العربية التى وصلت إلينا عن أهمية الملكة فى الإنتاج أو الابتكار ما أورده الجاحظ عن عامر بن عبد قيس عندما قال : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (١٧٢) .

ويؤكد الجاحظ أهمية الموهبة الفطرية فى الابداع الفنى فى وصيته التى يقدمها إلى ملتمس البيان فى قوله : « . . . وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك بعض المشاكلة ، ولقد أدرك الجاحظ المرحلة الدقيقة من الطبع ونقصد بها التفوق فى ناحية أو ناحيتين وهو ما يعرف فى عصرنا باسم المهارات الفردية

---

(١٧١) فى الشعر لأرسطو ترجمة حديثة للدكتور شكرى عياد « دار الكاتب العربى ط سنة ١٩٦٧ » ، ص ٣٧ ـ ص ٣٨ .

(١٧٢) البيان جـ ١ ص ٨٣ .

والقدرات الخاصة وذلك عندما يقول : « . قد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ، وتكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة ، وتكون له طبيعة فى الحداء أو التغبير أو فى القراءة بالألحان ، وقد تكون له طبيعة فى الناى ، وليس له طبيعة فى السرناى وتكون له طبيعة فى قصبة الراعى ، ولا تكون له فى القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع فى صناعة اللحون ، ولا يكون له طبع فى غيرها ، ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر ، ومثل هذا كثير جدا ، وكان عبد الحميد الأكبر ، وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر الا مالا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : الذى أرضاه لا يجيئنى والذى يجيئنى لا أرضاه . وهذا الفرزدق وكان مستهترا بالنساء ، وكان زير غوان ، وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور مع حسده لجرير وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا » [(١٧٣)] .

وهذا قريب مما ردده ابن قتيبه بعد ذلك عندما قال : « الشعراء بالطبع مختلفون فنهم من يسهّل عليه المديح ويعتذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر عليه الغزل وقيل للعجاج : إنك لاتحسن الهجاء قال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن تظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن تظلم ، وهل رأيت بانيا لايحسن أن يهدم ، وليس هذا كما ذكره العجاج ، ولا المثل الذى ضربه بشكل ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بان بضرب بصيرا بغيره ، ونحن نجد ذلك بعينه فى أشعارهم ، فهذا ذو الرمة أحسن النّاس تشبيبا وأجودهم تشبيها ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول » [(١٧٤)] .

---

(١٧٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨ ــ ص ٢٠٩ .
(١٧٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ .

ولعل القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى هو أول من تحدث من الملكة الشعرية حديثا قريبا من مفهومها الحديث حيث فرق بينها وبين الذكاء يقول فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه : « وأنا أقول — أيدك الله — إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته فى الإحسان ، ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ، إلا أننى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية .. ولا طريق للرواية إلا السمع ، وملاك الرواية الحفظ . وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض كما قيل : إن زهيرا كان راوية أوس ، وأن الحطيئة راوية زهير وأن أبا ذؤيب راوية جويرية . . غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة وإليه أكثر استئناسا وأنت تعلم أن العرب مشتركة فى اللغة واللسان وأنها سواء فى المنطق والعبارة ، وإنما تفضل القبيلة أختها بشىء من الفصاحة . ثم تجد الرجل منها شاعراً مفلقا ، وابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما ، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحده القريحة والفطنة. »(١٧٥)

ويعود الجرجانى مرة أخرى إلى الكلام عن الطبائع واختلافها فى موضع آخر من كتاب معللا ذلك الاختلاف بالآثار التى تتركها البيئة فى نفس الشاعر : « وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر

---

(١٧٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٦ .

دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى — وهو جاهلى — أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة وإيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب . وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيّم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة واتصاف الطبع إلى الغزل،فقد جمعت لك الرقة من أطرافها[١٧٦] » .

فالقدماء — اذن — قد أدركوا الدور الهام للملكة فى الإنتاج الأدبى ، كما أنهم لمسوا جوانب من فصاحة المتكلم ، وهى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح كما حددها القزوينى .

والحقيقة أن كلمة (ملكة) تساوى فى مدلولها المعاصر ما أطلق عليه المحدثون (القدرات الخاصة) أو (الفروق الفردية) التى تميز بين الناس والتى تمكن الإنسان من النبوغ فى ناحية معينة ، وهذه (الملكة) أو (القدرة الخــاصة) لا يستغنى صاحبها عن قدر معقول من (الذكاء العام) ففصاحة المتكلم لابد أن يتمتع صاحبها بشيئين أو بصفتين متلازمتين هما المقدرة الخاصة فى هذا الجانب ، وقدر مقبول من الذكاء العام ، ولقد أشار الجرجانى إلى ما يقترب من هذا عندما تحدث عن عناصر الموهبة الشعرية،فلقد ردها إلى الطبع والرواية والذكاء مع الدربة ، ولقد أدرك أن الطبع وحده لا يكفى كما أن الذكاء لا يغنى بنفسه .

وإذا سلمنا بأن فصاحة المتكلم تنحلّ إلى عاملين هما الذكاء العام والملكة

---

(١٧٦) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٧ — ص ١٨ .

أو القدرة الخاصة ، فما خصائص هذه الملكة التي يتميز بها الفصيح من الناس .. ؟

نرى أن الخاصة الأولى التي يتميز بها الإنسان الفصيح أن يكون متمتعا بذهن ثاقب يمكّنه من تصور المعنى الذي يريد التعبير عنه تصورا واضحا ودقيقا حتى يستطيع أن يختار لمعناه اللفظ المناسب ، ونعنى بالمناسب هنا اللفظ الذي لا يزيد ولا ينقص عن تأدية المعنى المراد التعبير عنه . ونستطيع أن نقول : يجب على المتكلم أن يعبر عن معناه بلفظ فصيح ، ولقد فصلنا القول — فيما سبق — فى الفصيح سواء كان مفردا أم مركبا .

الميزة الثانية التي يجب أن تتوافر للفصيح المتكلم تتصل بطريقة أداء أو إلقاء هذه الألفاظ التي اختارها للتعبير عن المعنى الذي يريده ، ونعنى بذلك عملية النطق وما يصاحبها من صفات تتصل بها . فقد يتفق اللفظ والمعنى عند متكلمين لكن أحدهما يفضل الآخر بما لديه من مهارات صوتية ، أو أن أحدهما يقل عن الآخر بما عنده من عيوب فى النطق . ولقد وصف العرب المتكلم الفصيح بأوصاف تتصل بالأداء فقالوا : فلان طلق اللسان أى فصيح عذب المنطق . وقالوا : إنه فتيق اللسان أى فصيح بيّن اللهجة ، كما قالوا عنه أنه الحذاقيّ : أى فصيح اللسان بيّن اللهجة والحجة، قوله الفصل. كما وصفوه بأنه منطيق وفعفع ، أى حلو الكلام رطب اللسان . كما وصفوا الخطيب البارع — وهو متكلم فصيح — بأنه (مصقع) أى يأخذ فى كل صقع من الكلام ، كما وصفوه بأنه (مصدع) أى لا يبالى عند من تكلم ، وأين تكلم . كما وصفوه بأنه (مفوّه) و (منطيق) و (أشدق) .

ويعنى هذا أن المتكلم الفصيح يتمتع بالإضافة إلى ذكائه بأجهزة النطق الكاملة التي تمكنه من إخراج الألفاظ من الفصيحة المخرج الذي يتلاءم مع مكانتها، ومن ثمّ فان منطقه يكون خاليا من العيوب التي تصيب الأداء ، وهذه العيوب نوعان :

نوع ينشأ عن قصور فى أجهزة نطق المتكلم أى أن أجهزة نطقه بها عيوب خلقيّة تمنعه من الأداء التكامل للألفاظ الفصيحة .

ونوع آخر ينشأ عن سوء استعمال أجهزة النطق السليمة الكاملة أى أن العيب قد ينشأ فى تلك الحالة من الخطأ أو التكلف أو غير ذلك .

ومن أمثلة النوع الثانى (التقعّر) و (المقمقة) أى التكلم بأقصى الحلق و (التفيهق) أى ملء الشدقين وتوسيعهما أثناء النطق ، ومثل (التشدّق) وهو أن يلوى المتكلم شدقه بكلام للتفصح وكذلك إذا فتح فمه واتسع . ومثل « التفصّح » أى التشبّه بالفصحاء ، ومثل (اللثغة) و (التمتمة) و (الفأفأة) أحيانا ، أى فى الحالات التى يكون العيب فيها ناتجا عن قصور غير عضوى .

ومن أمثلة النوع الأول مثل (الخنخنة) أى الذى لا يبين كلامه بسبب خنخنة فى خياشيمه ، وبذلك تخرج الكلمة من خياشيمه ومثل (الغنغنة) وهى تنتج عن اضطراب حركة أسنان المتكلم فى فمه فيختلط كلامه ولا يبين أو (الثغثغة) تنشأ عن سقوط الأسنان التى يسبب سقوطها ثقلا فى اللسان وخاصة عند الشيوخ ومثل : (اللألأة) وهى تنشأ عن الأهتم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الأهتم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الأعلم الذى شقّت شفته العليا . من ذلك أيضا (اللّثغة) وتنشأ عن عدم إتمام حركة اللسان فى الكلام فيتسبب عن ذلك نطق حرف آخر غير الذى يراد نطقه مثلما يحدث فى الراء التى تنطق يــــاء أو غينا . ومن ذلك أيضا صاحب (الحكلة) و (الحبسة) و (العقدة) وهى حالات توقف طلاقة المتكلم وتنشأ غالبا عن إلتواء وغلظ فى اللسان .

ومن العيوب أيضا ما ينشأ عن أمراض نفسية مثل (التهتهة) و (اللجلجة) و (الرتّة) وكذلك (الفأفأة) و (التمتمة) .

وهذه العيوب إذا خلص المتكلم منها صار فصيحا ، وإذا حاولنا أن نبين أهم ملامح الملكة التى يتمتع بها المتكلم الفصيح فأننا نردها إلى :

جهارة الصوت ووضوحه حتى يصل إلى أذن السامع كاملا ، فلا يغيب منه منه كثير من خصائصه أثناء انتقاله من فم المتكلم إلى أذن السامع خلال الأثير . والهواء هو الوسط الذى يحمل الصوت برنينه ونغماته إلى المتلقّى ، وهذا الوسط الناقل للصوت تتداخل معه مؤثرات مختلفة تؤثر على الصوت الضعيف، ومن ثمّ فإننا نرى أن الجهارة تقوى على مغالبة المؤثرات الأخرى التى تخالط الصوت ، فلا ينتقص من صفات الصوت ما يفسد الأثر المرجوّ منه . هذا بالإضافة إلى أن الصوت الجهورى ينم عن شخصية صاحبه القوية التى غالبا ماتؤثر فى سامعيها. وجهارة الصوت تعتمد على طول وقوة شد الوترين الصوتيين وما يحيط بهما من حجم الهواء المتردد داخل تجاويف جهاز النطق، كما تعتمد الجهارة أيضا على قوة دفع الهواء الخارج من الرئتين كما تتأثر الجهارة بمدى صلابة أو رخاوة أعضاء النطق المختلفة ، ولسنا نقصد بالقوة هنا ارتفاع الصوت فقط بل أيضا ملاءمة الصوت المؤدى بدقة للمعنى المراد إبلاغه إلى ذهن السامع .

ومن ملامح هذه الملكة أيضا « الرنين » وهو تردد الصوت خلال تجاويف أجهزة النطق ، ورنين الصوت يكون مؤثرا وجيدا كلما اتسعت تلك التجاويف التى يتردد بها الهواء ،وللرنين أثر كبير فى ابراز الصوت الذى يُرجى منه إيضاح المعنى ، ومن ثمّ فإننا نرى أن المتكلم الذى فى صوته رنين أكثر تأثيرا من غيره . لأن الصوت الذى يتميز بالرنين يترك أثرا موسيقيا فى أذن المتلقىّ ذلك الأثر الذى يرجح كفة صاحبه .

ومن ملامح تلك الملكة أيضا قدرة صاحبها على معرفة المواضع التى يحسن فيها إبراز النبر أو الارتكاز وهى مهارة يتميز بها صاحب هذه الملكة الذى يدرك الأثر الناتج عن الملاءمة بين إبراز الصوت ومعناه ،والمواقف التى تكون مناسبة

لذلك ، وكذلك المواقف التى يحسن فيها التنغيم ، وسنتناول دور الارتكاز Stress ودور التنغيم Intonation فى الفصل الذى سنكتبه عن العلاقة بين الفصاحة وعلم الأصوات اللغوية إن شاء الله .

وهناك عوامل أخرى غير لغوية لها دور كبير فى فصاحة المتكلم وهى عوامل نفسية واجتماعية ، وهذه العوامل تتصل بالمتلقى أيضا . أما ما يخص المتكلم فأهمها فى رأينا — مدى تعاطف المتكلم مع الكلام المراد تأديته ومدى انفعاله به ، وهذه الناحية تخص الخطيب والممثل المسرحى أيضا ، ولقد قال عامر بن عبد قيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان[١٧٧] » .

ومن العوامل النفسية والاجتماعية أيضا قوة انتماء المتكلم إلى المستمعين ، وازدياد الترابط بينه وبينهم مما يؤثر كثيرا فى أدائه وانفعاله .

ومن تلك العوامل مكانة المتكلم الاجتماعية وحسن مظهره ومدى وسامته ، لكن سهل بن هارون يخالف ذلك مع ما كان يتمتع به من مكانة اجتماعية وسياسية وأدبية ، وما يوصف به من جمال الصورة واعتدال القامة وفصاحة اللسان ، وقد قال فى ذلك : « .. لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيّا ، ولبّاسا نبيلا ، وذا حسب شريفا ، وكان الآخر قليلا قميئا ، وباذّ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدّع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به ، ولصار التعجب منه سببا للعَجَب به ، ولصار الإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر

---

(١٧٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٣ — ص ٨٤ .

منه خلاف ما قدّروا ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع .. والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد ، وليس لهم فى الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى ، مثل الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكلّ ما كان فى ملك غيرهم[١٧٨] » .

وقد يكون رأى سهل بن هارون هذا جائزا عند العامة ، لكن العلماء والنقاد يستطيعون التخلص من الهوى ومما يستهوى العامة ، ولقد تدارك سهل بن هارون هذه الحقيقة بعد ذلك عندما تكلم عن انقسام آراء الجمهور نحو كلام الخليفة أو العظيم من الناس ، وهما قسمان : قسم يعطى الكلام من التعظيم والتبجيل والاكبار بقدر مكانة قائله ، وقسم ينتقص من حق الكلام حتى يبدو أمام الناس عادلا .

ويقرر سهل بن هارون أنه « .. لا يعرف حقائق مقادير المعانى ، ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوى المنّة ، الوثيق العقدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر[١٧٩] » .

ومن العوامل المتعلقة بالملكة التى يتميز بها المتكلم الفصيح القدرة على استغلال الموقف وطَرْق الحديد وهو ساخن كما يقولون ؛ وهذا يتصل بما تردد عند البلاغيين عن مقتضى الحال ، والمقام والمقال ، ومراعاة حالات السامعين .

وهذه العوامل كلها تكوّن الملكة التى يتمتع بها الفصيح المتكلم ، وهى

---

(١٧٨) البيان والتبيين ص ٩٠ ــ ص ٩١ .
(١٧٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ٩٠ .

عوامل لغوية وغير لغوية ، وكلها تساهم فى تحقيق الهدف المرجو ، وهو إيصال المعنى المراد إلى ذهن السامع بصورة معينة . وهذا ينطبق على المتكلم الفصيح حتى ولو كان الكلام ليس من إبداعه،فالخطيب الذى يلقى خطبة من إنشائه بألفاظ فصيحة ومتمتع بملكة الفصحاء هو متكلم فصيح ، وكذلك الممثل المسرحى الذى يلقى كلاما فصيحا ليس من إنشائه إلقاء كاملا يعد متكلما فصيحا ، أما مؤلف المسرحية الفصيحة نفسه لا يعد متكلما فصيحا إلا إذا قام بأداء أحد أدوارها أداء كاملا .

ففصاحة المتكلم تتعلق بطريقة الأداء قبل الإنشاء الكلام لأن إنشاء الفصيح يتعلق بفصاحة الكلام وبلاغته .

وسنعالج — إن شاء الله تعالى — فى الجزء التالى بعض القضايا التى أشرنا إليها فى فصاحة المتكلم بشىء من التفصيل ، ومن زاوية أخرى .. والله الموفق .

الباب الثانى

الفصاحة واللغة

الفصل الأول : الفصاحة والأصوات اللغوية .

الفصل الثانى : علاقة الفصاحة بقواعد النحو والصرف .

الفصل الثالث : الفصاحة وعلم الدلالة .



مقدمة

يلاحظ الباحث فى البلاغة أن ثمة موضوعات مصنفة فى الفصاحة يجب أن تدرس جوانب منها دراسة لغوية ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن نصف موضوعات الفصاحة تقريبا يجب أن تعالج معالجة لغوية ، أى يجب أن تدرس دراسة لغوية بقدر ما تتيحه العلوم اللغوية من إمكانات .

نعم — إن العلوم اللغوية الحديثة قد وسعت من مجالاتها لتشمل أشياء كثيرة كانت بعيدة عن اللغة بعدا كبيرا ، لكننا لن استطرد مع تلك المجالات، استطرادا يبعدنا عن هدفنا ، وهذا لا يعنى أننا ستتخلص من الخوض فى علوم وقضايا لغوية متنوعة ، وإنما يعنى أننا سنأخذ الطرف الذى يتعلق بقضايا لغوية متصلة بالفصاحة .

والملاحظ أن جوانب الدراسات اللغوية المتعلقة بالفصاحة هى :

١ — جانب الدراسات الصوتية phonetics ، والدراسات الصوتية الوظيفيه phonolegy

٢ — جانب يهتم بدراسة بناء الكلمة Morphology أى ما يتصل من قواعد علم الصرف بالفصاحة .

٣ — جانب يتناول بناء الجملة Syntax أى ما يتصل بقواعد النحو Grammar أو النظام النحوى Grammatical System .

٤ — جانب يتناول دلالات الألفاظ والجمل ، أو ما يعرف بعلم الدلالة Semantics

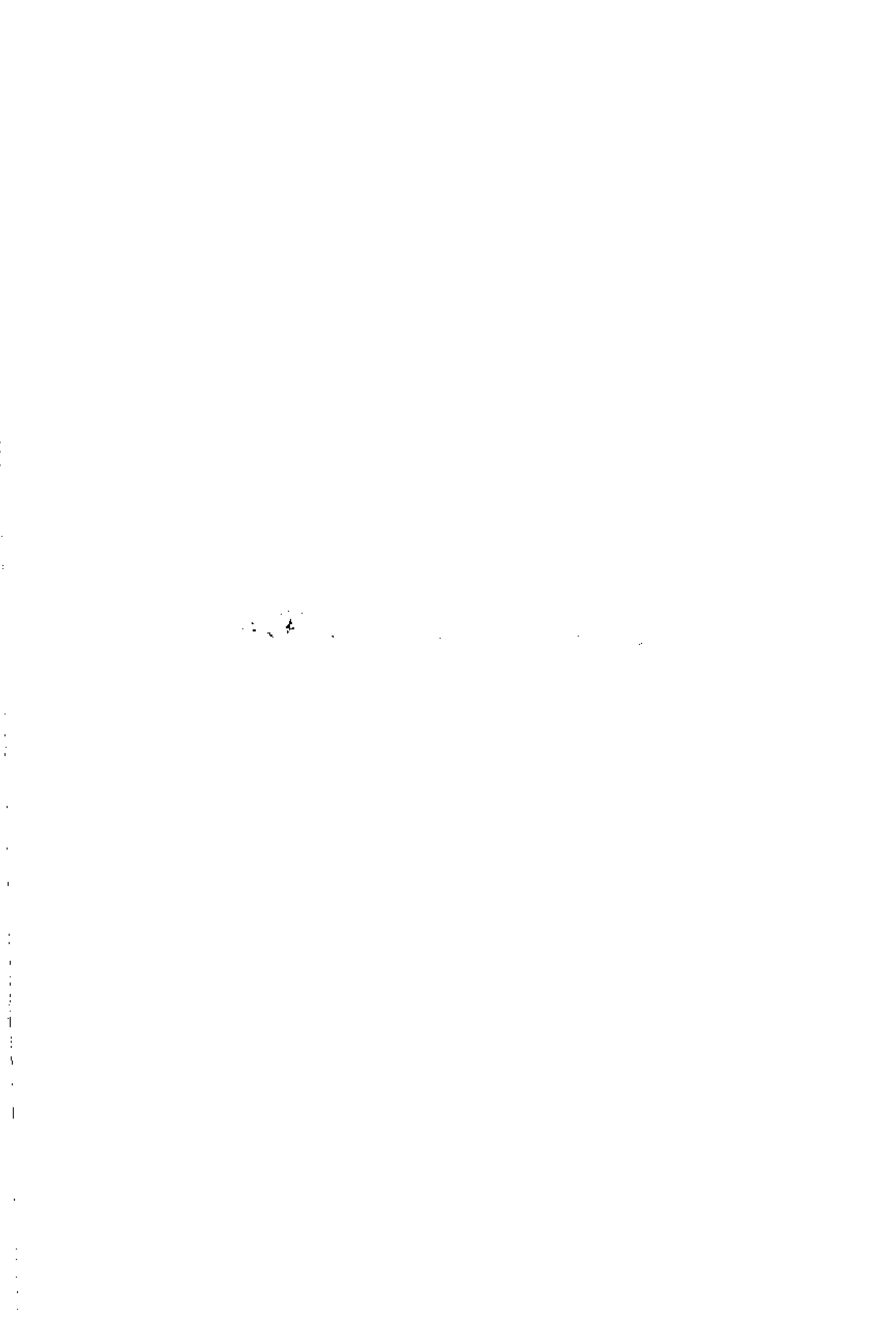
وسنلتزم إن شاء الله بهذه الجوانب حسب ترتيبها السابق لأن التحليل اللغوى يبدأ عادة بالأصوات ، ثم الألفاظ والتراكيب ، أى الصرف والنحو ، ويأتى أخيرا تناول المعانى ، أو الدلالة، وعلم الدلالة هو غاية الدراسات اللغوية وقتها، كما أنه غاية أنشطة فكرية أخرى ، متمثلة فى جهود علماء السياسة والاقتصاد والقانون ، وكذلك فى جهود الفنانين والأدباء والصحفيين وغيرهم .

ونحن فى تناولنا هذا الجانب من البحث نلتزم بقدر ما نستطيع بمنهج الباحث اللغوى ، أى ذلك المنهج الذى يعتمد على الملاحظة ، ثم التسجيل ، ثم التصنيف ، وأخيرا البلورة ؛ وبذلك لن يكون من عملنا أن نقبل أو نرفض ظاهرة من الظواهر ، بل سنقوم بوصفها وصفا بعيدا عن الهوى .

وأول ما سنتناوله فى هذا الباب هو علاقة الفصاحة بالأصوات اللغوية ، وهو ما يقع فى الفصل الأول .

الفصل الأول

علاقة الفصاحة بالأصوات اللغوية



يُجمع الباحثون فى اللغة على أن دراسة الأصوات اللغوية أساس لا غنى عنه لجميع الدراسات اللغوية الأخرى ، ودراسة الفصاحة من وجهة النظر اللغوية تربطنا ربطا وثيقا بالدراسات الصوتية . ولا نبالغ إذا قلنا : إن الكثير من مباحث الفصاحة تدخل فى صميم الدراسات الصوتية .

والفصاحة سواء كانت فى المتكلم أم الكلام ترتبط بالنطق السليم، والسمع السليم ، والناقل السليم ، أى نطق أو إرسال من متكلم ، وهواء يحمل أصواتا مؤدية معانى مقصودة ، ومستمع يحسن السمع والفهم . وهذه شروط لابد من توافرها فى أى كلام إنسانى ، فالفصاحة لا تختلف عن الكلام فى هذه الشروط التى يمكن أن تصنف فى أبحاث الأصوات اللغوية . ومعنى هذا أن كثيرا من أصول الفصاحة تقوم على أسس صوتية ، وذلك كالذى يوصف به المتكلم الفصيح كالجهارة أو البروز ، والطلاقة ، وما يتصل التشدق ، والتقعر ، والتمتمة ، والخنخنة، والثغثغة، كا تقوم الكلمة أو الكلمات الفصيحة على خصائص صوتية، كعدم التنافر بين الحروف ، أو الكلمات ، والارتكاز ، والتنغيم ، وكذلك ما يمكن أن يكون من صلة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها ، وغير ذلك مما قد يتصل بالأصوات اللغوية .

ومن الجدير بالتناول فى هذا المقام أننا لن نفصل فى بحثنا هذا بين موضوعات فرعى علم الأصوات أى بين الفوناتيك ، والفونولوجيا ، فلقد فصلت بعض المدارس اللغوية بين هذين الجانبين للدراسات الصوتية ، مثل المدرسة التشيكية أى مدرسة براغ ، والتى ترى أن الفوناتيك أقرب إلى علوم الطبيعة منه إلى علم اللغة ، فهو يتناول بالدراسة أعضاء النطق والذبذبات الهوائية التى تؤثر فى ارتفاع الصوت أو انخفاضه ، وحدّته أو غلظه ، أى أن الفوناتيك يهتم بآلية النطق، أما

الفونولوجيا عند هذه المدرسة فإنها تهتم بالنطق الإنسانى وعلاقته بالمعنى، باعتبار أن الصوت عنصر لغوى ، أى أن الفونولوجيا تحليل وظيفى للأصوات والكلمات من الناحية الصوتية ، فى لغة من اللغات ،بينما الفوناتيك تحليل فيزيائى للأصوات المنطوقة عامة[١] ، وهذا المفهوم الذى يفرق بين الفوناتيك والفونولوجيا جاء على عكس الأساس الذى سبق به دى سوسير De soussure هذه المدرسة، فلقد فرق دى سوسير بين اللفظتين قبل مدرسة براغ لكنه تفريق يخالف ما جاء بعده؛ فالفوناتيك فى نظره أقرب من علم اللغة لأنه يبحث فى تطور الأصوات ، أى أنه علم تاريخى ، أما الفونولوجيا عند فرديناند دى سوسير ، فهو علم ليس أصيلا فى العلوم اللغوية كالفوناتيك لأنه يهتم بالأصوات من الناحية المتصلة بآلية النطق[٢] .

كما أن الإنجليز قد فصلوا بين اللفظتين قبل أن يأتى فيرث J. R. Firth الذى يصرح بأن الانجليز اضطروا إلى أن يتبعوا أوروبا فى تفريقهم بين الفوناتيك والفونولوجيا[٣] .

ومع أن فيرث يصرح بهذا التفريق إلا أنه يعود ليقرر أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر وكل منها يكمل الآخر[٤] ، كما يرى فيرث أنه ليس من الخطأ أن

---

(١) انظر أ - علم اللغة الدكتور السعران ص ٢١٨ - ص ٢٢٠ ، ص٢٧٥
ب - علم اللغة العام القسم الثانى للدكتور كمال بشر ص ٤٥ - ص ٤٩
ج - المدخل الى علم اللغة للدكتور محمود فهمى حجازى ص ٤٤ - ص ٤٥

(٢) علم اللغة للدكتور السعران ص ٣٧٢ - ص ٣٧٤ ، علم اللغة العام القسم الثانى « الأصوات » د. كمال بشر ص ٥١ - ص ٥٢ .

(٣) J. R. Firth ; Papers in linguistics , p. 92 — London , Oxford University press 1957.

(٤) J. R. Firth, Papers in linguistics, p. 145.

يسمى كلاهما باسم واحد هو الفوناتيك أو علم الأصوات Phonetics [٥] .

وفى الحقيقة هناك مدارس واتجاهات لغوية أخرى فرقت بين اللفظتين ، والذى يعنينا هنا أننا لن نفرق بين اللفظتين ، وأننا سنتبع « فيرث » فيما أشار اليه من استعمال لفظة (علم الأصوات) Phonetics لتشمل ما يقع هنا أو هناك.

وكلمة (علم الأصوات) لن نستخدمها الاستخدام الذى سار عليه الدكتور تمام حسان ، فلقد استخدم كلمة (علم الأصوات) لتدل على Phonetics فى مقابل كلمة Phonology التى يترجمها بعلم (الصوتيات)[٦] ، وإنما نستخدمها لتدل على معنى يشمل هذين اللونين من الدراسات الصوتية كما أشار « فيرث » .

ومن الجدير بالملاحظة فى هذا المقام أيضا أن الدارسين العرب للأصوات اللغوية ، والدراسات اللغوية بصفة عامة قد اختلفوا فى ترجمة بعض الاصطلاحات ذلك الاختلاف الذى قد يتسبب فى الخلط فى ذهن القارىء العربى ، وعلى سبيل المثال ما أشرنا اليه آنفا عن كلمة Phonology فنجد الدكتور تمام حسان يترجمها فى كتابه (اللغة معناها ومبناها) بعلم (الصوتيات) وهو نفسه يترجمها فى كتابه (مناهج البحث فى اللغة) بعلم (التشكيل الصوتى) ، ونجد الدكتور كمال بشر يترجمها إلى (علم الأصوات التنظيمى) فى كتابه (قضايا لغوية) وهو نفسه يستعملها بعد ذلك معربة (فونولوجيا) وذلك فى كتابه (علم اللغة العام) كما يترجمها أستاذنا المرحوم الدكتور محمد أحمد أبو الفرج (بعلم وظائف الأصوات) وذلك فى كتابه (فقه اللغة) . أما أستاذنا المرحوم الدكتور محمود السعران فانه يؤثر استعمالها معربة (فونولوجيا) وذلك فى كتابه علم اللغة مقدمة للقارىء العربى .

---

(٥) J. R Firth, Papers in linguistics, p 92

(٦) اللغة معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ص ٣٤ ـ ص ٣٥ .

ومن ذلك أيضا الملاحظات القيّمة التى لاحظها أستاذنا المرحوم الدكتور السعران على ترجمة الباحثين للمصطلحين الأساسيين Consonant و Vowel بالانجليزية ، أو ما يقابلها بالفرنسية consonne و Voyelle ، فلقد لاحظ أن هؤلاء الباحثين الذين تعرضوا لترجمة هذين المصطلحين قد وقعوا فى أخطاء كبيرة، وهو يؤثر ترجمتها بالصوت (الصامت) والصوت (الصائت) متبعا فى ذلك ترجمة الدكتور المرحوم محمد مندور فى ترجمته لمقال أنطوان مييه Antoine Meillet (٧) .

وإذا كانت الفصاحة تتعلق — فى جوانبها الصوتية — بالناطق السليم النطق والكلمة والكلام الحامل لمعناه فى وضوح ، فما الصفات الصوتية التى يمكن أن يوصف بها كل ... ؟

هذا ما سنحاول أن نتبينه بالتفصيل فيما يلى :

أولا ـ الصفات الصوتية فى فصاحة المتكلم

مما لا يدخل فيه الجدل كون المتكلم الفصيح متمتعا بقدرات ذهنية سليمة ، أى أن مركز تجمع الأعصاب وهو المخ لا يدخله تعطيل فى الجزء الخاص بعمليتى السمع والنطق ، فمن الواضح أن المخ يتلقى الكلام عن طريق السمع ، أو البصر بالقراءة ، ثم يقوم بإرسال تعليماته إلى أجهزة النطق لترسل عبر الأثير إشارات صوتية اصطلاحية لتتلقاها أذن السامع ، تلك الإشارات الصوتية الاصطلاحية التى سماها المجتمع (لغة) .

فأول صفة أساسية فى فصاحة المتكلم هى سلامة مركز عمليات السمع والنطق داخل المخ الإنسانى، لأن القصور فى عملية السمع يترتب عليه خطأ فى الاستجابة،

---

(٧) علم اللغة هامش ص ٢٦ ـ ٣٢ .

وقد يتسبب ذلك فى تعليمات المخ الخاطئة إلى أجهزة النطق والتى ترسل بدورها كلمات ذات دلالات مخالفة للمقام ، مما يجر وراءه اللبس وسوء الفهم . وما يترتب على عملية السمع القاصر يصدق على النطق الذى به قصور ، والقصور فى النطق متعلق بجملة أسباب ، يظهر بغيابها وهى :

١ — أولها سلامة منطقة النطق داخل المخ ، حتى تصل تعليماته سليمة إلى أجهزة النطق .

٢ — سلامة أجهزة النطق المختلفة من النقص الخلقى ، الذى قد يترتب عليه نقص فى قدرات هذه الأجهزة على إرسال الصوت المؤدى للمعنى المراد إبلاغه إلى أذن السامع .

٣ — قد تسلم تلك الأجهزة النطقية من النقص الخلقى ، ولكن قد يصيبها عارض خارجى يمنعها من أداء وظائفها أداء كاملا ، وقد يكون هذا العارض متصلا بمواقف اجتماعية أو نفسية .

لكننا قد نلاحظ أن هذه الصفات المتصلة بعمليتى السمع والنطق وما يتعلق بهما من عمليات ذهنية — متوفرة عند الكثرة من المتكلمين ، ونجد فصاحتهم متباينة ، بل إننا نجد منهم المتكلم الفصيح ، والمتكلم غير الفصيح ، وهذا يعنى أن ثمة صفات أخرى تميز بين المتكلمين .

لا مانع من أن نورد هنا تعريف القزوينى لفصاحة المتكلم فهى «ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح»[٨] .

إن أبرز ما يميز الفصحاء عن غيرهم من المتكلمين هو أنهم موهوبون ، والموهبة صفة كبيرة تنحل إلى صفات كثيرة ، ولقد أوضحنا فى فصاحة المتكلم أشياء متصلة بذلك ، والذى يعنينا هنا الأثر الظاهرى لتلك الموهبة التى تميز

---

(٨) شروح التلخيص ص ١٢١ .

الفصيح عن غيره ، وهى آثار كثيرة أشرنا اليها فى فصاحة المتكلم ، والذى يعنينا من تلك الآثار الظاهرة ما يتصل بالجانب الصوتى ، ومن أوضح الصفات عند الفصحاء :

١ - الجهارة أو البروز Prominence

ولقد أشرنا إلى هذه الصفة فيما ذكرناه عن فصاحة المتكلم إشارة عامة ، وهى صفة مدح بها الخطباء والمتكلمون قديما ، ويذكر الجاحظ أن العرب كانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت ، ولذلك تشادقوا فى الكلام، ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغر الفم[٩] . وقد مدح الملوك والخلفاء بالجهارة، فقال العمانى فى مدح هارون الرشيد :

جهيرُ العطاس شديد النِّياط جهيرُ الرواء جهيرُ النَّغَمْ
ويخطو على الأين خطْوَ الظليم ويعلو الرجال بجسم عممْ

كما مدح معاوية أيضا من قبل بالجهارة وبجودة الخطب :

رَكُوبُ المنابر وثَّابُها معَنٌّ بخطبته مجْهَرُ
تَرِيعُ إليه هوادى الكلام اذا ضل خطبتَه المِهْذَرُ[١٠]

وكانوا يفتخرون بجهارتهم فى الخطاب لأنها تفضلهم على غيرهم ، ويرى الجاحظ أن رجلا اسمه شَبِّةَ بن عقال قال يفتخر بعد خطبته التى ألقاها عند سليمان بن على بن عبد الله بن عباس :

ألا ليتَ أمَّ الجهم والله سامعٌ ترى،حيثُ كانت بالعراق،مقامى
عشِيَّةَ بذَّ الناسَ جهرى ومنطقى وبذَّ كلامَ الناطقين كلامى[١١]

---

(٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٠ ٠
(١٠) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٧ ٠
(١١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٧ ٠

وإذا كانت الجهارة لها مكانة كبيرة عندهم فما مفهومها فى نظرهم . . . ؟

نستطيع أن نقول إنها كانت تعنى قوة الصوت ووضوحه ويقابله الصوت الضئيل الخافت كما يبدو من حديث فتى النصارى إلى ابن فهريز المطران :

« إنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت ، جيد الحلق ، وأنت دقيق الصوت ، ردىء الحلق... »[١٢] .

وكقول بشار بن برد يهجو بعض الخطباء :

ومن عجب الأيام أن قمتَ ناطقا وأنتَ ضئيلُ الصوتِ منتفخُ السَّحرِ[١٣]

ويبدو أن العرب قد تصوروا أن الجهارة تنتج عن اتساع الشدقين حتى صار اتساع الشدقين سمة من سمات الجمال ، ويروى الجاحظ أن أعرابيا سئل عن الجمال فقال : « طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشِّدق ، وبعد الصوت . » وسئل أعرابى آخر فقال عن الجمال : « غؤور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين . . »[١٤] .

ولذلك افتخر العرب بسعة الأشداق ، كما ذمّوا ضيق الأفواه مثل :

لحى الله أفواه الدَّبَى من قبيلة إذا ذكرت فى النائبات أمورُها

ومثل :

وأفواه الدَّبَى حاموْا قليلا وليس أخو الحماية كالضَّجُورِ[١٥]

والجهارة من الوجهة الصوتية لا تختلف كثيراً دلالتها عن المفهوم القديم لها ، لكننا سنفصل فى تفسيرها من تلك الوجهة ، لأن تفسير الأقدمين لها باتساع الفم أو الشدقين تعليل عام وغير دقيق .

---

(١٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ .
(١٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ .
(١٤) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢١ .
(١٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢٢ .

والجهارة Prominence لانعنى بها فقط الصوت المجهور Voiced الذى هو فى مقابل الصوت المهموس Voiceless ، وإنما نعنى وضوح الصوت وبروزه وسعة انتشاره ، ولذلك نرى أن الجهارة تقوم على عدة عوامل صوتية ، ولقد لخص أستاذنا الدكتور السعران تلك العوامل فى كتابه « علم اللغة » وهى عنده:

طول الصوت Length

وارتكازه Stress

ودرجته Pitch

والوضوح Sonority الطبيعى للصوت مفردا

ويرى أستاذنا الدكتور السعران أن بروز الصوت متعلق باثنين أو أكثر من هذه العوامل، كما يرى أن من الصعب بيان أى هذه العناصر أهم من الآخر[١٦]

ويجدر بنا أن نوضح ما تعنيه هذه المصطلحات مستعينين بعلم الصوت الفيزيائى حتى نتمكن من تفسير الجهارة أو البروز على أساس علمى سليم .

فى الواقع نرى علماء الطبيعة يرجعون عوامل اختلاف الأصوات المسموعة إلى عوامل تميز بين الأصوات المختلفة هى :

١ — شدة الصوت .

٢ — ودرجته

٣ — ونوعه .

ويبدو أن أستاذنا الدكتور السعران يريد بطول الصوت ما يريده الفيزيائيون بكلمة « شدة الصوت » التى ترتبط ارتباطا إيجابيا مع اهتزازة الجسم المحدث للصوت،[١٧] فكلما اتسعت اهتزازة ذلك الجسم زادت شدة

---

(١٦) علم اللغة ص ٢٠٦ .

(١٧) الصوت للدكتورين : جمال الدين نوح ، علم الدين سيد فرغلى ص ٢٤ .

الصوت ، كما أنها تنقص وتنخفض بنقصان سعة الاهتزازة ، واهتزازة الجسم المحدث للصوت ترجع إلى قوة دفعه سواء كان هذا الجسم صلبا أم سائلا أم غازيا .

وشدة الصوت فى الصوت الإنسانى ترجع إلى قوة دفع الهواء من الرئتين التى تزيد من سعة اهتزاز جزئيات الهواء داخل أجهزة النطق .

والجهارة تتأثر تأثرا طرديا بشدة الصوت الناتجة عن قوة دفع الهواء من الصدر ، وقوة دفع الهواء من الصدر تتأثر من الناحية البيولوجية بسلامة الرئتين ومدى اتساعهما لحجم الهواء . كما تتأثر الرئتان أيضا بقوة دفع الحجاب الحاجز لهما .

أما درجة الصوت التى أشار إليها اللغويون والفيزيائيون فإنها تعنى تردد الصوت فى الثانية الواحدة ، أى أن درجة الصوت تقدر بعدد الذبذبات التى يحدثها الجسم المولد لها فى الثانية الواحدة[١٨] وينتج عن ازدياد عدد الذبذبات فى الثانية الواحدة الصوت الحاد ، كما ينشأ الصوت الغليظ عن انخفاض عدد تلك الذبذبات فى الثانية .

فدرجة الصوت تتوقف إذن على التردد . ودرجة الصوت هى الصفة التى تميز بها الأذن حدة النغمة أو غلظها .

فهل تعتمد الجهارة على ارتفاع درجة الصوت أو على انخفاضه . ؟ أى أنها تعتمد على حدة الصوت أو غلظه . . ؟

نرى أن الجهارة فى الصوت لا تعنى غلظه ، وإنما الجهارة تظهر بأشياء وعوامل منها حدة الصوت وشدته كما رأينا .

---

(١٨) الصوت للدكتورين : جمال الدين نوح ، علم الدين سيد فرغلى ص ٣٢ .

ونلاحظ أن الصوت الإنسانى ترتفع درجته كلما اشتد الحبلان أو الوتران الصوتيان وضاقت الفتحة التى بينهما ، كما يرجع إلى حجم العمود الهوائى المهتز داخل تجاويف أعضاء النطق .

ونلاحظ أن الصوت الحاد ينتج عن أوتار أكثر شداً وأقصر طولا ، أما شدة الصوت فإنها ترجع إلى مقدار شدة الهواء المندفع من الرئتين ،

وكما تؤثر شدة الصوت ودرجته فى الجهارة يؤثر أيضا (نوعه) :

ونوع الصوت : هو صفته أو خاصته التى تميز بها الأذن بين الأصوات المتحدة الدرجة والتى تكون صادرة من آلات موسيقية مختلفة[١٩] وتوضيحا لذلك نرى أننا نستطيع أن نميز بين النغمة الصادرة عن عدة آلات مختلفة بدرجة واحدة ، فلو طرقنا شوكة رنانة ترددها (٢٦٥) مرة فى الثانية أمكن أن نميز نغمتها عن النغمة المساوية لها فى الدرجة ، والصادرة عن (العود) مثلا أو (الكمان) أو (البيانو) .

وهذا الاختلاف فى النوع هو الذى يجعلنا نميز بين صوت وآخر ، وبه يتفاضل الفصحاء وإذا كانت الأصوات المتحدة الدرجة قد تأتى مختلفة النوع ، فما سبب ذلك الاختلاف ... ؟

يرى العالم الألمانى هلمولتز Helmholtz الملقب (بأبى الصوت) أن الاختلاف فى النوع يرجع إلى اختلاف الأصوات التوافقية التى تصحب الصوت الأساسى لكل نغمة ، وقد بيّن بتجاربه أن الصوت فى الغالب لا يكون خالصا نقيا ، بل يصحب الصوت الأساسى فى المعتاد نغمات توافقية أعلى منها فى الدرجة ،

---

(١٩) المرجع السابق ص ٣٤ .

ولكنها أقل في الشدة[٢٠] ومعنى هذا أن النغمة الأساسية — في نظره — تكون أكثر النغمات وضوحا وأن سلسلة النغمات التوافقية التي تصحب نغمة (البيانو) مثلا تختلف عن سلسلة النغمات التوافقية التي تصحب نغمة (العود) المتفقة معها في الدرجة ، وكذلك تختلف عن سلسلة النغمات التي تصحب نغمة (الكمان) التي تطابق درجة (العود) أو (البيانو) .

وما يحدث في الآلات الموسيقية يحدث أكثر منه في أعضاء النطق الإنساني المختلفة في الأحجام ، والصلابة ، والتجاويف ، مما يجعلنا نقرر أن ثمة نغمات توافقية لا حصر لها تصاحب النغمة الأساسية المراد إبرازها ، مما يؤدى بدوره إلى اختلاف أنواع الأصوات المسموعة ، والتي تستطيع بها الأذن أن تميز بين صوت الصديق ، وصوت الغريب ، وبين متكلم آخر ، وبين ذكر وأنثى ، أو الرجال والأطفال .

فنوع الصوت يؤثر في الجهارة تأثيرا كبيرا ، والجهارة ترتبط بالرجال ولا تتعلق بالأطفال أو النساء ، فنوع الصوت هو الذى ميز الرجال بالجهارة التي هي صفة من صفات فصاحة المتكلم .

ومما يؤثر في الجهارة أيضا (الرنين) ، وهو تقوية أو ازدياد شدة الصوت الحادث من جسم ما بتأثير اهتزاز جسم آخر متأثر بالأول ، عندما يكون الجسمان متساويين في التردد[٢١] .

والرنين في الصوت الإنساني يؤثر تأثيرا كبيرا في الجهارة ، فاهتزاز كتل الهواء داخل تجاويف أعضاء النطق عندما يهتز الوتران الصوتيان مثلا يحدث

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٣٤ وقد تمكن هلمهولتز من تحليل الاصوات ومعرفة النغمات التوافقية المصاحبة لكل صوت ، واستطاع تقليد الاصوات المختلفة باستخدام مجموعة من الشوكات الرنانة يبلغ عددها ١٣ وتردداتها بنسبة ١ : ٢ : ٣ : ٤ وهكذا استطاع تقليد صوت الآلات الموسيقية الاخرى .

(٢١) المجع السابق ص ٥٢ .

رنينا لذلك الصوت الصادر عنهما . وتجاويف الحلق والفم والأنف بما فيها من هواء تعتبر أعمدة هوائية مفتوحة عند نطق بعض الأصوات ، ومقفولة فى البعض الآخر ، ولا شك أن اهتزاز العمود الهوائى الذى بداخل كل منها يحدث رنينا معينا وذلك عندما يساوى تردده تردد الوترين الصوتيين مثلا .

كما أن اتساع تلك التجاويف التى تضم بداخلها أعمدة هوائية متسعة ، يؤثر فى ازدياد الرنين ، وإذا كان الرنين تقوية للصوت أو ازديادا فى شدته فإنه يؤثر تأثيرا كبيرا فى الجهارة التى نبحث عن أسبابها .

ويرى أستاذنا الدكتور السعران أن الارتكاز أحد الأسباب التى تساعد على جهارة الصوت وسبب ذلك أن الصوت أو المقطع الذى ينطق بارتكاز أكبر يتضمن طاقة أعظم نسبياً — يتضمن من أعضاء النطق الخاصة جهدا أعنف فى النطق ، بالإضافة إلى زيادة قوة النفس. وهكذا فالصوت — أو المقطع الذى ينطق بارتكاز أكبر من سواه فى كلمة من الكلمات ، يبرز بروزا موضوعيا من سائر الأصوات ، أو المقاطع التى يجاورها .

وعلى العكس من هذا ، عندما تستعمل فى نطق صوت ، أو مقطع ، طاقة أقل نسبياً فهو تبعاً لذلك أقل بروزا مما يجاوره من الأصوات والمقاطع(٢٢) .

وأستاذنا الدكتور السعران — كما نرى — يرجع الجهارة إلى الارتكاز الذى يعتمد على شدة الصوت والتى قد أشرنا إليها آنفا ، لكن الارتكاز فى حد ذاته صفة من صفات فصاحة المتكلم سنتناولها فيما بعد .

ويجمل القول فى الجهارة أنها صفة رئيسية فى فصاحة المتكلم تظهر فى صاحبها ،وهى هبة من الله منحها له متمثلة فى قدرات خاصة فى النطق، وفى أعضاء

---

(٢٢) علم اللغة ص ٢٠٦ ـ ص ٢٠٧ .

متميزة ، كما أنها تأتى أيضا من الاكتساب ، وذلك بالأداء الذى يتناسب مع تلك الإمكانات الموهوبة ، ويتم ذلك بتدريبها ومرانها ، وتظهر صفة الجهارة بعدة عوامل مجتمعة هى: شدة الصوت، ودرجته ، ونوعه ، ورنينه ، ومراعاة مواطن الارتكاز، مع حسن استخدام هذه العوامل ، كما تؤثر فيها عوامل أخرى تتمثل فى الوسط الناقل للصوت ، وقدرة المستمع على الاستجابة .

٢ ـ الارتكاز Stress **أو النبـر** Accent :

ويعرّف أستاذنا المرحوم الدكتور السعران هذه الخاصية المتصلة بالنطق قائلا : « الارتـكاز هو درجة قوة النفس التى ينطق بها صوت أو مقطع ..»[٢٣]

والدكتور تمام حسان يعرفها تحت اسم (النبر) بقوله : « والنبر بحكم التعريف ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة فى السمع عن بقية ما حوله من أجزائها »[٢٤] .

أما الدكتور ابراهيم أنيس فإنه يقرر أن « النبر بنوعيه ليس إلا شدة فى الصوت أو ارتفاعا فيه . وتلك الشدة والارتفاع يتوقف على نسبة الهواء المندفع من الرئتين ، ولا علاقة له بدرجة الصوت أو نغمته الموسيقية »[٢٥] .

ومهما تعددت التعريفات فإنها تلتقى فى نقطة هامة هى كون النبر أو الارتكاز سببا لوضوح صوت أو مقطع من الـكلمة . والوضوح الذى ينتج عن الارتكاز من الممكن أن يتصل بالفصاحة التى تهدف دائما إلى الإبانة والوضوح ، ولـكن إلى أى مدى ترتبط الفصاحة بالنبر أو الارتكاز ... ؟

نلاحظ أن ثمة علاقات بين الفصاحة والارتكاز يمـكن أن توثق وتبلور ، وسنحاول أن نوجزها فيما يلى :

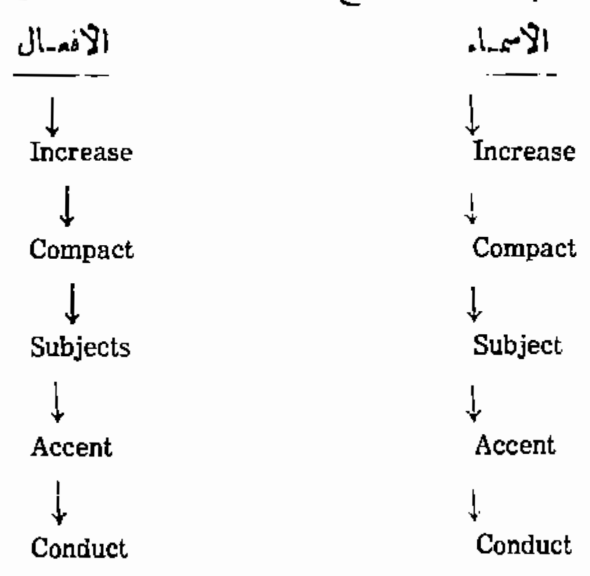
---

(٢٣) علم اللغـــة ص ٢٠٦ .
(٢٤) اللغـــة العربيـــة معناها ومبناها ص ١٧٠ .
(٢٥) الاصوات اللغوية ص ١٧٥ ـ ص ١٧٦ .

(أ) من ناحيــة المعنى :

يرى أكثر الباحثين في اللغة العربية أنه لا علاقة بين النبر ومعاني الكلمات العربية ويصرح الدكتور ابراهيم أنيس بذلك معتبرا أن هذه الظاهرة في اللغـة العربيـة ميزة حيث يقول « ولحسن الحظ لا تختلف معاني الكلمات العربية ، ولا استعمالها باختلاف موضع النبر منها »(٢٦) .

قد يصدق هذا على العربية الفصحى ، فنحن لا نـكاد نعثر على كلمتين فرّق النبر بين معنييهما تفريقا أساسيا كما هو معروف في الانجليزية مثلا ، عندما يفرق النبر بين الأسماء والأفعال ، ولقد ورد في كتاب The phonetics of English أمثلة كثيرة من الـكلمات التي يفرق النبر بين معانيها مثل تفريقـه بين الأسمـاء والأفعال ، فاذا كان الارتـكاز أو النبر قويا على المقطع الأول كانت الـكلمة اسما ، وإذا انتقل النبر القوى إلى المقطع الثاني صارت الكلمة فعلا ، مثل(٢٧) :



---

(٢٦) الاصوات اللغة ص ١٧٥ .

(٢٧) Edaward : The phonetics of English. p. p. 165 - 166 181 - 184 Fifth Edition 1972.

=

وقد اصطلح اللغويون على وضع علامة قبل المقاطع القوية الارتكاز وهى . (ا)، والمقاطع ذات الارتكاز أو النبر المتوسط أو الثانوى أشاروا اليها بالعلامة (,) أما المقاطع الضعيفة فانها تترك بلا علامة[٢٨] ، ولقد آثرنا أن نستخدم السهم القصير (↓) ليكون علامة للمقاطع القويه النبر .

ومع أننا لم نظفر بدور للنبر فى التفريق بين المعنى الأساسى للكلمة إلا أننا نستطيع أن نرى لانتقال النبر معانى نستطيع أن نسميها (بالمعانى الثانوية) وهى معانى (مولدّة) أو مستوحاة من نطق المتكلم الذى نقل النبر القوى من مقطع إلى آخر ، فقد ترتبط هذه المعانى المثارة أو المولدة بشخصية الناطق أو بيئته كالذى يحدث عندما نسمع كلمة قد نقل نبرها بدوى أو صعيدى مثلا ، وذلك عن طريق المذياع فإننا نحس بمعانى ثانوية متصلة بالثقافة الواسعة أو الضيقة ، وطرق مزاولة الحياة وما يتعلق بها من جفاف أو تقشف أو رفاهية ، وربما يتصل بالأخذ بالثأر ، أو الحيوانات المفترسة ، أو النخيل وأعواد القصب .

وهذه المعانى التى يمكن أن تولّد لم يكن لها سبيل للظهور إلا بطريقة النطق التى ميزها النبر عن غيرها . وهى ترتبط بفصاحة الكلام التى هى مناط اهتمام العربية الفصحى .

أما عن دور النبر فى التفريق بين معانى المفردات العامية فان الأمر يختلف كثيرا عن دوره فى الفصحى، فقد يستخدم النبر فى العامية ليكون مميزا بين أكثر من معنى للكلمة الواحدة فكلمة (↓قلم) يكون النبر على المقطع الأول عندما

= وانظر ايضا :

A. C. Gimson : A practical course of english pronunciation p. p. 33 — 51

(٢٨) انظر علم اللغة للدكتور السعران ص ٢٠٨ ، علم اللغة العام للدكتور كمال بشر ص ٢١١ .

يراد بها الإخبار أو الإثبات ، أو إجابة عن سؤال مثل : ماذا بيدك . . . ؟ أو ماذا بحقيبتك ... فتكون الاجابة (↓ قلم) بنبر قوى على المقطع الاول ، أما إذا استخدمت كلمة (قلم) ليراد بها الاستفهام بدون أداة فى العامية أو التعجب فان النبر القوى ينتقل إلى المقطع الثانى كأن تقول (ق↓لم) وتريد أن تقول : هل معك قلم ... أو فى جيبك قلم ... ؟

ويرى الدكتور تمام حسان أن للنبر وظيفة تشبه وظيفة حركة الدليل على المحذوف ، وذلك فى معنى الجملة، ويدلل تمام حسان على فكرته بالجملتين الآتيتين: « اذكرِ الله » و « اذكرِى الله » .

فأحوال الأصوات فى الجملتين أصبحت واحدة لأن الياء فى الجملة الثانية فقدت كميتها فأصبحت بمقدار الكسرة ، كما أن التقاء الساكنين فى الجملة الأولى قد حول النطق فى الراء إلى الكسرة ، مما قد يوقع اللبس ، فلا يعرف السامع ما إذا كان المتكلم يخاطب رجلا أو امرأة . ويرى الدكتور تمام حسان أن النبر هو الذى يفرق بين الإسنادين ،فيكون النبر فى الجملة الأولى على مقطع همزة الوصل، ويكون فى الجملة الثانية على مقطع الكاف ليدل على طول الياء ، لأن النبر يقع على ما قبل الآخر إذا كان المقطع الأخير متوسطا « رى » وما قبل الآخر قصيرا « ك » ، فيكون النبر هنا ذا وظيفة تشبه وظيفة حركة الدليل على المحذوف فى نحو « تَسْ مَ وْن » حيث تدل الفتحة على ألف « سَمَى » المحذوفة(٢٩) .

(ب) من الناحيـة الموسـيقية :

من المعهود لدى الناطقين بلغة ما أنهم لا يدركون عاداتهم اللغوية إلا بعد الدرس اللغوى ، لكن أصحاب اللغة يشعرون بسهولة بتغير تلك العادات عندما ينطق أجنبي لغتهم ، ونحن متكلمى العربية ندرك هذه الحقيقة عندما

---

(٢٩) اللغـة العربيـة معناها ومبناها ص ٣٠٨ .

لستمع إلى الأوروبى مثلا الذى ينطق العربيـــة ، وذلك الأجنبى الذى شعرنا بقصوره فى نطق العربيـة لم يراع العادات اللغوية الخـاصة بلغتنـا ، ومن ذلك القصور عدم مراعاته لمواضع النبر .

فانتظام مواضع النبر فى الجمل بطرق وقواعد معينة يحدث إيقاعا موسيقيـا معينا ، قد لا ندركه إلا بعد التأمل والدرس ، وذلك أن عملية النطق بالطريقـة العربية أصبحت آلية بفضل ما اكتسبته من ميراث لغوى ، وعادات بيئية .

لكننا نحس بخلل ذلك الإيقاع عندما يتغير أو يضطرب النبر ، وذلك عندما يتكلم بلغتنا من لا يحسن معرفة مواضع النبر فيها .

(جـ) التطور اللغوى وعلاقته بالنبـــر :

لاحظ بعض الباحثين أن انتقال موضع النبر فى الكلمات قد يؤدى إلى تطور أصواتها ويحاول الدكتور ابراهيم أنيس أن يطبق ملاحظات المحدثين حول انتقال النبر على ما أصاب اللغة العربية من سقوط حركات الإعراب فى لهجات الكلام ويقول : « موضع النبر فى الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربيـة هو المقطع الذى قبل الأخير ، فى (يكتب) ، (مستفهم) ، ونجد النبر على المقطع (ت) فى (يكتب) وعلى المقطع (هـ) فى (مستفهم) وقد حدث فى لهجات الكلام أن انتقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، إذا أصبحت فى الكلمتين السابقتين على (يك) فى (يكتب) وعلى (تف) فى (مستفهم) وترتب على هذا الانتقال أن تخلصت الكلمات من أواخرها ، وبذلك سقطت حركات الإعراب .. »[٣٠] .

وهذه الملاحظة التى لاحظهـا الدكتور إبراهيم أنيس لا تشمل الفعل الثلاثى الماضى لأن التخلص من حركة البناء فى الثلاثى عندما انتقلت إلى العامية لم يكن بسبب تغير أو انتقال النبر من مقطع إلى آخر ، ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن

---

(٣٠) الاصوات اللغوية ص ٢٥٨ .

قواعد النبر لا تتأثر بالتغيير الذى يطرأ على الأفعال الثلاثية ،ومن ثم فإن موضع النبر فى الفعل الثلاثى لا يختلف سواء فى حالة الوقف أم الوصل[٣١] .

وبعد — فإن مراعاة مواضع النبر مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفصاحة ، لأن هذه الخاصية الصوتية ترتبط بسلامة النطق التى تحرص الفصاحة عليها كثيرا ، ولذلك اجتهد المسلمون فى معرفة مواضع النبر فى القراءات القرآنية ليلتزموا بها محافظة على القرآن الكريم . ولو كان لدينا ما نهتدى به إلى مواضع النبر فى اللغة العربية كما كانت تنطق فى الجاهلية أو صدر الإسلام لعرفنا الكثير عن خصائص العربية الخالصة .

هذا إلى جانب ما ذكرناه عن أهمية النبر فى التفريق بين المعانى الثانوية ، وعن دوره فى الإيقاع الموسيقى الذى يميز لغة عن أخرى ، وكذلك ما قد يلعبه فى التطور اللغوى أو الصوتى للكلمات على نحو ما أشرنا آنفا .

٣ ـ التنغيم : Intonation

والتنغيم هو خاصية صوتية تدل على ارتفاع أو انخفاض درجة الجهر فى الكلام وهو مصطلح صوتى يطلق عليه بعض الباحثين (موسيقى الكلام)[٣٢] .

ومن الملاحظ أن المتكلمين بأية لغة يتغير كلامهم فى درجة الصوت ، أى تتغير نغماته ، وهذا التغير الذى يحدث فى كلام المتكلمين يرجع إلى طبيعة اللغة التى يتكلمون بها ، كما يرجع أيضا إلى المواقف التى يعبرون عنها ، والتراكيب التى يستخدمونها ، والأنماط الأدبية المختلفة ، وقد يختلف التنغيم من متكلم إلى آخر بقدر الفوارق الخلقية فى الوترين الصوتيين اللذين يحدثان النغمة

---

(٣١) الاصوات اللغوية ص ٢٥٨ .

(٣٢) الدكتور ابراهيم أنيس يستخدم هذا المصطلح بدلا من لفظة التنغيم لتدل على المصطلح الانجليزى Intonation انظر الاصوات اللغوية ص ١٧٦ .

الموسيقية عن طريق ذبذباتهما ، وبقدر اتساع تجاويف النطق التى يتردد فيها الهواء الناقل للصوت

ومن الراجح لدينا أن الصلة بين الفصاحة والتنغيم كبيرة ، وتستوجب التناول والدرس ، لأن التنغيم صفة صوتية متصلة بالمتكلم اتصالا وثيقا ، ونحن ما زلنا فى معرض الحديث عن فصاحة المتكلم ، وهذا يدفعنا إلى النظر فى وظيفة التنغيم بقدر ما يتاح لنا من وسائل .

ويقرر أستاذنا المرحوم الدكتور السعران أن كثيرا من اللغات المختلفة تستخدم التنغيم للتعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، وعن المشاعر والانفعالات فتستعمل تنغيما خاصاً لكل من الرضى والغضب والدهش والاحتقار إلى آخره ويقول : « . . . ومن اللغات ، كالفرنسية مثلا ، ما يحول معنى الجملة من الدلالة على التقرير إلى الدلالة على الاستفهام بتغيير التنغيم ليس غير . عبارة Il Vient عندما تكون تقريرية بمعنى « هو يأتى » تنطق على نغمة هابطة أو لحن هابط ، فإن كان سؤالا ؟ . IL Vient بمعنى « هل يأتى . ؟ » نطقت على نغمة صاعدة[٣٣] .

ويذكر الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس أن اللغة الصينية تجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى إذ تختلف معانى الكلمات تبعاً لاختلاف التنغيم مثل كلمة (فان) فهى تؤدى ستة معان لا علاقة بينها هى (نوم ، يحرق ، شجاع ، واجب ، يقسم ، مسحوق) وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية فى كل حالة[٣٤] .

ويرى الباحثون فى العربية الفصحى أن التنغيم من الناحية الوظيفية لم

---

(٣٣) علم اللغة ص ٢١١ .
(٣٤) الاصوات اللغوية ص ١٧٦ .

يدرس الدراسة التي يستحقها»[٣٥] وهم يرجعون ذلك التقصير إلى الموسيقيين العرب الذين لم يتفقوا على السلم الموسيقى فى الغناء العربى ، ولهذا يؤثرون ترك الحديث عن موسيقى الكلام حتى تتكامل لهم وسائل الدرس ، كما يرى بعض الباحثين أن التنغيم قد يجد مجالا أوسع فى النقد والأدب .

ويحاول الدكتور تمام حسان أن يدرس التنغيم فى العامية حتى يصل إلى أسس يستطيع بها أن يدرس الفصحى وذلك كما حاول فى دراسته للهجة عدن ويقول:والتنغيم فى اللغة العربية الفصحى غير مسجل ولا مدروس ،ومن ثم تخضع دراستنا إياه فى الوقت الحاضر لضرورة الاعتماد على العادات النطقية فى اللهجات العامية . وفى دراستى للهجة عدن ، وقفت بواسطة الملاحظة التى أيدتها تجارب المعمل فى بعض نتائجها على نظام التنغيم فى اللهجة ، ثم حاولت أن أقارنه بكلامى أنا باللغة الفصحى ، فوجدت الفروق طفيفة جدا بحيث يمكن مع قليل من التعديلات أن يمثل هذا التنغيم كلامى بالعربية الفصحى »[٣٦] .

والنظام التنغيمى للفصحى والذى قد توصل إليه الدكتور تمام حسان من خلال دراسته للهجة عدن قد أقامه على وجهى نظر : الأولى صعود أو هبوط النغمة على آخر مقطع وقع عليه النبر ، والثانية تقوم على علو الصوت وانخفاضه وتوسطه وبذلك قد صنف النظام التنغيمى فى الفصحى إلى ستة أشكال هى[١٧]:

---

(٣٥) انظر الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس ص ١٧٧ ، علم اللغة العام القسم الثانى « الاصوات » للدكتور كمال بشر ص ٢١٣ ، علم اللغة للدكتور السعران ص ٢١٠ ـ ص ٢١١ ، اللغة مبناها ومعناها للدكتور تمام حسان ص ٢٢٨ .

(٣٦) اللغة مبناها ومعناها ص ٢٢٨ ـ ص ٢٢٩ .

(٣٧) اللغة مبناها ومعناها ص ٢٢٩ .

١ ــ النغمة الهابطة الواسعة .
٢ ــ « « المتوسطة
٣ ــ « « الضيقة
٤ ــ النغمة الصاعدة الواسعة
٥ ــ « « المتوسطة
٦ ــ « « الضيقة

كما أنه يضيف نغمة أخرى يسميها « النغمة المسطحة » وهى لا صاعدة ولا هابطة ويرى أنها تكون عند « الوقف قبل تمام المعنى » وقد استشهد على ذلك بالوقف عند الفواصل الثلاث الأولى فى قوله تعالى : « . . فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » .

فالوقف عند « البصر » و « القمر » و « القمر » يكون بنغمة مسطحه لأن المعنى لم يتم ، أما الوقف عند « المفر » فالنغمة فيه هابطة لأنه وقف عند تمام المعنى.

وهذه النغمة المسطحة لا يضعها الدكتور تمام حسان مع الأشكال التنغيمية التى حددها بستة فقط ، وهذه الأشكال فى نظره لا يخرج عنها الكلام سواء كان عاديا أم مؤكدا[٣٨] .

ونحن فى هذا المقام لا يهمنا أن نناقش هذه الأشكال التنغيمية وعددها بقدر ما يربط فصاحة المتكلم بالتنغيم باعتباره ظاهرة صوتية لها دور فى فصاحة الناطقين .

ونستطيع أن نلاحظ أن التنغيم يلعب دورا كبيرا فى فصاحة الخطباء والوعاظ والممثلين ، لأن كلامهم يقصد به التأثير فى المستمعين ، وهذا التأثير يعتمد إلى حد كبير على التلوين الصوتى الذى يجب أن تصطبغ به كلماتهم ، حتى يرتقى الانفعال الذى يرجى نموه بين المتكلمين والسامعين، وكما يختلف الانفعال باختلاف المقامات فالتنغيم لا بد أن يختلف أيضا تبعا لذلك .

---

(٣٨) المرجع نفسه ص ٢٣٠ ــ ص ٢٣١ .

ومن الأمثلة التى يتغير التنغيم فيها بتغير الانفعال مانراه فى صوت المذيع الذى يصف جلسة هامة فى البرلمان ، أو يصف حفلا كبيراً ، فنستطيع أن نرى صوته قد اصطبغ بنغمة هادئة ، وذلك عندما يأخذ فى وصف القاعة ، والتحدث عن الحاضرين أو الخطة التى سيسير الحفل طبقا لها ، لكن هذه النغمة التى تصاحب الوصف أو الإخبار سرعان ما تتغير إلى نغمة أخرى ، وذلك عندما يدخل إلى القاعة رئيس الجمهورية مثلا أو شخصية هامة مرتقبة ، ومع أن حديث المذيع لم يخرج عن الوصف والإخبار عند دخول تلك الشخصية المرتقبة إلا أن الانفعال الذى سيطر على صوته قد حول النغمة إلى لون آخر يناسب المقام ، كأن يقول المذيع عند دخول هذه الشخصية مثلا : « . . . والآن يدخل السيد الرئيس ، ويقف الحاضرون ويصفقون تحية له وتعلو أصواتهم بالهتاف لحياته ، ويرفع الزعيم البطل يديه ليرد التحية . . . . . » نلاحظ أن صوت المذيع فى مثل هذا المقام قد غلبت عليه الناحية الانفعالية التى يغلب عليها الصياح ، ذلك الصياح ، كأنه دعوة للحاضرين أو السامعين إلى أن يشاركوه فى الموقف ، فعندما يقول : « والآن يدخل السيد الرئيس .. » فإنه يقولها بنغمة تشبه قوله « انتبهوا فقد حدث أمر عظيم » ، وعندما يقول « ويقف الحاضرون » فكأنه يقول : « قفوا احتراما » وعندما يقول « ويصفقون تحية له » فكأنه يدعو السامعين إلى أن يفعلوا مثلهم بقوله « صفقوا تحية له » ، فنلاحظ أن النغمة فى هذه الجمل التى قيلت فى الوصف أو الإخبار قد تحولت إلى نغمات أخرى تناسب الطلب أو الدعوة الشديدة أو الملحة إلى المشاركة .

لكننا نحس نغمة أخرى فى قوله « ويرفع الزعيم البطل يديه ليرد التحية.. » فإننا نحس أن النغمة هنا ليست تلك التى تصاحب الوصف والأخبار ، ولا التى تصاحب الطلب أو الدعوة الماسة إلى المشاركة لكنها نغمة تشبه مايصحب المدح

أو التعجب فكأنه يقول « نعم تأثر الزعيم بالشعب رفعه يديه لرد التحية » أو كأنه يقول : « ما أعظم رفع الزعيم يديه لرد التحية » .

فنلاحظ مما سبق أن التنغيم قد لعب دورا كبيراً فى إضافة معان جديدة ، أو قد غير دلالة الألفاظ من معنى الإخبار أو الوصف إلى معان أخرى طلبية ، وربما يتضح دور التنغيم فى تحويل الجمل الخبرية أو التقريرية إلى أغراض طلبية أخرى أو إنشائية فى اللغة العامية . فنلاحظ فى العامية المصرية يعتمد المتكلمون على التنغيم للفصل بين الجمل التقريرية والاستفهامية ،وخاصة تلك الجمل التى يجاب عنها بنعم أو لا ، فنلاحظ أن نطق المتكلمين بالعامية المصرية لجملة (حضر محمد) فى حالة الإثبات له تنغيم يختلف عن النطق بها فى حالة الاستفهام(حضر محمد ؟)، كما أننا نجد تنغيما ثالثا لهذه الجملة لو قيلت فى حالة التهكم أو الاستهزاء ، كأن يكون حضور محمد مثيرا لذلك التهكم أو الاستهزاء ،والعامية الليبيه تستغنى عن أداتى الاستفهام«هل — والهمزة» بإضافة صائت طويل هو الواو(Long Vowel O) إلى نهاية الكلمة التى يستفهم بها فيقولون : محمدو .. ؟ عليو .. ؟ .

وفى العامية المصرية صيغ شائعة يغير التنغيم دلالاتها ، مثل :

القسم بمثل « والله » و « النبى » و « وحياة أبوك » .

والنداء مثل : « ياسلام » ، « ياحلاوة » ، « وياختى » .

والتحية مثل : « سلام عليكم » ، « صباح الخير » ، « مساء الخير » .

وهذه الصيغ يمكن أن تقال بنغمات متعددة ، ويتغير معناها مع كل نغمة ، فقد تدل على الاستفهام أو التعجب أو التهكم أو الوعد أو التوكيد أو غير ذلك .

فجملة (سلام عليكم) مثلا تقال بنغمة خاصة ليراد بها التحية الخالصة لكنها تقال بنغمة مخالفة لو قصد بها التهكم ، وبنغمة ثالثة لو قصد بها التذكير بشىء ، وبرابعة لو قيلت للوعد ، وبخامسة لو نطقت بهدف الوعيد أو التهديد ، وبسادسه لو أراد الناطق بها التحدى وهكذا .

والعلاقة بين التنغيم والفصحى تتخذ مظاهر أخرى ، ومن أمثلة ذلك :

حذف بعض الأدوات يجعل الناطق حريصا على تعويض المحذوف بالتنغيم كحذف أداة النداء كما فى قول الشاعر الجاهلى الحارث بن وعلة الجرمى[٣٩] .

قومى هُمُ قَتَلوا أميمَ أخى فإذا رميتُ يصيبنى سهْمى

وكقوله تعالى فى سورة يوسف « يوسف أعرض عن هذا، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين. »[٤٠] .

فنلاحظ أن حذف أداة النداء مع ترخيم (أميمة) فى بيت الحارث بن وعلة قد جعل البعض يتوهمون أن كلمة (أميم) مفعول به ، وهو مايغير المعنى الذى قصده الشاعر ، والتنغيم فى هذه الحالة ضرورى لإفهام السامع أن كلمة (أميم) الواردة فى البيت منادى بأداة نداء محذوفة .

أما فى الآية الكريمة فان التنغيم ضرورى أيضاً ولكنه ليس بالدرجة التى شعرنا بها فى البيت السابق ، لأن جملة (أعرض) قد ساعدت على توضيح المحذوف .

وعندما لايراعى التنغيم فى مواضع الحذف ، فان الأمر قد يلتبس على السامع بما قد يثير الاشمئزاز أو الإعراض عن السماع، ومثال ذلك ماحدث بين أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأحد الباعة الذى مر عليه ومعه ثوب ، فقال له أبو بكر: أتبيع الثوب . . ؟ فقال : لاعافاك الله . فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون . قل : لا ، وعافاك الله [٤١] .

---

(٣٩) ديوان الحماسة لأبي تمام جـ ١ ص ٧٢ .
(٤٠) سورة يوسف (آية ٢٩) .
(٤١) البيان جـ ١ ص ٢٦١ .

ويبدو أن الرجل الذى خاطب أبا بكر بهذه الجملة لم يراع الوقف بعد لا ، ولم يعطها حقها من التنغيم الذى يمكن الفصل به بين (لا) والجملة التى جاءت بعدها لغرض الدعاء ، ولو كان الرجل قد استعمل التنغيم فى جملته ، أى راعى التنغيم والوقف بعد لا — لما دفع أبا بكر الصديق إلى نصحه بوضع الواو التى تفصل بين النفى وجملة الدعاء ، فعدم مراعاة التنغيم فى كلام ذلك الرجل قد يوهم بتحويل المعنى من الدعاء له للدعاء عليه ، وهو مالم يقصده الناطق بكلامه . كما أننا لانتصور أبا بكر رضى الله عنه قد غاب عنه ماقصده الرجل بكلامه ، ولكن أبا بكر قد حرص على ألا يقع السامع فى سوء الفهم غير المتعمد من الناطق ، ولذلك نرى أبا بكر يوصى الرجل بالفصل بين النفى وجملة الدعاء . حتى يتضح المراد بكلام الناطق لدى السامعين .

وبعد ، فللتنغيم علاقة لا يمكن إهمالها بفصاحة المتكلم ، لأن المتكلم الفصيح يستطيع أن يستخدم التنغيم للتفريق بين المعانى المختلفة التى لايفرق بينها إلا به ، كما أنه يستخدم فى تقوية المعانى وتأكيدها ، كما أننا لانستطيع أن نغفل العلاقة بين التنغيم والعاطفة أو الانفعال .

وتتضح العلاقة بين الفصاحة والتنغيم بالنظر إلى وظائفة التى يؤديها فى اللغة ، التى ذكرنا طرفا منها . وكما أوضحنا فإن علاقة التنغيم باللغة العربية الفصحى لم تتجسم بصورة كبيرة ، لكنها موجودة ولا يمكن إغفالها ، وعدم مراعاة التنغيم يؤدى أحيانا إلى الفساد والخلط للتوهم الذى ينتج عن عدم مراعاته ، والفصاحة تسعى إلى الوضوح الذى يحقق الفهم والإفهام .

وإلى جانب الغموض الذى قد يترتب على مراعاته توجد معان أو دلالات تتعلق بوجود التنغيم أو عدمه ، ولقد أوضحنا ذلك فى التنغيم المصاحب المتكلم الذى يصف حفلا فى افتتاح (البرلمان) أو فى غير ذلك . فلقد اقترنت الجمل المنطوقة بتنغيم خاص — بمعان لاتفيدها تلك الجمل عندما تنطق مجردة من التنغيم

فالتنغيم وسيلة من وسائل التعبير سواء اقترن بالفصحى أو العامية ، لكن مجاله فى الفصحى لم يأخذ وضعه المرجوّ له ، أو أن الفصحى قد استغنت عن جزء من وظائفه فيها مستعينة بالأدوات أو القرائن .

وخلاصة القول أن العلاقة بين الفصاحة والتنغيم تتمثل فى الوضوح والإبهام الذى يؤدى إلى ما يعرف بالتعقيد المعنوى ، كما تتمثل العلاقة أيضا فيما يتعلق بالنسق الموسيقى الذى قد يصاحب الألفاظ عند ملازمتها للتنغيم . فالنغمات الهابطة أو الصاعدة والواسعة والضيقة تساعد عند تلاؤم الكلمات مع معانيها على حسن الوقع فى السمع والعذوبة والسلاسة والطلاقة على اللسان .

ومما يتصل بفصاحة المتكلم ما نستطيع أن نطلق عليه (الاستعانة) .

٤ ـ الاستعانة :

ونعنى بالاستعانة ما قد يلجأ إليه المتكلم من أصوات لتوضيح معناه ، ولقد استخدم العتابى هذه اللفظة على أنها من آفات البلاغة ، فلقد سأله سائل عن البلاغة فقال : « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ » ، وعندما سأله ذلك السائل عن معنى الاستعانة قال : « أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه ، ويا هذا ، وياهيه ، واسمع منى واستمع إلىّ ، وافهم عنى ، أولست تفهم ، أو لست تعقل . فهذا كله وما أشبهه عىّ وفساد »[٤٢] .

ونحن فى استعمالنا لهذه اللفظة سنحاول أن نتوسع فى مدلولها ، فنحن نعنى بها الأصوات أو الاشارات الصوتية التى يلجأ إليها الناطقون لتوضيح المعنى أو للإيجاز أو غير ذلك من الأغراض ، والاستعانة بمفهومنا لها ـ تكون قد اتسعت وخالفت مفهوم العتابى لها .

---

(٤٢) البيان جـ ١ ص ١١٣ .

ويشمل هذا الاستعمال ما يعرف بالكلكس Clicks ، أو أصوات المصمصة كما يترجمها أستاذنا المرحوم الدكتور السعران[٤٣]، ونحن نفضل استعمال هذه اللفظة معربة لأن أصوات الكلكس لا تكون بالمص فقط ، فهى تشمل أيضا الأصوات التى تصور بالنفخ أو بقرع الأجسام المادية ، والكلكس أصوات قصيرة حادة تحدث خلال لحظات قصيرة[٤٤].

وبعض اللغات الأفريقية تستخدم الكلكس كأصوات كلامية مثل القبائل التى تسمى بوشمان Bushman وبعض قبائل جنوب أفريقيا .

ونعود لنتساءل : إلى أى مـــدى ترتبط أصوات الكلكس بفصاحة المتكلم .... ؟ نستطيع أن نقول : إن ثمة علاقة بين الفصاحة عند المتكلمين وهذه الأصوات إذا لجأ إليها المتكلم الفصيح فى المقام المناسب ، فقد يلجأ الخطيب مثلا أثناء خطبته الحماسية إلى أن يدق بقبضة يده على المائدة ، وهو يستعين بهذه الدقة على إبراز معانيه ليؤكد معنى الصمود أو التحدى ، كأن يطرق المائدة طرقة واحدة أو طرقتين عندما يقول الخطيب مثلا : « لن نفرط فى شبر من أراضينا » أو بعدة طرقات عندما يقول مثلا : « لن نستسلم حتى آخر قطرة من دمائنا » وهذا الطرق — فى نظرنا — يساعد فعلا على إبراز المعانى والعواطف ، وهذه الأصوات تشبه فى وظيفتها الإيقاع الموسيقى للمغنى عند غنائه ، أو الموسيقى التى تصاحب المواقف التمثيلية ، أو التى تصاحب قراءة بعض القصائد .

ومن أمثلة ذلك أيضا التصفيق الذى قد يلجأ إليه المتكلم ، فقد يحدث

---

(٤٣) علم اللغـــة ص ١٥١ .

(44) Twentieth Century Dictionary P. 197

(45) Dictionary of Language and Linguistic P. 37—38

الخطيب تصفيقة واحدة لتساعد على إبراز معنى الفرار أو الهرب ، وذلك عندما يقول مثلا : « وولّى العدو مدبرا » .

وقد يصطنع المتكلم تصفيقة أخرى ليبرز معنى يتعلق بالمستمعين كأن يصفق تصفيقة واحدة مصاحبة لقوله مثلا « انتبهوا جيدا » أو « استمعوا لما يأتى » وقد يستعين الخطيب أيضا بأصوات المصمصة فى مواقف معينة كإثارة العجب، أو التحسر .

لكننا نستطيع أن نقول إن قيمة تلك الأصوات تتعلق بالمقامات التى تقال فيها ، وشخصية المتكلمين أنفسهم ، ومدى تأثيرهم فى المستمعين ، وقدرتهم على تعميق الانفعال عند استعمالهم بهذه الأصوات، لكنها تصبح عيّا وفساداً عندما يعجز المتكلم عن حسن استعمالها ، والتوقيت المناسب لها ، وعدم تقديره لمدى استجابة المستمعين .

وأصوات الكلكس تختلف باختلاف اللغات والبيئات، فأصوات المصمصة مثلا كثيرة ومتعددة الدلالة ، والشائع منها فى مصر ما يحدث عن ضغط طرف اللسان على مقدم الحنك مع تحريكه إلى الوراء وهو لا يزال ضاغطا على الحنك، ويحدث عند ذلك صوت المصمصة ليدل على معنى الرفض (لا) وقد يتكرر ذلك الصوت ليفيد معنى التوكيد — توكيد النفى (لالالا) ، لكن صوت المصمصة إذا نشأ عن وضع اللسان بالصورة السابقة مع اغلاق الشفتين والسماح بمرور الهواء من أقصى اليمين أو الشمال لالتقاء الشفتين — فان هذا الصوت يعنى عند المصريين التعجب أو التحسر وهذا الكلكس أطول من كلكس الرفض.

أما إذا اتخذ اللسان وضعه السابق ، وأحكم ضغطه بسقف الحنك، ثم حرك الجانب الأيمن منه إلى الوراء مع فتح الشفتين من جهة اليمين ، فأنه يحدث صوت مصمصة شبيه بالأصوات الانفجارية ، وصوت المصمصة هذا يعنى فى اللهجة الليبية الموافقة (نعم) .

وأصوات الاستعانة كثيرة ومختلفة فى ألوانها ودلالاتها ،ويستطيع الباحث أن يجد فى أصوات الصفير مثلا مستويات من الإشارات الصوتية التى تتخذ للتفاهم ، والتى لم يسجل أكثرها برموز كتابية تقليدية . وقد يجد الباحث فى اللهجات وفى علم الإشارة ميدانا واسعا فى أصوات الاستعانة ، وهو ميدان يسلك فيه الباحث منهجا قائما على دقة الملاحظة والتسجيل الدقيق ، والدراسة الواعية .

وبعد ، فهذه أهم الصفات الصوتية المتعلقة بالمتكلم الفصيح،وهناك جوانب أخرى يمكن أن تتصل بالفصاحة عند المتكلمين وأهمها تلك الصفات التى تنتقص من فصاحته ، وهى صفات صوتية كالعيوب المتعلقة بالنطق ، لكننا نرى أن نوسع لها مكانا آخر ، ونعنى به ما سنحاول دراسته فيما يتعلق بعيوب الفصاحة.

ويجب أن نتوقف هنا عند الجانب الصوتى لفصاحة الكلمة والكلام وهو ما سيصنف ضمن ثانيا .

ثانيــا ـ علاقة الأصوات اللغوية بفصاحة الكلام والكلمة :

رأينا أن البلاغيين قد استقروا على اشتراط خلوص الكلمة والكلام من التنافر حتى يصح وصفهما بالفصاحة ، لأن التنافر يؤدى إلى الثقل ، والثقل فى النطق لا تقبله النفس ، لأنه يجهد أعضاء النطق ، ولايقع موقعا حسنا فى الأذن، كما اشترط البلاغيون أيضا الخلوص من الغرابة لأن الكلمة الغريبة ثقيلة أيضا على اللسان لعدم انتشارها ، بسبب وحشيتها أو لكونها دخيلة أو لكونها مصطلحا قيل فى غير مقامه . كما اشترط بعضهم خلوص الكلمة من الكراهة فى السمع ، كما فعل ابن سنان الخفاجى، كما اشترط ابن سنان أيضا تجنب كثرة عدد الحروف فى الكلمة الواحدة ، ونلاحظ من خلال تلك الشروط أن عدم توافرها يؤدى إلى الثقل الذى يجهد أعضاء النطق والسمع .

فالفصاحة تشترط أن تكون أصوات الكلمات سهلة فى نطقها ، لا تكدّ أعضاء النطق ، ولا تمجها الأذن ، والثقل فى نطق الأصوات يتخذ أشكالا مختلفة مثل :

التنـــــافر :

يرى البلاغيون أن التنافر قسمان : قسم تكون اللفظة بسببه متناهية فى الثقل ، وقسم يليه فى درجة الثقل ، ومن أمثلة القسم الأول تلك اللفظة التى وصفها الخليل بن أحمد بأنها شنعاء وهى كلمة (الهُعْخُع) مما دفع ابن سنان الخفاجى إلى جعلها من المهمل الذى يصعب النطق به « لضرب من التقارب فى الحروف ، فلا يكاد يجىء فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمه واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم، وثقله[٤٦] » .

كما يستنكر الخفاجى الصورة التى وردت بها هذه الكلمة ، كما يذكر بهاء الدين السبكى أن الثقات من كلام العرب قد أنكروا هذا الاسم[٤٧] .

ومن أمثلة القسم الثانى الذى هو أقل ثقلا مما ذكرنا كلمة (مستشزرات) التى توقف عندها البلاغيون .

ولقد ذكرنا فيما سبق أن البلاغيين قد اختلفوا فى تفسير التنافر ، فبعضهم يراه فى البعد الشديد فى مخارج الحروف وفى القرب الشديد أيضا ، وذلك كما نسب إلى الخليل ، فالبعد الشديد يشبه الطفر ، والقرب الشديد يشبه مشى المقيد ويأخذ الرمانى برأى الخليل من غير تحفظ[٤٨] . أما الخفاجى فإنه يرى التنافر فى قرب المخارج فقط ، ولا تنافر فى بعدها[٤٩] . أما السبكى فإنه يرى أن التنافر قد يكون فى القرب والبعد على سبيل الغلبة لا اللزوم[٥٠] . لكنه يعود ثانية ليأخذ برأى الخفاجى فى البعد .

---

(٤٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .
(٤٧) شروح التلخيص ص ٧٨ .
(٤٨) ثلاث رسائل ص ٨٨
(٤٩) سر الفصاحة ص ٩١
(٥٠) شروح التلخيص ص ٨٢

وعندما حاول القدماء أن يفسروا الثقل والتنافر فى المثالين السابقين تفسيرا علميا دقيقا لم يوفقوا التوفيق الكامل ، ولهم العذر ؛ فلقد حاولوا أن يفسروه بتفسيرات عامة ، كقولهم بمطلق البعد ، أو القرب فى مخارج الأصوات ، ولقد لاحظ الخفاجى وابن جنى ملاحظات قيّمة ، ولكنها لا تخلو من مآخذ ، فيلاحظ الخفاجى أن الكلام العربى قد خلا من تراكيب الحروف المتجاورة فى مخارجها مثل الصاد والسين والزاى مثل (سص) و(صس) و(سز) و(زس) و(زص) و(صز)[٥١] ـ ولقد لاحظ ابن جنى هذه الملاحظة ، كما لاحظ ابن جنى أن العربى ينفر من اجتماع حروف الحلق ، وأنه يقدم الأقوى عند اجتماع اثنين منها ، مثل كلمة (أهل) حيث قدم الهمزة على الهاء ، كما يلاحظ ابن جنى أيضا أن الرباعى أثقل من الثلاثى ، وأن الخماسى أثقل من الرباعى والثلاثى[٥٢] .

ولا يعنينا كثيرا أن نتوقف عند ملاحظات القدماء بقدر ما يعنينا تفسير الثقل الذى يحدث عن التنافر .

لقد صدق بعض الدارسين القدماء عندما لاحظوا أن التنافر ينتج عن تجاور المخارج كما أشار الخفاجى وابن جنى ، لكن هؤلاء الدارسين لم يتصوروا المفهوم الدقيق للتجاور .

ويرى القدماء بمطلق التجاور ، لكن الدراسات الصوتية الحديثة تفرق بين التجاور التام للأصوات ، وبين التجاور غير التام لتلك الأصوات المتقاربة المخارج .

وكلمة (الهُعْخُع) التى استشنعها الخليل تشتمل على ثلاثة أحرف من حروف الحلق التى تجاورت ، لكن تجاورها ليس بدرجة واحدة ، فبين الهاء والعين تجاور

---

(٥١) سر الفصاحة ص ٤٨
(٥٢) الخصائص ص ٥٥ ـ ص ٦٠

غير تام لأن الضمة قد فصلت بينهما ، وبين العين والخاء تجاور تام ، وبين الخاء والعين الثانية تجاور غير تام لأن الضمة فصلت بينهما ، ومن المعروف أننا ننطلق بالصامت من الأصوات أولا ، ثم ننطق الصائت أو الحركة القصيرة أو الطويلة ، ونلاحظ فى نطق (همخع) أننا نطقنا صامتين متجاورين تجاورا تاما وهما العين والخاء ، فلم يفصل بينهما صوت صائت مما قد ساعد على زيادة التنافر والثقل ، وفى الحقيقة جميع أحرف كلمة « همخع » من أحرف الحلق ، أو أنها متجاورة المخـــارج ، وإذا حاولنا أن نصف تلك الأصوات وصفا قائما على الدراسات الصوتية فاننا نجدها كما يلى :

الهـاء :

ويرى معظم الباحثين أن هذا الصوت (صامت) أو (ساكن) Consonant ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه حرف حلق مع الأصوات الحلقية الأخرى وهى عنده «الغين ـــ الخاء ـــ العين ـــ والحاء ـــ الهاء ـــ الهمزة »[٥٣] بينما يبدو أستاذنا المرحوم الدكتور السعران أكثر دقة فى تحديد مخرج صوت الهاء ، فهو عنـده حنجَرى[٥٤] أى أنه يتكون بمرور الهواء بين الوترين الصوتيين بالحنجرة ، أما الأب هنرى فليش فيرى أن صوت الهاء مزمارى[٥٥] . كما يوصف هذا الصوت بأنه مهموس Voiceless أى لا يتذبذب أثناء نطقه الحبلان أو الوتران الصوتيان Vocal cords كما يوصف أيضا بأنه صوت احتكاكى أو (رخو) Fricative ويرى أستاذنا الدكتور السعران أنه يمكن اعتباره من (الصوائت المهموسة)

---

(٥٣) الأصوات اللغوية ص ٨٨ ـ ص ٨٩ .

(٥٤) علم اللغة ص ١٩٥ ـ ص ١٩٦ .

(٥٥) العربية الفصحى تاليف الأب هنرى فليش اليســـوعى تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين ص ٤١ .

Unvoic edvowels [٥٦] أى صوائت لا يصحبها همس ولا جهر ، ويمكن تلخيص وصف هذا الصوت فيما يلى :

صامت مهموس حنجرى احتكاكى A Voiceless Glottal Fricatve consonant

أما الحرف الثانى من كلمة « هعضع » والذى تكرر فى الكلمة هو حرف :

العين :

ويجمع الباحثون على أنه من الحروف أو الأصوات الصامتة أو الساكنة ، كما يجمع الباحثون تقريبا على أن مخرجه من الحلق أو تجويف الحلق Pharyox ما عدا الأب هنرى فليش اليسوعى الذى يصفه بأنه (حنجورى) كما يوصف أيضا بأنه (مجهور) أى أن الوترين الصوتيين يهتزان عند النطق به ، كما أن هذا الصوت موصوف بأنه احتكاكى ويمكن تلخيص وصفه بما يلى :

صامت مجهور حلقى احتكاكى A voiced Pharyngal Fricative Consonant

أما الحرف الثالث فهو :

الخاء :

وهذا الصوت يوصف بأنه صامت ويخرج من أقصى الحنك على مشارف الحلق وهو مايراه الدكتور إبراهيم أنيس من أن مخرجه وأدنى الحلق إلى الفم، [٥٧] كما يوصف أيضا بأنه مهموس واحتكاكى ، فصوت الخاء يمكن تلخيص وصفه كما يلى .

صامت مهموس حنكى — قصى احتكاكى A voiceless velar Fricative Consonant

---

(٥٦) علم اللغة ص ١٩٥ .
(٥٧) الأصوات اللغوية ص ٨٨ .

ونلاحظ من خلال الوصف الصوتى السابق أن مخارج هذه الأصوات متقاربة كما توصف جميعها بأنها أصوات احتكاكية أو (رخوة) ، كما أن الهاء والخاء مهموسان ،ومن الملاحظ أن الأصوات الاحتكاكية أشق فى النطق من الأصوات الانفجارية Plosives كما أن الأصوات المهموسة أكثر إجهادا من الأصوات المجهورة ، لأنها تحتاج إلى كمية كبيرة من النفس حتى تبدو واضحة بعكس الأصوات المجهورة التى تبدو واضحة بفضل تذبذب الوترين الصوتيين .

ويمكن أن نلخص أسباب الثقل أو التنافر فى كلمة (هُعْخُعْ) فيما يلى :

١ — تجاور مخارج أصوات الكلمة تجاورا تاما ، ويتمثل هذا التجاور فى تتابع تلك الأصوات التى التقت بدون فاصل بين المقطعين (هُعْ — خُعْ) فالانتقال من الصوت الساكن أو الصامت إلى صوت آخر بدون أن تفصل بينهما حركة قد سبب ثقلا كبيرا ، كما أن الفواصل بالحركة القصيرة بين الهاء والعين وبين الخاء والعين ليست كافية ، كما أن تكرار العين قد زاد من الثقل .

٢ — يجمع بين هذه الأصوات المتجاورة أنها احتكاكية تحتاج إلى جهد أكبر مما لو كانت انفجارية .

٣ — نلاحظ أن أكثر أصوات الكلمة مهموسه ، والهمس يجهد أعضاء النطق أكثر من الجهر .

ولقد حاول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس أن يرجع عسر النطق بالحروف التى تتجاور إلى سببين هما :

(١) الجهد العضلى ، ويراه سببا عاما مشتركا بين جميع اللغات ، والحروف التى تتطلب جهدا عضليا أكثرها حروف رديئة الموسيقى فى نظره تأباها الآذان ، مثل الهمزة فى اللغة العربية لأن مخرجها فتحة المزمار ، ويحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق ، أو مثل القاف ، ومثل أحرف الإطباق التى تتطلب للنطق بها وضعا

خاصا للسان يحمل المتكلم بعض المشقة إذا قيست بنظائرها غير المطبقة [٥٨] وهذا يعنى أن اجتماع أكثر من حرف من الحروف السابقة يسبب ثقلا وعسرا فى النطق يجلب للنفس النفور ، وتنتفى بسببه الموسيقى .

أما السبب الثانى الذى يفسر به الدكتور أنيس الثقل فى النطق فهو :

(ب) قلة الشيوع : ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه سبب خاص يختلف باختلاف اللغات فما يقل شيوعه فى لغة قد يكثر شيوعه فى لغة أخرى ، ويترتب على كثرة الشيوع الألفه ، فكثرة تردد التركيب فى اللغة يكون عند أهلها عادة من العادات اللغوية ، وما يخرج عن تلك العادة فى اللغات الأخرى يعد غريبا غير مألوف لا تستريح اليه الآذان ، وتحتشر الألسنة فى نطقه [٥٩] .

ونحن نرى أن السبب الثانى (قلة الشيوع) سبب عارض ووقتى ، فما هو نادر التداول الآن يمكن أن يصبح شائعا بكثرة الاستعمال ، كما أن قلة الشيوع قد تشمل ما ثقل نطقه وما سهل نطقه أيضا ، فقلة الشيوع التى ذكرها الدكتور إبراهيم أنيس ليست مطلقة فى نظرنا ولكنها نسبية ووقتية .

ويحاول الدكتور إبراهيم أنيس أن يستخلص إتجاه اللغة العربية فى تركيب أحرف كلماتها ، إعتمادا على الأساسين السابقين ، ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن هذا النهج يمكن تلخيصه فيما يلى :

١ ـ ندرة تلاقى أصوات الحلق بعضها مع بعض ، بل لا يكاد يلتقى فيها إلا العين والهاء ، والعين تسبق فى نظره دائما مثل (يعهد) .

٢ ـ ندرة تلاقى الحروف قريبة المخرج أو الصفة بوجه عام ، فلا يكاد تتلاقى

---

(٥٨) موسيقى الشعر ص ٢٨
(٥٩) موسيقى الشعر ص ٢٩

(اللام والراء والنون) ولا (الميم والفاء والباء) ولا (الزاى والسين والذال والثاء والشين) ولا أحرف الأطباق ، ولا حروف أقصى الحنك (القاف والكاف والجيم القاهرية) ولا أحرف وسط اللسان (الجيم المعطشة والشين)(٦٠) :

٢ ـ كما يرى الدكتور أنيس أن هناك تركيبات عربية تستمد صعوبتها من كثرة الحروف ، أو لاجتماع حروف مهموسة ، أو احتكاكية(٦١) وهذه الصعوبة فى نظره أقل من صعوبة اجتماع الحروف السابقة التى لاحظ ندرتها فى اللغة العربية .

ولقد أشرنا فيما سبق إلى مثل هذه الصعوبات التى تسبب ثقلا كاجتماع أكثر من حرف مهموس أو احتكاكى أو متقارب المخرج .

أما عن كلمة (مستشزرات) التى وردت إلينا فى شعر امرىء القيس فى قوله فى شعر محبوبته :

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فإن البلاغيين يرون أنها أقل فى تنافرها وثقلها من كلمة (هعخع(٦٢) ويفسر الشيخ بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح الثقل فى كلمة (مستشزرات) بقوله : « .. وإنما كان الثقل فى مستشزرات لتوسط الشين وهى مهموسة رخوة بين التاء وهى مهموسة شديدة ، والزاى وهى مجهورة . وقد استعمل ذلك فى قول عثمان لسعد وعمار : ميعادكما يوم كذا حتى أتشزن أى أستعد »(٦٣) .

ونحن نحس بأن كلمة (مستشزرات) أثقل بكثير من كلمة (أتشزن) مع أن الشين قد توسطت بين التاء والزاى ، ولو أخذنا بكلام السبكى لصارت

---

(٦٠) موسيقى الشعر ص ٣٠ .
(٦١) موسيقى الشعر ص ٣١ .
(٦٢) شروح التلخيص ص ٧٨ .
(٦٣) شروح التلخيص ص ٧٨ ـ ص ٧٩ .

الكلمتين فى درجة واحدة من الثقل ، لكننا نستطيع أن نفسر الثقل فى كلمة (مستشزرات) بأسباب أخرى :

(ا) أن كلمة مستشزرات مكونة من ثمانية أحرف ، وهذا عدد كبير بالنسبة إلى ما نراه فى تراكيب الألفاظ العربية ، التى يغلب عليها أن تكون ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، وهذا العدد الكبير من الحروف فى الكلمة الواحدة يسبب ثقلا لما يتطلبه من جهد عضلى لأعضاء النطق .

(ب) أن حروف هذه الكلمة متقاربة المخارج فمعظمها يخرج فيما بين الشفتين واللثة ، ومخارج حروفها كما يلى :

الميم : صامت شفوى أغن .

السين : صامت لثوى طرفى

الشين : صامت لثوى غنكى

التاء : صامت سنىّ

الزاى : صامت لثوى طرفى

الراء : صامت لثوى

ومن الوصف السابق يتضح التقارب الشديد بين مخارج حروف الكلمة .

(حـ) يوجد تقارب أو تجاور تام بين بعض حروف هذه الكلمة إلى جانب التقارب أو التجاور غير التام ، ويتمثل ذلك التجاور التام بين السين والتاء ، والشين والزاى ، فلا توجد حركة أو صوت صائت يفصل بين الصوتين المتجاورين وبذلك يزداد الثقل والتنافر ويبدو ذلك لو نظرنا إلى الكلمة وهى فى صورة مقاطع : (مس / تش / ز / را / ت) فالتنافر يتمثل فى الانتقال من السين إلى التاء بدون أن يفصل بينهما صوت صائت ، وكذلك فى الانتقال من الشين إلى الزاى دون أن يفصل بينهما صائت ، وذلك إلى جانب

القرب فى تلك المخارج مع الفصل بالصوائت على نحو ما رأينا فى وصفها، مع تكرار التاء .

(ى) نلاحظ أيضاً أن نصف أحرف هذه الكلمة من الحروف التى توصف بالهمس وهذه الأحرف المهموسة فى الكلمة هى : السين ، التاء التى تكررت فى الكلمة ، والشين . كما نلاحظ أن هذه الأحرف المهموسة قد وردت فى الكلمة متتابعة ، وتجاورت تجاورا تاما عند التقاء السين بالتاء .

(هـ) فى الكلمة ثلاثة أحرف تعرف بالصعوبة هى السين والشين والزاى ، والسين من أحرف الصفير ، والشين من أحرف التشيش ، والزاى من أحرف الأزيز ، ويطلق بعض الدارسين عليها جميعا أحرف الصفير .

(و) ليس فى الكلمة من أحرف اللين أو الصوائت الطويل Long Vowels إلا الألف ، أما السبعة أحرف الأخرى فهى من الصوامت أو السواكن ، والصوائت أسهل فى النطق من الصوامت المتتابعة .

(ز) فى الكلمة ثلاثة أحرف احتكاكية وهى السين والشين والزاى، ومن المعروف أن الانفجارية أسهل فى النطق من الاحتكاكية لأنها لا تجهد أعضاء النطق .

(ح) فى الكلمة حرف مكرر وهو الراء ، ونعنى به الراء العربية ، التى تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة أثناء نطقها تتابعا سريعا ، والراء العربية المكررة تخالف الراء الفرنسية ، أو الراء المفردة عند المتكلمين بالانجليزية الأدبية .[٦٤] ومن الطبيعى أن هذا التكرار يحتاج إلى جهد عضلى أكثر ، مما

---

(٦٤) يفرق أستاذنا المرحوم الدكتور السعران بين الراء العربية والراء الفرنسية والراء الانجليزية تفريقا دقيقا فى كتابه علم اللغة ص ١٨٧ ـ ص ١٨٨ .

يسبب ثقلا ، لكن بعض الباحثين يرون فى الواء أشياء غير ذلك وسنفصل ذلك بعد قليل .

من هذا يبدو لنا أن تفسير القدماء للتنافر الموجود فى الكلمة السابقة تفسير عام إذا قيس بتفسير المحدثين .

ومع أن البلاغيين يسلمون بقبح كلمة (مستشزرات) للتنافر بين أصواتها ، وثقلها على اللسان ، إلا أن بعض الباحثين يرى فى هذه الكلمة توافقا وانسجاما، فالتنافر فى رأى الدكتور محمد النويهى لازم لزوما فنيا مؤكدا لأنه - فى نظره - ينطبق على الصورة التى يريد الشاعر أن يرسمها لخصلات الشعر الكثيفة الثقيلة التى تتزاحم على رأس محبوبة امرىء القيس ، ويرى الدكتور النويهى أن كلمة (مستشزرات) يزول تنافرها فى إطار هذه الصورة[٦٥] . كما يرى أن التنافر قد قصد اليه قصدا ليؤدى وظيفة عضوية فى التصوير الشعرى ، وفى رأيه أن علماء البلاغة لم يدركوا المعنى الحقيقى للفصاحة عندما اشترطوا عدم التنافر فى الكلام الفصيح ، ويسوق الدكتور النويهى أبياتا بها كلمات لا يختلف أحد فى تنافرها، ليبرهن على أن ذلك التنافر لا غنى عنه ، وأنه ضرورة من ضرورات الجمال الفنى، كالبيت الذى أورده لتأبط شرا :

قليلُ ادّخارِ الزاد إلا تعلّةً　　فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والتصقَ المِعَا

فيرى أن التنافر فى (نشز الشرسوف) ضرورى « .. أفكان يستطيع أن يؤدى صورته هذه أداء حيا بغير هذا التنافر ... »[٦٦] .

ومن الأبيات التى يرى فيها ضرورة لوجود التنافر قول امرىء القيس :

فلما أجَزْنا ساحة الحىّ وانتحى　　بنا بطنُ خَبْتٍ ذى حقافٍ عقنْقَلِ

---

(٦٥) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ح ١ ص ٤٤ - ٤٥ .
(٦٦) الشعر الجاهلى ح ١ ص ٤٧ .

وكذلك وصف الأعشى لضخامة محبوبته وسمنتها :

هِركَوْلَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مرافقُها

وبيت الأعشى المشهور :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى   شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

ويرى أن البيت الأخير لم يلتفت البلاغيون إلى ما فيه من جمال لأنه يصور — فى نظره — بذكر الشين ست مرات فى البيت حديث السكارى المتخبط المتعثر المختلط :(٦٧) .

وفى رأينا أن آراء الدكتور النويهى فى تخريج بعض ألفاظ شعراء الجاهلية المتنافرة — لا تخلو من تعسف ، ونستطيع أن نرجز ذلك فيما يلى :

(ا) أن التنافر اللفظى فى حروف الكلمة لا يؤدى بالضرورة إلى التنافر فى المعنى ، ولو كان ذلك صحيحا وحتميا للزم أن يكون معنى (مستشزرات) دالاً على التنافر والفرقة مثل (متفرقات) أو (متناثرات) أو (متباعدات) لكن المعنى المعروف لهذه الكلمة هو (مرتفعات) .

(ب) يرى الدكتور النويهى أن الشعراء قد قصدوا قصداً إلى هذه الألفاظ المتنافرة ليؤدوا به وظيفة عضوية فى التصوير الشعرى ، وفى رأينا أن الشاعر العربى الجاهلى لم يتعمد الإتيان بالتنافر لإكمال الصورة الشعرية ، وأن هذا القصد الذى ذكره تعسف ، وإذا افترضنا وجود ذلك القصد فإننا نلمحه قليــــلا عند مدرسة زهير التى اهتمت إلى حد ما بصناعة الشعر ودراسته وروايته ، لكننا نستبعد ذلك القصد عند باقى الجاهليين .

وإذا كان شعراء الجاهلية قد أدركوا ذلك التنافر وقصدوه ليؤدوا بـه

---

(٦٧) الشعر الجاهلى جـ ١ ص ٦٨ .

وظيفة عضوية فى التصوير كما يرى الدكتور النويهى فإن ذلك التعمد فى رأينا يقلل من سلامة ذوقهم .

(حـ) يرى الدكتور النويهى أن الشأشأة فى بيت الأعشى متعمدة من الأعشى ليصور بها حديث السكارى المتخبط المتعلثم .(٦٨) وفى رأينا أن الأعشى لو تعمد ذلك لصار مأخذا عليه يبعده عن الفصاحة ، لأن الفصاحة ليست إبانة فقط كما ذكر الدكتور النويهى وإنما هى إبانة بالكلمات الفصيحة ، أو بكلام العرب الفصحاء كما ذكر العتابى . كما أنه يخالف رأى الجاحظ الذى يرى أن فهمنا للأعاجم والمولدين لا يدخلهم فى زمرة الفصحاء ، فنحن نفهم عن الطفل والفرس والسنور كثيراً من حاجاتهم .

وكان الأعشى قادرا على أن يتجنب تلك الألفاظ المتنافرة، وتفسير الدكتور النويهى للشينات الست لا يقربه من الفصاحة . كما أن الحديث المتلعثم لا يدخل فى فصاحة المتكلمين .

(د) يسوى الدكتور النويهى بين تردد الحروف فى البيت الواحد ، ذلك التردد أو التكرار الذى يحدث فى نظره موسيقى جديدة تضاف إلى موسيقى الإيقاع الناتجة عن التفعيلات العروضية ، لكن الحروف أو الأصوات لا يمكن أن تتساوى فى نسبة ترددها المقبول فى البيت الواحد ، فقد تقبل النفس تردد الحروف التى يسهل نطقها بنسبة ما ، لكن قبول تكرار الأحرف الثقيلة لا يمكن حدوثه ، فلا يمكن التسوية بين تكرار اللام أو النون مثلا وبين تكرار القاف أو الضاد ، وذلك لسهولة نطق اللام والنون وصعوبة القاف والضاد .

ولقد أقام الدكتور إبراهيم أنيس دراسة إحصائية للوصول إلى نسب تقريبية لشيوع الحروف فى القرآن الكريم ، واستطاع أن يضع ضوابط تقريبية

---

(٦٨) الشعر الجاهلى جـ ١ ص ٦٨ .

تمكنه من الحكم على تكرار الحروف فى الشطر من البيت ،(٦٩) وأهم تلك الضوابط :

١ — أن الشطر من البيت غالبا ما يشتمل على ثلاثة أو أربعة من الأحرف الآتية :

اللام والميم والنون

٢ — وعلى مرتين أو ثلاث مرات من الأحرف التالية :

الهمزة والواو والهاء والتاء والياء والباء والكاف

٣ — وعلى مرة أو مرتين من الأحرف التالية :

الراء والفاء والعين والقاف والسين والدال

٤ — وعلى مرة واحدة من الحروف التالية :

الذال والجيم والخاء

٥ — أما باقى الحروف فتلك هى النادرة الشيوع .

ومعنى هذا أننا إذا استسغنا تكرار اللام أو الميم أو النون ثلاث مرات فى الشطر الواحد من البيت فإننا نستثقل هذا العدد من القاف أو الصاد أو الظاء أو الزاى .

فالحرف المتردد قد يكون مقبولا ويحدث الأثر المرجوّ منه إذا تكرر بالقدر الذى تسمح به عادة العرب فى الاستعمال ، لكنه يصبح مكروها إذا خرج عن تلك العادة ، والدكتور النويهى كما أشرنا يرى مطلق التردد عاملا هاما فى الموسيقى دون أن يفرق بين الأصوات المختلفة .

وعلى الرغم من تحفظنا من تفسير الدكتور النويهى للتنافر إلا أننا لا ننكر أثر الحكاية الصوتية ، وهو جانب يدركه الأدباء والشعراء ، والحكاية الصوتية للألفاظ لا تقوم على التنافر إلا نادرا ، وإنما تقوم على عوامل أخرى سنوضحها

---

(٦٩) الاصوات اللغوية ص ٢٣٨ — ص ٢٤٥ .

فيما سنكتبه عن الجرس وأثره فى الموسيق ، وما قد يكون من أثر ناتج عن المحسنات البديعية اللفظية ، كالجناس والسجع وغيرها .

فالأثر الصوتى الذى يؤثر أو يعمق الصورة الشعرية له أسبابه المتنوعة وقد يكون التنافر سببا من أسبابه ، لكن تفسير التنافر فى شعر الجاهليين ورده إلى الأثر الموسيقى وعناصر الصورة الشعرية — أمر لا يخلو فى نظرنا — من تعسف، وخاصة إذا اتسم ذلك التنافر بالتعمد والقصد من قبل الشعراء الجاهليين.

وكما عاب البلاغيون الثقل فى الكلمة المفردة بسبب تنافر حروفها — عابوا أيضا الثقل فى الكلام بسبب تنافر كلماته الذى هو فى الأصل تنافر فى الحروف، ولقد تمثل القدماء والمحدثون بأبيات تنافرت ألفاظها ومن أشهر تلك الأبيات البيت الذى أورده الجاحظ[٧٠] . واستدل به البلاغيون بعد ذلك وهو :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

وما أورده الجاحظ أيضا عن الشطر الثانى من البيت الآتى :

لم يضرها والحمد لله شيء   وانثنت نحو عزف نفس ذهول

وما استدل به ابن سنان الخفاجى على ذلك مثل[٧١] :

لو كنت كتمت الحب كنت كما   كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

ومثل قول أبى تمام :

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى المؤمّل منك الا بالرضى

وقول أبى الطيب المتنبى :

ولا الضّعف حتى يبلغ الضعف ضعفه   ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

---

(٧٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥ ــ ص ٦٦ .
(٧١) سر الفصاحة ص ٨٤ ــ ص ٩٧ .

وكقوله أيضا :

فقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشا　　قلاقل عيس كلهن قلاقل
غثاثة عيشى أن تغثّ كرامتى　　وليس بغثّ أن تغثّ المآكل

وكقوله أيضا :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ　　ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وكقول امرىء القيس :

ألا إننى بال على جمـل بال　　يقود بنـا بال ويتبعنـا بال

وكقول مسلم بن الوليد الأنصارى :

سلّت وسلّت ثم سلّ سليلها　　فأتى سليل سليلهـا مسلولا

ولقد تعمدنا أن نورد مثل هذه الأمثلة التى شاعت فى بيئة البلاغيين حتى نتمكن من النظر فيها محاولين توضيح علة التنافر فى بعض هذه الأبيات ، ونحن نقبل فى ذلك التوضيح الضوابط التى استعملها الدكتور ابراهيم أنيس لتفسير الثقل محاولين أن نمزج ذلك بوجهة نظرنا ، ونعنى بتلك الضوابط العاملين اللذين قد أوردهما فى كتابيه (الأصوات اللغوية) و (موسيقى الشعر) كما أشرنا آنفا .

وسنحاول ذلك مبتدئين بالبيت الذى نسب إلى الجن « وقبر حرب . . . » بسبب ثقله ويرى الخفاجى أن الثقل فيه قد نتج من كونه « مبنى من حروف متقاربة »[٧٢] ، ولو تأملنا فى البيت لوجدنا ما يأتى :

١ ــ أن القاف قد وردت فى البيت خمس مرات .
٢ ــ أن الراء قد ذكرت سبع مرات .
٣ ــ أن الباء قد ذكرت أيضا سبع مرات .

---

(٧٢) سر الفصاحة ص ٨٨ .

٤ ـــ أن كلمة (قبر) ذكرت بلفظها ثلاث مرات .

٥ ـــ أن معظم كلمات البيت تشترك مع كلمة (قبر) فى حرفين أو ثلاثة أى أن القاف والباء والراء واردة ـــ وهى مجتمعة تقريبا ـــ فى أكثر الكلمات فكلمة (قرب) تشمل الحروف الثلاثة وكلمة (حرب) التى ذكرت مرتين تشمل الراء والباء ، وكلمة (قفر) تشترك مع كلمة (قبر) فى القاف والراء ، كما أن الحرف المختلف وهو (الفاء) يشترك فى المخرج مع الباء والميم والواو وهى حروف شفويةوأن الحروف التى وردت فى البيت كله هى ثلاثةعشر حرفا فقط .

ومن ثم نستطيع أن نفسر الثقل أو التنافر فى البيت بعدة أشياء :

١ ـــ أن البيت قد اشتمل على حرف (القاف) خمس مرات وهو حرف يحتاج فى نطقه إلى جهد عضلى أكثر من غيره ، ووروده فى البيت بهذا العدد يزيد بكثير عن عادة العرب فى استعماله ، أو نسبة شيوعه فى كلام العرب ، وهذه النسبة مرة أو مرتين فقط ، وذلك كما استقرأها الدكتور أنيس ، وما يصدق على القاف يصدق أيضا على (الراء) التى وردت فى البيت سبع مرات ، ونسبة شيوعها لا تتعدى مرة أو مرتين فقط، وكذلك (الباء) التىذكرت بهذا العدد، ولا يستساغ ورودها أكثر من مرتين أو ثلاث فقط ، وهذا التكرار يعنى اننا ننطق حروفا كثيرة من مخارج واحدة ، وبغير انتظام ، بالاضافة إلى اتحاد مخارج (الباء والفاء والميم والواو) ، ونحن ننطق فى الحقيقة ثلاثةعشر حرفا من مخارج متقاربة تقاربا ملموسا .

٢ ـــ ومن أسباب التنافر فى البيت كذلك تكرر الكلمة بلفظها عدة مرات كما رأينا فى كلمة (قبر) أو تكرر ألفاظ متجانسة معها ، وقد لاحظ ابن سنان الخفاجى من قبل قبح تكرار اللفظة بعينها « وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ، فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع »(٧٣) .

---

(٧٣) سر الفصاحة ص ٩٢ .

٣ — ومن أسباب الثقل أيضا فى هذا البيت كون القاف مهموسة ، ومن المعروف أن الحروف المهموسة أثقل من المجهورة لأن المهموسة تحتاج إلى جهد عضلى أكبر حتى تتضح وتظهر ، وذلك المجهود العضلى يتمثل فى انقباض الرئتين بقوة حتى تدفع أكبر كمية من هواء الزفير ، أما الصوت المجهور فإن الوترين الصوتيين يغنيان عن الانقباض الشديد فى الرئتين لأن اهتزازهما يزيد الصوت وضوحا .

وما قيل عن التنافر فى البيت السابق يمكن أن يقال أيضا على بيتى المتنبى :

فقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشا	قلاقل عيس كلّهن قلاقل
غثاثة عيشى أن تغثّ كرامتى	وليس بغثّ أن تغثّ المآكل

فالبيت الأول قد اشتمل على ثمانى قافات ، وهذا العدد وحده يكفى لتقبيح أى بيت ، ولقد رأينا مدى ما تسببه زيادة تكرار الحروف عن الحد الذى اعتاده العرب ، وإذا كان حرف القاف مقبولا عندما يرد فى البيت مرة أو مرتين فإن وروده بهذا العدد الكبير لا يقبله الذوق . أما (اللام) فقد وردت فى البيت أربع عشرة مرة ، وهذا عدد كبير أيضا ، ومع أن اللام من الحروف التى يسهل نطقها فإننا نقبلها بنسبة شيوعها فى كلام العرب وهى أربع أو ثلاث مرات فى الشطر الواحد ، ولا مانع من قبولها بزيادة معقولة ، لكننا لا نقبلها عندما تصبح هذه النسبة مضاعفة ، فالبيت يحتوى على عدد كبير من اللامات يصل به إلى عدم الاستساغة .

أما البيت الثانى فهو لا يقل تنافرا عن الأول لاشتماله على حرف الثاء خمس مرات بالإضافة إلى تضعيف ثلاث منها وحرف الغين أربع مرات ، وكلاهما من الحروف التى يثقل نطقها عندما تتكرر ، ونستطيع أن نتصور مدى ثقل الثاء والغين عندما يتكرران بصورة تخالف المعهود لهما ، وذلك عندما نصفهما وصفا صوتيا :

فالثاء : صامت مهموس مما بين الثنايا احتكاكى :

A Voiceless Interdental Fricative Consonant

والغين : صامت مجهور حنكى — قصى احتكاكى :

A Voiced Velar Fricative Consonant

وإلى جانب الثقل فى نطق هذين الحرفين نجد حروفا أخرى تتقارب فى المخرج معهما فالتاء قريبة المخرج من الثاء ولقد تكررت التاء أربع مرات كما أن العين والهمزة تقتربان من الغين، ويرى ابن سنان الخفاجى أن القبح فى البيتين نتج عن تكرار كلمة قد تكررت فيها حروف ثقيلة « فقد اتفق له أن كرر فى البيت الأول لفظة مكررة الحروف ، فجمع القبح بأسره فى صيغة اللفظة نفسها ، ثم فى إعادتها وتكرارها ، وأتبع ذلك بغثاثة فى البيت الثانى ، وتكرار (تغث) ، فلست تجد ما تزيد على هذين البيتين فى القبح .. »(٧٤) .

فالثقل فى البيتين واضح يستطيع أن يحسه كل ذى ذوق ، وتكرار اللفظة فى البيت يجلب الثقل والقبح كما لاحظ ابن سنان الخفاجى . ويتمثل ذلك أيضا فى قول المتنبى :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ — ن العارض الهتن ابن العارض الهتن

ويرى الخفاجى أن هذا اللون من التكرار قبيح وشنيع فهو فى نظره أقبح من تكرار الحروف المتقاربة المخارج(٧٥) . وهذا التكرار حقا لا تقبله النفس

---

(٧٤) سر الفصاحة ص ٩٤ - انظر ديوان المتنبى شرح العكبرى ، فلقد حاول العكبرى أن يسوى بين القافات فى هذا البيت وبين تكرار الشين فى بيت الأعشى فى قوله :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى — شاو مشل شلول شلشل شول

وبيت مسلم بن الوليد :

سلت وسلت ثم سل سليلها — فأتى سليل سليلها مسلولا

لكننا نجد أن القاف فى بيت المتنبى أثقل وأقبح من الشين فى بيت الأعشى والسين فى بيت مسلم .

(٧٥) المصدر نفسه ص ٩٢ .

حتى لو كانت كلماته مكونة من حروف يسهل نطقها ، فما حال التكرار إذا كانت الحروف المكونة للكلمات يصعب نطقها ؟ إن كلمة (العارض) تضم حرفين من الأحرف التى عرفت بثقل نطقها وهما العين وهى حرف حلق ، والضاد الذى يصنف مع حروف الإطباق ، وواضح أمامنا أن كلمة (العارض) قد ذكرت فى البيت أربع مرات ، وكذلك كلمة (الهتن) .

ولو أردنا تتبع التنافر والثقل فى الشعر أو النثر لطال بنا الحديث ، وإنما قد اكتفينا بتوضيح بعض الأمثلة التى حاولنا أن نفسر الثقل والتنافر فيها تفسيرا صوتيا .

وكما ينتج الثقل من التنافر بين الحروف والكلمات ـ فإنه ينتج أيضا عن :

الغرابة :

ولقد اشترط البلاغيون الخلوص منها حتى توصف الكلمة بالفصاحة ، لكننا نجد فى اللفظة الغريبة ثقلا فى النطق ، ويرجع ذلك إلى كون اللفظة الغريبة غير مألوفة لدى الناطقين ، ومن ثمّ فإنها لا تجرى على اللسان بالسهولة التى تنطق بها الألفاظ المألوفة ، ولقد رأينا فى ما سبق أن الغرابة يجب أن تقاس بما هو فصيح من كلام العرب ولا تكون بالنسبة للعامة ، فقد تكون الكلمة غريبة على العامة لكنها فصيحة مستعملة عند العرب . كما رأينا أن مفهوم الغرابة يختلف من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى بيئة أخرى ، كما أنها ترتبط بالأحداث الاجتماعية التى تترك أثرها على البحث العلمى . ومن ثم يتحتم علينا أن نقدر الملابسات التى أحاطت باللفظة قبل أن نحكم عليها بالغرابة ، وذلك بالرجوع إلى المعاجم التى بين أيدينا ، وكتب اللغة والنصوص المختلفة ، كما ذكرنا أيضا العوامل المختلفة التى قد تؤدى إلى الغرابة ؛ وهى كون الكلمة وحشية ، وكونها من الكلمات الاصطلاحية ، وكذلك الألفاظ الدخيلة من اللغات واللهجات الأجنبية ، ومن لكنة الأعاجم .

وتفسير الثقل الذى ينتج من الغرابة من وجهة النظر الصوتية يمكن أن يقسم كما يلى :

١ ــ أن يكون ترتيب الأصوات فى الكلمة واجتماع تلك الحروف بها بعدد معين ــ غير مأنوس عند من تكون الكلمة وحشية لديهم ؛ مثل كلمة (تكأكأتم) بمعنى تجمعتم، وكلمة (افرنقعوا) بمعنى تفرقوا ، وهما كلمتان قد نسبتا إلى عيسى بن عمر ، كما نسبتا أيضا إلى أبى علقمة النحوى . فإلى جانب التنافر فى كلمة (تكأكأتم) فهى غريبة على أسماع رجال اللغة والبلاغة كالجاحظ، وأبى الأسود الدؤلى، ويحيى بن عمر والعسكرى ، والخفاجى والزمخشرى وغيرهم ، وكذلك كلمة (افرنقعوا) التى حاول الزمخشرى والسبكى والجوهرى أن يجدوا لها تخريجا[٧٦] . فيرى الزمخشرى أنها من الفرقة ، ولكن السبكى يرى أنها ليست كذلك لأن العين ليست من حروف الزيادة ، ويرى الجوهرى أنها من فرقعة الأصابع .

٢ ــ قد يكون الثقل فى الكلمات الغريبة ناتجا عن مجىء هذه الكلمة على صيغة تخالف الصيغ التى اعتادها العرب فى بناء ألفاظهم، ومن ذلك كلمة (مسرجا) التى يراها صاحب مواهب الفتاح غريبة بسبب عدم جريانها على النظير « ... فمن المعلوم أن (فعّل) للنسبة لا يكون على سبيل التشبيه ، مثل : تممته فهو متمم أى نسبته إلى تميم ، أما إذا كانت (فعّل) بمعنى صار كذا كقوّس صار كالقوس، فلا يصح ، إذ الواجب أن يقال (مسرّجا) بكسر الراء لعدم تعديته ، والرواية بالفتح[٧٧] .

ومن الكلمات التى نحس بأنها جاءت على صيغ غريبة عن عادة العرب كلمة (جوشوش) التى بمعنى (القطعة من الليل) فى قول البحترى :

---

(٧٦) شروح التلخيص ص ٨٧ .

(٧٧) شروح التلخيص ص ٨٤ ـ ص ٨٥ .

فلا وصل إلاّ أن يطيف خيالُها بنا تحت جوْجوش من الليل مظلم

وكلمة (مرمريس) فى قول محمد بن مناذر :

* وَمَنْ عاداك لاقى المرمريسا *

وكلمة (درديبس) فى قول أبى تمام :

بنداكَ يوسى كلّ جرح يعتلى رأب الأساة بدرديبسٍ قنطرِ

والكلمتان (مرمريس) و (درديبس) بمعنى الداهية .

ومن ذلك ما نحسه فى كلمة (عسّطوس) التى بمعنى الخيزران فى قول ذى الرّمّة[٧٨] :

* عصا عسّطوسٍ لينها واعتدالها *

ويرى ابن يعقوب المغربى أن الغرابة القبيحة المستكرهة عند العرب الخلص هى التى يجب أن يعتد بها ، ومن ذلك كلمة (جَحيش) للفريد أى المستبد بأمره، الذى لا يشاور الناس فى رأيه . وهذه اللفظة فى نظره من الألفاظ المخلة بالفصاحة مطلقا لغرابتها القبيحة[٧٩] . ومع ثقل هذه الكلمة الظاهر إلا أننا نجد من يرى فى هذه الكلمة وجها من وجوه الحسن ، فهى فى نظر الدكتور النويهى أكثر ملاءمة لمعناها من كلمة (وحيدا) التى لم يستعملها تأبط شرا فى أبياته عندما مدح ابن عمه بهذه الأبيات :

قليل التشكىّ للمُهم يصيبه كثير الهوى شتّى النّوى والمسالك

يظلُّ بِمَوْماةٍ ويمسى بغيرها جَحيشًا وَيَعْرو وْرى ظهور المهالك

ويسبق وفدَ الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شدّهِ المتدارك

ويفسر الدكتور النويهى استحسانه لكلمة (جحيش) بأنها أكثر غرابة

---

(٧٨) سر الفصاحة ص ٥٨ ـ ص ٦٢ .
(٧٩) شروح التلخيص ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وأقوى وحشة، فهى أكثر ملاءمة لمعناها[٨٠] . وإذا كان الدكتور النويهى يسلم بأن هذه الكلمة غريبة جافة ، فكيف تتلاءم مع معناها الذى لا يدركه إلا الباحثون فى المعاجم .. ؟ وإذا كان الدكتور النويهى يرى أن هذه اللفظة تناسب الشاعر لأنه يدرك دلالتها عندما استعملها فى أبياته فإن ذلك لا يجرى على المستمعين ، وها هو رجل من الباحثين يقرر منذ مئات السنين الغرابة لهذه اللفظة .

فالغرابة قد تسبب الثقل كما رأينا — لأن العادة السائدة للمتكلمين لم تجر بمثل تلك الألفاظ سواء كانت هذه الألفاظ مخالفة فى تركيبها وأصواتها أم فى معناها المتعلق بها .

وللثقل مظاهر أخرى تتمثل فى الكلمات التى تتصف بكثرة حروفها :

كثرة حروف الكلمة الواحـــدة :

من البديهى أن الكلمات التى تجتمع فيها حروف كثيرة تحتاج إلى جهد عضلى أكبر من ذلك الجهد الذى يبذل فى كلمة أقل منها عددا فى الحروف ، وذلك إذا كانتا من مادة واحدة ، فكلمة (فَهْم) أخف من (إفهام) و (تفاهُم) و(تفهُّم) و (تفهيم) و (مفاهمة) و (استفهام) . وواضح أيضا أن الكلمة التى تحتاج إلى جهد عضلى أكبر من أعضاء النطق لكثرة حروفها تستغرق زمنا أكبر، وبذلك تثقل هذه الكلمات على الأسماع . أى أنها ثقيلة على الناطق والمستمع معا .

وإذا كانت الكلمة الكثيرة الحروف أثقل من أختها التى تشترك معها فى مادة واحدة مع قلة حروفها — فإن هذه الكلمة الطويلة يتضح ثقلها أكثر من ذلك إذا استعملناها وتركنا كلمة أخرى مرادفة لها فى المعنى ، وأقل منها فى عدد الحروف ، وأسهل منها فى مخارج الحروف، فالكلمة ذات الحروف القليلة والتى تسهل فى مخارجها — أخف وأعذب بكثير من الكلمة التى تساويها فى المعنى وتكثر حروفها ، وتتعثر مخارجها .

---

(٨٠) الشعر الجاهلى جـ ١ ص ٨٠ ـ ص ٨١ .

والملاحظ فى لغتنا أن الكثرة الغالبة من ألفاظها المستعملة مكونة من ثلاثة أو أربعة أحرف ، وأن القلة المستعملة هى ما تزيد عن ذلك ، والملاحظ أيضا أيضا أن الفعل فى اللغة العربية لا تزيد حروفه عن ستة أحرف مثل (استفهم) و(اقشعر) أما الأسماء فإنها تتوقف فى العادة عند سبعة أحرف مثل (استفهام) أما إذا زادت عن ذلك فإنها توصف عندئذ بالشذوذ مثل كلمة (مغناطيسون) التى وردت فى قول أبى نصر بن نباتة :

فإياكم أن تكشفوا عن رءوسكم   ألا ان مغنـــاطيسهن الذوائب

ومن ذلك أيضا كلمة (أذربيجان) وكلمة (استسماجها) فى بيت أبى تمام:

فلأذربيجان اختيـــال بعدما   كانت معرّس عبرةٍ ونكال

سمُجت ونبهنا على استسماجهـا   ما حولها من نضرة وجمال

وقوله أيضا الذى يضم كلمة تشبه الكلمات السابقة وهى (باستماعكه) :

أنِلْه باستماعكه محـــلا   يفوتُ علوهُ الطرفَ الطموحا

وكلمة (حوباواتها) فى قوله :

العيس تعلم أن حوباواتهـــا   ريح إذا بلغتك إن لم تُنْحرِ

وكلمة (المستنشدين) فى قوله :

والى محمـد ابتعثتُ قصائدى   ورفعت للمستنشـدين لوائى

وكلمة (سويداواتها) فى بيت المتنبى :

إن الكريم بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتهـــا

ولسنا فى حاجة إلى توضيح نبين به ثقل هذه الكلمات التى تتراوح حروفها بين تسعة أو عشرة أحرف ، لما تحتاج اليه من جهد عضلى فوق ما تعودته أجهزة النطق فى نطق الكلمات ، وإذا أضفنا إلى ذلك ندرة هذه الكلمات ، وقلة شيوعها على الألسنة استطعنا أن ندرك ما تسببه من ثقل لأجهزة النطق والسمع معا ، ومن الملاحظ أن أكثر هذه الكلمات مركبة .

ومن البديهى أن الثقل بمظاهره المختلفة لاتستسيغه النفس ، ومن ثم فاننا نرى الناطقين من أصحاب الذوق يتجنبون تلك الالفاظ التى تضم أصواتا تثقل على أعضاء النطق والسمع . كما أن اللغة العربية بطبيعتها تتخلص من الثقل بعدة وسائل من أجل التسهيل على الناطقين ، أو بمعنى آخر فإن الناطقين يتجنبون الثقل فى لغتهم ، ويحاولون التخلص منه مراعاة للسهولة فى النطق ، ومن تلك الوسائل الإبدال والإعلال والإدغام وغير ذلك . والنزوع نحو السهولة أو التيسير فى اللغة لايتم فجأة إنما تستغرق سنين عديدة عبر تاريخها الطويل ، أى أن مراحل التطور فى اللغة التى تستغرق قرونا متتابعة تتمثل فى تغيرات كثيرة ، ومن هذه التغيرات الاتجاه نحو السهولة وتجنب الثقل والتنافر . كما أن اللغة خلال مراحل نموها تتخلص من بعض التراكيب التى تثقل على أجهزة النطق ، أى أن بعض الالفاظ التى قد عاشت فى زمن ما أهملت فى زمن آخر ، لاسباب كثيرة أحدها الثقل والتنافر . ومن ثم فإننا نرى العلماء القدماء قد انتبهوا إلى مايسمى بالمهمل من الالفاظ ، كما جعلوا من حسن التأليف ترك الثقل ، كما جعلوا التأليف فى مراتب تتفاضل حسب بعد مخارجها .

وقد نبه الشيخ بهاء الدين السبكى إلى أن رتب الفصاحة متقاربة ، وأن الكلمة تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف لايلائمة قربا أو بعدا ، كما يرى أن تراكيب الكلمة الثلاثية تنحصر فى اثنى عشر تركيبا وهى مرتبة عنده كما يلى[٨١] .

الأول : الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو : ع د ب

الثانى : الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط « : ع م د

الثالث : « « « « « « الأعلى « : ع م ه

---

(٨١) شروح التلخيص ص ٩٤ ـ ص ٩٥ ، المزهر ج ١ ص ١٩٧ ـ ص ١٩٨ .

الرابع : « « « الأوسط « الأعلى « : ع ل هـ
الخامس : « « الأدنى « الأوسط « « « : م ل ع
السادس : « « « « الأعلى « الأوسط « : ب ع د
السابع : « « « « « « الأدنى « : ف ع م
الثامن : « « « « الأوسط « « « : ف د م
التاسع : « « الأوسط « الأعلى « « « : د ع م
العاشر : « « « « الأدنى « الأعلى « : د م ع
الحادى عشر: « « « « الأعلى « الأوسط « : ن ع ل
الثانى عشر: « « « « الأدنى « « « : ن م ل

هذه هى تراكيب الثلاثى فى نظره وهى اثنا عشر تركيبا، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن تراكيب الثلاثى المحتملة أكثر من ذلك فهى فى نظر الدكتور تمام حسان سبعة وعشرون تركيبا محتملا ، لأن الاحتمالات من الوجهة الرياضية هى : (٣×٣×٣)[٨٢] ،

ويرى الشيخ بهاء الدين السبكى أن درجات الحسن والقبح فى تراكيب الثلاثى قائمة على التراكيب التى ذكرها ،[٨٣] ويرى أن أحسن تلك التراكيب هو الأول أى ما انحدر من الأعلى إلى الأوسط إلى الأسفل ، ويليه فى الحسن التركيب العاشر أى الذى ينتقل فيه من الاوسط إلى الأدنى إلى الاعلى ، والثالث فى نظره هو التركيب الثانى أى الذى ينتقل فيه من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط ، ويأتى فى الدرجة الرابعة عنده تركيبان هما الخامس والتاسع أى (من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى) و (من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى) . وهذان التركيبان سيان عنده فى الاستعمال ، مع أن القياس يقضى بترجيح التاسع ، أما أقل التراكيب

---

(٨٢) اللغة العربية مبناها ومعناها ص ٢٦٨ ـ ص ٢٦٩ .
(٨٣) شروح التلخيص ص ٩٥ .

استعمالا — فى نظره — فهو التركيب السادس أى الذى ينتقل فيه من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط .

ويعلل السبكى الثقل والخفة بالطفرة فى الانتقال ، والطفرة عنده هى : الانتقال من الأعلى إلى الأدنى وعكسه، فالتراكيب الخفيفة الحسنة هى ، ماتقدمت فيه نقلة الانحدار من غير طفرة بأن ينتقل من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى ، أو من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط، أما الثقل وقلة الاستعمال فهما فى التراكيب التى يتم فيها الانتقال طفرة بأن يكون النقل من الأول فى ارتفاع مع طفرة[٨٤] .

وفى الحقيقة أن الشيخ بهاء الدين قد أقام فكرته عن التأليف على أساس مخارج الحروف Points of Articulation ، ولكن التفاضل يجب أن يأخذ فى اعتباره مقاييس أو أسسا أخرى تلعب دورا كبيرا فى الثقل والخفة مثل الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والإطباق والترقيق ، وهذه عوامل لها أثر كبير فى الثقل والخفة عند التركيب أو التأليف . كما نلاحظ أن السبكى قد جمل المخارج ثلاث مناطق أعلى وأوسط وأدنى ، وهذا تعميم لمخارج الحروف المختلفة ، فلقد اجتهد الباحثون القدماء منهم والمحدثون فى بيان مخارج الحروف وقسموها أقساما عديدة ، ولو أن السبكى قد نظر إلى التراكيب على أساس دقيق من مخارج الحروف لجاءت الينا نظرته إلى التأليف فى شمول ودقة .

ونعود ثانية إلى اتجاه اللغة نحو السهولة أو تخلصها من الثقل، فنرى أنها تلجأ إلى ترك الألفاظ الثقيلة ، والتخلص منها ، كما أنها تلجأ إلى ما أسماه اللغويون بالمماثلة Assimilation والمخالفة Dissimilation فوجدت فى اللغة ظواهر كثيرة ، الدافع إليها الاتجاه نحو الخفة والتخلص من الثقل مثل ظاهرة الإبدال

---

(٨٤) شروح التلخيص ص ٩٥ ، المزهر ج ١ ص ١٩٨ .

والإعلال ، والإدغام ، والإشباع ، والوقف ، والزيادة ، والحذف ، وغير ذلك من الظواهر التى تتطلب مجالا أوسع للتحدث فيها بالتفصيل ، لكننا نجد أنفسنا ملزمين بتناول أهم تلك الظواهر من الناحية الصوتية التى نقوم بمعالجتها ، وهذه الظواهر يمكن أن تعالج بوجهة نظر صرفية أو من الناحية الصوتية ، وفى الحقيقة أن الناحيتين الصرفية والصوتية متصلتان اتصالا وثيقا ببعضهما .

واللغة العربية تحدث فيها تغيرات صوتية الغرض منها التخلص من الثقل والتوافق الصوتى الذى يخلو من تفور ، وهذه التغيرات الصوتية قد تتجه إلى التماثل أو التقارب عندما يكون التخالف أو التضاد مكروها ، وقد تتجه تلك التغيرات أيضا إلى التخالف عندما يكون التماثل مكروها فى الذوق الشائع لدى العرب . ونرى الآن التغيرات الصوتية التى تتجه إلى التماثل :

التغيرات الصوتية التى تتجه الى التماثل :

لقد لاحظ اللغويون العرب منذ القدم هذه التغيرات ، وقد استطاع سيبويه أن يفسر هذه الظاهرة تفسيرا لا يختلف مع الدراسات اللغوية الحديثة إلا فى التفصيل والإجمال ، فلقد وردت فى كتاب سيبويه ملاحظات كثيرة عن التماثل ، وذلك فى القسم الذى عنوانه « هذا باب الحرف الذى يضارع به حرف من موضعه ، والحرف الذى يضارع ذلك الحرف وليس من موضعه »[٨٥] ،وكانت هذه الظاهرة تسمى المضارعة عند اللغويين القدماء مثل سيبويه وابن جنى وابن يعيش ، كما كانت تسمى أيضا بالتقريب ، فالتماثل بين الأصوات يعرف عند سيبويه مرة بالمضارعة ، وبالتقريب مرة أخرى ،[٨٦] ولقد طبق سيبويه ملاحظاته على حرف الصاد مع الدال ، فيرى أن الصاد تقترب من الزاى عندما تكون ساكنة ، وتأتى بعدها الدال مثل

---

(٨٥) كتاب سيبويه ج ٢ ص ٤٠٤ .
(٨٦) كتاب سيبويه ج ٢ ص ٤٢٦ ــ ص ٤٢٧ .

(مصدر ، أصدر) لأن الزاى مجهورة كالدال ، ولم تتحول الدال إلى حرف مطبق كالطاء ليناسب الصاد ، وإنما تحولت الصاد إلى زاى مطبقة ، كما أن الدال لم تتحول إلى صاد لأن الدال ليست من حروف الزيادة « ... وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من درجة واحدة ، وليستعملوا ألسنتهم فى ضرب واحد ، إذا لم يصلوا إلى الإدغام ، ولم يجسروا على إبدال الدال صادا ، لأنها ليست بزيادة كالتاء فى افتعل »[٨٧] كما يلاحظ سيبويه ملاحظة دقيقة وهى اشتراطه التسكين فى الصاد حتى يتم الإبدال « فأما الذى يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال ، فإن تحركت الصاد لم تبدل لأنه قد وقع بينهما شىء »[٨٨] . أى أنه يرى أن التجاور التام بين الأصوات شرط عنده للإبدال ، والحركة التى تكون على الصاد تفصل بين الصوتين المتجاورين .

كما أشار سيبويه أيضا إلى تحويل التاء إلى دال عند بعض العرب مثل (اجدمعوا) ، كما أشار إلى تحويل التاء إلى طاء مثل (مصطبر) ويقول : « فأبدلوا مكان التاء أشبه الحروف بالصاد وهى الطاء ، ليستعملوا ألسنتهم فى ضرب واحد من الحروف ، وليكون عملهم من وجه واحد ، إذ لم يصلوا إلى الإدغام »[٨٩] .

ومن ملاحظاته أيضا فى هذا المجال أن بعض العرب يحولون الطاء تاء فى قولهم (يستيع) بدلا من (يسطيع) أى أنهم وضعوا التاء المهموسة مكان الطاء المطبقة.

ومن الملاحظ فى كلام سيبويه أن ملاحظاته تتفق مع نظرة اللغويين المحدثين؛ فلقد حدث الإبدال فى الحروف من أجل التقارب أو التماثل الذى يرجى به التخلص من الثقل عند تجاور حروف الإطباق مثلا مع حرف غير مطبق كالتاء؛

---

(٨٧) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤٢٦ ـ ص ٤٢٧ .
(٨٨) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤٢٦ ـ ص ٤٢٧ .
(٨٩) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢٨ .

فالصاد والضاد حرفان مطبقان ويصعب الانتقال منها مباشرة إلى حرف كالتاء، ومراعاة للتخفيف الذى يتناسب مع الذوق العربى فإن التاء تتحول إلى صوت مطبق لتماثل مع الحرف المطبق الذى يسبقها ، وأقرب المطبقات إلى التاء هو الطاء ، وهذا ما يحدث فى صيغة (افتعل) عندما تكون فاؤها من حروف الإطباق ، فالفعل (ضرب) و (صبر) عند مجيئه على صيغة (افتعل) فانه لا يكون (اضترب) ، ولا (اصتبر) وإنما نجد المستعمل فى هذه الحالة (اضطرب) و (اصطبر) .

وهذا التغير الصوتى الذى حدث فى الكلمة نتيجة تجاور المطبق بغير المطبق هو صورة من الصور التى عرفت فى الصرف باسم الإبدال ، والإعلال، وهما فى الواقع بابان تصنف تحتهما تغيرات مختلفة فى الأصوات ، والإعلال والابدال صور مختلفة سنحاول أن نشير اليها .

صور الابدال والاعلال :

للإبدال صور كثيرة فى اللغة العربية وسنحاول أن نشير إلى أهمها حتى يتبين أثر التغيرات الصوتية فى تأليف الكلمة التى يرجى أن تكون خفيفة سهلة، ويورد صاحب (شذا العرف فى فن الصرف) الحروف التى يقع فيها الإبدال ، وهى عنده ثلاثة أقسام(٩٠) :

١ ـ ما يبدل إبدالا شائعا للإدغام ، وهو جميع الحروف إلا الألف .

٢ ـ ما يبدل إبدالا نادرا وهو ستة أحرف : الحاء ، والخاء ، والعين المهملة ، والقاف ، والضاد ، والذال المعجمتان مثل : وكنه : وقنه ، وفى أغن : أخن، وفى ربع : ربح ، وفى خطر : غطر ، وفى جلد : جخد ،وفى تلعثم : تلعذم.

---

(٩٠) شذا العرف للشيخ احمد الحملاوى ص ١٤٣ ـ ص ١٤٤ .

٣ ــ ما يبدّل إبدالا شائعا لغير إدغام ، وهو اثنان وعشرون حرفا ، والضروري منها تسعة أحرف يجمعها قولك : « هدأتَ مُوطيا » .

هذه الحروف التسعة هي التي اهتم بها ابن مالك وأشار إليها في ألفيته بقوله[٩١] :

أحرفُ الإبدال هدَأْتَ مُوطِيا   فأبْدِل الهَمْزَةَ من وَاوٍ وَيَا
آخرا إثْرَ ألفٍ زِيدَ وَفِى   فاعِل ما أُعِلَّ عَيْناً ذا اقتُفِى

أما الإعلال فإنه يكون بثلاث وسائل : القلب ،والنقل ،والحذف .

وصور الإبدال والإعلال يمكن أن تتلخص كما يلي :

١ ــ في فاء الافتعال وتائه تجد أن الفاء تتحول إلى تاء إذا كانت واوا أو ياء أصلية وتدغم في تاء الافتعال مثل : اتعدّ واتصّل واتسرّ من الوعد والوصل واليسر .

أما إذا كانت الفاء من أحرف الإطباق « الصاد والضاد والطاء والظاء » وجب إبدال تاء الافتعال طاء في جميع التصاريف مثل : اصطبر .

أما إذا كانت فاء الافتعال دالا أو ذالا أو زايا أبدلت تاؤه دالا مهملة مثل : ادّان ، وازدجر ، واذدكر من دان وزجر وذكر .

٢ ــ إبدال الميم من الواو ومن النون ، فالميم تبدل من الواو وجوبا في (فم) إذا لم يضف إلى ظاهر أو مضمر .

كما تبدل من النون بشرط سكونها ووقوعها قبل باء من كلمتها أو من غيرها نحو قول الله تعالى : « إذ انبعث أشقاها » وقوله : « من بعثنا من مرقدنا » .

٣ ــ الإعلال في الهمزة وله صور منها :

---

(٩١) شرح ابن عقيل على متن الالفية ج ٢ ص ٣٠٣ تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى .

(ا) قلب الياء والواو همزة عندما يتطرفان بعد ألف زائدة مثل سماء وبناء ، وعندما تقعان عينا لاسم فاعل لفعل أعلتا فيه مثل : قائل وبائع ، وعندما تقعان بعد ألف مفاعل وشبهه وقد كانتا مدتين زائدتين فى المفرد مثل عجائز وصحائف .

(ب) قلب الهمزة ياء أو واو مثل الذى يحدث فى الجمع الذى على وزن مفاعل إذا وقعت الهمزة بعد ألف ، وكانت تلك الهمزة عارضة وكانت لامه همزة أو واوا أو ياء مثل: خطايا جمع خطيئة وأصلها خطائىء وقضايا جمع قضية ومطايا(٩٢)

٤ ــ الإعلال فى الألف والواو والياء ــ ومن صورة :

(ا) قلب الألف والواو ياء : مثل مصابيح ومفاتيح ومصيبيح ومفيتيح، وغليم ــ وهذا فى قلب الألف ياء . أما قلب الواو ياء فمن أمثلته : الغازى ، والداعى ، وصيام وقيام ، وديار وحيل ، وميزان وميقات ، ودنيا وعليا ، وسيّد وميّت .

(ب) قلب الألف والياء واوا : مثل بويع وضُورِب وضُوَيْرِب، وهذا عن قلب الألف واوا ، أما قلب الياء واوا فمثل : مُوقن ومُوسر ، ويُوقن ويُوسر ، ومثل تَقْوَى وفَتْوَى .

(حـ) قلب الواو والياء ألفا مثل : قال وباع ونوَى ورمَى وغزا .

٥ ــ الإعلال بالنقل ويكون بنقل حركة المعتل إلى الساكن الصحيح قبله مع بقاء المعتل إن جانس الحركة كيقُول ويبيع أصلها يقْوُل كينْصُر ، ويَبْيِع كيَضْرِبُ ، وإلا قلب حرفا يجانسها مثل يخاف ويخيف أصلها يَخْوَف كيعْلَم . ويُخوِف كيُكْرِم ، ومن أمثلة الإعلال بالنقل أيضا مقام ومعاش أصلها مقْوَم ومعْيَش ، ومثل : مقُول ومبيع بحذف أحد المدّين فيهما مع قلب الضمة كسرة فى الثانى .

---

(٩٢) انظر شذا العرف للشيخ الحملاوى ص ١٤٥ ــ صـ ١٥٠ .

٦ ـــ الإعلال بالحذف وهو قسمان قياسي وغير قياسي ومن صور الإعلال بالحذف :

حذف همزة (أفعل) من مضارعه ووصفيه ما لم تبدل كراهة اجتماع الهمزتين في المبدوء بهمزة المتكلم نحو : أكرم ويُكْرِم وتكرم ومكرِم ومكرَم.

ومن صوره أيضا الحذف لالتقاء الساكنين مثل : قل وبع وخف ، ومثل : أنتم تغزُون وتقضُون ، وهذا حذف في اللفظ والخط وهو واجب لأنه في كلمة واحدة، أما حذف اللفظ لا الخط فهو عند التقاء الساكنين في كلمتين وكان الأول مدة مثل : يعزل الجيش ، يرمى الرجل ، ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

ومن أمثلة الحذف غير القياسي كحذف الياء من يدٍ ودمٍ ، والواو من ابن وشفه واسم .

وبعد ، فهذه الصور المتعددة للإبدال والإعلال تؤكد أن أكثرها قد جاء لغرض التخفيف والتسهيل لأن النطق بدون الإبدال أو الإعلال لا يستقيم ولا يطاق ، وسنحاول أن تبين ذلك التخفيف الذى حدث نتيجة الإبدال أو الإعلال من الناحية الصوتية ، وننظر الآن في صيغة (افتعل) التي تكون فاؤها من أحرف الاطباق، فاننا نجد أن الأصل هو مجيء التاء بعد هذه الحروف (اصتبر) و (اضترب) و (اظتلم) لكن هذا الأصل غير مستعمل وإنما المستعمل هو ما أبدلت فيه الطاء مكان التاء (اصطبر) و (اضطرب) و (اظطلم) ، والتغيير الذى طرأ على صيغة (افتعل) في حالة كون الفاء من حروف الإطباق إنما هو تغيّر نحو التماثل أو التقارب ، فلقد تحولت التاء إلى طاء لأنها أقرب الحروف المطبقة اليها ، فالتغير قد حدث للاتجاه نحو المماثلة .

أما إذا كانت فاء افتعل دالا أو ذالا أو زايا فان تاء افتعل تتحول إلى دال مثل ادّعى واذدكر وازدهر ، ولم تأت هذه الصيغة بالتاء ، والسبب في ذلك

هو النزوع نحو التماثل أيضا فالتاء صوت مهموس جاءت بعد حرف مجهور وتجاورت معه تجاورا تاما فازداد الثقل ، ومن ثمّ تحول الصوت المهموس إلى مجهور ليتقارب مع الحرف الذى يجاوره مجاورة كاملة ، وأقرب الحروف المجهورة إلى التاء هو الدال ، ولا تختلف التاء عن الدال إلا فى الجهر والهمس ، والذى حدث عند نطق الدال أو الذال أو الزاى فى الصيغة التى على وزن (افتعل) هو أن الوترين الصوتيين قد اهتزا عند نطق هذه الحروف الثلاثة ، ثم تلا هذه الأصوات وقف مفاجىء بسبب تسكين فاء افتعل ، ثم جاء بعد المجهور الساكن (الدال والذال والزاى) مهموس ساكن أيضا ، فالتقى عندئذ مجهور ساكن ومهموس ساكن التقاء مباشرا ، ولم يفصل بينها حركة طويلة أو قصيرة ، فأصبح نطق ذلك المهموس الساكن (التاء) عسيرا ، فتحول إلى الدال المجهور الذى يشبه فى كل الصفات ما عدا هذه الصفة ؛ وبذلك حدث التماثل أو التقارب بين هذه الحروف ، والذى أحدث ذلك التماثل هو الجهر الذى طرأ على التاء .

ومن صور التماثل أيضا ما يعرف عند علماء اللغة بالإدغام .

الادغـــام :

وهو الإتيان بحرفين ساكن فمتحرك من مخرج واحد بلا فصل بينها ، بحيث يرتفع اللسان وينحطّ بها دفعة واحدة[٩٣] . وهو باب واسع لدخوله فى جميع الحروف ما عدا الألف اللينة ، ولأنه يقع فى المتماثلين والمتقاربين فى كلمة وفى كلمتين . ويرى سيبويه أن الإدغام أنواع كثيرة ، مما دفعه إلى الاهتمام به وجعله يفسر بها ظواهر صوتية مختلفة[٩٤] . ولقد قام الدكتور تمام حسان بدراسة ظاهرة الادغام عند سيبويه وتلخيصها والتعليق عليها[٩٥] . ويرى اللغويون أن الإدغام ثلاثة أقسام : ممتنع ، وواجب ، وجائز .

---

(٩٣) شذا اللغة العربية ص ١٦٣ .
(٩٤) انظر كتاب سيبويه ج ٢ ص ٤٠٤ وما بعدها .
(٩٥) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٩٧ ـ ص ١٩٥ .

ومع الممتنع ما تحرك فيه أول المثلين وسكن الثانى نحو ظللت ، أو ماخيف اللبس فيه بزنة أخرى نحو : درر وغير ذلك .

أما الواجب فيكون إذا سَكنَ أولُ المثلين وتحرك الثانى ، ولم يكن الأول مدا ولا همزة مفصولة من الفاء مثل : جدّ وحظ .

وكذلك إذا تحركا معا فى كلمة واحدة مثل : مدّ ومَلّ وحبّ أصلها مددَ بالفتح، ومَلِلَ بالكسر، وحَبُبَ بالضم،أما اذا كانا فى كلمتين فيكون الادغام جائزا مثل (جعل لكم) .

أما ما يجوز الإدغام فيه والفك فله صور كثيرة مثل الفعل المضارع المجزوم بالسكون والأمر المبنى عليه مثل قوله تعالى: « فمن يرتدد منكم عن دينه» فهو يقرأ بالفك عند الحجازيين وبالإدغام عند التميميين ومثل قوله تعالى «واغضض من صوتك » وقول جرير يهجو الراعى النميرى الشاعر :

فغضّ الطرْفَ إنك من نمْير فلا كعْباً بلغْتَ ولا كلاَباً[96]

وهذا فى الحروف المتماثلة أما الادغام فى الحروف المتقاربة فانه قائم على التقارب فى المخارج ، كما أنه يقوم أيضا على التقارب فى الصفات كالجهر والهمس، والرخاوة والشدة ، والإطباق والانفتاح ، والاستعلاء والاستفال ، والذلاقة والصفير وغير ذلك .

والقياس فى إدغام مايدغم من الحروف المتقاربة هو قلب الأول إلى الثانى لا العكس إلا إذا دعا الحال إلى ذلك نحو اذكر واذكر .

ولإدغام الحروف المتقاربة ثلاثة أحكام : الوجوب والامتناع والجواز[97].

---

(٩٦) انظر شذا المعرفة ص ١٦٣ ـ ص ١٦٥ .

(٩٧) شذا العرف ص ١٦٧ ـ ص ١٧٠ .

والوجوب فى اللام التى للتعريف مع أحد الحروف الشمسية وهى التاء والثاء والدال إلى الظاء، واللام والنون .

وفى اللام الساكنة غيرها مع الراء نحو « بل رفعه الله » .

وفى النون الساكنة مع ستة أحرف ، أربعة فيها بغنه وهى أحرف « ينمو » واثنان بلاغنة وهما اللام والراء . كما أنها تقلب ميما مع الباء . وهى تظهر مع حروف الحلق ؛ وتختفى مع الباق .

أما امتناع الإدغام فهو فى أحرف (ضوىَ مِشْفَر) فيما يقاربها ، وسبب ذلك أن صفات تلك الحروف تزول مع الادغام مع مايقاربها ، فالاستطالة فى الضاد عندما تدغم مع حرف يقاربها وكذلك اللين فى الياء والواو ، والغنة فى الميم ، والتفشى فى الشين والفاء ، والتكرار فى الراء والادغام فى نحو سيد ومهدى ولايرد ، لأن الإعلال جعلها مثلين .

ومن الملاحظ فى الإدغام هو فك المدغم إذا اتصل بضمير رفع متحرك ، وذلك واجب ، أما فكه فى غير ذلك فهو شذوذ ، وقد عاب البلاغيون على أبى النجم العجلى فكه الادغام فى كلمة (الأجلل) من غير اتصال بضمير رفع متحرك فى قوله :

« الحمد لله العلى الأجلل »

ومن الملاحظ أيضا أنه إذا جاء بعد الإدغام حرف مد وجب تحريكه بما يناسبه مثل : ردُّوا ، وردِّى، ردَّا ، واذا وليه هاء غائبه وجب فتحه وذلك لخفاء الهاء فكأن الألف وليته ، ويجب الضم اذا وليه هاء غائب خلافا لثعلب[٩٨] .

ومن التأمل فى الادغام وصوره وحالاته بسهولة أنه مبنى على أسس صوتية الهدف منها التماثل بين الأصوات المتجانسة أو الأصوات المتقاربة وهذا التماثل

---

(٩٨) شذا العرف ص ١٦٦ .

يكون بامتزاج للصوتين معا ليكونا صوتا واحداً أو أن أحد الصوتين يفنى فى الآخر ، ويعنى التماثل بين الصوتين أنهما اتحدا فى المخرج الذى خرجا منه ، كما اتحدا فى الصفة كالجهارة أو الهمس أو الإطباق أو الشدة ... وذلك كما وضحنا سابقا ، والدافع إلى ذلك التماثل فى المخرج والصفة بين الأصوات هو التخفيف والخلوص من الثقل الذى ينتج من تجاور الأصوات المتضادة فى الصفات ويبدو هذا واضحا فى ادغام الحروف المتقاربة ، أما الحروف المتماثلة أو المتجانسة فلقد حدث الادغام بينها لأن التقاء المثلين مكروه أيضا لما فيه من الثقل ، ولقد قام الدكتور ابراهيم أنيس بدراسة بعض الأمثلة القرآنية التى يجوز فيها الادغام على ضوء القراءات الواردة عن السلف[٩٩] . وهى دراسة قائمة على الاستقراء والملاحظة .

ومن التغيرات الصوتية القائمة على التماثل والتقارب ما يسمى التآلف بين الحركات أو :

التوافق بين الصوائت :

وهو ما يعرف بـ Vocalic Harmony أو Vowel Harmony وهذا المصطلح يفيد وصف الصوائت أو الحركات بالتوافق والمماثلة ، ويعنى هذا أن حركات المقاطع المتتابعة تتماثل بشكل ما ، ويبدو أن هذه الظاهرة الصوتية من السمات الأساسية فى بنية بعض اللغات، فحرف الجر (الى) مثلا فى اللغة التركية عبارة عن وحدة صرفية لاحقة بالكلمة لكنها تأتى على شكلين (e) أو (a) وفق الحركة الأساسية فى الكلمة ، فهى (e) عندما تلحق بـ (ev) بمعنى منزل، وهى (a) عند تلحق بكلمة (Orman) بمعنى حديقة[١٠٠] .

---

(٩٩) الأصوات اللغوية ص ١٨٨ ـ ص ٢٠٢ .
(١٠٠) المدخل الى علم اللغة للدكتور محمود فهمى حجازى ص ٦٨ ـ ص ٦٩ .

إلى المنزل	eve	منزل	ev
إلى الحديقة	Ormana	حديقة	Orman

ولقد حاول الدكتور تمام حسان أن يجمع الحركات التى تتغير لذلك التوافق الذى أطلق عليه اسم « المناسبة » ويرى أن النحاة العرب لم يسجلوا تحت عنوان المناسبة الا حركة واحدة هى الكسرة قبل ياء المتكلم فى مثل (هـذا كتـابى) ، ويعنى هذا أن وجود هذه الظاهرة الصوتية تحت اسم آخر غير المناسبة لا وجود لها فى نظاره ، وفى الحقيقة أن التوافق بين الصوائت موجـود فى صور كثيرة ، وقد جمعها الدكتور تمام حسان تحت المناسبة ، ومن صورها[١٠١] :

١ ــ بناء الماضى على الضم لمناسبة واو الجماعة مثل : ضربوا .

٢ ــ تحريك لام المضارع المسند الى واو الجماعة بالضم أو فى جميع حالاته الإعرابية مثل : يضربون ، ولن يضربوا ، ولم يضربوا .

٣ ــ تحريك فعل الأمر بالضم عند إسناده إلى الواو مثل اضربوه .

٤ ــ تحريك لام المضارع المسند إلى ياء المخاطبة بالكسر لمناسبة اليـاء فى جميع حالاته الإعرابية مثل : تضربين ، ولن تضربى ، ولم تضربى .

٥ ــ تحريك لام فعل الأمر عند إسناده إلى ياء المخاطبة بكسرة لمناسبة الياء مثل : اضربى .

٦ ــ تحريك الماضى والمضارع والأمر بالفتح على أواخرها عند اتصالها بألف الاثنين مثل : ضربا ، يضربان ، لن يضربا ، لم يضربا ، اضربا .

٧ ــ ومن ذلك أيضا إعراب المجاورة كما فى « جحرِ ضبٍ خربٍ » .

٨ ــ ومن ذلك أيضا الإتباع على اللفظ .

وهذا التوافق الذى حدث بين الصوائت أو ما يسمى بالتوافق الحركى هو

---

(١٠١) اللغة العربية مبناها ومعناها ص ٢٧٣ ــ ص ٢٧٤ .

فى حقيقة الأمر من الظواهر الصوتية التى يستهدف بها التآلف بين الأصوات من الناحية الموسيقية ، والبعد عن الثقل الذى قد ينتج من إهمال ذلك الانسجام بين الحركات ، وهو توافق قد يصبح أكثر أهمية من جريان الكلمة طبقا لما يتطلبه القياس اللغوى ، أى أن الذوق العربى قد يكسر القاعدة من أجل ذلك الانسجام بين الصوائت ومثال ذلك ما نراه فى إعراب المجاورة « حجرِ ضبٍ خربٍ » ـ فالحاجة إلى التآلف أو الانسجام بين الأصوات الصائتة المتجاورة قد كسرت القاعدة ليتم ذلك التوافق . ويمكن أن يقال هذا أيضا عن (الإتباع على اللفظ) الذى يستهدف به ذلك الانسجام الذى يتطلبه الذوق العربى فى الكلام .

وإلى جانب التغيرات الصوتية التى تتجه إلى التماثل أو المماثلة فهناك تغيرات صوتية أخرى تتجه إلى التخالف الصوتى Dissimilation وهذا ما سنحاول توضيحه فيما يلى :

التغيرات الصوتية التى تتجه الى التخالف :

وهذه التغيرات الصوتية تحدث أحيانا فى الأصوات اللغوية التى يتماثل فيها صوتان تماثلا كاملا فيقلب أحدهما إلى صوت آخر يخالف الصوت الذى يماثله ، ويبدو من استقراء الأمثلة التى يرى الباحثون أنه قد حدث بها مخالفة ـ أن الصوتين المتماثلين فيهما ثقل وأن المخالفة التى حدثت لأحد هذين المتماثلين جاءت من أجل التيسير ، ولذلك وجدنا أكثر الأصوات التى انقلب اليها أحد المتماثلين هى أصوات اللين أو الشبيهة لها كاللام والنون .

فالمخالفة التى تحدث للأصوات المتماثلة هى أثر من آثار النزوع نحو التخفيف والتسهيل الذى يتطلبه الذوق . ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن المخالفة لون من التطور الذى نادى به الكثيرون من الباحثين المحدثين أصحاب نظرية السهولة التى تشير الى أن الانسان فى نطقه يميل الى تلمس الأصوات السهلة التى لا تحتاج إلى

جهد عضلى[١٠٢] .

ويورد الدكتور ابراهيم أنيس أمثلة من المعاجم العربية للمماثلة العين أو اللام ويرى أن هذه الأمثلة تشترك فى المعنى مع المضعف الذى من مادتها ويفترض أن أصل هذه الأمثلة هو التضعيف ثم سهل مع تطور الزمن بالاستعاضة عن أحد الصوتين المتماثلين بالياء أو الواو لخفتها .

وهذه هى الأمثلة التى استدل بها على حدوث المخالفة :

١ ــ الطحّ : البسيط . طحا كسعى : بسط .

٢ ــ المحّ : صفرة البيض ، والماح : صفرة البيض .

٣ ــ الجبّ والجواب : القطع .

٤ ــ عسّ : طاف بالليل . والعوس : الطوفان بالليل .

٥ ــ زحّه : نحاه عن موضعه . زاح يزيح : بعد وذهب وأزحته .

٦ ــ غس : غمس . انغس : انغمس .

٧ ــ قيراط : أصلها قرّاط . ودينار : أصلها دنّار .

٨ ــ قصيت أظفارى : قصصت .

٩ ــ وأما بفعل الصالحين فيأتمى : فيأتمّ .

١٠ ــ غم الهلال : حال دونه سحاب رقيق ، وغامت السماء .

١١ ــ حن عليه : حنا عليه .

ويستنتج الدكتور ابراهيم أنيس من هذه الأمثلة أن أحد الصوتين المدغمين فى كل هذه الأمثلة قد قلب إلى صوت لين[١٠٣] .

ويسوق أمثلة أخرى يستخلص منها أن أحد الصوتين المتماثلين قد قلب الى

---

(١٠٢) الأصوات اللغوية ص ٢١٢ .
(١٠٣) الأصوات اللغوية ص ٢١٣ .

أحد أشباه أصوات اللين (اللام والميم والنون) وهذه هى الأمثلة التى أقسام عليها افتراضه ، وهى مستمدة من المعاجم اللغوية أيضاً :

١ ـ تشغر فى قبيح : تمادى وتعمق . الشنغير : السيء الخلق .

٢ ـ تحدس الأخبار : أراد أن يعلمها من حيث لايعلم به . تحندس الليل : أظلم وعلاقة الخفاء بين الفعلين واضحة .

٣ ـ الرسّ : دفن الميت ، والرمس : الدفن أيضاً .

٤ ـ العبّاس : الأسد ، والعنبس : الأسد أيضاً .

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن الأصوات تظل تتقارب حتى تتماثل تماثلا تاما ثم تتخالف بعد ذلك لغرض التسهيل[١٠٤] وفى رأينا أن المماثلة والمخالفة لاتدوران فى مثل هذه القوانين الصارمة ،بل هما من الظواهر اللغوية الصوتية التى تحدث فى ظروف متغايرة متصلة بعدة عوامل كالبيئة الاجتماعية والعقيدة الدينية وغير ذلك .

والملاحظ فى المخالفة أنها تحدث فى الأصوات المطبقة والأصوات الاحتكاكية وهى مجهدة لأعضاء النطق ، وهذه الأصوات المطبقة والاحتكاكية تزداد صعوبة عندما تتجاور .

وبعد ، فالمخالفة ظاهرة من الظواهر الصوتية التى تحدث للأصوات المتماثلة التى يصعب نطقها أو تثقل على اللسان ، وذلك لغرض التيسير والسهولة التى هى مطلب ضرورى للذوق .

---

(١٠٤) الأصوات اللغوية ص ٢١٤ .

الجرس الموسيقى

رأينا فيما سبق أن الأصوات التى تتجاور مخارجها تثقل إذا تجاورت مع بعضها تجاورا تاما، لما تتطلبه من جهد عضلى، كما رأينا ما يسببه التكرار الكثير للصوت الواحد من ثقل، لكن ذلك التكرار الذى يستثقل، قد يستعذب عندما يطابق الذوق العربى. وعندما يبرع الأديب فى وضع الأصوات فى مكانها الصحيح الذى ينتج عنه حسن الوقع فى السمع، والأديب الموهوب الذى يسلك هذا المسلك يشبه الموسيقى الذى يوزع النغمات ويضعها فى مكانها الملائم الذى تحسن به.

ويعنى هذا أن تكرار الأصوات فى الجملة أو فى البيت بالصورة المثلى يؤدى إلى حسن الوقع فى السمع، وإلى العذوبة اللفظية التى هى مطلب لانراه إلا عند الموهوبين من الأدباء، الذين يتمتعون بثقافة لغوية واسعة.

وهذا اللون من التكرار المستعذب للأصوات يحدث إيقاعا موسيقيا يختلف عن الإيقاع الذى ينتج عن الأوزان الشعرية التى تعرف بالبحور، والذى يقوم على تكرار التفعيلة. وهذا الإيقاع الناتج عن تكرار الحركات والسكنات على نحو منتظم لايقتصر على الشعر، بل يكثر فى النثر، ولقد اهتم البلاغيون بصور مختلفة من الألوان الصوتية التى لها حسن الوقع فى السمع، والتى صنفت تحت ألوان البديع اللفظية، وهذا الاهتمام الذى ظهر عند الأدباء والبلاغيين والمتعلق بالأثر الصوتى يصدر عن نزعة إلى الجمال الصوتى الذى تطرب له النفس، ونحن نجد فى الشعر الجيد موسيقى لم تتولد عن الوزن فقط بل نتجت عن علاقات الألفاظ من الناحية الصوتية، وما يتخلل ذلك من نبرات وتنغيم عند الإنشاد، وهذه الموسيقى التى نتجت عن العلاقات الصوتية لانستطيع أن نفصلها فى الشعر الجيد عن ألوان الموسيقى الأخرى لأنها تتداخل مع بعضها لتكون لنا مزيجا صوتيا عذبا يتآلف مع المقومات الأخرى للعمل الفنى كالصور والمعانى والانفعالات.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه إلى خطورة الإسراف فى هذه العلاقات الصوتية التى تستهدف نسقا موسيقيا داخل العمل الأدبى لأن ذلك يؤدى إلى الفساد الذى حذر منه كثير من النقاد، فهذا الإسراف أو ذلك التعمد يؤدى إلى الفصل بين اللغة والمقومات الفنية الأخرى، كما أنه يضعف تلك المقومات التى يجب أن تكون متلاحمة مع بعضها لتكوّن الوحدة العضوية الكاملة.

وهذه العلاقات الصوتية الموسيقية يجب أن يكون مقدارها موازيا لمقدار الملح فى الطعام لأن فى زيادته ونقصه فسادا وإخلالا بالذوق.

وتتمثل الموسيقى الناتجة عن العلاقات بين الأصوات فى أشياء كثيرة، وقد تنبه القدماء لهذا العلاقات، وخاصة ابن سنان الخفاجى الذى جعلها شرطا من شروط الفصاحة. وهى مايعرف عنده باسم (المناسبة بين اللفظين) وهى عنده على ضربين: مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة، ومناسبة بينهما من طريق المعنى، والأولى لها تأثير فى الفصاحة أكثر من الثانية، وتتمثل المناسبة اللفظية عنده فى ألوان بديعية مختلفة كالسجع والازدواج والجناس والترصيع(١٠٥).

وسنحاول أن نعرض صورا للأثر الصوتى المستعذب الناشىء عن علاقات الأصوات المترددة فى الشعر أو النثر، ومن ذلك:

١ ـ التناسب الصوتى الناشىء عن التوزيع الخاص للصوائت والصوامت ومثال ذلك سينية البحترى والتى يقول فيها:

صُنْتُ نفسى عما يدنّس نفسى ... وترفعتُ عن جَدَا كل جِبْسِ

وتماسكْتُ حين زعزعنى الدهـ ... ـرُ التماساً منه لتعسى ونُكْسى

بُلَغٌ من صبابة العيش عندى ... طففتها الأيام تطفيف بخس

وبعيد مابين وارد رفْـهٍ ... علَلٌ شربه ووارد خِمْس

---

(١٠٥) سر الفصاحة ص ١٦٢ وما بعدها.

وكأن الزمان أصبح محمـــو   لاهواه مـع الأخس الأخس

واشترائى العراق خطـة غبن   بعد بيعى الشام بيعة وكس

لاترزنى مزاولا لاختبـــارى   عنـد هذى البلوى فتنـكر مسنى

وقديمـا عهدتنى ذا هنـــات   آبيـات على الدنيئات شمس

ونستطيع أن نحس فى كلمة (صُنْتَ) و (ترَفّعت) و (يدنّس) و (كلّ) و (عن) فى البيت الأول بتوالى الحركات القصيرة مع السواكن مما يجعلنا نحس بالسرعة والقوة التى تلائم الإباء والتحكم فى النفس، وهذا الإيقاع الناشىء عن توالى الحركات القصيرة مع السواكن نستطيع أن نحس بما يقابله من إيقاع ناشىء عن الصوائت الطويلة التى توحى بالمرارة والأسى وذلك كما يظهر فى البيتين السادس والسابع، ففى هذين البيتين تكثر حروف المد التى تنتشر انتشاراً متناسقا داخل البيتين لتصنع إيقاعا موسيقيا يتلاءم مع الحالة الشعورية التى تسيطر عليه، ولعل تناسق الصوامت المترددة داخل قصيدة البحترى أكثر دلالة على ذلك الأثر الصوتى المستعذب، فتردد السين فى البيتين الأول والثانى بهذه النسبة لايصل إلى الدرجة التى يقبح بها التكرار، ففى البيت الأول ترد السين أربع مرات، والصاد مرة واحدة، والفاء ثلاثة مرات، والنون خمس مرات، ونلاحظ أن السين قد تجاورت تجاورا تاما مع الفاء فى (نفْس) والباء فى (جبس)، لكن تجاورها المباشر مع هذين الحرفين لايولد تنافرا، كما نلاحظ أن انتشار النون قد حدث بنظام دقيق قد خفف من الثقل الذى قد يحدثه نطق بعض الأحرف المجهدة لأن النون من الأحرف الشبيهة بأحرف اللين، هـذا بالإضافة إلى مافيها من غنة Nazalisation وهذا الصوت الذى يسهل نطقه لايستثقل وروده بهذا العدد داخل البيت، لأنه من أكثر الأصوات شيوعا فى اللغة طبقاً للإحصاء الذى قام به الدكتور إبراهيم أنيس فى القرآن الكريم، والذى توصل فيه إلى أن اللام والميم والنون أكثر

---

(١٠٦) انظر الأصوات اللغوية ص ٢٤٤ .

الحروف ورودا فى القرآن الكريم ،فنى كل ألف صوت ساكن ترد اللام(١٢٧) مرة ، والميم(١٢٤) مرة ، والنون (١١٢) مرة ،فى حين أن صوتا كالظاء يتكرر ثلاث مرات فقط[١٠٦] ،فمجىء النون بعد الصاد لم يجعلنا نشعر بثقلها ،والمعروف أن الصاد من حروف الإطباق التى تثقل على اللسان ، وكذلك تجاورها التام مع الجيم قد خفف الثقل من نطقها وذلك فى قوله (عن جدا) .

وتتردد السين فى البيت الثانى بنفس العدد الذى ترددت به فى البيت الأول وهو أربع مرات ، وإذا تأملنا توزيع هذا الصوت داخل البيتين ، فإننا نرى أن الشطر الأول به ثلاث سينات مع الصاد وهى حروف بها صفير ، ثم يخفت ذلك الصفير أو يقل فى الشطر الثانى ولا يرد إلا مرة واحدة ، ثم يأتى بنفس النسبة فى الشطر الثالث ، ثم يعلو الصفير كثيراً فى الشطر الرابع حين تجتمع ثلاث سينات .

كما نحس أن مجىء الصاد قبل ثلاث سينات فى الشطر الأول قد ساعد على ارتفاع نغمة الصفير ، كما أن تكرار الزاى فى نهاية الشطر الثالث قد ساعد على الانتقال إلى الصفير العالى مرة ثانية ، ونحن نحس خلال التموجات الصوتية فى البيتين بأن السين نغمة موسيقية أساسية ،تصاحبها نغمات أخرى تتداخل معها فى أوقات معينة لتتحق بذلك الدرجات المختلفة ، فنغمة السين فى الشطر الأول من البيتين عالية أو كثيفة ، وذلك لمصاحبتها الصاد ، ولكنها تتميز بالنعومة والانسياب لمصاحبتها لأصوات المد ثلاث مرات ، ولمصاحبتها للنون أيضاً أربع مرات ، وهذا الامتزاج بين الأصوات قد نتج عنه نغم موسيقى فريد ، لاينتج من تكرار السين وحدها ،كما لاينتج عن النون بدون السين ، أو لاينتج عن السين بدون النون ، أو لاينتج عن كليهما بدون أحرف المد، كما نحس بأن درجات ذلك النغم قد عادت إلى التصاعد بعد أن انخفضت فى الشطر الثانى لتصل إلى القمة فى نهاية البيتين .

وإذا نظرنا فى البيتين السادس والسابع من القطعة فاننا سنشعر بلون من النغم يخالف ما أحسسنا به فى البيتين السابقين، فنلاحظ أن أحرف المد فى (اشترائى) و (العراق) ثم مجىء الصوامت والصوائت القصيرة فى (خطة) و (غبن) قد صنع نغمة انقسمت فى أولها بالبطء وفى آخرها بالسرعة. وهو ما نلاحظه فى الشطر الثانى عندما تبطىء الحركة فى (بعد بيعى الشام) لتوافر المد، ثم تسرع فى (بيعة وكس)، لكن الحركة فى البيت السابع تسرف فى البطء فى قوله (لا تزرنى مزاولا لاختيارى عند هذى البلوى)، وهذه الحركة المترددة بين السرعة والبطء تتلاءم مع الحالة الشعورية التى تتلبسها عند الشاعر، فنحس بالمرارة والأسى فى نفس الشاعر عندما تبطىء الحركة، كما نحس أن الحركة السريعة فى الإيقاع تتناسب مع الشعور بالغدر والظلم الذى يولد عنده شعورا بالإباء، مما يدفعه إلى أن يأخذ نفسه بقوة، ويمنعها من التردى فى المهانة.

وقياسا على ماسبق نورد بعض النماذج التى توافرت فيها النغمات المستعذبة الناتجة عن التناسق بين الأصوات والتوزيع الدقيق لها، والتردد الذى لا يخرج إلى التنافر والثقل، ومن ذلك قول أبى تمام، وهى قطعة قد اختارها صاحب الوساطة وأشاد بها، وعدها من روائعه وهى[١٠٧].

دعنى وشرب الهوى ياشاربَ الكاسِ ... فإننى للذى حُسِيتُهُ حاسى

لا يوحشنك ما استسمجت من سقمى ... فإنّ منزله بى أحسنُ الناس

من خلّونى فيه مبدًا كلّ جائحة ... وفكرتى منه مبدًا كل وسواس

من قطع ألفاظه توصيلُ مهْلكتى ... ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسى

رزقت رقة قلب منه نغصه ... منغصٌ من رقيب قلبه قاسى

متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ... ماكان قطعُ رجائى فى يدىْ ياسى[١٠٨]

---

(١٠٧) ديوان أبى تمام المجلد الرابع ص ٢١٦ تحقيق محمد عبده عزام، انظر الوساطة ص ٣٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(١٠٨) فى الوساطة البيتان الثالث والخامس محذوفان و «استعجمت» مكان «استسمجت» و «من» مكان «بى».

ومن ذلك أيضاً تلك الأبيات التي نسبها صاحب الحماسة للصمة بن عبد الله القشيري التي استحسنها صاحب الوساطة أيضا : (١٠٩) .

أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريا روضه غب القطار
وعيشك إذا يحل القوم نجدا ... وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل ... وأقصر ما يكون من النهار

ومن ذلك قول أبي نواس التي عدها صاحب الوساطة من جيد شعره وهي : (١١٠) .

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره
خفت مأثور الحديث غدا ... وغد دان لمنتظره
خاب من أسرى إلى ملك ... غير معلوم مدى سفره
فامض ولا تمنن علي يدا ... منك المعروف من كدره
رب فتيان ربأتهم ... مسقط العيوق من سحره
فاتقوا بي ما يريبهم ... إن تقوى الشر من حذره

---

(١٠٩) الوساطة ص ٣٣ ، ديوان الحماسة جـ ٢ ص ٢١٤ ، لسان العرب جـ ٦ ص ٢٣٥ .

(١١٠) ديوان أبي نواس ص ٦٦ شرح محمود واصف القاهرة سنة ١٨٩٨ م . الوساطة ص ٥٦ .

وتتمثل هـــذه الخصائص أيضاً فى كثير من أبيات ميمية المتنبى كما فى قوله : (١١١) .

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

ومهجةٍ مهجتى من همّ صاحبها ... أدركتُها بجواد ظهره حَرَم

رجلاه فى الركض رجل واليدان يدٌ ... وفعلُهُ ماتُريد الكفُّ والقدَم

يامن يعز علينا أن نفارقهُمْ ... وجداننا كل شىء بعدكم عَدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركمُ من أمرنا أممُ

إن كان سرّكمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألمُ

وبيننا لو رعيتمُ ذاك معرفةٌ ... إن المعارف فى أهل النهى ذمم

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ من شيمى ... أنا الثريا وذان الشيبُ والهرَمُ

ليت الغمامَ الذى عندى صواعقُهُ ... يزيلُهنّ إلى من عنده الدِّيَمُ

شرّ البلاد مكانٌ لا صديقَ به ... وشرُّ مايَكسبُ الانسانُ ما يَصِمُ

وشرُّ ما قنصتْهُ راحتى قنص ... شُهبُ البُزاةِ سواء فيه والرَّخَمُ

من ذلك أيضاً هذه الأبيات المأخوذه من سينية شوقى التى نظمها فى منفاه فى الأندلس : (١١٢) .

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

وصفا لى ملاوة من شباب ... صورت من تصورات وحس

---

(١١١) التبيان بشرح الديوان للعكبرى جـ ٣ ص ٣٦٦ ط الحلبى سنة ١٩٣٦ ، الوساطة ص ٥٦ .

(١١٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٢٧ .

عصفت كالصَّبا اللعوب ومرت　　سنة حلوة ولذة خلس

وسلا مصر هل سلا القلب عنها　　أو أسا جرحه الزمان المؤسى

كلما مرت الليالى عليـــه　　رق والعهد فى الليالى تقسى

مستطار إذا البواخر رنت　　أول الليل أو عوت بعد جرس

راهب فى الضلوع للسفن فطن　　كلما ثرن شاعهن بنقس

كما نستطيع أن نوضح النسق الموسيقى المترتب على تآلف الالفاظ مع معانيها ، فنى القطعة المختارة من شعر أبى تمام نجد ما يأتى .

(ا) لا نجد فى القطعة كلمات يمكن أن توصف بالتنافر والثقل مما يحتاج الى جهد عضلى .

(ب) لا نجد فى القطعة إلا بيتا واحدا قد زادت نسبة شيوع أحد الحروف فيه عن المعقول وهو البيت الخامس الذى وردت فيه القاف ست مرات مقسمة بين الشطرين فنى كل شطر ثلاث مرات ، وكان من الممكن أن يؤدى هذا العدد الى الثقل ، لكن براعة تنسيقها فى البيت قد خففت شيئاً من ذلك الثقل المتوقع، فلقد جاءت متفرقة ولم تجتمع أو تتجاور فى كلمة واحدة ، ونلاحظ أن القاف قد سبقت أو لحق بها حرف من حروف المد أو ما يشابهه ،وهى حروف تخفف من وقع الحروف الثقيلة عند تجاورها لها ، فكلمة (رقة) مسبوقة بالراء تلاها صائت قصير هو الكسرة ، وفى كلمة (قلب) قد جاء اللام بعد القاف ، وهو أيضا من الحروف التى تشبه أحرف اللين ، وكذلك كلمة (رقيب) التى سبقتها الراء ، وتلاها الياء ، أما كلمة (قلبه) فلقد سبقت سبقت بتنوين الباء وألحق بها الياء .

وهكذا نرى أن نسبة شيوع القاف فى البيت لم تفسد التآلف الصوتى فى القطعة وهو أكثر الأبيات فى القطعة من ناحية احتمال وقوع الثقل .

(حـ) كثرة حروف اللين وما شابهها فى البيت الأول يتناسب مع معاناته

وآلامه التى تكبدها من هواه ، وخاصة حرف الياء الذى يستشمر مع تردده بالأنين والألم الداخلى ، كما أن تجاور النون للياء يحدث أصواتا منغمة لامتزاجها بالغنة الحادثة من النون .

(ى) نلاحظ أن أكثر الابيات قد اشتملت على حرف السين أو الصاد ، كما نلاحظ أن توزيعها يوشك أن يكون متساويا بين شطرى كل بيت ، وهو توزيع يؤدى إلى امتزاج الصفير الحادث منهما مع الأصوات الأخرى ، وهو امتزاج يؤدى إلى نعومة الأصوات .

(هـ) كل هذه الاصوات تتلاءم مع معانيها، ومع الحالةالشعورية المسيطرة على الشاعر مما دفعه إلى التردد بين الخبر والإنشاء داخل المقطوعة .

ومع ذلك فإننا نرى أن الابيات أقل من أبيات القطعة الاولى لما بها من أشياء قد تخل بالفصاحة وذلك كما يبدومن جملة (حسيته ،فى البيت الاول وتخفيف الهمز فى البيت الثالث والسادس ،وكذلك ما أشرنا إليه من زيادة تردد القاف .

كما يمكننا أن نلاحظ أيضا ما احتوته القطعة التى أوردها صاحب الحماسة للصمة بن عبد الله القشيرى — من وجوه الحسن الناتج عن التلاؤم التام بين معانيها وألفاظها بلا قلق ولا نشاز ، فهى كالنغمة المتناسقة فى تآلف فريد .

فالشاعر عند الفراق يتلمس من ديار من يفارقهم نسيما يحمل عبق من لا يرغب فى أن يغادر ديارهم . والفراق يخلف فى النفس ألما يحاول صاحبه أن يتعزى عنه ، فلا يجد الشاعر إلا تلك النفحات الطيبة التى يتنسمها قبل الفراق ،ولقد تلازمت الأصوات المعبرة عن الفراق بنغمات تساعد على إظهار ذلك الألم ،فكل كلمات البيت الأول الذى يوحى بالفراق مشتمله على حرف لين هو الياء الذى يتلاءم مع الشعور بالمرارة التى خلفها ترك الأحبة ، كما أن اختيار الالفاظ الدالة على النسيم توحى بأنه نسيم عطر ينعش من يتنسمه ، فكلمه (شميم) و (نفحات)

و (ريّا) تناسب الرغبة فى التخلص من مرارة الفراق وكلمة (شميم) تتناسب أصواتها مع حركة الاستنشاق ، أما كلمتى (نفحات) و (ريّا) فهما متلائمتان مع نسيم الصحراء بعد العشاء ، وهو نسيم قد خلص من الغبار وغلبت عليه رقة محببة .

والقطعة قد خلت أيضاً مما يسبب الثقل والتنافر ، فليس فى كلماتها مايوصف بذلك . وليس بين ألفاظها تعاظل منفر ، ومن أجل ذلك جاءت ملساء .

كما أن اختيار موسيقى البيت الظاهرة المتمثلة فى بحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعول . .) قد ساعدت على إظهار حالة الشاعر الشعورية ، وهى حالة تنم عن بساطة صاحبها وعذوبة أحاسيسه وأفكاره .

٣ — ومن الترددات الصوتية التى تحدث أثراً موسيقياً مقبولا — ألوان من فنون البديع اللفظية ، التى يستهدف بها تحسين الكلام . وفى الحقيقة لايتحقق ذلك الأثر الصوتى المستعذب الا اذا صدر عن ذوق أدبى رفيع ، وهذه الفنون البديعية لا تستهدف لذاتها ، كما لا يستحب كثرة ورودها .

ومن الفنون البديعية اللفظية التى تحدث أثرا موسيقيا فى الكلام الجناس بأنواعه المختلفة التى سنوضحها فيما يلى ، ونحن سنحاول أن نستخدم اصطلاحات وتقسيمات المتأخرين ، ونرى أن الخطيب القزوينى وتقسيماته أساس يمكن أن تتخذه فى عرضنا لهذا اللون البديعى ،

ا ـ الجناس :

والجناس بين لفظين وهو تشابهما فى اللفظ ، ويقسمه صاحب الإيضاح إلى

أولا : التام : وهو أن يتفق اللفظان فى أنواع الحروف وعددها ، وهيئتها وترتيبها .

وأنواع التام هى :

أ ـ **المماثل** : ويكون اللفظان من نوع واحد كاسمين[١١٣] كقول الله تعالى: « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » ، وكقول الشاعر :

حـــدق الآجال آجال والهوى للمرء قتـال

الأول جمع إجل بالكسر ، وهو القطيع من بقر الوحش ، والثانى أجل والمراد به منتهى العمر . وكقول أبى تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب

ب ـ **المستوفى** : ويكون اللفظان من نوعين كاسم وفعل ،[١١٤] كقول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فانه

يحيا لدى يحيى بن عبد الله

وكقول محمد بن كناسة الأسدى فى رثاء ولده يحيى :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن

إلى رد أمر الله فيه سبيل

ج ـ **جناس المركب** : وهو ما كان أحد لفظيه مركبا ـ وهو أنواع :

١ ـ **المـــرفو** : ويكون فيه المركب مكونا من كلمة وبعض كلمة مثـــل قول الحريرى :

ولا تله عن ذكر ذنبك وابكه

بدمع يحاكى الوبل حال مصابه

---

(١١٣) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ج ٦ ص ٩٢ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط صبيح سنة ١٩٥٠ .

(١١٤) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ج ٦ ص ٩٣ .

ومثل لعينيك الحمام ودمعه

وروعة ملقاه ومطعم صابه

٢ — وإذا لم يكن المركب منهما مركبا من كلمة وبعض الأخرى . وكان مركبا من كلمتين سمى متشابها إذا اتفقا فى الخط مثل قول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذا هبة   فدعه فدولته ذاهبة

ويسمى المفروق إذا اختلف اللفظان فى الخط مثل قول أبى الفتح البستى أيضا :

كلكم قد أخذ الجام ولا   جَـامَ لنَا

ما الذى ضر مدير الـ   جام لو جَامَلنَا

ويقول الخطيب القزوينى موضحا وجه الحسن فى الجناس التام قائلا :

« ووجه حسن هذا القسم — أعنى التام — حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة الإعادة »[115] .

ثانيا : غير التـام[116] وأنواعه :

أ ـ المحرف : وهو الذى يحدث فيه اختلاف فى هيئات الحروف أى فى التشكيل ، وقد يقع الاختلاف فى الحركة مثل قوله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

وقد يكون فى الحركة سكون مثل : البدعة شرك الشرك » .

ب ـ الناقص : وهو الذى يحدث فيه اختلاف فى عدد الحروف ، وله وجهان :

١ ـ مطرف : والاختلاف فيه بين اللفظين يكون بزيادة حرف واحد :

---

(١١٥) الايضاح جـ ٦ ص ٩٤ .
(١١٦) الايضاح جـ ٦ ص ٩٤ .

في أوله : مثل « والتف الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق »

او في وسطه : مثل : جدى وجهدى

أو في الاخر : كقول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

ووجه حسن هذا النوع من الجناس الناقص (المطرف) كما يقول القزويني : « أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم أنها هي التي مضت، وإنما أتى بها للتوكيد حتى إذا تمكن آخرها في نفسك ودعاها سمعك انصرف عنك ذلك التوهم ، وفي هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها[١١٧] .

٢ ـ المذيل : والاختلاف فيه بين اللفظتين يكون بزيادة أكثر من حرف واحد ، كقول الخنساء .

إن البكاء هو الشفا ء عن الجوى بين الجوانح

جـ ـ المضارع : ويكون باختلاف بين اللفظين بحرف في كليهما ، ويكون الحرفان متقاربين . وقد يكون الاختلاف في الأول مثل قول الحريري « بيني وبين كني ليل دامس وطريق طامس » ، كما قد يكون في الوسط كقوله تعالى : « وهم ينهون عنه ، وينأون عنه » . أو في الآخر كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

د ـ اللاحق : والاختلاف فيه بين حرفين غير متقاربين مثل :

في الاول : كقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة »

وفي الوسط : كقوله تعالى : « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون » .

---

(١١٧) الايضاح جـ ٦ ص ٩٦ .

هـ ـ جناس القلب : والاختلاف فيه بين اللفظين فى تركيب الحروف ، وهو نوعان :

ـ قلب الكل : قلب الكل . مثل . « حسامه فتح لأوليائه ، حتف لاعدائه »

٢ ـ قلب البعض : مثل . « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا »

ويلحق البلاغيون بالجناس شيئين(١١٨) .

احدهما : أن تجمع الجناس الاشتقاق .

مثل قوله تعالى . « فأقم وجهك للدين القيم » .

وقوله تعالى . « فروح وريحان » .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم . « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وكقول البحترى .

يمشى عن المجد الغبي ولن ترى　　فى سؤدد أربا لغير أريب

الثانى : أن يجمعهما المشابهة ، وهو ما يشبه الاشتقاق وليس به .

كقوله تعالى .

« اثاقلتم الى أرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » :

وكقوز البحترى .

إذا ما رياح جودك هبت　　صار قول العذول فيها هباء

* * *

ب ـ الترديد :

وهو لون بديعى يعتمد على الناحية اللفظية ، ويكون بالإتيان بلفظة متعلقة بمعنى ثم يرددها الشاعر بعينها متعلقة بمعنى آخر . فى البيت نفسه أو فى قسيم منه(١١٩) ومن ذلك قول زهير .

---

(١١٨) الايضاح جـ ١ ص ١٠٠ .
(١١٩) العمدة جـ ١ ص ٣٣٣ .

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

فعلق (يلق) بهرم ، ثم علقها بالسماحة

وكقوله أيضا

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ومثل قول مجنون بنى عامر :

قَضَاها لغيْري وابْتَلانِي بحبِّها فَهَلاَّ بشيء غير لَيْلَى ابْتَلاَنِيا

مثل :

أنت عُذْرِي إذَا رأَوْكَ ، ولكن كيف عذرى إذا رأَوْكَ تخُون[120]

وهذا اللون البديعى له أثر صوتى يشبه الأثر الذى يتركه الجناس لأنه يقوم على ترديد الأصوات ، ويحسن هذا اللون فى المواضع التى يحسن فيها الجناس أى أنه يستعذب إذا لم يصبه التكلف والإسراف . وقد عابوا على المتنبى ولوعه بهذا اللون لأنه قد أسرف فى استخدامه ، حتى مقته وزهد فيه ، كما يقول ابن رشيق القيروانى[121] .

جـ ـ التصدير ، أو رد اعجاز الكلام على ما تقدمها :

وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافى الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة . والتصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافى تردّ على الصدور ، أما الترديد فانه يقع فى ثنايا البيت ،[122] وذكر ابن المعتز هذا اللون تحت اسم (رد أعجاز الكلام على ماتقدمها)وقد قسم ابن المعتزهذا اللونثلاثة أقسام .

احدهما : ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة فى نصفه الثانى مثل :

---

(١٢٠) العمدة جـ ١ ص ٣٣٢

(١٢١) العمدة جـ ١ ص ٣٣٥ .

(١٢٢) العمدة جـ ٢ ص ٣ ـ ص ٥ .

تلقى إذا ما الأمر كان عَرَمرَماً   فى جيش رأى لا يفُلُّ عَرَمْرمِ[١٢٣]

الثــانى : ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة من نصفه الاول مثل :

سَريعٌ إلى ابن العَمِّ يشتِمِ عِرْضَه   وليس إلى داعى النَّدَى بسريع

الثــالث : ما وافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه مثل :

عميدُ بنى سليْم أقصدتْه   سهامُ الموت ِ وَهْىَ له سهامُ

ومن أمثلة التصدير المستحسنة قول جرير :

سَقَى الرملَ جونٌ مستهلٌ ربابُه   وما ذاك الاحبُّ من حلَّ بالرَّملِ

وقول طفيل الغنوى :

رَمَيْنا رِمَاكَ اسْتَمِهْا من القومِ ، إنَّنِى   أرَى جَفْنَةً قد ضاعَ فيها المحارمُ

وفى الفرزدق :

أصْدِرْ همومَك لا يغلبك واردها   فكلُّ واردةٍ يوما لها صَدَرُ

ويتمثل ببيت الفرزدق الأخير على نوع من التصدير يسمى المضادة[١٢٤] .

د ــ التقســـيم :

ويذكر ابن رشيق أن الناس قد اختلفوا فى التقسيم :

١ ــ يراه بعضهم أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به ، كقول بشار يصف هزيمة :

---

(١٢٣) كتاب البديع لابن المعتز ص ٥٥ ــ ص ٥٧ ، انظر العمدة جـ ٢ ص ٥٠٣ ــ رواية العمدة للبيت الاول :

يلقى اذا ما الجيش كان عرمرما   فى جيش رأى لا يفل عرمرم

ويروى الثانى :

عزيز بنى سليم أقصدته   سهام الموت وهى له سهام

(١٢٤) العمدة جـ ٢ ص ٤

بضرب يذوقُ الموتَ من ذاقَ طعمَهُ ... ويدرك من نجىّ الفرارُ مثالبه

فراحَ فريقٌ فى الأسارى ، ومثلهُ ... قتيل، ومثلٌ لاذ بالبحرِ هاربه

فالبيت الأول قسمان : إما موت ، وإما حياة تورث عارا ومثلبة ، والبيت الثانى ثلاثة أقسام : أسير ، وقتيل ، وهارب ، فاستقصى جميع الأقسام ،ولا يوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ماذكر [١٢٥] .

٢ — ونوع آخر يقوم على جميع الأوصاف وهو مايسمى بجمع الأوصاف أو التعقيب مثل قول عمرو بن شأس :

مدمج سابغ الضلوع طويل الشـ ... ـخص عبل الشوى عم الأعالى

وقول أبى دؤاد الايادى :

بعيدُ مدَى الطرف خاظى البضيع ... عم المطـــا سمهرىّ القصَب

٣ — ومن ألوان التقسيم التقطيع ، ويسمى أيضاً التفصيل مثل :

بيض مفارقنا ، تغلى مراجلنا ... نأسو بأموالنـــا آثارَ أيدينا

وقول البحترى :

قف مشوقا، أو مسعدا، أو حزينا ... أو معينا ، أو عاذرا ، أو عذولا

وكقول المتنبى :

فيا شوقَ ماأبقى،ويالى من النوى ... ويادمع ماأجرى،وياقلب ماأصبى

فجاء على تقطيع الوزن ، كل لفظتين ربع بيت .

وكقوله أيضاً :

للسبىَ ما نكحوا،والقتل ماولدوا ... والنهب ماجمعوا،والنار مازرعوا [١٢٦]

---

(١٢٥) العمدة جـ ٢ ص ٢٠ — ص ٢١ .
(١٢٦) انظر العمدة جـ ٢ ص ٢٦ ، وديوان المتنبى .

٤ ــ ومن أنواع التقسيم الهامة والمشهورة مايعرف باسم الترصيع :

الترصيع :

ويكون بتقطيع الأجزاء مسجوعة أو شبيهة بالمسجوع ، ولقد جعله قدامة ابن جعفر من نعت الوزن ،وفضله وأطنب فى وصفه ، ويعرف قدامة هذا اللون البديعى بقوله: «هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به ،أو من جنس واحد فى التصريف »[١٢٧] كما يرى قدامة أن الترصيع يحسن إذا اتفق فى البيت موضع يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضاً إذا اتصل فى الأبيات كلها بمحمود ، لأنه فى نظره يدل على تعمد وتكلف »[١٢٨] ومن أمثلة هذا اللون قول الخنساء :

حامى الحقيقة ، محمودُ الخليقة مه ... دى الطريقة ، نفّاعٌ وضرار

جوّابُ قاصيةٍ ، جرّار ناصية ... عقّادُ ألويةٍ ، للخيل جرارُ

وكقول الكميت بن زيد :

كالناطقات الصادقا ... ت الواسقات من الذخائر

ومثل قول أبى تمام :

تجلىَّ به رشدى، وأثرتْ به يدى ... وفاض به ثمدى، وأورى به زندى

وكقوله أيضاً :

تدبير معتصم ، بالله منتقم ... لله مرتقب ، فى الله مرتغب

أما إذا كثر فإنه يقبح لما فيه من التكلف مثل قول أبى صخر الهذلى[١٢٩] :

عَذبٌ مقبلها ، جدْلٌ مخلخلُها ... كالدِّعص أسفلها ، مخصورة القدم

سود ذوائبها ، بيض ترائبها ... محض ضرائبها، صيغت على الكرم

---

(١٢٧) انظر نقد الشعر الفصل الثانى ، سر الفصاحة ص ١٨١ ، العمدة ج ٢ ص ٢٦ .

(١٢٨) نقد الشعر ص ٦٤ ــ ص ٦٥ .

(١٢٩) سر الفصاحة ص ١٨٣ .

عبل مقيدها ، حال مقلدها بض بجردها ، لفاء فى عمم
سمح خلائقها ، دُرْم مرافقها يُرْوى معانقها ، من بارد شبم

وتوالى هذا اللون يزيل الحسن عنه ، أما إذا أفردت الأبيات ، أو ورد هذا اللون قليلا فان الحسن يلازمة .

ومن أمثلة ذلك فى النثر قول أبى البصير فى بعض كلامه: « حتى عاد تعريضك تصريحا ، وتمريضك تصحيحا »(١٣٠) .

وقدامة بن جعفر يفصل بين الترصيع والتقسيم ، ويرى أن صحة التقسيم نعت لجميع المعانى الشعرية ويعرفها بقوله : « وهى أن يبتدىء الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولا يغادر قسما منها »(١٣١) .

ومن أنواع التقسيم القبيح مايجمع بين التقسيم والتقطيع كالذى فعله بعض الشعراء كالعميثل الأعرابى :

فاصدق وعفْ وجدوأنصف واحتمل واصفح ودارِ وكاف واحلم واشجع
والطف ولنْ وتأنَّ وارْفق واتئد واحزم وجدوحام وأحمل وادفع

وكقول أبى الطيب :

أقل أنل اقطع احمل علّ سلّ أعد زِدهش بش تفضّل إدنُ سرّ صل

ومثلة قوله أيضاً :

عش ابق اسمُ سُد قدْ جدْ مر أنْه رهْ فه أسر نل
غِظ أرم ِصب احم أعْزُ أسب رُعْ زَعْ دِ لِ اثن بل

ولقد وصف ابن وكيع البيت الأخير برقية العقرب وذلك كما يحدثنا ابن رشيق(١٣٢) الذين يرى أن أمرأ القيس هو الذى قد أوحى لهم بذلك ، وذلك عندما قال :

---

(١٣٠) سر الفصاحة ص ١٨٢ .
(١٣١) نقد الشعر ص ٧٨ ـ ص ٧٩ .
(١٣٢) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ .

أفادَ فجاد ، وشاد فزاد   وقاد فذاد ، وعاد فأفضلْ

ونحن نرى أن أعذب ألوان التقسيم التى تترك فى الاذن صوتا موقعا مقبولا هما نوعان، الأول الترصيع الذى لا يؤدى إلى التكلف وذلك عندما يأتى بغير تعمد ولا يتوالى فى البيت، وذلك مالاحظه قدامة بن جعفر كما أشرنا إلى ذلك ،أما النوع الثانى الذى يتعلق بالاثر الصوتى المستعذب هو مايقوم على تقطيع الوزن بشرط ألا يؤدى إلى التكلف أو التقطيع السمج كالذى رأيناه فى أبيات العميثل الاعرابى ، وأبى الطيب المتنبى ، أما باقى أنواع التقسيم فلاصلة لها تقريبا بالإيقاع العذب .

ومن الألوان البديعية التى لها ارتباط ملحوظ بالجرس والموسيقى :

هـ ـ السجع والازدواج :

وهو لون بديعى قديم ، وقد أدرك الأدباء والنقاد أثره منذ الجاهلية فى أسماع الناس ، وقد ارتبط ذكره بالكهان والخطباء فى العصر الجاهلى ، ويبدو أن الكهان الجاهليين قد اتخذوه أداة فى كلامهم للتأثير فى مستمعيهم لما له من أثر صوتى جذاب ينتج عنه تماثل الاصوات فى مقاطع الفواصل ، وخاصة عندما يحدث التزاوج بين الجمل فى الشرط والجزاء . كما يبدو أن الكهان قد أسرفوا فى استخدام السجع مما جعله مرتبطا بهم وبما يتعلق بهم من وثنية ، مما دفع النبى صلى الله عليه وسلم إلى النهى عن التمثل بكلام الكهان أو بالكلام المسجوع المشابه له ، فلقد نقل ابن منظور عن الازهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قضى فى جنين امرأة ضربتها الاخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف نَدِى من لاشرب ولاأكل ، ولاصاح فاستهل ، ومثل دمه يُطَلّ فقال صلى الله عليه وسلم : إياكم وسجع الكهان[١٣٣] .

---

(١٣٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٨٧ ويروى الجاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لقائل هذه العبارة « أسجع كسجع الجاهلية ؟ » وانظر اعجاز القرآن للباقلانى ص ٩٠ .

ويرى ابن الأثير أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة ، ولاقيمة للكلام المسجوع إلا به ، وهذا السر الذى لم ينبه عليه أحد قبل ابن الأثير هو « أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها ، فإن كان المعنى فيها سواء ، فذاك هو التطويل بعينه ، لأن التطويل هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليها بدونها »[١٣٤] كما يرى ابن الأثير أن جل كلام الناس المسجوع جاء على هذ النمط من السجع الذى يسميه التطويل ، وفى رأيه أيضاً أن أكثر المسجوع عند المفلقين كالصابى وابن العميد وابن عباد من هذا النوع ، وأن القليل من سجعهم هو الذى يتوافر فيه ذلك السر الذى صرح به[١٣٥] .

وشروط الكلام المنثور عند ابن الأثير يمكن أن نوجزها فيما يلى[١٣٦] :

١ — اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذى أشار إليه .

٢ — اختيار التركيب .

٣ — أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى ، لا المعنى تابعاً للفظ .

٤ — أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها .

وأنواع السجع عند ابن الأثير ثلاثة[١٣٧] :

١ — أن يكون الفصلان متساويين لايزيد أحدهما على الآخر كقوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر . . » وقوله تعالى . « والعاديات

---

(١٣٤) المثل السائر ج ١ ص ١٩٣ .
(١٣٥) المثل السائر ج ١ ص ١٩٣ .
(١٣٦) انظر المثل السائر من ص ١٩٣ — ٢٣٧ .
(١٣٧) المثل السائر من ص ٢٣٨ — ص ٢٤١ .

ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا » .

وهذا النوع المتساوى الأجزاء أشرف السجع فى نظر ابن الأثير للاعتدال الذى فيه .

٢ — أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، لاطولا يخرج به عن الاعتدال خروجا كثيراً مثل قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، فالفصل الأول ثمانى لفظات والفصل الثانى والثالث تسع تسع .

ويستثنى من هذا القسم ماكان السجع على ثلاث فقر ، فان الفقرتين الأوليين يحسبان فى عدة واحدة ، والثالثة ينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد عليهما ، فإذا كانت الأولى أربع لفظات والثانية مثلها ، تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة ، مثال ذلك : « الصديق من لم يعتض عنك بخالف ، ولم يعاملك معاملة حالف ، وإذا بلغته أذنه وشاية ، أقام عليها حد سارق أو قاذف » .

فالأولى أربع لفظات ، والثانية مثلها ، والثالثة عشر لفظات .

٣ — أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهذا النوع عند ابن الأثير عيب فاحش ، وسبب ذلك كما يقول : « أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيراً عن الأول ، فيكون كالشىء المبتور ، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها »[١٣٨] .

---

(١٣٨) المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

والسجع عند ابن الأثير مقسم إلى ضربين [١٣٩] هما :

الأول : الاول يسمى السجع القصير : وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، كلما قلت الألفاظ كان فى نظره أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، وهذا النوع نادر ، بعيد المنال ، مثل قوله تعالى : « والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا » ومثل قوله تعالى أيضا : « يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ... » .

ومنه مـــا يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ ، وأربعة وخمسة ، وكذلك إلى العشرة ، وما زاد عن ذلك فهو من السجع الطويل .

الثانى : يسمى السجع الطويل : وهو ضد الأول لأنه أسهل متناولا ، ودرجاته تتفاوت أيضا فى الطول ، فنه ما يقترب من السجع القصير ، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة ، إلى اثنتى عشرة لفظه ، وأكثره خمس عشرة لفظه .

ولقد آثرنا أن نعرض وجهات النظر فى السجع عرضا موجزا وسريعا ، ويهمنا أن نبين أثره أو علاقته بالأثر الصوتى الناتج عنه ، ونستطيع أن نقول :

إن السجع العفوى الذى لا يفسد المعنى يزيد الكلام بهجة وزينة ، لما له من أثر صوتى مستعذب ناتج عن التوافق الصوتى بين الكلمات فى الفواصل .

واقرب أنواع السجع إلى التأثير الصوتى الموسيقى ما جمـــع بين السجع والازدواج ، وأحسن تلك الأنواع التى تجمع بين السجع والازدواج هى مـا تكون فيه ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة ، فيكون الكلام سجعا فى سجع كما يقول أبو هلال العسكرى مثل قوله تعالى فى سورة الغاشية : « إنا إلينا إيابهم،

---

(١٣٩) المصدر نفسه ص ٢٤١ .

ثم إن علينا حسابهم» ،ومثل قول البصير: «حتى عاد تعريضا تصريحا ، وتمريضك تصحيحا .. » فالتمريض والتعريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر . ومن ذلك قول الصاحب : « لكنه عمد للشوق فأجرى جياده غربا و قرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا » وهذا النوع من السجع والازدواج يعد فى نظر أبى هلال من أحسن وجوهه وذلك إذا سلم من الاستكراه[١٤٠] .

وهناك نوع آخر من أنواع السجع والازدواج يصل إلى النوع السابق فى الحسن، وهو ما يكون فيه الجزآن متعادلين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مع اتصال الفواصل على حرف بعينه مثل قول الأعرابى : « سنة جردت ، وحال جهدت وأيد جمدت ،فرحم الله من رحم ، فاقرض من لا يظلم » فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان ، والفواصل على حرف واحد[١٤١] .

ويلى هذين النوعين نوع تكون فيه الأجزاء متعادلة ، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد كقول بعض الكتاب «إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم ،وكنت لا أوتى من ضعف سبب ،فكيف أخاف منك خيبة أمل ، أو عدولا عن اغتفار زلل ، أو فتورا عن لم شعث، أو قصورا عن إصلاح خلل»[١٤٢] .

ويحاول أبو هلال العسكرى أن يضع شروطا للجيد من السجع والازدواج ويمكن أن نلخص هذه الشروط فيما يلى[١٤٣] .

١ — أن تكون كل فاصلتين على حرف واحد ، أو ثلاث فواصل أو أربع، ولا يتجاوز ذلك حتى لا يؤدى إلى التكلف .

(١٤٠) كتاب الصناعتين ص ٢٦٩ .
(١٤١) كتاب الصناعتين ص ٢٦٨ .
(١٤٢) كتاب الصناعتين ص ٢٦٩ .
(١٤٣) كتاب الصناعتين ص ٢٦٩ ــ ص ٢٧٠ .

٢ ــ أن تكون الأجزاء متوازنة .

٣ ــ إن لم تكن الأجزاء متوازنة فينبغى أن يكون الجزء الأخير أطول.

٤ ــ ينبغى أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، فإن لم يمكن فينبغى أن تكون على حرف واحد ، ليقع التعادل والتوازن .

ولا يقتصر وقوع السجع فى النثر فقط بل يقع فى الشعر أيضا ، ولقد رأينا فيما سبق أن الترصيع يقوم على السجع داخل البيت ، كما رأينا أنه يستعذب إذا اتفق وقوعه فى موضع أو موضعين من القصيدة ، لكنه يستكره إذا توالى وكثر .

كما يقع السجع فى الشعر أيضا فيما يعرف بالمشطر وقد يسمى المقطع :

وهو لون قريب من الترصيع، ويقوم على التقطيع المصطحب بالسجع ، مثل قول سلم الخاسر فى مدح موسى الهادى:

موسى المطر . غيثٌ بكَر   ثم انهمر . ألوى المرر

كم اعتسر . ثم ايتسر   وكم قدر . ثم غفر

عدل السِّيَر . باقى الأثر   خَيْرٌ وشر . نفعٌ وضُر

خير البشر . فَرْعُ مُضَر   بدرٌ بَدر . والمفتخر

لمن غبر

وكقول مسلم بن الوليد فى قصيدته التى يمدح بها يزيد بن مزيد الشيبانى :

موف على مهجٍ فى يوم ذى رهجٍ   كأنه أجل ، يسعى إلى أمل

وكقول أبى تمام :

تدبير معتصمٍ ، بالله منتقم   لله مرتقب ،فى الله مرتغب

وهذان البيتان يمكن أن يكونا مثلين للترصيع .

ومن السجع فى الشعر أيضا ما يسمى التشريع :(١٤٤) .

ويقوم هذا اللون البديعى على إضافة قافية داخلية إلى جانب القافية التى فى نهاية البيت ، ويمكن الوقوف على كل منهما مع تمام المعنى وصحته مثل قول الحريرى :

يا طالب الدنيا الدنية إنها شرك الردى ، وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا ، بعدا لها من دار

غاراتها لا تنقضى ، وأسيرها لا يفتدى ، بجلائل الأخطار

ومن السجع فى الشعر أيضا ما يسمى التسميط :

وهو أن يبتدى الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما واحدا من جنس ما ابتدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة مثال ذلك قول امرىء القيس والتى يقال عنها منحولة :

توهمتُ من هند معالم أطلال عفاهنَّ طولُ الدهر فى الزمن الخالى

مرابع من هند خلت ومصايفُ يصيح بمغناها صدًى وعوازف

وغيّرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هطالِ

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء ، ثم يكرر قسيما على قافية اللام ، ويقول ابن رشيق : إن المسمط ربما كان بأقل من أربعة أقسمة مثل قول أحدهم(١٤٥) .

خيال هاج لى شجنا فبتّ مكابدا حزنا

عميد القلب مرتهنا بذكر اللهو والطرب

سبتنى ظبية عطلٌ كأن رضابها عسل

(١٤٤) انظر الصيغ البديعى فى اللغة العربية ص ٤٩٧ ، موسيقى الشعر ص ٤٨ .

(١٤٥) العمدة جـ ١ ص ١٧٨ ـ ص ١٧٩ .

ينوء بخصرها كفـل ثقيل روادف الحقب

ويرى ابن حجة الحموى أن التسميط يكون فى البيت الواحد ، ويعرّفه بقوله:

« هو أن يجعل الشاعر كل بيت يسمطه أربعة أقسام ، ثلاثة منها على سجع واحد بخلاف قافية البيت الذى ورد فى بديعيته وهو:[١٤٦] .

تسميط جوهره يلق بأبحره ورشف كوثره روى لكل ظم

ويرى ابن حجة فى شرحه على بديعيته المسمى(خزانة الأدب) أن هناك نوعا آخر من التسميط يسمى تسميط التقطيع :وهو أن تسجع جميع أجزاء التفعيل على روى يخالف القافية مثل قول ابن أبى الأصبع[١٤٧] .

وأسمر مثمر من مزهر نضر من مقمر مسفر عن منظر حسن

ويورد ابن حجة نوعا آخر من السجع فى الشعر يسميه « التجزئة » ويفسرها بقوله : هى أن يأتى المتكلم ببيت ويجزئه جميعه أجزاء عروضية ، ويسجعها كلها على وزنين جزءا بجزء ، أحدهما على روى يخالف روى البيت ، والثانى على روى البيت ،[١٤٨] ومثال ذلك بيت بديعيته :

وزّيت فى كلمى جزأت من قسمى أبديت من حلمى جليت كل عم

وهذا النوع قريب مما ذكرناه عن المقطع والمشطر .

وما قد يسميه البعض سجعا ، يطلق على مسميات أخرى ، وخاصة فى الشعر ، بل إن بعض الباحثين يقصرون السجع على الكلام المنثور فقط كما فعل ابن الأثير وذلك عندما حدد السجع بقوله : « تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد ، ويرى أن ما يقع فى الشعر مما يشبه السجع فى النثر هو التصريع الذى يقول عنه : « .. يختص بالكلام المنظوم ، وهو داخل باب السجع ، لأنه فى الكلام

(١٤٦) خزانة الأدب ص ٥٣٠ ـ ص ٥٣١ .
(١٤٧) خزانة الأدب ص ٥٣٠ ـ ص ٥٣١ ، الصبغ البديعى ص ٤٣٦ .
(١٤٨) خزانة الأدب ص ٥٣٢ .

المنظوم كالسجع فى الكلام المنثور ». [١٤٩]

ويحدد ابن الأثير التصريع بقوله . « التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته فى الشعر أنه قبل كمال البيت من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبّه البيت المصرع بباب له مصرعان متشاكلان . [١٥٠] ويمضى ابن الأثير فى تقسيم التصريع إلى درجات مرتبة على حسب استقلال المصراع عن أخيه فى المعنى حتى يصل فى ذلك إلى سبع درجات .

وما يراه أصحاب البديع من ألوان بديعيه داخلة فى السجع يراه النقاد والبلاغيون المحدثون ضمن علم العروض والقافية ، وذلك مثلا لاحظ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هداره على قصيدة سلم الخاسر التى مدح فيها موسى الهادى ، فبينما صنفها البديعيون كشاهد للمشطر أو المقطع الذى يعتبرونه لونا من ألوان السجع ، فإن أستاذنا الدكتور هدارة يراها من الشواهد النادرة التى تدل على تطور الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، وهى قصيدة قائمة على وحدة التفعيلة ، والكلمة التى يعتبرها البديعيون سجعا هى فى الحقيقة قافية البيت الذى يقوم على التفعيلة الواحدة . [١٥١] ومعنى هذا أن ما فعله سلم الخاسر فى قصيدته هذه قد سبق ما ينادى به الشعراء المجددون فى العصر الحديث لكن الفرق بين ما فعله الشاعر العباسى وبينهم أنه يلتزم بالتفعيلة الواحدة فى كل الأبيات ، أما المحدثون فإنهم يتحللون من هذا الالتزام عندما لايتقيدون بعدد التفعيلات داخل البيت الواحد ، فبينما يلتزم سلم الخاسر فى كل سطر بـ (مستفعلن) واحدة نجد المحدثين يجعلون البيت الواحد (مستفعلن) أو (مستفعلن مستفعلن) أو

---

(١٤٩) المثل السائر جـ ١ ص ١٩٣ .
(١٥٠) المثل السائر جـ ١ ص ٢٤١ .
(١٥١) انظر اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٥٤١ .

(مستفعلن مستفعلن مستفعلن) أو أكثر من ذلك . على قدرا كتمال المعنى الذى يريدون التعبير عنه .

ونرى أيضا أن أصحاب البديع قد توسعوا فى السجع عندما ضموا اليه التسميط وما يعرف بالتشريع، فلا يصح أن يدخلا فى السجع لأننا نرى ما يراه ابن الأثير الذى يخص السجع بالنثر ، ولقد لاحظ ذلك أستاذنا الدكتور هدارة عندما تحدث عن تطور الأوزان والقوافى فى القرن الثانى الهجرى وعلله بالملل الذى دفع الشعراء إلى استحداث ألوان جديدة من الإيقاع الشعرى ، فنشأ فى ذلك العصر ضربان هما :

الأول : كان بتقفية المصراعين على قافية واحدة .

الثانى : وهو أندر ، كأن يجعل كل خمسة مصاريع فى المقطوعة على قافية واحـدة .

وبهذا وجدت المقطوعات ذات البيتين والخمسة، وأطلق على الأولى (المزدوجة) وأطلق على الثانية (المخمسة)[١٥٢] .

وصور اختلاف القافية التى يضعها البديعيون فى السجع أو غيره ، إنما هى ألوان موسيقية مبتدعة بها ألوان من الطرافة أو الصنعة المقصودة والذى يهمنا من هذه الصور أو الألوان البديعية المختلفة هو ما تحدثه من أثر موسيقى مستعذب .

وبعد ، فهذه الألوان البديعية التى استهدف بها البلاغيون تحسين الكلام من الناحية اللفظية إنما ترجع أهميتها الى ماتحدثه من أثر صوتى مستعذب نتج عن تجانس الاصوات وحسن تنظيمها، ومراعاة نسبة ورودها، والاحوال التى تقبل

---

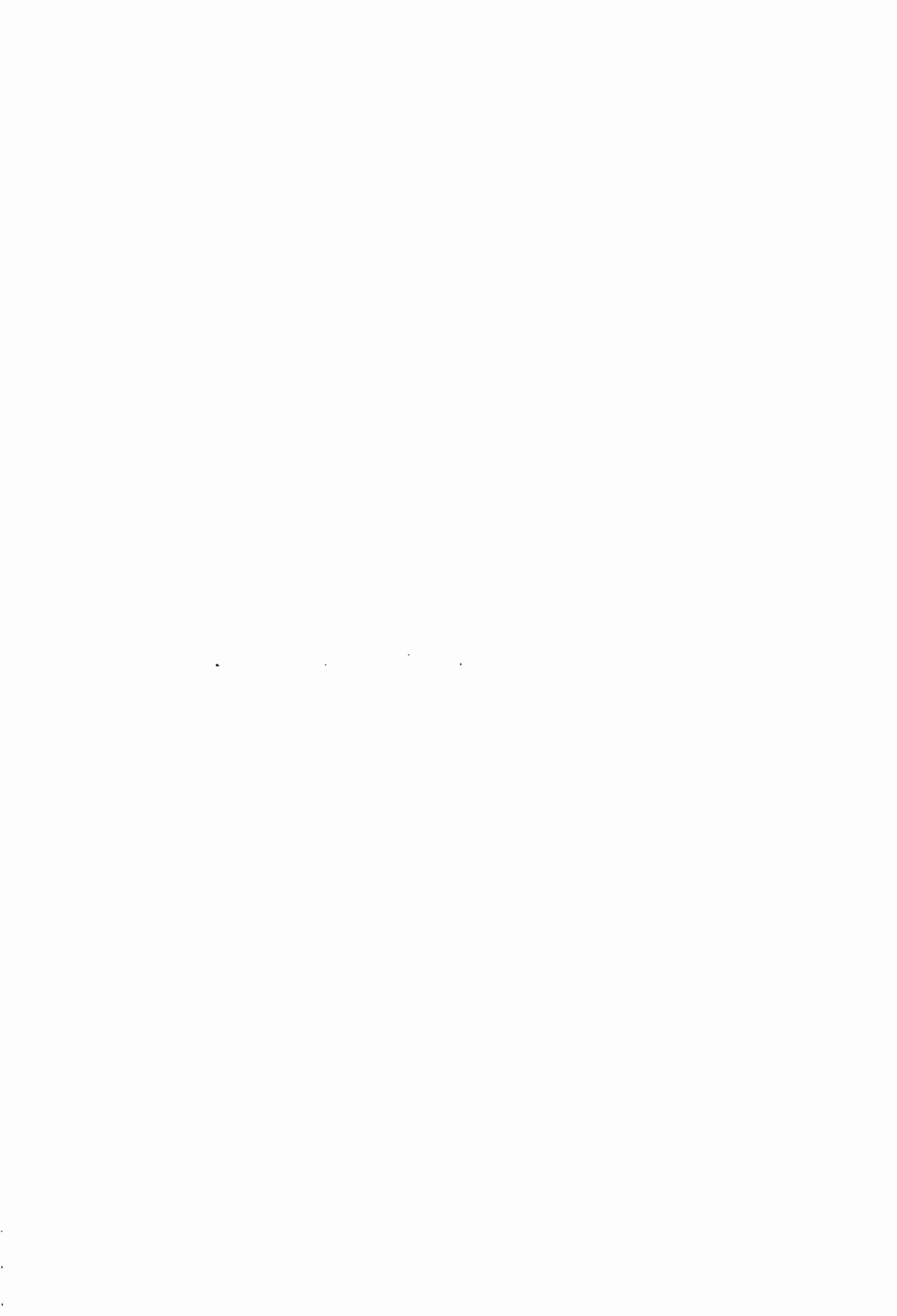
(١٥٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٥٤٢ ـ ص ٢٤٣ .

فيها قبولا حسنا ، فتكون بريئة من التكلف والإسراف ، غير مخلة بمقومات الكلام الأخرى كالمعنى والخيال والعاطفة والتركيب الصحيح . وللمحسنات البديعية اللفظية صلة وثيقة بالموسيقى لما ينتج عند انتظامها من إيقاع قائم على تكرار المقاطع الصوتية المتشابهة ، ومن التقطيع الصوتي الممتاز لسلاسل الكلام المتصل. وكل ذلك يمكن يصنف في الجرس والموسيقى . ولم نشأ أن نفصّل القول في موسيقى الشعر فيما يتعلق بالوزن والقافية وغيرها ، وإنما قد أشرنا إلى ما يتعلق بالأصوات اللغوية في إطار ما يتصل بالفصاحة .

ومما يجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى شيء آخر له صلة بالأصوات والفصاحة معا ، ونقصد به العلاقة بين الصوت ومعناه أو ما يسمى بالحكاية الصوتية : ولكننا نرى أن إرجاءه إلى الفصل الذي سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم المعنى أكثر ملاءمة وتجنبا للتكرار الذي يحتمل وقوعه .

الفصل الثاني

علاقة الفصاحة بقواعد النحو والصرف



علاقة الفصاحة بقواعد النحو والصرف

تتخذ العلاقة بين الفصاحة وقواعد النحو والصرف مظاهر كثيرة، لكننا سنحاول أن نجمل هذه العلاقة فى مظهرين شاملين، ونعنى بهما :

١ ـ الخلوص من مخالفة القياس اللغوى

٢ ـ الخلوص من ضعف التأليف

وهما مستخلصان من التعريف الذى استقر فى أذهان البلاغيين عن الفصاحة.

والمظهر الأول مستخلص من التعريف الخاص بفصاحة المفرد، أما الثانى فهو مأخوذ من التعريف الخاص بفصاحة المركب. وتحت هذين المظهرين يمكننا أن نصنف مظاهر أخرى للعلاقة بين الفصاحة وقواعد النحو والصرف.

أولا : الخلوص من مخالفة القياس اللغوى

ذكرنا فيما سبق أن البلاغيين قد اصطلحوا على أن فصاحة المفرد هى خلوصه من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس اللغوى، فما المراد بالقياس اللغوى فى نظرهم . . . ؟

يرى صاحب عروس الأفراح أن المراد بالقياس اللغوى هو قياس التصريف،[١] وهو ما ذهب اليه صاحب مواهب الفتاح أيضا حيث يقول: «والمخالفة التى هى كون الكلمة غير جارية على القانون الذى يتقرر به حكم المفردات اللغوية، والمفردات اللغوية يتقرر حكمها بالقانون التصريفى، فإذا اقتضى قلب الياء ألفا مثلا فوردت الكلمة بخلاف ذلك فقد خرجت عن القانون فتكون غير فصيحة».[٢] ويؤكد ابن يعقوب المغربى هذا المفهوم فى موضع آخر حين يقول: «..

---

(١) شروح التلخيص ص ٧٧ .
(٢) شروح التلخيص ص ٨٨ .

من تلك الأمور المنافية للفصاحة التى يتوقف تمييز الفصيح من غيره على إدراكها مابين علم التصريف كمخالفة القياس فى بنية الكلمة ، إذا به يعرف أن الأجلال بفك الإدغام مخالف للقياس ، وإنما القياس بالإدغام .» [٣]

لكن هذا المفهوم الضيق يتسع عند رجل كالخفاجى ليشمل النحو والصرف، فهو يشترط أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة ، ويرى أن هذا الشرط يضم كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة ، ولقد ذكرنا فيما سبق صورا للمخالفة والشذوذ كما رآها الخفاجى [٤] ، وابن سنان لم يذكر مصطلح القياس ليصنف فيه الموافقة والمخالفة للعرف العربى، ومع ذلك فإنه يتفق مع اللغويين فى المعنى الذى استقر عليه القياس.

وفى الحقيقة أن القياس لم يصلب عوده إلا على يد أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى، وكان اللغويون قبل ذلك بعضهم يأخذ بالقياس وأكثرهم يأخذ بالسماع، وخاصة فى القرنين الأول والثانى . وكان الرواة فى هذه الفترة يقومون بجمع اللغة عن طريق السماع من أصحابها ، وكانوا يجوبون الصحراء ، ويذهبون إلى سوق المربد ، وينتظرون الوفود القادمة من الصحراء ليسمعوا منهم ويحفظوا عنهم . وقد سلك أولئك اللغويون فى جمع اللغة الطريق الذى اتخذه الفقهاء فى جمع الحديث [٥]، ويرى ابن جنى أن اللغويين والنحاة قد استفادوا من علل المتفقهين وعلل المتكلمين ، ولقد تأثر اللغويون بعلل الفقهاء والمتكلمين معا إلا أن تأثرهم بعلل المتكلمين أكثر . . وذلك أنهم يحيلون على الحس ، ويحتجون فيه

---

(٣) شروح التلخيص ص ٨٩ ــ ص ٩٠ .

(٤) سر الفصاحة جـ ٥ ص ٦٧ ــ ص ٧٥ .

(٥) انظر المزهر جـ ١ ص ١١٣ ــ ص ١٧١ فيما كتبه عن المتواتر والآحاد والمرسل والمنقطع ، وما كتبه عن الثقات وغير الثقات ، وما يتصل بقواعد الجرح والتعديل فى اللغة .

بثقل الحال أو خفتها على النفس، وليس كذلك حديث علل الفقة . . . »[٦] لكنه يصرح مرة أخرى بهذه الاستفادة، ولذلك عندما ذكر كتب الفقه المنسوبة إلى محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة فيقول : « . . . إنما ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها منثورة فى أثناء كلامه فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق[٧] .

ونستطيع أن نلمح سلطان أصحاب السماع فى القرنين الأول والثانى وذلك من خلال ما يروى عنهم من أخبار فى كتب اللغة والأدب، ومن هؤلاء أبو عمرو ابن العلاء الذى كان أشد تسليما للعرب كما يقول ابن سلام.[٨] ويذكر ابن رشيق القيروانى أنه امتنع عن رواية شعر جرير والفرزدق مع إعجابه بشعرهما « . . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته، يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق، لجعله مولداً بالاضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لايعد الشعر إلا ماكان للمتقدمين »[٩] .

ومن هؤلاء أيضا الاصمعى الذى كان يعارض القياس، ويصرح ابن جنى بهذا عندما يقول: « . . والاصمعى ليس ممن ينشط للمقاييس، ولا لحكاية التعليل»[١٠] ويصفه ابن جنى فى موضع آخر بأنه قليل الانبعاث فى النظر، وأنه يتوفر فقط على مايروى ويحفظ .[١١] ويذكر ابن جنى أن الخليل قد يئس من أن يعلمه

---

(٦) الخصائص جـ ١ ص ٤٦ .
(٧) الخصائص جـ ١ ص ١٦٣ .
(٨) طبقات فحول الشعراء ص ١٥ .
(٩) العمـدة جـ ١ ص ٩٠ .
(١٠) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٦ .
(١١) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٧ .

العروض وأن ذلك قد تعذر على الأصمعى ، وبعد عنه فقال له يوما : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئا فدَعْه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعى أن الخليل قد تأذى ببعده عن علم العروض ، فلم يعاوده فيه [١٢] .

ولذلك نجد الأصمعى يعارض القياس حتى فى الأشياء التى شاع فيها القياس ، وارتضاها اللغويون ومثال ذلك ما يورده ابن جنى عن اعتراضه على قياس اسم المكان والمصدر على وزن المفعول فى الرباعى، فيقول ابن جنى : ومن ذلك قول أصحابنا أن اسم المكان والمصدر على وزن المفعول فى الرباعى قليل ، إلا أن نقيسه وذلك نحو المُدَحْرج، تقول دحرجته مدَحْرَجا ،وهذا مدحرجنا ..» ويقول ابن جنى : إن الأصمعى قد اعترض على كلمة (مسحجاً) التى وردت فى جيمية العجاج وذلك عندما قرأها عليه أبو حاتم :

« جاباً تَرى بليته مُسَحَّجاً »

كما اعترض على المصدر الميمى أيضاً فى كلمة (مسرجى) فى بيت جرير :

ألم تعلم مُسَرَّجى القوافى فلا عيّا بهن ولا اجتلابا

ولم يمسك الأصمعى إلا بعد أن أفحمه أبو حاتم بقوله الله تعالى. « ومزقناهم كل ممزق » . [١٣]

وكان من الطبيعى أن تقوم فى ذلك الوقت الذى نشط فيه القياس والسماع معا ــ خصومات بين أصحابهما ، وامتدت الخصومات إلى الأدباء والشعراء ، ومن أمثلة ذلك ما كان بين عبد الله بن أسحق الحضرمى والفرزدق ، وعبد الله

---

(١٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٧ .
الخصائص جـ ١ ص ٣٦٧ .

ابن اسحاق هذا هو الذى وصفه ابن سلام بأنه « أول من بعج النحو ومد القياس والعلل »[١٤] ويروى أن ابن اسحق قد أخذ بعض المآخذ على شعر الفرزدق لمخالفته القياس ، ومن ذلك قول الفرزدق :

وعضُّ زمانٍ يابن مروان لم يَدع   من المال إلا مسحتاً أو مجلَّفُ

ويذكر الرواة أن ابن إسحاق قد سأل الفرزدق قائلا : على أى شيء ترفع (مُجَلَّف) فرد عليه الفرزدق : « على مايسوءك وينوءك » ، وهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى مواليا[١٥]

وكلمة (مواليا) على النصب فى بيت الفرزدق تخالف القياس ، لكننا نعتقد أن الفرزدق قد تعمد أن يأتى بها على هذا الوجه حتى يستثير ابن أسحق ، ويذكر ابن جنى أن الفرزدق كان يلغز بالأبيات ، ويأمر بإلقائها على ابن اسحاق[١٦] ويورد ابن جنى بيت الفرزدق برواية أخرى هى :

وعضُّ زمانٍ يابن مرْوان لم يَدِعْ   من المال إلا مُسْحتٌ أو مجلفُ

ويقول : معنى لم يَدِعْ بكسر الدال أى لم يتدع ولم يثبت، والجملة بعد زمان فى موضع جر لكونها صفه له ، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه وتقديره: لم يَدِعْ فيه أو لأجله من المال الإمسحت أو مجلف ، فيرتفع مسحت بفعله ، ومجلف عطف عليه . وهذا أمر ظاهر ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ماق الرواية الأخرى[١٧] .

وابن جنى لم يذكر بيت الفرزدق لينقض به الرواية التى وردت فيها كلمة

---

(١٤) طبقات فحول الشعراء ص ١٤ .
(١٥) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لأبى البركات الانبارى ص ٢٥ ط حجر .
(١٦) الخصائص جـ ١ ص ٣٧٤ .
(١٧) الخصائص جـ ١ ص ١٠٤ .

(مسحت) منصوبة وإنما قد أورده ليستشهد على أن (وَدَع) الذى مضارعه (يَدَع) لا يستعمل منه الماضى ، مع أنه مطرد فى القياس، لكنه شاذ فى الاستعمال وهذا الفعل (وَدع يدَع) يخالف الفعل (وَدَع يدع) بمعنى سكن، وهو فعل متبوع متبع[١٨] . وذلك على نحو البيت الذى أورده ابن جنى للفرزدق .

ولم يكن الفرزدق منفردا بجرأته على الخروج عن العرف اللغوى معتمداً فى ذلك على قدرته اللغوية ، فلقد سبقه العجاج وابنه رؤبة اللذان قد قال عنهما ابن جنى إنهما قاسا اللغة ، وتصرفا فيها ، وأقدما على مالم يأت به قبلها[١٩] ، كما تبعها آخرون مثل بشار بن برد وأبو تمام والمتنبى[٢٠] . كما أن هذه الخصومات لم تكن بين اللغويين والشعراء فقط ، بل امتدت إلى اللغويين والنحاة وغيرهم . وقد اتخذت الخصومات العلمية بين اللغويين مظهرا مشهوراً بين البصريين والكوفيين ، أو بين مدرستى البصرة والكوفة ، ويبدو أن القياس قد تأثر فى مفهومه باختلاف الحياة الثقافية والعقلية بوجه عام فى البيئتين ، فالبصريون يميلون إلى إعمال العقل وحرية الفكر بفضل ما ورثوه فى هذه البيئة من ثقافات ممتزجة ، وبفضل الموقع الهام الذى تقعه البصرة باعتبارها ميناء تجتمع فيه الأجناس المختلفة ، ولقد أفاض أستاذنا الدكتور طه الحاجرى فى وصف العقلية البصرية وذلك عندما بحث المؤثرات الثقافية التى أثرت فى الجاحظ ،[٢١] وهذا يخالف بيئة الكوفة التى تعتمد على الخبر والنص اعتماداً كبيراً ، مما قد صبغ القياس بصبغة مختلفة عن تناول البصريين ومفهومهم له .

ويلخص الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس موقف مدرستى البصرة والكوفة

---

(١٨) الخصائص ج ١ ص ١٠١ ـ ص ١٠٤ .
(١٩) الخصائص ج ١ ص ٣٧٤ .
(٢٠) انظر الأغانى ج ٣ ص ١٤٥ ـ ص ١٦٣ ، الموشح ، الموازنة ، الوساطة .
(٢١) انظر الجاحظ حياته وآثاره د. طه الحاجرى .

من القياس ، وأن موقف البصريين منه يتلخص في أنهم وضعوا الأحكام وقعدوا القواعد على أساس الأمثلة الكثيرة المروية عن العرب ، فكلما وجدوا قدرا كافيا من الأمثلة ، واعتقدوا أن هذا القدر يسوغ وضع قاعدة عامة وضعوها وأسسوها ، أما القليل أو النادر فإنه لم يكن يستحق فى رأى البصريين أن توضع له قاعدة ، ويعتمد الدكتور إبراهيم أنيس على ماروى عن أبى عمرو بن العلاء حين سأله سائل قائلا : خبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله .. ؟ قال أبو عمرو : لا . قال السائل : فماذا أنت صانع فيما خالفتك فيه العرب وهى حجة .. ؟ قال أبو عمرو : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات (أى لهجات) ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن قول أبى عمرو بن العلاء هذا يلخص وجهة نظر البصريين إلى القياس[٢٢] .

أما موقف الكوفيين من القياس فى نظر الدكتور أنيس فإنه يتلخص فى أنهم لم يترددوا فى وضع القاعدة على الشاهد الواحد أو الشاهدين[٢٣] .

ومن الطبيعى أن ينشأ عن هذا الاختلاف فى وجهات النظر بين المدرستين اختلاف فى الظواهر اللغوية ؛ فما يمكن أن توضع له قاعدة عند الكوفيين قد لا يجوز عند البصريين، لاعتمادهم على كثرة الشواهد فى استخلاص القواعد .

لكن القياس قد تطور كثيراً فى القرن الرابع الهجرى ، وارتبط ذلك التطور بأبى على الفارسى (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) وتلميذه أبى الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) الذى لازمه أربعين سنة وتأثر بأستاذه تأثرا كبيرا ، وهما يأخذان بالقول الوارد عن أبى عثمان المازنى ، الذى جعله ابن جنى بابا (ماقيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب) ويقول ابن جنى فى بداية هذا الباب : « .. هذا موضع شريف وأكثر الناس يضعف عن احتماله ، لغموضه ولطفه ،

---

(٢٢) انظر من أسرار اللغة ص ٢٠ ـ ص ٢١ .
(٢٣) انظر من أسرار اللغة ص ٢٠ ـ ص ٢١ .

والمنفعة به عامة ، والتساند إليه مقوٍّ مجد ، وقد نص أبو عثمان عليه ، فقالوا : ما قيس على كلام العرب ، فهو من من كلامٌ العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وإنما سمعت البعض فقست عليه فاذا سمعت (قام زيد) أجزت (ظرف بشر) ، و (كرم خالد)[٢٤] .

ويبدو أن أبا على الفارسى كان متأثراً بالقياس تأثيرا كبيرا ، متحمسا فى دفاعه عنه ، ويروى عنه أنه كان يقول : « لأن أخطىء فى خمسين مسألة مما بابه الرواية أحب إلى من أن أخطىء فى مسألة واحدة قياسية »[٢٥] ، وقد يكون هذا الاعتزاز هو الذى جعله يرى أن الالفاظ الاعجمية الدخيلة من كلام العرب ، وذلك عندما تستعمل بينهم ، ويقول فى ذلك « إذا قلت : (طاب الخشكنان) فهذا من كلام العرب ، لانك بإعرابك إيَّاه ، قد أدخلته كلام العرب ، ويؤكد هذا عندك أن ما أعرب من أجناس الأعجمية ، قد أجرتهُ العرب مجرى أصول كلامها[٢٦] .

ويسوق أبو على الفارسى الأمثلة المختلفة ليستدل بها عل فكرته ومن ذلك قوله :

(ا) الكلمات الأعجمية تجرى مجرى الكلمة العربية فى الصرف والمنع مثل : فرِنْد ، ديباج ، فَيْروزج ، آجرّ ، وسهريز ، وإبْرِيْسَم .

(ب) ومما يؤكد ذلك عند أبى على أيضا قوله أن العرب قد اشتقت من الأعجمى النكرة ، كما تشتق من أصول كلامها[٢٧] . مستشهدا بكلمة (سختيت) التى وردت فى قول رؤبة :

---

(٢٤) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٢ .
(٢٥) نزهة الألبا ص ٣٨٩ .
(٢٦) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٢ .
(٢٧) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٣ .

هل يُنْجِيَنِّي خَلِفٌ سَخْتِيتُ　　أو فضةٌ أو ذهبٌ كِبريتُ

وسختيت من السَّخت، كزحليل من الزَّحْل . ومثل ذلك أيضاً قوله : دَرْهَمَتِ الخُبَّازَى أى صارت كالدراهم، فاشتُق من الدرهم وهو اسم أعجمى. ومن ذلك أيضاً كلمة (المُزَرَّج) من الزرجون وهى الخمر مثل : [٢٨].

هل تعرف الدار لأم الخزرج　　منها فظلت اليوم كالمُزَرَّج

(حـ) ويستدل أبو على أيضاً على فكرته بدليل آخر هو أن بعض الابنية المأخوذة من أصول عربية لم يستعملها العرب إلا نادرا وهى مع ندرة استعمالها عربية الاصل مثل (قَتَلْتَل) من القتل و(أكلكل) من الأكل و(شَرَبْرَب) من الشرب و (خَرَجْرَج) من الخروج و(دخلخل) من الدخول ، فهذه ألفاظ وأبنية عربية ولا نستطيع إنكار عربيتها فى نظر أبى على ، مع أن العرب لم تنطق بها . [٢٩]

فأبو على — كما رأينا — يتوسع فى القياس إلى درجة أنه يرى أن الكلمات الأعجمية الدخيلة تصبح عربية لإعرابها ، مثل كلمة (الخشكنان) التى وقعت فاعلا .

وابن جنى الذى أورد آراء أستاذه يلتقى معه فى الفكرة العامة التى أشرنا إليها وهى « أن ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب » ، لكنه يختلف عنه فى المعالجة والتفسير ، فابن جنى يتناول القياس بصورة تتلاءم مع حاجات المتكلمين ، وهو يدرك أن القياس غامض على كثير من الناس ، وقد صرح بذلك وقال : « هذا موضع شريف ، وأكثر الناس يضعف عن احتماله ، لغموضه ولطفه » .

---

(٢٨) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٣ .
(٢٩) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٥ .

وللقياس منافع جليلة فى نظر ابن جنى ، ولا يمكن الاستغناء عنها لأن : « القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين ، أحدهما : ما لابد من تقبله كهيئته نحو : حجر ، ودار ، وما تقدم ، ومنه ما وجدوه يُتدارك بالقياس ، وتخف الكُلفة فى علمه على الناس فقنّنوه وفصّلوه ، إذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب ... فلما رأى القوم كثيرا من اللغة مقيسا منقادا وسموه بمواسمه وَغَنُوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والإيجاز(٣٠) .

فالقياس عند ابن جنى نافع وضرورى فيما لم يرد على العرب ، لأن أخذ اللغة كلها عن السماع أمر لا يمكن أن يتيسر للناس جميعا ، والقياس هو المسلك العملى لتلقى الكثير من اللغة .

وهذا لا يعنى أن ابن جنى ينكر قيمة السماع ، بل على العكس، فهو يلجأ إلى القياس عندما لا يعثر على ما ورد به سماع ، لكن ما الذى يفعله ابن جنى عندما يتعارض القياس والسماع ... ؟

يسلم ابن جنى منذ البداية بأن القياس لا يفى باللغة عندما تطلبها به « ..ومعاذ الله أن ندعى أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة وقياسا ، لكن ما أمكن ذلك فيه ، قلنا به ونبهنا عليه»(٣١) .

وفى حالة تعارض القياس والسماع ، فالمسموع يتغلب على المقيس عند ابن جنى « .. فاذا تعارض القياس والسماع نطقت بالمسموع على ما جاء عليه نحو « استحوذ عليهم الشيطان » .. وقال: هذا ليس بقياس ، ولكنه لا بد من قبوله لأنك إنما تنطق بلغتهم»(٣٢) .

---

(٣٠) الخصائص جـ ١ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ .
(٣١) الخصائص جـ ١ ص ٤٤٢ .
(٣٢) الاقتراح للسيوطى ص ١٠٢ .

ويصرح بهذا القول مرة ثانية فى نفس الموضع عندما يقول « .. إذا أداك القياس إلى شىء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت فيه[٣٣] .

ويقسّم ابن جنى الكلام من ناحية الاطراد والشذوذ إلى أربعة أقسام هى[٣٤] .

الأول : مطرد فى القياس والاستعمال جميعا ، وهذا هو الغاية المطلوبة ، والمثابة المنوبة ، وذلك نحوه : قام زيدٌ ، وضربتُ عمرا ، ومررت بسعيدٍ .

الثانى : مطرد فى القياس شاذ فى الاستعمال ، وذلك نحو الماضى من يَذَر ويَدَعُ وكذلك قولهم (مكانٌ مُبْقِلٌ) هذا هو القياس ، والأكثر فى السماع (باقل) ، والأول مسموع أيضاً ، قال أبو دؤاد لابنه دؤاد « يا بنىّ ما أعاشك بعدى ، فقال دؤاد :

أعاشَنِى بعدَكَ وادٍ مُبْقِلٍ ‏ ‏ ‏ آكلُ من حَوْذانه وأَنْسِل

ويذكر ابن جنى أن أبا زيد قد حكى فى كتاب « حيلةَ ومَحَالَة » : (مكان مُبْقِلٌ) ،

ومما يقوى فى القياس ، ويضعف فى الاستعمال مفعول عسى اسما صريحا نحو قولك : عسى زيد قائما أو قياما ، هذا هو القياس ، غير السماع ورد بحظره ، والاقتصار على ترك استعمال الاسم هنا ، وذلك قولهم : عسى زيد أن يقوم ، (وعسى الله أن يأتى بالفتح) . ويقول ابن جنى وقد جاء عنهم شىء من الأول ، أنشدنا أبو على :

أكثرْتَ فى العذْلِ مُلِحًّا دائما ‏ ‏ ‏ لا تَعْذُلَنْ أنىّ عَسِيتُ صائما

---

(٣٣) الاقتراح للسيوطى ص ١٠٢ .

(٣٤) الخصائص ج ١ ص ١٠١ – ص ١٠٤ ، المزهر ج ١ ص ٢٢٧ – ص ٢٣٠ .

ومنه المثل السائر: «عسى الغوير أبؤساء»[٣٥].

الثالث: المطرد فى الاستعمال، الشاذ فى القياس، نحو قولهم: أخوَصَ الرِّمْث، واستصوبت الأمر.. يقال: استصْوَبتُ، ولا يقال: استصَبْتُ الشىء. ومنه استحْوذ، وأغْيَلَت المرأة، واستنْوَق الجملُ، واستتيست الشاة، وقول زهير:

هنالك إن يُستَخْولوا المال يُخْولوا

ومنه استفْيَل الجملُ، مثل قول أبى النّجم:

يُدير عينَىْ مُصْعَبٍ مُسْتَفْيِل.

الرابع: الشاذ فى القياس والاستعمال جميعا، وهو كتتميم مفعول، فيما عينه واو، نحو ثوبٌ مَصْوُونٌ، ومسكٌ مدْوُوف، وحكى البغداديون: فرس مقوود، ورجل معوود من مرضه.

وكل ذلك شاذ فى القياس والاستعمال، فلا يسوغ القياس عليه، ولا ردُّ غيره عليه[٣٦].

وواضح أن النوع الأول قد قُبل ولا اختلاف عليه، وذلك كما صرح ابن جنى الذى وصفه بأنه «الغاية المطلوبة، والمثابة المنوبة»، أما النوع الأخير الشاذ فى القياس والاستعمال فلا يجب أن يؤخذ به، ولا يعتمد عليه فى القياس، ولا يرد غيره عليه كما ينبه ابن جنى.

أما النوع الثالث الذى اطرد فى الاستعمال وشذ عن القياس فلا بد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه كما يرى ابن جنى لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره، أى يجب أن يؤدى ما يسمع بحالته، فاذا سمعنا استحوذ واستصوب فلا يجوز لنا أن نتجاوزهما غيرهما، فلا نقول فى استقام استقوم، ولا فى استساغ

---

(٣٥) الخصائص جـ ١ ص ١٠١ ـ ص ١٠٤، المزهر جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ص ٢٣٠.

(٣٦) الخصائص جـ ١ ص ١٠٢ ـ ص ١٠٣.

استسوغ ، ولا فى استباع استبيع، وكذلك إذا سمعنا أخْوَصَ الرِّمْثُ فلا يجوز لنا أن نقول فى أعاذ أعْوَذ .

لكن ، أليس اطراده فى السماع داعيا إلى اطراده فى القياس . ؟

يحاول الدكتور إبراهيم أنيس تفسير ذلك باحتمالين ، فقد يقصد بذلك أنه قد وردت منه أمثلة قليلة لا تسوغ أن توضع لها قاعدة عامة، أو أن تلك الأمثلة القليلة لا يتطرق اليها الشك فى أنها مما سمع العرب ، أى أنها متواترة أو شبه متواترة فى روايتها ، وفى أن العرب تكلموا بها . (٢٧)

وهذا التفسير الذى ذكره الدكتور إبراهيم أنيس هو ما يعنيه الشيخ بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح عندما قال : « . . . ما خالف القياس ، وكثر استعماله، فورد فى القرآن ، فانه فصيح، مثل استحوذ . . . » (٢٨)

أما النوع الثانى الذى هو شاذ فى السماع مطرد فى القياس فهو الذى يهم اللغويين لأنه يعنى استنباط كلمات وقواعد جديدة لم تروعن العرب ، وإنما قد قيست على ما روى عنهم، ويرى ابن جنى « أن الشيء إذا كان شاذا فى السماع مطردا فى القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك ، وجريت فى نظيره على الواجب فى أمثاله ، من ذلك امتناعك من وذَر ، ووَدَع ، لأنهم لم يقولوهما ، ولا غرو أن تستعمل نظيرهما نحو . وزَنَ وَوعدَ . . . (٣٩)

ويرى ابن جنى أنه قد يجوز القياس على القليل ، ولا يجوز فيما هو أكثر منه لعدم صلاحيته ، ومن القياس القائم على القلة النسب إلى كلمة (شنوءة) فهو (شَنَئِى) ،ويقول ابن جنى « . . فلك من بعد أن تقول فى الإضافة إلى قَتُوبَة قَتَبِىّ ، والى رَكُوبة رَكَبِىّ ،والى حَلُوبة حَلَبِى قياسا على شنئى »(٤٠).

(٢٧) أسرار اللغة ص ٣٣ .
(٢٨) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٣٩) الخصائص جـ ١ ص ١٠٣ .
(٤٠) الخصائص جـ ١ ص ١٢٠ .

ويفسر ابن جنى سبب هذا القياس قائلا : « . . وذلك أنهم أجروا "فعُولة" مجرى "فَعِيلة" ، لمشابهتها إياها من عدة أوجه ،أحدها أن كلّ واحدة من فعولة وفعيلة ثلاثى ، ثم أن ثالث كل واحدة منها حرف لين يجرى مجرى صاحبه . . ومنها أن فى كل واحدة من فعولة وفعيلة تاء التأنيث . . . . ، فلما استمرت حال فعيلة وفعولة هذا الاستمرار جرت واو شنوءة مجرى ياء حنيفة ،فكما قالوا حَنَفِىّ قياسيا قالوا شَنَئى أيضا قياسيا » . [41]

وهذا القياس الذى جاز فى القليل حتى ولو كان كلمة واحدة مثل (شنوءة) و (شنئىّ) فانه قد امتنع فى حالة أخرى قد كثرت فيها الأمثلة مثل : ثقيف ، قريش سليم ، سعيد ، كريم فلا يجوز القياس « لانه لم يكن هو على قياس ، فقولهم فى ثقيف ثقفىّ ، وفى قُرَيش قرشىّ ، وفى سُلَيم سلمىّ ، فهذا وإن كان أكثر من شنئىّ فإنه عند سيبويه ضعيف فى القياس، فلا يجُيز على هذا فى سعيد سَعَدِىّ ، ولا فى كريم كَرَمىّ . . . » . [42]

وهكذا رأينا أن القياس عند ابن جنى وأستاذه أبى على الفارسى قد اتسع وقام على قاعدة ارتضاها ،هى (أن ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب) مما صبغ القياس عندهما بالتوسع واستنباط أشياء جديدة فى اللغة لم تسمع عن العرب القدماء ، بعد أن كان اللغويون قبلها يقيمون قياسهم اللغوى مستهدفين وضع قواعد عامة للغة على ضوء ما وصلهم من نصوص مسموعة ومروية عن العرب.

أما القياس فى العصر الحديث فإنه يتمثل فى موقف مجمع اللغة العربية بالقاهرة منه ، فلقد اتخذ القياس وسيلة لتنمية الثروة اللغوية ، ويبدو لنا أن المجمع قد سلك فى تطبيق القياس اللغوى مسلكا لا يختلف كثيرا عن مسلك ابن

---

(٤١) الخصائص ج ١ ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ .
(٤٢) الخصائص ص ١٢١ .

جنى وأستاذه أبى على الفارسى[٤٣] .

ويلخص الدكتور ابراهيم أنيس أسلوب المجمع اللغوى فى معالجة القياس ويرى أن المجمع اللغوى قد اكتفى بالقياس لاستنباط الصيغ أو الكلمات الجديدة فى صيغ قديمة .. ، ولم يحاول المجمع استغلال فكرة القياس فى الدلالات قائما بالألفاظ والأبنية . ولم يحاول القياس فى التراكيب ، أى رفض الأخذ بأى تركيب جديد يمكن أن يجىء فى شعر المحدثين ، كقول شوقى يخاطب سلاح الطيران :

يا سلاح العصر بشرنا به كل عصر بكمى وسلاح
إنّ عزا لم يظلل فى غد بجناحيك ذليل مستباح

فالفعل (يظلل) منفى بلمْ ، وزمنه مع هذا فى المستقبل بدليل (فى غد)[٤٤].

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن المجمع يقنع الآن فى قضية القياس باستنباط الألفاظ الجديدة ، ويؤسس قياسه على دعائم ثلاث :

١ — أقوال العلماء من القدماء بصدد الظاهرة اللغوية ، فإذا وجد المجمع منفذا ولو ضعيفا عن هذا الطريق استغله ، فهو يأخذ أحيانا بأضعف الرأيين عندما يرى أن ذلك الرأى يلائم ما يهدف إليه .

٢ — القيام بإحصاء الأمثلة المروية لهذه الظاهرة من المعاجم المطولة .

٣ — موقف جمهور أبناء العرب فى العصر الحديث من هذه الظاهرة[٤٥] ، أى أن المجمع يساعد على إقرار صيغة جديدة أو كلمة جديدة فى صيغة قديمة ذلك إذا وجد الناس يألفون إلى هذه الكلمة أو الصيغة ، وذلك مثل صيغة (فعّالة)

---

(٤٣) قرر المجمع جواز تكملة المادة اللغوية على أســـاس ما ورد عن العرب أخذا بمذهب أبى على الفارسى : « ما قيس على كلام العـرب فهو من كلام العرب » انظر مجموعة القرارات التى اتخذها المجمع تحت اسم : كتاب فى أصول اللغة ص ٦٧ .

(٤٤) أسرار اللغة ص ٢٨ ــ ص ٢٩ .

(٤٥) أسرار اللغة ص ٢٩ .

التى أقرها المجمع لتكون اسما للآلة ، ولقد أقرها المجمع وجعلها قياسية بعد أن رأى انتشاها على الألسنة بفضل حركة التصنيع الحديثة مثل (ثلاجة غسالة . .) ومما دفع المجمع إلى إقرار هذه الصغية « أنها صغية لايخشى معها اللبس ، فلم تشتهر فى دلالة أخرى ، ولأن ما ورد من أمثلتها فى النصوص العربية القديمة يكفى لجعلها قياسية . . » (٤٦) .

وقد أضاف المجمع ثلاث صيغ قياسية أخرى هى (فِعَال) مثل (إراث) التى قال بعض القدماء بقياسيتها فى اسم الآلة ،وصيغة (فَاعلة) مثل(الساقية)وقد اتخذها المجمع صيغة قياسية لاسم الآلةرغم شيوعها فى اسم الفاعل المؤنث ، وصغية (فاعول) مثل (ساطور) وقد جعلها المجمع قياسية لكثرة ما ورد منها من أمثلة للتعبير عن اسم الآلة ، وقد بلغ عدد الأمثلة نحو ستة وعشرين مثلا ،وذلك كما ورد فى أحد البحوث التى قدمت وألقيت فى مؤتمر المجمع سنة ١٩٦٢ م (٤٧) .

وبذلك تصبح الصيغ القياسية فى اسم الآلة سبع صيغ هى :

١ ــ ثلاث صيغ مشهورة وقديمة هى : مِفْعل ، مِفْعَلة ، مِفْعَال .

٢ ــ صيغة قال بعض القدماء بقياسيتها هى : فِعَال .

٣ ــ صيغة فَعَّالة مثل ثَلاَّجة .

٤ ــ صيغة فَاعِلة مثل ساقية .

٥ ــ صيغة فَاعُول مثل سَاطُور .

٦ ــ وقد اتخذ المجمع اللغوى عدة قرارات لغوية مصنفة

---

(٤٦) كتاب فى أصول اللغة جـ ١ ص ٣٣ ، مجموعة القرارات التى أصدرها المجمع من الدورة التاسعة والعشرين الى الدورة الرابعة والثلاثين فى اقيسة اللغة وأوضاعها العامة ــ اخرجها وضبطها : محمد خلف الله احمد ومحمد شوقى أمين .

(٤٨) المرجع السابق جـ ١ ص ٣١ .

كما يلى :

١ ــ قرارات فى أقيسة اللغة وأوضاعها العامة مثل :

(ا) إضافة ثلاث صيغ لاسم الآلة هى فعّالة ، وفَاعِلة ، وفَاعُول كما رأينا من قبل .

(ب) صيغة (فِعِّيل) بكسر الفاء وتشديد العين لإفادة المبالغة .

(حـ) صوغ (تَفْعِيل) بفتح الفاء وكسر العين للدلالة على المشاركة .

(د) اشتقاق (فَعَل) من العضو ، للدلالة على إصابته .

(هـ) السين والتاء للاتخاذ والجعل .

(و) لحوق التاء لاسم المكان .

كما اتخذ عدة قرارات أخرى متصلة بالنحت وضوابطه ، والتركيب المزجى، وقواعد الاشتقاق من الجامد العربى والمعرب ، والتذكير والتأنيث ، وأفعل التفضيل ، والتصغير .

٢ ــ قرارات فى الألفاظ والأساليب العربية والمعربة مثل :

(ا) استعمال (مَفَاعل) بقلب الياء همزة مثل(مكايد) و(مكائد) .

(ب)استعمال (تقدم إلى فلان بكذا) أى قدمه إليه أو طلبه أو التمسه .

(حـ استعمال (التقييم) بمعنى بيان القيمة .

(ء) استعمال (سواء) مع (أم) ومع (أو) بالهمزة وبغيرها .

(هـ) ضبط الكلمات الآتية : (مِنْطَقَة) لمعنى المكان أو الدائرة وكلمة (مُتَحَف) ، وكلمة (حَدُثَ) فى تعبير (ماقدُم وما حَدُثَ) .

(و) تعريب سبعة ألفاظ هى: (بسْتَر) من (بستور) و (بلوَرَ) من (البلور) و (بلْشَف) من (البلْشفية)، و (تلْفَنَ) من (التليفون)و (فبْرك) من(الفابريكة) بمعنى صنع الشيء وبالآلة، و(جبّس)من(الجبس) من مواد البناء،(كَهْرَبَ) من (الكهربا)، وقد أقر المجمع تعريب الاسم[٤٨].

(٤٨) المصدر نفسه ص ٢٥٢ .

٣ — قرارات فى المشتقات مثل :

(ا) قياس صوغ (َفعول) للصفة المشبهة أو المبالغة .

(ب) جواز صوغ اسم الفاعل من اللازم على زنة (فاعل)

(حـ) اطراد صوْغ (ُفعَلَة) للكثرة والمبالغة .

(ء) لحوق التاء بالمصدر الميمى .

٤ — قرارات فى الجموع مثل .

(ا) إباحة جمع (فعْل) على (أفْعال) .

(ب) قياس جمع (َمفْعُول)على مفاعيل مطلقا (الاسم والمصدر والصفة).

(حـ) جواز جمع المبدوءة بالميم الزائدة على صغية اسم الفاعل أو اسم المفعول أن تجمع على زنة (مفاعل) أو (مفاعيل) وشبههما ، حملا على ما جاء من نظائرهما فى فصيح الكلام .

(ء) جواز جمع فاعل على فواعل .

(هـ) جواز جمع أفعل فعلاء جمع تصحيح .

(و) جواز جمع َفعْلَة على َفعْلات .

(ز) إجازة طائفة من جموع التأنيث السالمة .

(حـ) جمع كيلو متر وشبهه وتمييزه باعتباره كلمة واحدة .

٥ — قرارات فى بعض أحكام النسب :

(ا) النسب إلى َفعيل و َفعيلة .

(ب) النسب إلى جمع المؤنث السالم .

(حـ) النسب إلى كيمياء .

٦ — وهناك قرارات عديدة فى بعض أحكام النحو والصرف ، وبعضها قد أقره المجمع والبعض الآخر لم يقره ، ومن أهم تلك القرارات التى أقرها :

(ا) جواز ظهور الكون العام .

(ب) جواز تقديم النفس والعين على المؤكد .

(حـ) جواز دخول (ال) على (غير) .

(ء) إدخال (ال) على العدد المضاف .

(هـ) جواز إلغاء النصب بإذن .

(و) قياسية السين والتاء (أو الألف) لإفادة الدنو أو الحينونة .

(ز) جواز استعمال (أى) للإبهام والتعميم فى مثل (اشتر أى كتاب).

وهذه القرارات التى اتخذها المجمع فى مؤتمراته ودوراته المختلفة تعتمد على القياس على نحو مارأينا ، لكننا نرى أن دور المجمع لم يكتمل فيما يخص مجال التعريب ؛ فنجد أن دوره يأتى متأخرا ، لأنه يحاول تعريب اللفظة بعدان تنتشر وتتمكن ، والواجب عليه فى هذا المجال أن يسابق التطور ، ويسرع إلى تعريب اللفظة قبل أن تتفشى فى كلام الناس ، فيصعب بعد ذلك إحلال الكلمة التى انتقاها مكان الكلمة الدخيلة التى يصعب تنقية اللغة منها ، والتسابق مع التطور الحضارى والصناعى يحتاج إلى جهد عدد كبير من الباحثين المتصلين بالتطور ، ومن الشباب القادر على تحمل المشاق .

ولنا أن نتساءل الآن : متى تكون مخالفة القياس مخلة بالفصاحة . . ؟

لانستطيع أن نجزم بأن كل ماخالف القياس لايعدفصيحا ، بل هناك ألفاظ شهد لها بالفصاحة مع مخالفتها للقياس اللغوى ، ويرى الخطيبى صاحب شرح التلخيص أن ماخالف القياس وكثر استعماله ، فورد فى القرآن فإنه فصيح مثل (استحوذ) [٤٩] وهذا يعنى أن مخالفة القياس لاتخل بالفصاحة عندما تقع فى القرآن الكريم .

---

(٤٩) شروح التلخيص ص ٨٨ .

ويرى الشيخ بهاء الدين السبكى أن مخالفة القياس مع قلة الاستعمال بمجموعهما هو المخل[٥٠] ، ويعنى هذا أن الشيخ بهاء الدين يرى أن مخالفة القياس وحدها لاتخل بالفصاحة ، كما أن قلة الاستعمال وحدها لاتخل بها أيضا .

لكن السيوطى يرى أن المخل بالفصاحة ليس مخالفة القياس وإنما قلة الاستعمال وحدها هى التى تخل بها ، والسيوطى يرجع الغرابة ، والتنافر ، ومخالفة القياس إلى شىء واحد هو قلة الاستعمال ، أى أن مدار فصاحة المفرد — فى نظره — على كثرة الاستعمال ، كما أن عدمها على قلته[٥١] ، وهذا يعنى أن كل ما كثر استعماله فصيح ، وهذا ليس صحيحا ؛ فهناك كلمات قد شاع استعمالها وغيرها أحق منها فى الفصاحة مثل كلمة (برّ) التى يراها الجاحظ أفصح من (القمح) و (الحنطة) لأن (القمح) لغة شامية ، و (الحنطة) لغة كوفية[٥٢] ، ولقد جاءت كلمة (البر) فى كلام العرب القدماء وفى قول عائشة عن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قالت : « ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا » وكذلك وردت فى قول عمر رضى الله عنه حيث قال : « أترون أنى لاأعرف رقيق العيش لباب البر بصغار المعزى .. »[٥٣] .

وقد وردت كلمة (البرّ) فى قول أمية بن أبى الصلت فى مديح عبد الله بن جدعان أحد أجداد العرب فى الجاهلية :

له داعٍ بمكة مُشْمعِلٌ … وآخرُ فوق دَارَتِه ينادى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى عليها … لبابُ البُرِّ يُلبك بالشِّهاد

ويورد الجاحظ أن الحسن البصرى قد سمع رجلا يعيب الفالوذق فقال :

---

(٥٠) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٥١) المزهر جـ ١ ص ١٨٨ .
(٥٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ .
(٥٣) الحيوان جـ ٥ ص ٤٨١ ، البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ .

« لباب البرّ ، بلماب النحل ، بخالص السّمن ، ماعاب هذا مسلم »[٥٤] .

وهناك كلمات كثيرة استخفها الناس واستعملوها وغيرها أحق منها بالاستعمال؛ مثل كلمة (الجوع) التى استعملت وكثرت على ألسنة الناس ، وأحق منها كلمة (السغب) لأن القرآن الكريم لم يذكر الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر[٥٥] ، لكن الناس قد استعملوا كلمة (الجوع) فى حال القدرة والسلامة ولم يذكروا (السغب) .

وشبيه بذلك كلمة (المطر) استعملت أكثر من كلمة (الغيث) ، والقرآن الكريم لايستعمل (المطر) إلا فى موضع الانتقام ، وترد كلمة (الغيث) فى القرآن فى موضع الرحمة[٥٦] لكن استعمال الناس للفظتين يدل على أنهم لايفرقون بينهما .

---

(٥٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨ ، الأغانى ج ٨ ص ٢ ، ص ٤ ٠

(٥٥) وردت مادة (سغب) فى القرآن مرة واحدة فى سورة البلد اية١٤ فى قوله تعالى : « أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة » ، اما كلمة الجوع فقد وردت كثيرا ، انظر سورة قريش الآية ٤ فى قوله تعالى « فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » والآية ٧ من سورة الغاشية فى قوله تعالى « ليس لهم الا من ضريع ٠ لا يسمن ولا يغنى من جوع » والآية ١١٨ من سورة طه فى قوله تعالى « ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى » والآية ١٥٥ من البقرة « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات » والآية ١١٢ من سورة النحل فى قوله تعالى « فأذاقهاالله لباس الجوع والخوف كما كانوا يصنعون » ٠

(٥٦) وردت كلمة « غيث » فى ثلاث سور من القران هى : لقمان الآية ٣٤ « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام » وسورة الشورى آية ٣٨ « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » وسورة الحديد آية ٢٠ « كمثل غيث اعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا » ، اما مادة « مطر » فقد وردت فى القرآن خمس عشرة مرة وكلها فى موضع التعذيب والانتقام من ذلك قوله تعالى فى سورة الاعراف آية ٨٤ « وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » وفى سورة الشعراء آية ١٧٣ « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » ٠

ويورد الجاحظ عدة ألفاظ قد ذاعت وانتشرت فى بعض البيئات وغيرها أحق منها بالاستعمال ؛ فنى البصرة فى عصر الجاحظ استعمل الناس :

١ ـ كلمة (بُرْمة) تجمع على (بِرَام) مع أن كلمة (قدْر) أفصح منها وقد وردت (قدور) جمعا لقدر فى القرآن « وجفان كالجوابى وقدور راسيات » .

٢ ـ كلمة (عُلِّيَّة) وهى البيت فوق البيت وتجمع على (علالىّ) ، وكلمة (غرفة) أفصح منها وهى تجمع على (غرف وغرفات) وقد استعمل القرآن الجمين ، قال تعالى : « غرف من فوقها غرف مبنية » وقال : « وهم فى الغرفات آمنون » .

٣ ـ كلمة (الـكافور) وكلمة (الإغريض) أقل فصاحة من كلمة (الطلع).

وفى المدينة استعمل الناس :

١ ـ كلمة « الخرْبز » وكلمة (البطيخ) أفصح منها ،

٢ ـ كلمة (الرَّزْدق) وكلمة (السَّميط) أفصح منها لأن (الرَّزْدق) كلمة فارسية معربة أصلها (رستة) بمعنى السطر والصف من النخل ،بينما كلمة (سُميْط) أو (سَمِيط) عربية وهى بمعنى الآجر القائم بعضه فوق بعض[٥٧] .

٣ ـ كلمة (المزُور) للدلالة على اللحم الذى ينقع فى الخل ويطبخ ، أقل فصاحة من كلمة (الصُّوص) التى بمعناها والمستعملة لدى أهل مكة .

وفى الـكوفة استعمل أهلها :

١ ـ كلمة (بالْ) الفارسية وتركوا (المسحاة) الفصيحة .

٢ ـ كلمة (الباذروج) الفارسية وتركوا (الحوْك) العربية وهو نوع من الرياحين .

٣ ـ كلمة (الجهار سوك) الفارسية يطلقونها على التقاء أربع طرق .

---

(٥٧) انظرها من البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩ .

٤ ــ كلمة (وازار) الفارسية بدلا من كلمة (السُّوق) .
٥ ــ كلمة (خيار) الفارسية بدلا من (القِثَّاء) العربية .
٦ ــ كلمة (كَوِيْذِى) الفارسية بدلا من (المجذوم) العربية[٥٨] .

واستعمال لفظة وترك الأخرى لايقوم على أساس من المفاضلة فى الفصاحة فقط، بل يرجع فى كثير من الأحيان إلى استخفاف الناس للفظة ، ولقد لاحظ الجاحظ ذلك وقال : « والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ماهو أقل استعمالا فى أصل اللغة ، وتدع ماهو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ماهو اجود منه ، وكذلك المثل السائر ، وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية فى الشهرة ، ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه »[٥٩] .

لكننا بعد مراجعة الكلمات نجد أن الكلمة العربية أسهل ، لكن هناك عوامل أخرى غير استخفاف اللفظة قد دفعت الناس إلى استعمال لفظة وترك أخرى ،وأهمها انتشار اللغة الفارسية فى هذه البيئات بسبب اختلاط الأجناس .

وخلاصة ذلك أن كثرة الاستعمال شرط هام فى الفصاحة لكن هذا لايعنى أن كل ما كثر استعماله فصيح .

* * *

ثانيا : الخلوص من ضعف التاليف

ذكرنا فيما سبق الخلوص من ضعف التأليف على أنه شرط اشترطه البلاغيون لفصاحة الكلام ، لكننا نتناوله الآن بإيجاز لنوضح ما يتعلق منه بالنحو ، ولقد رأينا فيما سبق أن حديث البلاغيين عن ضعف التأليف قد ارتبط بمثال هو (ضرب غلامه زيدا) والتأليف فى هذا المثال ضعيف مخل بالفصاحة لأنه ذكر

---

(٥٨) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩ ــ ٢٠ .
(٥٩) البيان ج ١ ص ٢٠ ــ ص ٢١ .

فيه ضمير زيد قبل أن يذكر لفظ زيد حقيقة وتقديرا ، لأنه فى رتبة التأخير لكونه مفعولا ، وقبل ذكر معناه ، والغلام فى هذا المثال هو الضارب ، فهذا التأليف ضعيف مخل بالفصاحة لأن فيه إضمارا موجبا للضعف .

كما أشرنا إلى أن ما قد يسبب الضعف فى النثر لا يحدث منه ضعف فى الشعر لأن ضرورة الشعر تجيز ما ليس بجائز ، وقد تقوّى ماهو ضعيف ، فربما كان الشيء فصيحا فى الشعر غير فصيح فى النثر ، لذلك جوز جماعة (ضرب غلامه زيداً) فى الشعر فقط ،[٦٠] ولقد رأينا فيما سبق الضرائر الشعرية وما يخل بالفصاحة منها .

ومما يتعلق بضعف التأليف ما أخذه النقاد على الشعراء عندما أخطأوا فى التراكيب ، أو عندما ألفوا تآليف ضعيفة مثل تلك الأبيات التى جمعها صاحب الوساطة وصاحب الموازنة ، ويعنينا فى هذا المقام الأبيات التى بها خطأ أو تركيب يؤدى إلى الضعف ، ومن الضعف الناتج عن خطأ فى الإعراب[٦١] قول امرىء القيس :

أيا راكبا بَلِّغْ أخواننا ... من كان من كندة أو وائل

فنصب (بَلِّغَ) ، ومثل قول امرىء القيس أيضاً :

فاليوم أشربْ غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغل

فسكّن (أشربْ) ، ومثل قول أيضاً :

لها متنتان خظاتا كما ... أكبَّ على ساعديْه النِّمر

---

(٦٠) شروح التلخيص ص ٩٩ .

(٦١) يرى الشيخ بهاء الدين السبكى أن الضرورة التى تقع فى حركة الاعراب لا تخل بفصاحة المفرد ، وانما تخل بفصاحة الكلام عندما يترتب على تغيير حركة الاعراب تعقيد فى المعنى ، انظر شروح التلخيص ص ٩٩ ، .

فأسقط النون من (خطاتا) لغير إضافة ظاهرة . ومثل قول لبيد :

ترّاك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُها

فسكن يرتبط ولا عمل فيها للم(٦٢) ومثل قول طرفة :

قد رُفِعَ الفخّ فماذا تحذَرِى ونقّرى ما شئت أن تنقّرى

لحذف (النون) فى (تحذرى) ، ومثل قول الأسدى :

كنا نرقّعْها وقد مزّقت واتسع الخرقُ على الراقع

فسكن (نرقعها) . ومثل قول الراعى :

تأبى قضاعة أن تعرفْ لكم نسبا
وابنا نزارِ وأنتمْ بيضةُ البلدِ(٦٣)

فسكّن (تعرفْ) ، ومثل :

يا عجبا والدهر جمٌّ عجبُهْ من عنزىٍّ سبّنى لم أضربُهْ

فرفع (أضربُهْ) . ومثل قول الفرزدق الذى أوردناه فيما سبق :

وعضٌّ زمانٍ يا بنَ مروان لم يَدَعْ
من المال إلا مُسْحَتا أو مجلّفُ

فضم (مجلفا) ، وقول بعض الرجاز :

كانت عجوزا عُمّرتْ زمانا وهى ترى سيئها إحسانَا
تعرفُ منها الأنفَ والعينانَا

---

(٦٢) الوساطة ص ٥ .

(٦٣) والوساطة ص ٦ ، اللسان جـ ٨ ص ٣٩٤ ، واللسان يروى هذا البيت بلم :

تأبى قضاعة لم تعرف لكم نسبا وابنا نزار فانتم بيضة البلد

ولا يكون اعتراض على رواية اللسان .

ففتح النون من (العينانا)(٦٤) ومن ذلك أيضاً قول راجز آخر :

طاروا عليهنّ فطِرْ عَلاَها ... واشدُدْ بمثنى حقَبٍ حَقوَاهَا

ناجيــة وناجيا أباها

فرفع (حقواها) وحقه النصب ، كما نصب (أباها) وحقه الرفع

ومن ذلك قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً من عرانين وبْلهِ ... كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمَّلِ

فخفض (مزمل) وهو وصف (كبير) .

ومثل قول الفرزدق :

بخير يدىْ من كان بعد محمد ... وجاريْه والمقتول لله صائم

فخفض (صائم) ، وقول الفرزدق أيضاً :

فلو كان عبد الله مولىً هجوتُهُ ... ولكنّ عبد الله مَولى مَوَاليا

ففتح الياء من (موالى) في حال الجر .

ومن أخطاء أبي نواس التي تجلب الضعف لشعره قوله :

يا خيرَ من كان ومَنْ يكون ... إلا النبيُّ الطاهرُ الميمونُ(٦٥)

بضم ما بعد (إلا) ، وقوله :

فلمــا خشى الايبـا ... من صحب وجلاّسِ(٦٦)

وإنما هو الاباء ، وكقوله :

وضَيْف كأس حدثهْ ملك ... تيهُ مغنٍّ وظرْفُ زِنْديقِ(٦٧)

---

(٦٤) الوساطة ص ٧ ، الضرائر للألوسى ص ١٦١ المطبعة السلفية سنة ١٣٤١ القاهر .

(٦٥) الموشح ص ٢٦٧ .

(٦٦) ديوانه ص ٩٥ شرح محمود واصف ط القاهرة سنة ١٨٩٨ م ، الوساطة ص ٦٢ .

(٦٧) ديوانه ص ٨٩ ، الوساطة ص ٦١ .

وسكن الهاء فى قوله (محدثة) ، ومثل قول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ، ولم يكن لاثنين ثانٍ إذْ هما فى الغار

فكان يجب أن يقول فى البيت : (ولم يكن لاثنين ثانيا) لأنه خبر يكن ، واسمها هو اسم بابك مضمر فيها ، وقد ورد فى البيت الذى يسبقه وهو :

ولقد شفى الأحشاءَ من بُرَحائها

أن صار بَابكُ جارَ مازِيَّار[٦٨]

ويرى صاحب الموازنة أنه ليس إلى غير النصب سبيل فى البيت ، وإلا بطل المعنى[٦٩] ، ومثل قوله أيضاً :

تسعين ألفاً وتسعيناً ومثلهُما كتائبُ الخيلِ تحميها الأراجيل[٧٠]

فنّون النون من تسعين .

وخلاصة رأينا فى الأخطاء التى تقع فى الإعراب أنها تبعد الكلام عن الفصاحة وأنها تصيبه بالفساد ، لأن الإعراب هو السبيل الذى نتوصل به إلى المعنى ، والخطأ فى الإعراب لا يوصل إلى المعنى المراد بل يؤدى إلى الغموض والإبهام ، ولقد رأينا أن الإبانة أو الوضوح هى غاية كبيرة يسعى إليها البلاغيون واللغويون ، وأن الفصاحة تعنى الإبانة بكلام العرب المشهود لهم بسلامة نطقهم وألفاظهم ، وصحة تراكيبهم ، وبراعتهم فى تنسيق تلك التراكيب التى تستعذب فى الآذان .

كما نرى أن الضرورات الشعرية تنقص من قيمة الشعر الذى هو صورة من ثقافة قائله وعبقريته ، فالشاعر القوى المتمكن من لغته وموهبته لا يلجأ إلى الضرورات . أما أن يلجأ الشاعر إلى الخطأ عمدا فإن ذلك يتعلق بالموقف والدافع الذى

---

(٦٨) ديوانه جـ ١ ص ١٥٤ ، دلائل الاعجاز ص ٦٦ ، والموازنة ص ٢٨ ـ ص ٢٩ .
(٦٩) الموازنة ص ٢٩ .
(٧٠) الموازنة ص ٣١ .

من أجله قد فعل ذلك . وهذا مايعرف بكسر البناء الذي يتعمده الشعراء والأدباء لهدف آخر يتحقق بخروجهم عن القاعدة اللغوية ، فقد يرى كبار الأدباء أن من حقهم أن يخرجوا على القواعد من أجل تحقيق بعض الألوان الجمالية كالموسيقى وغيرها .

وإذا كان بعض النقاد قد قبلوا من كبار الأدباء تلك اللمحات الجمالية التي تحققت بكسرهم للقاعدة أو البناء — فإن ذلك لا يمكن أن يطرد عند كبار الأدباء أو صغارهم .

وعلى أية حال فنحن لا نميل إلى أن نسعى وراء التخريجات لنبرر مخالفة الأدباء للقواعد اللغوية ، والتي تصدر — فيما نرى — في أغلب الأحيان عن تعمد وغرور تمتلىء به نفوس أولئك الأدباء الذين كثر حولهم المدح والاطراء .

ونحن في موقفنا هذا نخالف رأي الدكتور مندور رحمه الله عندما لام القاضي الجرجاني على مؤاخذته للمتنبي في هذه الناحية ، وذلك عندما حول الضمائر عن نسقها المعتاد إلى نسق آخر مثل قوله :

وإني لمنْ قومٍ كأن نفوسَنا　　بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللَّحمَ والعظما(٧١)

فلقد خرج بالضمير من الغيبة إلى المتكلمين ، وإنما كان يجب أن يقول : « كأن نفوسهم » ، ومثل قوله :

قوم تفرّست المنايا فيكم　　فرأت لكم في الحرب صبر كرام

وكقوله أيضاً :

كريم متى استُوهِبتَ ما أنت راكب　　وقد لَقِحَتْ حربٌ فانك باذلُ(٧٢)

ويرى الدكتور مندور أن الشاعر قد آثر أن يقول « وإني لمن قوم كأن نفوسنا » وأنه قد اهتدى بطبعه إلى الصواب لأنه تمثل قومه حاضرين أمامه عندما لجأ إلى

---

(٧١) الوساطة ص ٤٤٦ .
(٧٢) الوساطة ص ٤٤٩ .

ضمير المتكلم (نا) ، وكأنه أحس بهم حوله يعززونه بعصبيتهم ، فزاد إحساسه بشرف الانتماء إليهم[٧٣] .

وإن قبلنا تصريف الضمير على غير وجهه فى هذا البيت فاننا لا نقبل إسرافه فى الخروج على النظام اللغوى المعهود ، وهو فى ذلك كغيره من الشعراء .

وقد وقع المتنبي وغيره من الشعراء فى أخطاء لغوية كثيرة سنحاول أن نشير إليها . فما يؤاخذ عليه الشعراء : الحذف المفسد ، مثل الحذف الذى يحدث فى الكلمة مثل قول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبان بالحبس بين البيد والسوبان [٧٤]

يريد المنازل ، ومثل وقول المتنبي :

جللا كما بى فلْيَكُ التبريحُ أغذاء ذا الرشأِ الأغنِّ الشيحُ

حيث حذف النون من تكن مع وجود الألف واللام وهذا خطأ ، لكن القاضى الجرجانى يجوزه اعتمادا على ماحكاه أبو زيد لحسيل بن عُرْفُطَة:[٧٥]

لم يكُ الحقُّ سوى أن هاجه رسْمُ دار قد تعَفَّى بالسَّرر

غيرَّ الجدة عن عرفانها خُرْق الريح وطوفان المطر

ومثل ذلك حذف النون من لكين :

فلست بآتية ولا أستطيعه ولاكِ اسقنى إن كانْ ماؤُكَ ذا فضل[٧٦]

---

(٧٣) النقد المنهجى ص ٢٢٧ .
(٧٤) الوساطة ص ٤٥٠ .
(٧٥) الوساطة ص ٤٤١ .
(٧٦) الوساطة ص ٤٤١ ، ونسب ابن سنان هذا البيت الى النجاشى انظر سر الفصاحة ص ٦٩ .

حيث حذف ثم جاء بالساكن من بعد فتركه على الحذف .

ومن ذلك أيضا ما يرويه صاحب اللسان :

قد وَعَدَتْنِى أمُّ عمرو أن تا   تمسح رأسى وَتُفَلِّينِّى وا

وتمسحُ القَنْفاء حتى تنْتا (٧٧)

ومن الحذف المفسد للكلام الذى يؤدى إلى الغموض والإبهام البيت الذى أنكره أبو العباس أحمد بن عبيد الله على أبى تمام عندما قال :

يدى لمن شاءَ رهْنٌ لم يذُقْ جرَعاً   من راحتيك درى ما الصابُ والعسلُ

فى هذا البيت كثير من الحذف . ويرى صاحب الموازنة أنه أراد بقوله « يدى لمن شاء رهن » المصافحة والمبايعة للتعاقد أو المراهنة إنْ كان لم يذق جُرَعاً من راحتيك درى ما الصاب والعسل ، كما يرى الآمدى أن مثل هذا لا يسوغ لأنه حذف (إنْ) التى تدخل للشروط ، ولا يجوز حذفها ، لأنها إذا حذفت سقط معنى الشرط ، كما أن الشاعر قد حذف (مَنْ) وهى الاسم الذى صلته (لم يذق) (٧٨) ، ومن أجل ذلك قد اختل البيت فى نظر الآمدى ، وأشكل معناه بسبب كثرة الحذف .

فالحذف المفسد بنوعيه يؤدى إلى ضعف التأليف الذى اشترط البلاغيون الخلوص منه حتى يوصف الكلام بالفصاحة ، وهذا الحذف يخالف ذلك الحذف الذى ينتج عنه الإيجاز المحمود .

ومما يسبب الضعف أيضاً : الزيادة التى تلحق بالكلمات فتؤدى إلى الخلل والفساد فى التراكيب ، ومثال ذلك قول شبيب بن ثعلبة :

ولسْنبةُ الخَرْقُوصِ بالقفنِّ   ودُمَّل فى الإست مستقرن

---

(٧٧) اللسان مادة « قنف » ، « نتا » .
(٧٨) الموازنة ص ١٨١ .

أُحِبُّ منك موضع الوُشْحُنِّ فذاك من ذاك إلى السنن
مُقطنّة من أجود القطن(٧٩)

فزاد الشاعر هذه النونات ، وقد وقد جاءت بعضها بلا ضرورة مثل تشديد النون فى (قطنّة) التى لم تقع قافية ، كما أن حرف النون لم يقع رويا .

ومن ذلك أيضاً إتصال الضمير بإلا ، مثل :

ليس إلاّكَ يا على همام سيفه دون عرضه مسلولُ

ومثل :

لم تر من نادمت إلاّ كاَ لالسوى ودك لى ذا كا (٨٠)

وحق الضمير أن ينفصل عن إلاّ ، وذلك ماورد فى القرآن مثل قوله تعالى: « ضل من تدعون إلا إياه » ، وهذا هو المعهود عند العرب .

ومن الضعف أيضاً الجموع الشاذة أو نادرة الاستعمال فى مثل قول المتنبي :

إذا كان بعضُ الناس سيفا لدولة ففى الناس بوقاتٌ لها وطبول

فجمع بوق على بوقات ، وقد اعترض خصوم المتنبي على هذا الجمع ،(٨١) إعتمادا على أن (فُعْل) يجمع على (أفعال) فى جموع القلة مثل قفل وأقفال ، ويجمع فى الكثرة على (فُعول) مثل جند وجنود ، وبُرْد وبرود .

ونستطيع أن نضيف إلى أيضا استعمال اللفظة فى غير موضعها التى عرفت بها ، وهذا لايعنى أننا ننكر المعانى المجازية ، وإنما نقصد فى هذا المقام الاستعمال الذى ليس فى مقام المجاز ، مثل قول المتنبى :

ليس التعلل بالآمال من إربى ولا القَنوع بضنك العيش من شيمى

---

(٧٩) الوساطة ص ٤٥١ .
(٨٠) الوساطة ص ٤٥٧ .
(٨١) الوساطة ص ٤٤٣ ـ ص ٤٤٤ .

وإنما كان يجب أن يقول القناعة ، لأن (القُنوع) تخالف القناعة ، وهى بمعنى المسألة ، وكلتا اللفظتين من مادة واحدة هى قنع يقنع ، والفاعل فيهما قانع إلا أن القناعة تعنى الرضى ، والقنوع يعنى السؤال [٨٢] ، ومن ذلك أيضاً قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

مثل قول المتنبي :

عوابس حلّ يابس الماء حزْمها فهن على أوساطها كالمناطق

وقد اعترض على كلمة (يابس) لأن الماء لا يوصف باليَبس ، وإنما يقال: جمد الماء ، وجمس السّمن ، ويبس العود والنبت [٨٣] ، ومثل :

« مثل النصارى قتلوا المسيحا » [٨٤]

وهذا خطأ لأن النصارى أتباع المسيح ، وهو يقصد اليهود . كما أن المسيح لم يقتل ولم يصلب كما نص القرآن الكريم . وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

ومثل قول أبي تمام الذى سبق ذكره :

حلّتْ محلّ البِكْر من معطىً وقد زُفّت من المعطِى زِفَافَ الأيمِّ

حيث جعل الأيمّ مقابل البكر فى التقسيم ، والأيمّ قد تكون بكراً ، والأيم هى التى لا زوج لها .

---

(٨٢) الوساطة ص ٤٦٢ ، ويرى صاحب المصباح المنير أن مادة « القنوع » تخالف مادة القناعة ، فمادة القنوع هى (قنع) ، ومادة القناعة هى (قنع) من باب تعب . (انظر المصباح المنير ص ٧١١) .
ونلاحظ أن القرآن الكريم قد أورد اسم الفاعل من المادة الأولى ولم يورد المادة الثانية فقال تعالى فى سورة الحج آية ٤٦ : (وأطعموا القانع والمعترّ) والقانع هو السائل والمعترّ الذى يطيف ولا يسأل .

(٨٣) الوساطة ص ٤٦٦ .

(٨٤) الوساطة ص ٤٧٣ .

ولقد شغل النقاد بأخطاء الشعراء ، ودارت حول الخطأ فى الوصف ، والأخطاء فى المعانى ، والأخطاء فى استعمال الحروف ، وكذلك الخطأ المتصل باضطرابات الوزن ، وغير ذلك مما لا يتسع المجال لتفصيله .

وبعد، فقد رأينا أن ثمة علاقات وثيقة بين الفصاحة وقواعد النحو والصرف، هذه العلاقات التى تعددت ، وقد حاولنا أن نوجزها فى مظهرين شاملين هما :

(ا) الخلوص من مخالفة القياس اللغوى .

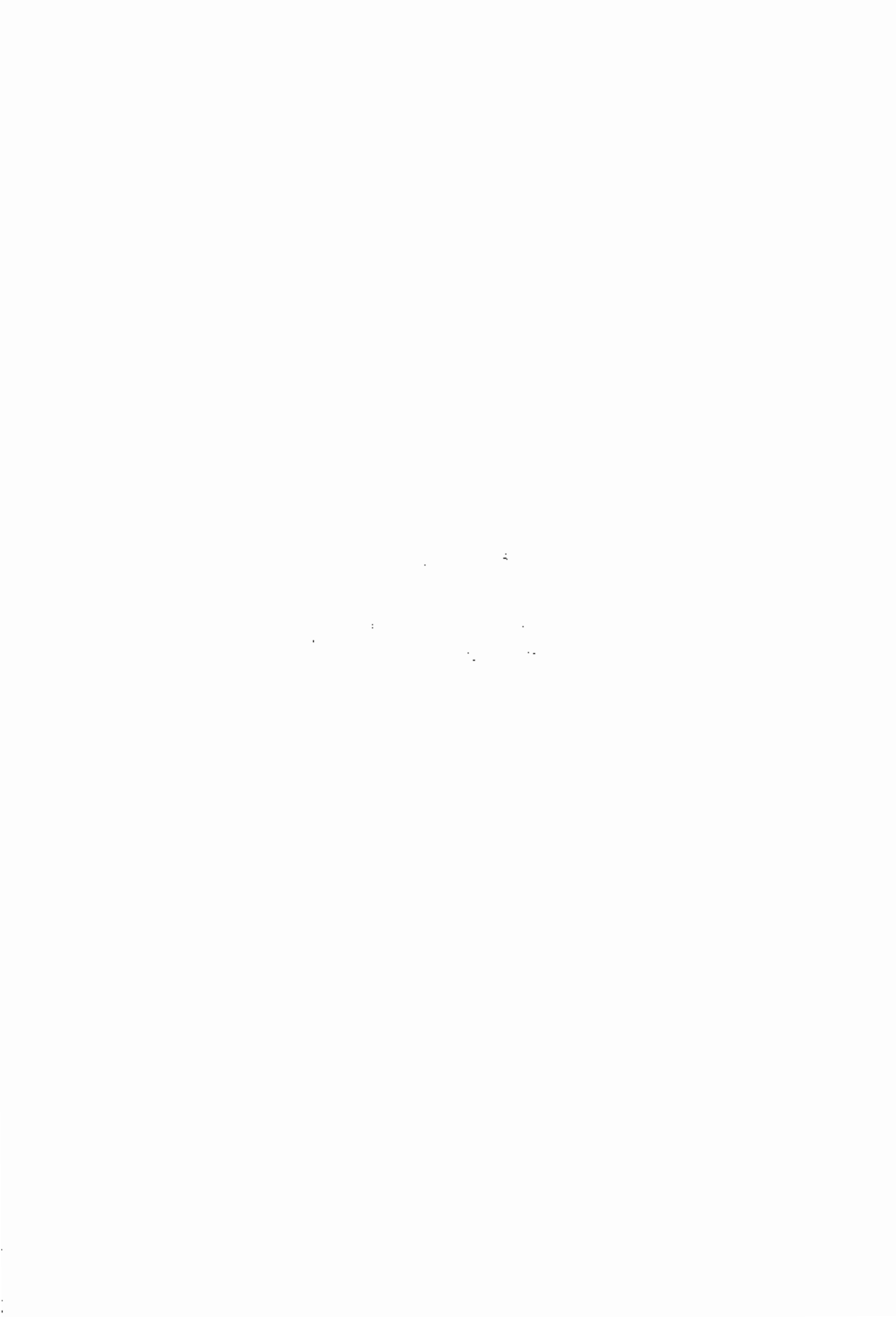
(ب) الخلوص من ضعف التأليف .

ولقد شمل المظهر الأول ما يتعلق بفصاحة المفرد ، كما شمل المظهر الثانى ما يمكن أن يتعلق بفصاحة الكلام .

ونحن نعلم أن العلاقة بين الفصاحة وقواعد النحو والصرف باب متسع يستوجب بحثا مستقلا ، ولقد حاولنا أن نستوفيه بقدر ما يتاح لنا فى هذا المقام .

الفصل الثالث

الفصاحة وعلم الدلالة



الفصاحة وعلم الدلالة

يأتى حديثنا عن علاقة الفصاحة بعلم الدلالة فى مكانه المناسب ، فلقد سبق الحديث عن علاقتها بالأصوات ، وبقواعد النحو والصرف ، والتحليل اللغوى يجب أن يبدأ بالأصوات ثم بناء الكلمة ثم بناء الكلمات ، وينتهى بدراسة المعنى.

ودراسة المعنى هى الهدف الذى يجب أن يتوج به الدرس اللغوى، كما أن دراسة المعنى هدف لا يسعى إليه اللغويون فقط ، بل إنه غاية قد شغلت الكثيرين من من الباحثين فى مجالاتهم المختلفة مثل الفلاسفة ورجال القانون ورجال السياسة ، كما حظيت هذه الدراسة باهتمام علماء الأنثروبولوجيا ، ورجال الصحافة ، والنقاد ، والمترجمين .

ونستطيع أن نقول : إن علم الدلالة أو دراسة المعنى له علاقة بالبلاغة والفصاحة تفوق فى حجمها أية علاقة أخرى متصلة بأى فن أو علم آخر ، ويكفى أن نشير إلى الأبواب البلاغية الكثيرة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الدلالة مثل : الحقيقة والمجاز ، والمقام والمقال ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، الفصل والوصل . . . ، لكننا نؤثر التخلص من الاستطراد ونكتفى بإبراز الصلة التى بين الفصاحة وعلم الدلالة .

ونتساءل الآن : ما المجالات التى تجمع بين الفصاحة وعلم الدلالة ... ؟ .

توجد فى الحقيقة مجالات كثيرة نودّ أن نصنفها فى الهيكل العام الذى ورد فى أقسام الفصاحة ، ونعنى بذلك ، فصاحة الكلمة المفردة ، وفصاحة الكلام . وفصاحة المتكلم ، أى تلك الأقسام التى استقرت عند البلاغيين المتأخرين .

ونبدأ فيما يلى بما يندرج تحت فصاحة المفرد :

أولا : العلاقة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة

ثمة علاقات عديدة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة يمكن أن نوضحها كما يلى :

١ ـ علاقة الأصوات أو الألفاظ بمعانيها:

من المسلم به أننا لا نستطيع أن نعزل الصوت عن معناه الملازم له ، ولو افترضنا أننا قادرون على عزله ، فإنه يتحول إلى صوت منغم يوحى بمعنى من المعانى . والصوت المسموع سواء كان مفهوما أم غير مفهوم ـــ يكون مصحوبا بمعان أخرى نستوحيها من المتكلم ، بل أننا نضفى على ما نسمع معانى عديدة متعمقة فى داخلنا .

فالأصوات والمعانى شيئان متلازمان ، أى أن الأصوات ـــ والإنسانية منها خاصة ـــ لا بد أن توحى بمعنى ، والعكس ليس صحيحا لأن المعانى قد قد تستوحى من نواح كثيرة كالبصر ، والفم ، واللمس ، وغير ذلك .

ولقد مرت العلاقة بين الأصوات ومعانيها باعتقاد هام من جانب الباحثين اللغويين وغيرهم هو أن الأصوات أو الألفاظ يجب أن تكون مشاكلة لمعانيها ، وهو ما يعرف أو ما يقابل عند الاوربيين Onomatopoeia ويترجمها بعض الباحثين بـ (تقليد أصوات الطبيعة) وذلك كما فعل أستاذنا الدكتور محمود السعران[1] ويترجمها أستاذنا الدكتور ظاظا بـ « الألفاظ ذات الجرس المعبر[2] كما أن بعض الباحثين يتحرج من ترجمتها ، وذلك مثلا فعل الدكتور ابراهيم أنيس فى كتبه ، ويترجمها الدكتور النويهى بـ « الحكاية الصوتية »[3] .

وقد تنبه اللغويون العرب إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين، ولقد ذكر السيوطى أن عباد بن سليمان الصميرى قد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية .

ويورد السيوطى أن بعض من كان يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل : ما مسمى (إذغاغ) وهو بالفارسية الحجر ، فقال :

---

(١) الدكتور السعران : علم اللغة ص ٤٠٠ .
(٢) اللسان والانسان ص ٢١ .
(٣) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ص ٧١ .

أجد فيه يبسا شديدا ، وأراه الحجر[٤] .

ويورد السيوطى رأى من ينكر عليه هذا القول : « لأنه لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين ، كالقَرْء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود . . . » ، ويرى السيوطى أن الفرق بين مذهب أهل العربية ومذهب عبّاد أنه يرى المناسبة بين الألفاظ والمعانى ذاتية موجبة[٥] .

أما ابن جنى فإنه قد أفرد لهذه الظاهرة صفحات كثيرة ليدلل على أن هذه الظاهرة تستوجب الاهتمام ، واستهل حديثه فى هذا الباب برأى للخليل وآخر لسيبويه ، فيورد أن الخليل قال : « . . . كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر » .

وينقل عن سيبويه ما يؤكد هذه الظاهرة عندما قال : إن المصادر التى جاءت على (الفَعَلان) قد أتت وأفادت الاضطراب والحركة ، نحو النَّقَزان والغلَيان والغثَيان ، فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال[٦] .

أما ابن جنى فإنه قد أكد نظرته إلى هذه الظاهرة بعدة أشياء هى[٧] :

(أ) يرى أن المصادر الرباعية المضعفّة تأتى للتكرير مثل : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والجرجرة ، والقرقرة .

(ب) المصادر والصفات على وزن (فعَلَى) مثل : البَشَكى ، والجَمَزَى ، والوَلقَى .

(جـ) تكرير العين فى المثال دليل على تكرير الفعل نحو : كسَّر ، قطَّع ، فتَّح ، غلَّق وتكررت العين لأنها أقوى من الفاء واللام فى نظره .

---

(٤) المزهر جـ ١ ص ٤٧ .
(٥) المزهر جـ ١ ص ٤٨ .
(٦) الخصائص ص ٥٤٤ .
(٧) أنظر الخصائص باب « فى امساس الألفاظ أشباه المعانى » من ص ٥٤٤ : ص ٥٦٠ .

(د) تقطيع الفعل دليل على تقطيع معناه مثل : صرصر ، حقحق .

(ه) تكرير العين واللام للمبالغة كما فى : دمكمك ، صمحمح ، عركرك ، عصبصب ، عشمشم .

(و) مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث : ويرى ابن جنى أن هذا باب عظيم واسع ، ونهجه مستقيم عند العارفين به ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها . ومن ذلك :

١ — (خَضِمَ) و (قَضِمَ) : فالخضم لأكل الرَّطْب كالبطيخ والقِثّاء وما كان من نحوها من المأكول الرطب .

والقَضْم لأكل اليابس نحو : قَضِمَت الدابة شعيرها[٨] .

ويستدل ابن جنى على رأيه هذا بالآثار المروية مثل : « قد يدرَك الخضم بالقضم » أى قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف . ومثل قول أبى الدرداء: يخضمون ونقضم ، والموعد لله » .

ويرى ابن جنى أن العارفين بهذه الظاهرة هم الذين قد اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، واختاروا القاف لصلابتها لليابس ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[٩] .

ويورد السيوطى :[١٠] القضم للفرس ، والخضم للإنسان ، وأن القضم بأطراف الأسنان ، والخضم بأقصى الأضراس .

٢ — النَّضْح للماء ونحوه ، والنضخ أقوى منه ، مثل قول الله تعالى :

---

(٨) نلاحظ أن الضاد تحولت الى طاء فى العامية المصرية « قطم » .

(٩) الخصائص ص ٥٥٠ ، ونلاحظ أن كلام ابن جنى هذا لا يخلو من التعسف لأنه أرجع وجود الخاء والقاف عند دلالتهما على المعانى السابقة الى العلماء العارفين لهذه الظاهرة فقط وكأنهم قد تعمدوا ذلك الاختيار فى بناء اللفظتين وفى رأينا أن العلماء لا ارادة لهم فى ذلك .

(١٠) المزهر جـ ١ ص ٥١ .

، فيهما عينان تتضاختان ، فجعلوا الحاء لخفتها للماء الخفيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه .

٣ — القدّ طولا ، والقطّ عرضا ، لان الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعا له من الدال ، فجعلوا الطاء للمناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال للمماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولا .

٤ — قرَتَ الدم ، و قرَدَ الشيء ، قرط يقرُط ، التاء فى نظر ابن جنى أخفت الثلاثة ، فاستعملوها فى الدم إذا جف ، لأنه قصْدٌ ومستخف فى الحس عن القرود ، الذى هو التباك فى الأرض ونحوها ، وجعلوا الطاء وهى أعلى الثلاثة صوتا (للقرط) الذى يسمع ، وَقرِدَ من القرْد وذلك لأنه موصوف بالقلة والذلة .

٥ — الوسيلة والوصيلة : الصاد أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها اتصال الشيء بالشيء ، ومماسته له ، وكونه فى أكثر الاحوال بعضا له ، كاتصال الاعضاء بالإنسان ، والتوسُّل معنى يضعُف ويصغُر أن يكون المتوسل جزء أو كالجزء من التوسُّل إليه وهذا واضح . فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الاقوى ، والسين لضعفها للمعنى الاضعف .

٦ — صَعِدَ وسعِدَ : فجعلوا الصاد لانها أقوى لما فيه أثر مُشاهد يرى ، وهو الصعود فى الجبل والحائط ونحو ذلك ، وجعلوا السين لضعفها لما لا يظهر أو يُشاهد حساً ، إلا أنه مع ذلك فيه صعودُ الجَدِ ، لا صعود الجسم .

ومن ذلك أيضاً سدّ وصدّ ، فالسد دون الصد ، لان السد للباب يُسَدّ والمنظُرة ونحوها ، والصدّ جانب الجبل والوادى والشعْب : وهذا أقوى من السد الذى يكون لثقب الكوز ورأس القارورَة ، ونحو ذلك ، فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى ، والسين لضعفها ، للأضعف .

ومن ذلك القسم والقصم ، فالقصم أقوى فعلا من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما ، فلذلك خصت بالأقوى الصاد ، وبالأضعف السين .

(ز) قد يضاف إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها بالترتيب ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب ، مثل كلمة (بحث) ، ويرى ابن جنى أن الباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء فيها تشبه مخالف الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض ، والثاء للنفث ، والبث للتراب[11] .

ومن ذلك « شد » الحبل ونحوه ، فالشين بما فيها من التفشى تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجذب ، وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالدال التى هى أقوى من الشين لا سيما وهى مدغمة ، فهو أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذى أريد بها ، أما الشدة فى الأمر فإنها مستعارة من شد الحبل ونحوه .

ومن ذلك أيضا جر الشىء يجره ، قدموا الجيم لأنه حرف شديد ، وأول الجر مشقة على الجار والمجرور جميعا ، ثم عقبوا ذلك بالراء ، وهو حرف مكرر ومكرر فى نفسه أيضا ، وذلك لأن الشىء إذا جر على الأرض فى غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعدا عنها ، ونازلا إليها . فكانت الراء أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف .

(ح) ما يسميه ابن جنى (تسمية الأشياء بأصواتها) كالخازباز لصوته ، والبط لصوته ، وغاق للغراب .

(١١) الخصائص ص ٥٥٤ ــ ٥٥٥ .

ومن ذلك :

« كالبحر يدعو هَيقَماً وَهيقَمَا »

وذلك حكاية لصوت البحر .

(ط) كثرة اختلاط الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون بحرف الفاء تفيد غالبا معنى الوهن والضعف ونحوهما مثل[١٢] .

(الدّالف) للشيخ الضعيف ، والشيء التالف .

و (الطّليف) و (الظّليف) : المجّانُ وليست له عصمة الثمين .

و (الطُّنُفُ) : لما أشرف خارجا عن البناء وهو إلى الضعف لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل .

و (النَّطفَ) : العيْب ، وهى إلى الضعف .

و (الدَّنِفُ) : المريض .

و (التَّرْفة) : لأنها إلى اللين والضعف .

و (الطَّرَف) : لأن طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه .

و (الفرْد) . لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك .

و (الفُتُورُ) : للضعف .

و (الرُّفْت) : للكَسْر .

و (الرَّدِيفُ) : لأنه ليس له تمكّن الأول.

و (الطِّفْل) : للصبى لضعفه .

و (الطّفْل) : للرَّخْص .

و (التَّفْل) : للريح المكروهة ، فهى منبوذة مطروحة .

و (الدَّفْر) : النَّتْن ، وقالوا الدنيا (أمُّ دَفْر) سبّة لها وتوضيعٌ منها.

---

(١٢) أنظر الخصائص ص ٥٥٧ ـ ٥٦٠ .

و (الفَالِنَة) : لضَعْفَة الرأى .

و (َفتْل المغزل) لأنه تثنٍّ واستدارة وذاك إلى وهى وضعف) .

و (الفَطْر) الشق ، وهو إلى الوهن .

وبالإضافة إلى هذا قد تعددت ملاحظات ابن جنى عن علاقة الألفاظ بمعانيها ونستطيع أن نوجز ذلك فيما يأتى :

لقد عقد ابن جنى بابا عنوانه« فى الاشتقاق الأكبر »وهو فى مقابل الاشتقاق الأصغر الذى يعرفه النحويون ويقول ابن جنى : « الاشتقاق عندى على ضربين : كبير وصغير ، فالصغير ما فى أيدى الناس وكتبهم ، كأن تأخذ أصلا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه ، وإن إختلفت صيغه ومبانيه ، وذلك كتركيب (س ل م) فانك تأخذ معنى السلامة فى تصرفه نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة ، والسليم : اللديغ أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة ، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته ، وبقية الأصول غيره كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و (ز ب د) على ما فى أيدى الناس ، فهذا هو الاشتقاق الأصغر ، وقد قدم أبو بكر رحمه الله رسالته فيه ، بما أغنى عن إعادته لأن أبا بكر لم يأل فيه نصحا وإحكاما وصنعة وتأنيساً .

وأما الاشتقاق الأكبر : فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وأن تباعد شىء من ردّ بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد .[١٣] نحو : (ك ل م) (ك م ل) (م ك ل) (م ل ك) (ل ك م) (ل م ك) ، وكذلك : (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق). وهذا أعوص مذهبا ، وأحزن

---

(١٣) الخصائص جـ ١ ص ٥٢٦ ــ ص ٥٢٧ .

مضطربا ، وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة ، وتقاليب القول الستة على الإسراع والخفة[١٤] .

وابن جنى نفسه يتحفظ قليلا فى رأيه هذا ولا يدعى باطراد مايسميه بالاشتقاق الأكبر ويقول فى ذلك « .. واعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر أنه فى جميع اللغة»[١٥] .

لكن ابن جنى يعود إلى علاقه الأصوات بمعانيها متحدثا عن الاشتقاق الأكبر وذلك فيما أسماه (باب فى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) ويرى أن اقتراب الأصلين الثلاثيين يؤدى إلى الاشتراك فى الدلالة مثل ضيّاط وضيطار ، ولوقة وألُوقة ، ورخو ورخودّ ، وكذلك اقتراب الأصلين ثلاثيا أحدهما ، ورباعيا صاحبُه ، أو رباعيا أحدُهما ، وخماسيا صاحبه مثل دِمث وَدَمثر ، وسِبَط وسِبطْر ، ومثل دردب ودردبيس[١٦] . وهذا فى نظر ابن جنى يؤدى إلى الاشتراك فى الدلالة . كما يرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الكلمات التى اشتركت الأصوات بل يرى أنها تظهر فى الأصوات التى تتقارب مخارجها أو خصائصها الأخرى مثل : (الغدر) و (والختل) ومثل (السحيل) و (الصهيل) ومثل (جلف) و (جرم) ، ومثل (عصر) و (أزل)[١٧] .

ويورد السيوطى لصاحب الجمهرة مجموعة من الالفاظ تناسبت مع معانيها[١٨]

---

(١٤) الخصائص جـ ١ ص ٥٢٦ ـ ص ٥٢٧ .

(١٥) الخصائص جـ ١ ص ٥٣٠ .

(١٦) الخصائص جـ ١ ص ٥٣٧ .

(١٧) الخصائص جـ ١ ص ٥٤٠ ـ ص ٥٤١ .

(١٨) المزهر جـ ١ ص ٥٢ ـ ص ٥٣ ـ ولأبى بكر ابن دريد كتاب « الاشتقاق » الذى حاول فيه أن يعلل الأسماء والأعلام الخاصة بالقبائل والامكنة محاولا أن يربط بين الاسماء المتقاربة فى عدد من أحرفها .
كما وضع ابن فارس معجما هو « معجم مقاييس اللغة » وقد أشرنا اليه فى صدر هذا البحث وحاول فيه أن يستنبط العلاقات بين الألفاظ ودلالاتها ، وهو يسلك سبيل ابن جنى لكن ابن فارس قد أسرف .

المعطمطة : بإهمال العين هى تتابع الأصوات فى الحرب وغيرها .
والغطمطة بالإعجام : صوت غليان القدر وما أشبهه .
والجمجمة بالجيم : أن يخفى الرجل فى صدره شيئاً ولا يبديه .
والحمحمة بالحاء : أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل .
والدحداح بالدال : الرجل القصير .
الرحراح بالراء : الإناء القصير الواسع .
والجفجفة بالجيم : هزيز المركب وحفيفه فى السير .
والخفخفة بالخاء : حفيف جناحى الطير .
ورجل دحدح بفتح الدالين وإهمال الحاءين : قصير .
والجرجرة بالجيم : صوت جرع الماء فى جوف الشارب .
والخرخرة بالخاء : صوت تردد النّفس فى الصدر ، وصوت جرى الماء مضيق .
والدّردرة : حكاية صوت الماء فى بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتا .
والغرغرة : صوت ترديد الماء فى الحلق من غير مجٍّ ولا إساغة .
والقرقرة : صوت الشراب فى الحلق .
والهرهرة : صوت ترديد الاسد زئيره .
والكهكهة : صوت ترديد البعير هديره .
القهقهة : حكاية استغراب الضحك .
الوعوعة : صوت نباح الكلب إذا ردّده .
والوقوقة : اختلاط أصوات الطير .
والوكوكة : هديرُ الحمام .
الزعزعة بالزاى : اضطراب الاشياء بالريح .

والرعرعة بالراء : اضطرب الماء الصافى والشراب على وجه الأرض .

والزغزغة بالزاى وإعجام الغين : اضطرب الإنسان فى خفة ونزق .

والكركرة بالكاف : الضحك :

والقرقرة بالقاف : حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه .

والرفرفة بالراء : صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح .

والزقزقة بالزاى : صوت خفيف الريح الشديد الهبوب ، وسمعت زقزقة المركب إذا سمعت هزيزه .

والسغسغة بإهمال السين : تحريك الشيء من موضعه ليقلع مثل الوتد وما أشبهه ومثل السنّ .

والشغشغة بالإعجام : تحريك الشيء فى موضعه ليتمكن ، ويقال شغشغ السنان فى الطعنة إذا حركه ليتمكن .

والوسوسة بالسين : حركة الشيء كالحلى .

والوشوشة بالإعجام : حركة القوم وهمس بعضهم إلى بعض .

وشبيه بذلك ما جاء فى فقه اللغة للثعالبي ونقله السيوطى أيضا :

إذا انحسر الشعر عن جانبى جبهته فهو أنزع ، فإذا زاد قليلا فهو أجلح ، فإن بلغ الانحسار نصف رأسه فهو أجلى وأجله(١٩) .

والنقش فى الحائط .

والرقش فى القرطاس .

والوشم فى اليد .

والوسم فى الجلد .

---

(١٩) انظر فقه اللغة للثعالبى والمزهر جـ ١ ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

والرشم على الحنطة والشعير .

والوشى فى الثوب .

وجاء فى فقه اللغة للثعالبي أيضا[٢٠] .

الضرب بالراحة على مقَدَّم الرأس	: صقع
وعلى القفا	: صفع
وعلى الخد ببسط الكف	: لطم
وبقبض الكفّ	: لكم
وبكلتا اليدين	: لدم
وعلى الجنب بالإصبع	وخز
وعلى الصدر والجنب	: وكز ولكز
وعلى الحنك والذقن	: وهز ولهز

ومثل :

خذفه بالحصى .

وحذفه بالعصا .

وقذفه بالحجر .

ومثل :

إذا أخرج المكروبُ أو المريض صوتا رقيقا فهو : الرَّنينُ

فإذا أخفاه فهو	: الهنين
فإذا أظهره فخرج خافيا فهو	: الحنين
فإذا زاد فيه فهو	: الأنين

(٢٠) انظر فقه اللغة للثعالبى والمزهر ج ١ ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

فإن زاد فى رفعه فهو :الخنين

أما عن العلاقة بين الأصوات ومعانيها عند المحدثين فإن أهمها هو ما كتبه يسبيرن :

وترجع أهمية كتابات يسبيرن Otto Jesperson فى هذه الناحية إلى وجهة نظره التى تمثل موقفا وسطا بين أنصار المناسبة الصوتية ومعارضيها فلقد دافع عن (همبلت) Humboldt توفى سنة ١٨٣٥ أحد أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها ، وذلك عندما عارضه (مدفيج) Madvig توفى سنة ١٨٤٢. ويرى يسبيرسن أن (مدفيج) قد تجنى على (همبلت) لأنه لم يدّع أن مثل هذه الظاهرة تطرد فى كل كلمات اللغة . ويسبيرسن يميل لأصحاب المناسبة بين الألفاظ و اللغات ، كما يرى أن بعض الكلمات التى تتمثل فيها هذه الظاهرة تزول منها مع الزمن . بينما تكتسب كلمات أخرى هذه السمة ، كما يرى أن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات ، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من الرمزية . ويأمل فى أن يأتى المستقبل باليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحا(٢١) .

ولقد قام عدد من الباحثين بإجراء تجارب عديدة للتعرف على مدى العلاقة بين الأصوات ودلالاتها.(٢٢) ونرى أن نتوقف عند واحدة منها ، هى تلك التى قام بها الدكتور إبراهيم أنيس بين بعض طلاب الكليات والمدارس ، وتتلخص هذه التجربة فى أنه قد عرض على مجموعة من طلبة الليسانس بكلية دار العلوم

---

(21) Language Its Nature, Development And Origin. Chapter x x . p p. 396 — 402 .

(٢٢) ذكر اللغوى الروسى فيجوتسكى فى كتابه الذى ترجم الى الانجليزية ونشر فى الولايات المتحدة باسم Thought and Language عدة تجارب لعدد من العلماء حاولوا أن يربطوا بين الالفاظ ومدلولاتها فى أذهان سامعيها الذين يجهلون معانيها .

مجموعة من الكلمات النادرة المهجورة وطلب من كل طالب أن يسجل ما توحيه كل لفظة من دلالة فى ذهنه، ثم عرض هذه المجموعة نفسها من الألفاظ على مجموعة أخرى من طلبة التوجيهية، فى إحدى المدارس الثانوية ، وكان عدد المجموعة المختارة من طلبة الليسانس بدار العلوم أربعة وعشرين ، وعدد طلبة التوجيهية الذين قد أجريت عليهم التجربة ثلاثة وعشرين .

ومجموعة الكلمات التى عرضها على المجموعتين هى :

الهبلع ، الجرفاس ، الخيتعور ، النعثل ، القهبلس ، القذعملة ، الطربال ، الشنعوف ، العثلط ، القفندر [٢٣] .

وهذه الألفاظ مأخوذة من رسالة لأبى حيان التوحيدى كتبها فى الإنقاص من الصاحب بن عباد لموقف له من أحد الشعراء حين أنكر على الشاعر أن يتجرأ على قول الشعر ، وهو يجهل كثيرا من الغريب ، ثم سرد الصاحب للشاعر طائفة كبيرة من الألفاظ المهجورة التى يفخر بمعرفتها ، ومن تلك الألفاظ الكلمات العشر السابقة .

وقد رأى الدكتور إبراهيم أنيس فى تجربته أن يلمح لهؤلاء الطلبة بما يحصر تخمينهم فى نطاق محدود ، فذكر أن (الهبلع ، الجرفاس ، والخيتعور ، والنعثل) صفات للرجل .

وأن (القهبلس ، والقذعملة) من صفات المرأة .

وأن (الطربال) صفة للبناء .

وأن (الشنعوف) جزء من الجبل .

وأن (العثلط) صفة للبن .

وأن (القفندر) لواحدة من الجمال أو القبح .

---

(٢٣) دلالة الألفاظ ص ٧٩ ـ ص ٨٠ .

واستخلص الدكتور أنيس من تجربته النتائج الآتية :

١ ـــ أن مجموعة الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد ، ويشتركون فى الثقافة والبيئة التعليمية قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠٪ فى المتوسط . والنسبة الباقية القليلة هى التى يمكن إرجاعها إلى التجارب والأمزجة الخاصة .

٢ ـــ الدلالات المشتركة لم تكن دائما الدلالة المعجمية الصحيحة ، فلا تكاد تجاوز الإجابة الصحيحة ٤٢٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ أمر عسير حتى على الذين قطعوا شوطا من الثقافة اللغوية كأبناء دار العلوم .

٣ ـــ استخلص الدكتور إبراهيم أنيس من التجربة السابقة أن الألفاظ التى يختزنها المرء فى حافظته لها أثر فى توجيه دلالات الألفاظ المتقاربة معها « فاذا دل استقراء المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالى الفاء والجيم مثلا أكثر من توالى والفاء الصاد ، فقد يتصادف أن ما يحفظه المرء من ألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالى الفاء والصاد أكثر من توالى الفاء والجيم . ويقال حينئذ : أن توالى الفاء والصاد فى ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعا منه فى ذهن آخر ، ولكن الشخصين يخضعان معا للنظام العام الذى تجرى عليه ألفاظ اللغة . »[٢٤] وينتج عن ذلك أن تختلف نسبة شيوع المجاميع الصوتية فى ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ؛ فمجموعة مثل (ملع) تدعو إلى ذهن بعض الناس مجموعة مثل (دلع) وفى ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل (لمع) ولذا نرى أن (ملع) قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة (الدلع والميوعة والتخنث) وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة (اللمعان والبريق والضوء)[٢٥] .

---

(٢٤) دلالة الألفاظ ص ٨٥ .
(٢٥) دلالة الألفاظ ص ٨٥ .

ونستطيع أن نقول : إن التجارب التى تجرى فى اللغة ليس لها ما تتميز به من نتائج دقيقة محكمة مثل النتائج العملية التى تطرد ولا تتخلف ، لكنها مع ذلك مفيدة إلى حد كبير فى توجيه وخدمة البحوث اللغوية عامة والصوتية خاصة ، لكن ثمة بحوث فى الأصوات اللغوية تتميز بما للتجارب العلمية من نتائج دقيقة ، وذلك لدخولها فى الفيزياء واستعانتها بها .

لكننا نلاحظ أن الدقة العلمية التى تمتاز بها التجارب الصوتية قد لاتساعدنا فى دراسة الصلة بين الأصوات ودلالتها ، لأن الآلات المستخدمة تدرس الأصوات فقط ،أو تظهر مؤشرات تختص بالأصوات دون معانيها ومثال ذلك أننا لو استخدمنا فى دراستنا جهازاً علمياً مثل الأوسيلوجراف Oscillograph[٢٦] أو راسم الذبذبات فإننا سنحصل على خصائص صوتية مثل حدة الصوت وارتفاعه والزمن ،وغير ذلك من الخصائص التى يمكن أن توصف بها أية سلسلة كلامية أخرى، وهذا يعنى أن الدلالات أو المعانى تطرح جانبا فى المعامل الصوتية ، عند دراسة أو اختبار السلاسل الكلامية المختلفة فى الشعر والنثر ، وقد تدخل عوامل أخرى فى تلك الاختبارات فتغير الأثر أو النتيجة التى يخرجها الأوسيلوجراف مثل طريقة منشد الشعر مثلا ، أو الأداء الذى يقوم به المتكلم عند الالقاء ، ويمكن أن تتدخل عوامل أخرى كالضوضاء ، وهذه العوامل وغيرها تؤثر فى الذبذبات التى يتركها الاوسيلوجراف ، وربما دفعت هذه النتائج بعض الباحثين إلى أن يتصوروا أنهم قادرون على إيجاد الإيقاع أو الصوت بمعزل عن معناه ،وذلك كما زعم جورج ستيوارت G. R. Stewart عندما قال فى كتابه « تكنيك الشعر الإنجليزى The Technique of English Verse »[٢٧] ، النظم يمكن أن

(٢٦) الأوسيلوجراف هو جهاز يعطى آثارا كتابية تمثل السلسلة الكلامية التى يراد اختبارها ، والآثار الممثلة لأى سلسلة كلامية تتكون من عدد كبير من عناصر صغيرة غير متطابقة .
أنظر علم اللغة د. السعران ص ١١٦ .

(٢٧) نظرية الأدب ص ٢١٩ ـ تأليف رينيه ويليك وأوستن وارين ترجمة : د. حسام الخطيب .

يوجد بدون معنى ، وأنه مادام الوزن مستقلا استقلالا جوهريا عن المعنى فإن لنا الحق فى أن نحاول إعادة إنتاج البنية الوزنية لأى بيت بمعزل عن معناه كلية . ويقول صاحبا نظرية الأدب تعليقاً على رأى ستيورات : « . . فإذا تجاهلنا المعنى تخلينا عن مفهوم الكلمة والجملة ، وتخلينا بالتالى عن إمكانية تحليل الفروق بين أشعار شعراء مختلفين ، فالشعر الإنجليزى يتميز إلى حد كبير بالتناغم بين التعبير المسبوك ، والدافع الإيقاعى ، كما أن الإيقاع الفعلى للحديث مشروط بتقسيم العبارات ، ولا يمكن الوثوق بتقسيم العبارات إلا على أساس التآلف مع معنى النظم . »[٢٨] ، كما يؤكد المؤلفان هذه الفكرة فى نهاية الفصل الثالث عشر : « إن الأوزان قد استعادت اليوم التماس الضرورى لها من اللغويات ، ومع علم الدلالات اللغوية فى الأدب ، ونحن نرى أن الصوت والوزن يجب أن يدرسا كعنصرين فى مجمل العمل الفنى ، وليس بمعزل عن المعنى . . »[٢٩]

وما يردده المحدثون من ضرورة عــــدم الفصل بين الصوت أو الألفاظ والدلالات قد نبه عليه النقاد العرب منذ مئات السنين ، ومنذ أعلن الجاحظ أن المعانى كالأرواح ، والألفاظ كالأجساد ، ولا حياة لأحدهما بدون الآخر[٣٠] .

ويعترف اللغويون فى النهاية أن الأدباء أقدر من غيرهم على ملاحظة الصلة بين الأصوات ومعانيها ، وأن مايدركونه من دلالات الأصوات غير واضح لغيرهم ، ويعتبر اللغويون أنفسهم غير مسئولين عن المعانى التى يضفيها الأدباء ، أو يدركونها من وحى الأصوات .

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٢١٩ .
(٢٩) المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٣٠) رسالة فى الجد والهزل ص ٨٥ تحقيق كراوس ـ الحاجرى .
وانظر رسالة المــاجستير التى تقدمنا بها الى آداب القــاهرة بعنوان « مفاهيم النقــد والبلاغة عند الجاحظ » فى الفصل الذى عقدنــاه عن اللفظ والمعنى والذى وقفنا فيه بين ما يوحى أنه يفضل الألفاظ على المعانى ، وهذه النصوص ص ٩١ ـ ص ١١٦ .

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : الشاعر ينتقى من الألفاظ ، ويتخير ويفاضل بينها ، ويميز بعضها على بعض متخذا فى نظامه البيت من الشعر لفظا خاصا يأبى غيره ، لأن أصواته توحى إليه مالا توحى أصوات غيره . . وأن الاستعمال الأدبى للكلمة فى شعر أو نثر يوثق على توالى الأيام بين الأصوات والمدلولات ، ولاسيما فى عبارات المشهورين من الأدباء التى قد تبلغ عند بعض الشعوب حد التقديس ، أما اللغوى فيأبى تقدير الظواهر اللغوية إلا فى ضوء أسسه العلمية من بحث الأصوات والصيغ وتراكيب الكلمات ، ويرفض تقدير اللغات على أساس ما ظهر فيها من آثار أدبية . .[٣١]

ومن الجدير بالذكر تلك الدراسة التى قام بها موريس جرامونت Mourice Grammont للشعر الفرنسى التى وصفها صاحبا كتاب نظرية الأدب بأنها أفضل وأذكى دراسة للشعر الفرنسى فيما يتعلق بتعبيريته ، فقد صنف كل الحروف الصوتية والساكنة فى الفرنسية ، ودرس تأثيراتها المعبرة لدى الشعراء ، فوجد على سبيل المثال أن الأحرف الصائتة تستطيع التعبير عن الصغر والسرعة والرشاقة وماشابه ذلك . وقيل أيضا : إن هناك ترابطا بين الحروف الصائتة الأمامية (e,i) والموضوعات الرقيقة ، السريعة ، المشرقة والجلية . كما أن هناك ترابطا آخر بين الحروف الصائتة الخلفية (O,U) والموضوعات الثقيلة ، البطيئة ، السمجة المظلمة ، كل ذلك يمكن أن تثبته التجارب السمعية .[٣٢]

وقـــد نلحظ فى لغتنا العربية مايشبه هذه النظرة إلى الأصوات الصائتة الأمامية (e,i) مثل التصغير الذى يراد به التمليح ، أو الذى يراد به التصغير فقط ، مثل بعض الكلمات التى تجىء على وزن (فُعَيْل و (فُعَيْعِل) و (فُعَيْعِيل)[٣٣]

---

(٣١) من أسرار اللغــة ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

(٣٢) نظرية الأدب ص ٢١١ .

(٣٣) أشرنا فيما سبق الى الزيادة فى بنية الكلمة وما يتبعها من زيادة فى المعنى ، أما الصوائت القصيرة فانها تقوم بتحديد الوظيفة فى الأسماء والأفعال المعربة ، كما تحدد النوع أيضا كما يحدث فى الكسرة التى تحدد المؤنث .

ومثل ما نلاحظه فى العامية عندما يراد الإفراد والتصغير ، فنلاحظ أنه يضاف الألف والياء إلى المفرد فى اللهجة القاهرية مثل : (حبّاية) ، (لامونايه) ، (منجاية) ، (بلحاية) . . ويقصد بذلك حبة ، ليمونة واحدة ، ثمرة واحدة من المانجو ، ثمرة واحدة من البلح . .

وقد يقصد بهذه الإضافة فى العامية القاهرية أيضا التمليح والفكاهة مثل : بقراية ، جاموساية ، ويراد بذلك كله إفراد المؤنث مع التصغير ، وغالبا مايكون ذلك فى استعمال النساء والأطفال .

٢ ــ الغرابة وعلاقتها بأدوات الدلالة :

الدلالات أو المعانى تتخذ وسائل مختلفة حتى تظهر إلى الوجود ، وقد تكون تلك الوسائل أو الأدوات قائمة على الصوت أو الصيغ الصرفية ، أو التركيبات النحوية ، أو الدلالات المستمدة من المعاجم والقرائن المختلفة .

والدلالات التى تقوم على الصوت قد تكون كلمة أو نبرا أو تنغيما ، ولقد فصلنا القول فى هذه الوسائل أو الأدوات ، وذلك فى الفصل الذى عقدناه عن علاقة علم الأصوات بالفصاحة .

وتتضح الدلالات الصرفية المختلفة فى استعمال صيغة مكان أخرى مثلا ، مثل استعمال (فَعّال) أو (فَعُول) أو (فَعِيل) مكان (فاعل) أو استخدام (فَعِيل) بمعنى (مفعول) وغير ذلك .

ولعل الدلالة المأخوذة من المعجم هى أكثر الدلالات ارتباطا بفصاحة المفرد وذلك فيما يتعلق بالغرابة ، لأن معرفة الغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، كما أننا قد ذكرنا فيما سبق أن معنى الغرابة يختلف من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى أخرى ، كما أشرنا إلى ارتباطها بالأحداث الاجتماعية التى تترك أثرها على البحث العلمى ، ونستطيع أن نقول : إننا لا نستطيع أن نؤكد أن هذا اللفظ غريب

على وجه الاطلاق ، وإنما نقول : إن هذا اللفظ غريب علينا نحن أبناء العصر الحديث ، أو غريب على بيئتنا نحن أصحاب الثقافة الأدبية ، أو الفنية ، أو العلمية ، كما يمكن أن نقول : إنه غريب على أهل الحضر أو سكان المدن ، كما قد يكون غريبا على عصر دون عصر .

ونعود فنقول : إن معرفتنا للغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، وإذا كان الأمر كذلك فهل المعاجم اللغوية تفى بهذا الغرض . . . ؟

من المنتظر أن المتكلمين بلغاتهم الأصلية فى بيئتهم لايحتاجون إلى شرح الألفاظ المفردة ، لأن الألفاظ المفردة يجب أن تكون واضحة عند أصحابها ، وهذا بخلاف التراكيب التى قد يداخلها التعقيد والغموض . لكننا فى الواقع نجد المتكلمين بلغاتهم الأصلية يتوقفون عند ألفاظ لغرابتها عليهم ، وعدم شيوعها بينهم ، ومن الطبيعى أن يحدث تراكم الألفاظ فى أثناء نمو أية لغة خلال تاريخها ، وخاصة تلك اللغات التى حملت ألوانا من الحضارات المختلفة ، فكل حضارة تلازمها مجموعة من الألفاظ تحيا معها على ألسنة أصحابها ، ويصيبها النسيان والموت عندما تحل حضارة أخرى مكانها ، أو تصيبها الكوارث المختلفة بسبب الحروب ، أو كوارث الطبيعة كالزلازل والسيول . . . وعندما يقوم الباحثون بدراسة فترة ما من حياة هذه اللغة أو تلك فانهم يواجهون بطائفة كبيرة من ألفاظ تلك الفترة المرتبطة بحضارة أهلها ، والتى تبدو لهم غريبة عن عصرهم وبيئتهم ، بل ربما تكون تلك الألفاظ الغريبة قد اجتمعت من عصور سابقة على تلك الفترة التى يستهدف الباحثون دراستها .

فلا مفر من مواجهة الغريب الذى قد تراكم فى اللغة عبر تاريخها الطويل ، فكيف يواجه المتكلم الغريب فى لغته . . . ؟

برزت الحاجة إلى المعاجم مع ظهور مشكلة الغريب عند المتكلمين ، لأن ذاكرة الإنسان لا تستطيع أن تستوعب كل المفردات مهما أوتى الإنسان من قدرة على

الاستيعاب ، لأن العمليات الاحصائية التي قام بها اللغويون تبين أن الإنسان المثقف المعاصر لايتجاوز مايستعمله من ألفاظ في الكلام والكتابة والتأليف ، ستة آلاف لفظة ، بينما يزعم بعض اللغويين أن اللغة العربية تضم أكثر من اثنى عشر مليونا من الألفاظ ، بالتحديد : اثنى عشر مليونا وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثنى عشر لفظا ، [٣٤] ونحن لانأخذ بهذا الرقم ، لأن حصر مفردات لغة ما بالكلمة الواحدة أمر لا يمكن تنفيذه بدقة ، لأن اللغة لا تتوقف عن الأخذ والعطاء ، والنمو والموات في ألفاظها في أي وقت من أوقات حياتها ، واللغة كجسم الكائن الحي ، يتجدد كثير من خلاياه ، وتموت الأخرى خلال فترة حياته بين الحين والآخر .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا عدة إحصائيات تبين نسبة المستعمل من الألفاظ إلى عدد مفرادت اللغة نفسها ، أو إلى مجموع مايضمه معجم ما ، مثال ذلك أن مجموع الناطقين باللغة الفرنسية لا يستعملون بل لايفهمون مجتمعين إلا تسعة آلاف لفظة فقط من المادة اللغوية الفرنسية التي تصل موادها إلى مئات الآلاف .[٣٥] (معجم لاروس الموسوعي الكبير) يضم مالا يقل عن مائتي ألف لفظة ، و (معجم لاروس الصغير يضم أكثر من خمسين ألف لفظة فرنسية ، بالإضافة إلى المعاجم الفرنسية الأخرى .

فالحاجة إلى المعاجم لمعرفة معنى الغريب — كبيرة وماسة ، لأن اللغة أو المفردات اللغوية يجب أن تحفظ في المعاجم ، والمعجم في صورته النافعة يجب أن يكون كاملا شاملا . ويرى أستاذنا الدكتور ظاظا أن المعجم . . مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والغث من محتوياته ، إلى المفيـد ، والأقل

---

(٣٤) انظر كلام العرب لأستاذنا الدكتور حسن ظاظا ص ١١٩ .
(٣٥) المرجع السابق ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

فائدة ، إلى الضرورى ، وما لالزوم له ، إلى الثابت الأصيل والمشكوك فيه ، أو المزيف ،وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستعين به ، بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم ، وهو مسئول عن حفظ اللغة،وعن تطويرها أيضا »[٣٦].

ومع ذلك فالمعنى الذى تعطيه المعاجم للفظة ما إنما هو المعنى الدلالى ، وهذا يختلف عن المعنى الجمالى الذى تحدده عوامل أخرى .

وبعد ، فإن المعانى التى تعطيها المعاجم للمفردات معان قاصرة وعاجزة عن إدراك المعانى المقصودة ، أى أن المعاجم العربية خاصة ليست كل شىء فى الوصول إلى معنى الكلام أو الكلمة ، لأن هناك عناصر كثيرة لها دور كبير فى تحديد المعنى ، وهذه العناصر قد تكون غير لغوية وإنما تتعلق بالمقام الذى قيل فيه الكلام ، كما تتعلق الكلمات أو الكلام بشخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب ، والجو النفسى المحيط بهما .

وهذه العناصر التى تتدخل لتحديد المعنى الخاص بالكلمة أو الكلام مازالت المعاجم العربية تفتقر إليها ، ومن ثم فإن توضيح الظروف أو الجو الذى قيل فيه الكلام أمر لا يستهان به فى تحديد المعنى المراد ، لذلك وجدنا النقاد يختلفون فى لفظة ، أو جملة ؛ لأن المقام أو السياق الذى قيلت فيه كان غامضا ، وكذلك قد يختلف المفسرون وتتعدد آراؤهم فى لفظة ، كما يختلف المترجمون فى ترجمة لفظة من الألفاظ لعدم وضوح معناها فى أذهانهم ، أو لعدم وجود معنى مستعمل لها فى اللغة المنقول إليها ، وذلك لاختلاف البيئات الاجتماعية والحضارات المختلفة.

ونأمل جميعاً أن نرى معاجم للعربية مختلفة تسد الحاجة وتفى بالغرض ، وهذا يتطلب منا جهودا متضافرة لجماعات مختلفة الثقافة ، كالأدباء ، والعلماء واللغويين ، ورجال الفن والصحافة والسياسة ، لأن العبء الثقيل لا ينهض بحمله اللغويون فقط .

---

(٣٦) المرجع السابق ص ١٢١ .

ثانيا : علاقة فصاحة الكلام بعلم الدلالة

نستطيع أن نلاحظ من شروط الفصاحة التى حددها البلاغيون أن فصاحة الكلام ترتبط بدراسة المعنى أو الدلالة ارتباطا كبيرا ، ولقد تنبه إلى ذلك من قبل الشيخ بهاء الدين السبكى عندما رأى أن فصاحة الكلام يختص بعضها بالمعنى والبعض الآخر باللفظ ، فالخلوص من التعقيد المعنوى والضعف من اختصاص المعنى ، أما الخلوص من التنافر والتعقيد اللفظى فهما من اختصاص اللفظ(٣٧) .

فالتعقيد المعنوى وضعف التأليف يتصلان بدراسة المعنى اتصالا وثيقا فى نظر السبكى ، لكن العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة لها مجالات متعددة ، وسنحاول أن نوضح ذلك فيما يلى :

١ ـ علاقة ضعف التأليف بعلم دراسة المعنى أو الدلالة :

من المسلم به أن وظيفة الكلمة داخل الجملة أو التركيب تتحدد بالإعراب الذى يبين بعلاماته المختلفة تلك الوظيفة ، ومع وضوح تلك الوظائف يتضح المعنى الناتج من التراكيب الصحيحة لتلك الكلمات ، أما إذا حدث خلل فى تلك التراكيب بسبب الخطأ أو الضعف الذى قد يطرأ عليها ، فإنه ينتج عن ذلك خلل فى المعنى أو غموض فيه ، قد نتج عن الإبهام الذى أصاب الوظائف . ويرى بعض البلاغيين(٣٨) أنه يمكن الاستغناء عن التعقيد ، لأن الضعف قد يؤدى إليه ، لكن هذا غير صحيح ، لأن التعقيد قد ينتج عن ضعف التأليف وغيره .

وضعف التأليف أحد الأسباب التى تخل بالمعنى المتعلق بالوظائف ، فالمعنى الوظيفى يعتمد على ما تؤديه الأصوات وما تؤديه الصيغ الصرفية ، وما ينتج عن مراعاة قواعد النحو ، فالأصوات اللغوية ، والصرف ، والنحو ، تتضافر لأداء

---

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٣٦ .
(٣٨) شروح التلخيص ص ١٠٥ .

المعنى بحكم وظائفها ، والخلل أو الضعف الذى يصيب قواعد النحو والصرف يؤدى بدوره إلى إفساد المعنى .

وهذا لا يعنى أن المعنى أو الدلالة تقوم فقط على المعنى الذى تؤديه الأصوات وقواعد النحو والصرف ، ولكن هناك معان أخرى تأتى بعد ذلك ، ولها بواعثها المختلفة .. ونعنى بذلك السياق أو القرائن أو المقام .

لكن قد يقبل النقاد بعض التجاوزات فى الشعر عندما لا تؤدى تلك التجاوزات إلى الخلل فى المعنى ، وذلك ما عرف بالضرورات الشعرية ، لكن بعض تلك الضرورات قد لقى رفضا من النقاد ، وقد صنف النقاد الضرورات إلى مقبول وغير مقبول . وقد فصلنا القول فيما سبق عن ذلك .

وخلاصة القول : أن ضعف التأليف يتناسب مع الدلالات أو المعانى تناسبا عكسيا ، أى كلما خلت التآليف من الضعف ازدادت المعانى وضوحا وتحديداً ، وكلما كثر الضعف غمض المعنى وأدى إلى الفساد .

٢ ـ علاقة التعقيد بعلم الدلالة :

ونحن هنا لا نفرق فى التعقيد بين ما هو بسبب الخلل فى نظم الألفاظ ، وهو ما يعرف بالتعقيد اللفظى ، وبين ما يكون بسبب الانتقال من معنى إلى آخر ، وهو ما قد عرف بالتعقيد المعنوى ، فلقد فصل البلاغيون بينهما ، وخصوا أحدهما باللفظ والآخر بالمعنى .

لكننا نرى فى الحقيقة أنهما يختصان بالمعنى ، ويصفهما الشيخ بهاء الدين السبكى وصفا دقيقا عندما يقول : « ... الأول أوقع فى الجهل البسيط ، وهو عدم الفهم ، والثانى أوقع فى الجهل المركب ، وهو فهم الشىء على غير ما هو عليه »[٣٩] .

---

(٣٩) شروح التلخيص ص ١٠٨ .

فعدم الفهم ، وفهم الشيء على غير ما هو عليه ، أمران يرجعان إلى غموض المعنى ، والمعنى قد غمض حتى لم يستطع فهمه بسبب نظم الألفاظ المخالف للأصل، كالتقديم ،والتأخير ،أو الاضمار ،أو غير ذلك بغير قرينة ظاهرة باللفظ أو المعنى، وذلك مثل بيت الفرزدق الذى استشهد به البلاغيون :

وما مثله فى الناس إلا مملكا　　　أبو أمه حىّ أبوه يقاربه

أما فهم الشيء على غير ما هو عليه ، فقد نتج عن صعوبة انتقال الذهن من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر ، وذلك لعدم الربط بين المعنى الظاهر والمعنى المراد ، أو لمخالفة العادة أو المألوف لدى الناس ، كل ذلك وغيره يؤدى إلى سوء الفهم ،أو فهم الشيء على غير ما هو عليه ، مما قد عرف بالتعقيد المعنوى ، ولقد توقف البلاغيون عند بيت للعباس بن الأحنف ليستدلوا به على التعقيد المعنوى وهو :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا　　　وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وفى هذا البيت نموذج لفهم الشيء على غير ما هو عليه ، وذلك أنه انتقل من المعنى الظاهر ،وهو جمود العين ،إلى السرور بالاجتماع ،وجمود العين لا يكون كناية عن التلاقى والسرور به ، وإنما هو كناية عن البخل بالبكاء عندما يراد منها البكاء ، وهذا هو المألوف لدى الذوق ، أما أن يكنى بجمود العين عن السرور بالتلاقى فهو مخالف للعادة ، قال أبو العطاء يرثى ابن هبيرة :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط　　　عليك بجارى دمعها لجمود

فالتعقيد بنوعيه اللفظى والمعنوى لا بد أن يخلص الكلام منه حتى يوصف بالفصاحة ،وحتى يسهل الفهم ويتضح المعنى المراد ، فالعلاقة بين التعقيد وعلم الدلالة تشبه العلاقة بينه وبين ضعف التأليف : أى علاقة عكسية .

وتوضيح ذلك أن التعقيد الذى اشترط البلاغيون الخلوص منه حتى يوصف

الـكلام بالفصاحة — يتحقق فى أحد جوانبه بالانتقال من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر، وذلك كما رأينا فى بيت العباس بن الأحنف عندما أراد أن ينتقل من المعنى الحقيقى للجمود المتعلق بالدموع — إلى معنى آخر يريد تحقيقه بالـكناية، وهو السرور المترتب على التلاقى . لـكن الشاعر قد عقّد بهذه الطريقة لأن العادة قد جرت على جعل الجمود كناية عن البخل . فالتعقيد له صلة فى أحد جوانبه بعلم الدلالة أو دراسة المعنى . وهذه العلاقة تتمثل فى الانتقال من معنى إلى آخر بطريقة تؤدى إلى الإحالة والفساد .

والانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى لا بد أن يصطحب بالقرائن التى توضحه ،وتمنع من إيراد المعنى الأصلى، والعجز عن إيراد القرائن المناسبة يؤدى بدوره إلى التعقيد .

لـكن فصاحة الـكلام لا تقتصر العلاقة بينها وبين علم الدلالة على ضعف التأليف، والتعقيد بنوعيه، فتوجد قضايا دلالية أخرى لها علاقات وثيقة بفصاحة الـكلام، لا نستمدها من تعريف البلاغيين القدماء للفصاحة، ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الفصاحة أو أى جانب منها عن المعنى، فقد يتصور أن بعض جوانب الفصاحة قاصرة على اللفظ، لـكننا فى الحقيقة لا نستطيع أن نفصل اللفظ عن المعنى، وينقل السبكى عن عبد اللطيف البغدادى عبارة قد استحسنها ونقلها من قوانين البلاغة، وهى[٤٠] :

البلاغة شىء يبتدى من المعنى، وينتهى إلى اللفظ .

والفصاحة شىء يبتدىء من اللفظ، وينتهى إلى المعنى .

وفى نفس الوقت الذى نقرر فيه استحالة فصل اللفظ عن المعنى، لا نذهب إلى تفضيل أحدهما على الآخر، ولا ندخل فى جدل بلا جدوى، لأن الذهاب إلى تفضيل أحدهما على الآخر لا فائدة منه فى نظرنا ؛ لأننا لا نستطيع أن نتصور

---

(٤٠) شروح التلخيص ص ١٣٦ .

لفظا بدون معنى ، لكن المعانى قد تتخذ وسائل أو أدوات أخرى كالإشارة مثلا .

ومن القضايا المتعلقة بفصاحة الكلام أيضا :

٣ ـ علاقة فصاحة الكلام بالحقيقة والمجاز :

ما دمنا قد سلمنا باستحالة فصل الكلام عن معناه ، فإن دراسة العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة تنحو بنا إلى بحث العلاقة بين فصاحة الكلام وما يتصل بالمعنى الحقيقى والمعنى المجازى .

لقد كثر الحديث عند القدماء والمحدثين عن الحقيقة والمجاز ، ويرى بعضهم أن الحقيقة هى أكثر الكلام ، وأكثر آى القرآن وشعر العرب على هذا ، وهذا هو رأى ابن فارس(٤١) . لكن ابن جنى يرى عكس ذلك ، فأكثر اللغة عنده مجاز لا حقيقة(٤٢) ، ويذكر السيوطى أن القاضى تاج الدين السبكى يقول فى شرح منهاج الأصول : « الفرض أن الأصل الحقيقة ، والمجاز خلاف الأصل ، فإذا دار اللفظ بين احتمال المجاز ، واحتمال الحقيقة ، فاحتمال الحقيقة أرجح »(٤٣) . أما أبو اسحاق الإسفراييني فإنه يرى أنه « لا مجاز فى لغة العرب »(٤٤) ، كما كان من رأى جماعة أن اللفظ قد لا يكون حقيقة ولا مجازا ، لكن جماعة أخرى ترى أن اللفظ قد يكون حقيقة ومجازا فى لفظ واحد ، وذلك كاللفظ الموضوع فى اللغة لمعنى ، وفى الشرع أو العرف لمعنى آخر ، فيكون استعماله فى أحد المعنيين حقيقة بالنسبة إلى ذلك الوضع ، مجازا بالنسبة إلى الوضع الآخر(٤٥) .

---

(٤١) الصاحبى فى فقه اللغة ص ٢١٥ ، والمزهر للسيوطى ص ٣٥٥ .
(٤٢) انظر الخصائص ، المزهر ص ٣٥٧ .
(٤٣) المزهر جـ ١ ص ٣٦١ .
(٤٤) المزهر جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٤٥) المزهر جـ ١ ص ٣٦٧ .

وقضايا الحقيقة والمجاز كثيرة ومتسعة ، ونحن لانرى أننا فى مقام تفصيل تلك الموضوعات ، وإنما يهمنا أن نوضح مدى ارتباط فصاحة الكلام بالحقيقة المجاز

ودراسة الحقيقة والمجاز يساهم فيهم النقد الأدبى ، واللغة ، فكلاهما يرى أن هذا النوع من الدراسة من موضوعاته أو مجالاته ، لكن المجاز يدخل فى اللغة أكثر مما يدخل فى النقد والبلاغة ، وذلك طبقا للتصنيفات القديمة ، وإذا سلكنا منهج الباحث اللغوى فاننا لانفضل أحدهما على الآخر فلا نقول : إن المجاز أجمل من الحقيقة ، لأن الحكم بالجمال والقبح من مجالات النقد ، لكن الذى يعنينا ونحن نسلك هذا المسلك ، الناحية الوصفية التطورية، فالمجاز ظاهرة من ظواهر تطور اللغة ، وهو تطور من ناحية الدلالة أو المعنى ، كما أنه عامل من عوامل النمو اللغوى للألفاظ .

والحقيقة والمجاز معنا هما ليس ثابتا ، لأن الألفاظ ليست مقيدة جامدة ، لذلك لانستطيع أن نتصور أن هناك حدا فاصلا بين الحقيقة والمجاز يفصل أحدهما عن الآخر ، لأن اللغة تنمو وتتطور كما ينمو الكائن الحى ، وخلال نموها عبر العصور والحضارات ينتقل مايعرف بالحقيقة بين الناس إلى المجاز ، بل قد يتحول المجاز إلى حقيقة ، إذا أهمل المعنى الأصلى للفظ ، ثم قد يأتى وقت بعد ذلك لينتقل إلى مجاز آخر .

فالحقيقة والمجاز ليسا تصورا ثابتا دائما ، بل يطرأ عليهما التغيير بقدر ما يطرأ على أصحابها من تطور أو تغير ، ويرتبط التحول إلى المجازية بالبيئة الثقافية للأفراد ارتباطا كبيرا ، لأن الثقافة تمكن أصحابها من تصور المعانى المجردة وتذوقها ، وتدفعهم إلى رواجها بينهم ، ذلك الرواج الذى يهىء للمعنى المجازى بيئة صالحة للحياة والنمو ، فالتقبل الذى تصادفه المعانى المجازية من المتكلمين — هو العامل الأساسى فى نظرنا للانتقال من الحقيقة إلى المجاز ، لأننا لو تصورنا أن قد شخصا استعمل لفظة ما استعمالا يخالف مالها من دلالة عند

الناس ،ولم يفهم الناس مايهدف اليه ، أو لم يشعروا بطرافة فى استعمالها الجديد، فإننا نرى نتيجة لذلك أن ذلك الاستعمال الجديد ميت فى مهده.أما إذا صادفت تلك اللفظة فهما وتذوقا من الناس، وأحسوا بطرافة دلالتها الجديدة فإنها تعلق بألسنة المعجبين بها ، ويكتب لها الحياة فى تلك البيئة . وقد تنتقل تلك اللفظة بمعناها الجديد إلى بيئة أخرى ، وإلى عصر آخر محتفظة بما لها من دلالة ، وقد يعتريها ما يفقدها طرافتها وجدتها ، وربما تصاب بالذبول والموات .

ولكن تلك اللفظة التى فقدت مالها من طرافة ، وأصابها الذبول والموات ، قد ينتشلهاأديب بارع من خضم الابتذال والنسيان والموات ،ويجلوها منجديد بوضعه إياها فى استعمال طريف آخر .

واستعمالات الأدباء النابهين تظل متجددة قائمة فى أذهان الناس عصورا متتالية ، طالما أن تلك الاستعمالات المجازية متصفة بالتفرد والابتكار ، وتصبح من العلامات المعروفة بهم ، أو التى يعرفون بها . وتصبح لشهرتها مصونة من السطو عليها ، لأنها ذائعة بين النقاد والأدباء ، مخصوصة لمبدعيها ، وهذا يخالف الخيالات التى أصبحت عامة مشاعة للجميع ، لايعاقب مستعملها بتهمة السرقة ، كوصف الكريم بالبحر ، والشعر بالليل ، والنساء بالظباء ، والخدود بالتفاح ، والشجاع بالأسد . ومما لم يستبحه ويستولى عليه الأدباء والشعراء قول عنترة فى وصف الذباب :

جادت عليها كل عين ثرّة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغنى وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بذراعه فعل المكبّ على الزناد الأجذم

ويعلق الجاحظ على وصف عنترة للذباب قائلا : « . . . فوصف الذباب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى ،فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ،

يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة »[٤٦] ولقد عرض له بعض الشعراء المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى من اضطرابه فيه ، وأنه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر .

ولسنا فى معرض الحديث عن السرقات ، وإنما وددنا أن نشير إلى أن بعض الاستعمالات المجازية والخيالية عامة تظل باقية ، لا يعدو عليها الذبول ، وتقاوم الموات والفناء .

والانتقال مما يعتقد أنه حقيقة إلى المجاز — كما ذكرنا — مرتبط بارتقاء الفكر عند الإنسان ، فكثير من الألفاظ التى تطلق على مسميات معنوية يرجعها اللغويون إلى أسماء محسوسات ، وهذه الأسماء أو الألفاظ المجازية ترتبط مع الأصل المحسوس الذى انتقلت منه بشيء من المشابهة ، ولا مانع من إيراد بعض الألفاظ التى تتضح فيها هذه الظاهرة ، مثل كلمة :

العقل : مأخوذ من الحبل الذى كانت تربط به الدابة حتى لا تنطلق جامحة ، وكان يرتبط بالبعير أكثر من غيره ، ثم نقل العقل من معناه المادى إلى معنى مجرد هو القوة التى تتحكم فى توجيه الحواس فلا تجمح .

الشرف : وأصله الارتفاع للمكان العالى مثل قول الشاعر فى رثاء ابنه[٤٧] .

هوَىَ ابْنِى من عُلاَ شرفٍ   يهولُ عقــابَهُ صعَدُهُ

هوى من رأس مَرْقَبةٍ   فزَّلتْ رجلُــهُ ويَــدهُ

فالشرف هنا : المكان العالى الذى سقط من فوقه ذلك الغلام. لكنه قد انتقل

---

(٤٦) الحيوان جـ ٣ ص ٣١١ ، انظر رسالة الماجستير التى تقدمنا بها الى آداب القاهرة سنة ١٩٧٠ وعنوانها « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ فى البيان والتبيين والحيوان » .

(٤٧) ديوان الحماسة جـ ١ لأبى تمام ص ٣٧٨ .

بعد ذلك إلى المعنى المجرد ، وهو الصفة التى تدل على أن صاحبها فى منزلة عالية النسب والأخلاق .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا مجموعة من الألفاظ التى قد ربطها بأصلها المادى القديم فى اللغات السامية القديمة من ذلك كلمة[٤٨] .

جهنم : يرجعها الدكتور ظاظا إلى لفظتين ساميتين قديمتين هما : (جى) (بالكسرة الممالة) ومعناها الوادى ، و (هِنُّم) (بكسر الهاء وضم النون المشددة) وهو اسم علم لقبيلة قديمة كانت تعيش فى فلسطين قبل نزول العبريين اليها ، وكانوا يعبدون إلها اسمه (مُلُك) (بضمتين) ، وكان من طقوسهم أن يقدموا لهذا الإله قرابين من الأطفال الصغار يذبحونهم ويحرقونهم ، وكان لهم واد فى جنوب مدينة القدس يقومون فيه بهذه الطقوس ، وكان يسمى باللغة الكنعانية والعبرية (جِئى بنى هِنُّم) أو (جى هِنُّم) ، وكانت صورته فى الأذهان هى صورة ازهاق الأرواح ، وإراقة الدماء ، والنيران الملتهبة والجثث المحترقة ، فاستعيرت هذه الصورة وأصبحت (جهنم) علما على دار العذاب فى الآخرة حيث يحترق بنارها كل من حاق بغضب الله .

ونختار كلمة أخرى من الكلمات التى أوردها الدكتور ظاظا هى :

المروءة : أصلها من كلمة المرء ، ومعناها الرجل المكتمل القوى الحاوى لأبرز المميزات التى يمتاز بها هذا الجنس ، فبينما كلمة الرجل بمعناها الأصلى لاتدل إلا على الشخص الذى يمشى على رجلين لاعلى أربع ، كانت لفظة المرء تدل ، زيادة على ذلك ، على مافى الرجل من صفات تدعو لاحترامه ، كالقوة والهمة والشعور بالواجب ، وقد استعملت فى لغات سامية أخرى كالآرامية والسريانية بمعنى السيد أو الرجل العظيم ، وكانت تنطق (مار) فيقال (مار جرجس) ،

---

(٤٨) اللسان والانسان ص ٩٣ .

(مار مينا)، (مار إلياس) .. ألخ .ومن كلمة مرء فى اللغةالعربية اشتقتكلمة مروءة لمجموع صفات الرجولة التى تمثل السيادة .

ومع الزمن وجدنا كلمة على نفس النمط هى كلمة :

الأنوثة : التى تستعمل حديثا لمجموع الصفات التى تميز الأنثى من البشر من الرقة والجاذبية والأمومة .. ألخ .

وهذا موجود فى عديد من اللغات الأوربية فكلمة Virtue الانجليزية أو Vertu الفرنسية تعنى المروءة ، وهى مشتقة من اللفظ اللاتينى Vir الذى معناه الرجل المستكمل الرجولة ، أى المرء .

أما الألفاظ التى تنتقل عن طريق التوسع المجازى والاستعارى فهى كثيرة ولاحصر لها وهى تشترك مع اللفظة المنقولة منها فى وجه شبه ، وكتب البلاغة وفقه اللغة مليئة بهذا اللون من الألفاظ التى انتقلت إلى دلالات مجازية ، سواء وحدها أم بالتركيب . ومن هذه التوسعات التى تقوم على المشابهة :

استعمال أجزاء الجسم للدلالة على أشياء أخرى محسوسة مثل : السنالطرف المدبب منالقلم الذىيكتب به، أو لسلاح كالرمح أو السهم،ومثل رجلالكرسى، ويد المكنسة ، وأضلاع السفينة ، ونجوم المسرح ، وأذن الكوز ، ومثل شفا الجرف ، والرؤيا فى المنام .

كما نأخذ من النباتات وأجزائها بعض التعبيرات مثل : جذر الضرس،وجذع الجسم ، بصلة الرأس ، قشر الشعر . ويقول مذيع مباراة كرة القدم : أعطى له فلان الكرة مقشرة .

ومثل اطلاق الصفات بالحواس الخمس مثل : بكاء مر ، صوت حلو ، صوت ناعم ، أسود القلب ، أبيض القلب ، عطر الذكرى ، أغانى الحياة .

وهناك مجازات أخرى لاتقوم العلاقة بينها وبين معناها الأصلى على المشابهة وإنما تقوم على علاقات أخرى مثل :

١ ــ إطلاق الخاص وإرادة العام مثل : خزن البخيل الذهب والفضة والمراد المال على العموم .

٢ ــ وعكس ذلك وهو إطلاق العام وإرادة الخاص مثل :(أهل الكتاب) والمقصود الكتاب المقدس .

٣ ــ إطلاق المفرد وإرادة الجمع مثل : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، والمقصود كل اليتامى والسائلين .

٤ ــ إطلاق الجمع وإرادة المفرد أو المثنى مثل : الحمد لله رب العالمين ، وشركة المياه ، وعيون الحسناء ساحرة .

٥ ــ إطلاق الجزء وإرادة الكل مثل :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه　　　يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومثل : اجتمعت الرءوس المفكرة ، والأيدى العاملة .

٦ ــ إطلاق الكل وإرادة الجزء كقولنا : الدنيا حر ، والمقصود المدينة التى نعيش بها .

٧ ــ استعمال العلم بمعنى اسم الجنس مثل : الكشمير ، البرطمان ، هذا مسيلمة ، هذا عرقوب .

٨ ــ ــ إطلاق اسم الجنس على العلم مثل : النجاشى ، فرعون ، قيصر ، كسرى .

٩ ــ إطلاق السبب على المسبب مثل : فلان عنده برد .

١٠ ــ إطلاق المسبب على السبب مثل هذا الشخص مرستان .

١١ ــ إطلاق المحل على الحال فيه : شربت كأساً ، هذه إهانة للعرش .

١٢ ــ إطلاق الحال على المحل مثل : زرت الرسول .

وبعد ، فالمجاز والحقيقة يرتبطان ارتباطا وثيقا بفصاحة الكلام ، لأن الكلام الفصيح لا بد أن يؤدى معنى ما ، حقيقة كان أو مجازا ، وعلى قدر وضوح المعنى أو غموضه ، وعمقه أو سطحيته ، وارتباطه بالمادة أو الخيال — على قدر هذا وغيره تقاس فصاحة الكلام .

ويجب أن نوضح أن الدلالة ليست ثابتة دائما ، كما أن الناس لا يقيسونها بمقياس ثابت ، بل إن المعنى يخضع لعوامل كثيرة تجعله نسبياً فى حالات متغايرة ، كما أنه يتعرض للتغير ، وقد يكون التغيير نحو التطور أو نحو الانحطاط أو نحو التخصيص ، أو التعميم أو قد يكون التحول الدلالى عكسياً .

وهذا التحول بأنواعه المختلفة لا يحدث لجأة ، بل تتدخل عوامل اجتماعية كثيرة أو عقائدية ، أو سياسية لتوجيه المعنى ، وقد اجتهد اللغويون لمعرفة اتجاهات التحول الدلالى ، وقد لخص أستاذنا المرحوم الدكتور السعران ما أحصاه اللغويون من أنواع رئيسية تصدق على جميع اللغات[٤٩] وهذه الانواع يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ — التغير الخافض أو الانحطاطى Pejorative Change

وهذا النوع من التغير فى المعنى يصدق على الكلمات التى كانت دلالتها تعد فى نظر الجماعة (نبيلة) و (رفيعة) و (قوية) نسبياً ثم تحولت الدلالات فصارت دون ذلك مرتبة ، أو أصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة، مثل : الكلمات الدائرة حول الجنس ، وحول الزهو الطبقى والألقاب ، والملابس الداخلية ، وكل ما يثير اشمئزازا ونفورا .

٢ — التغير المتسامى Meliorative Change

ويطلق هذا النوع على الكلمات التى كانت تشير إلى معان (هينة) أو (وضيعة) أو (ضعيفة) نسبيا ثم صارت تدل فى نظر الجماعة الكلامية على معان (أرفع) أو (أشرف) أو (أقوى) مثل كلمة (مارشال (Marshal)

---

(٤٩) علم اللغة ص ٣٠٥ — ص ٣١١ .

الانجليزية كانت تعنى فى وقت من الأوقات الغلام الذى يتعهد الأفراس أى (صبى اسطبل) . ومن ذلك أيضا كلمة (Angel) التى كانت تدل على الرسول الذى يشبه موزع البريد فى أيامنا ، ثم رفع الفقهاء هذا اللفظ باستعماله للدلالة على الكائن المتوسط بين العقل الإلهى والعقل الانسانى ، ومثل كلمة (بيت) الذى كان يصنع من الشَّعر ثم صار يعنى المسكن الضخم .

٣ — التغير نحو التخصيص أو تخصيص المعنى

Narrowing (Restriction) of Meaning

مثل الكلمات التى كانت تدل على أشياء عامة ثم أصبحت تدل على شىء خاص مثل كلمة (Meat) التى تعنى الآن فى الانجليزية (اللحم) وكانت دلالتها فيما مضى هى (الطعام) ، وكانت كلمة الفاكهة فى العربية تدل على (كل الثمار) ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالتفاح والعنب والموز والخوخ .

٤ — التغير نحو التعميم أو تعميم المعنى Expansion of Meaning

قد تصاب الكلمة بالتعميم وهو ضد التخصيص مثل كلمة الورد التى تطلق على الورد الأحمر ، لكن الناس يطلقونها على كل أنواع الزهور . وكلمة Manuscript (مخطوط باليد) غالبا ما يتسع معناها ليشمل المادة المكتوبة على الآلة الكاتبة . ولو أن ما يكتب بالآلة الكاتبة يطلق عليه كلمة أدق وهى : (Typescript) .

٥ — التحول نحو المعانى المضادة :

وهذا معروف فى لغتنا باسم الأضداد مثل (الجون) تطلق على الأسود وعلى الأبيض كذلك ، ومثل (بان) بمعنى فارق وبعد ، وبمعنى ظهر واتضح .

ومن الملاحظة أن هذه الاتجاهات التى ظهر فيها تغير فى الدلالة أو المعنى قد لاحظها اللغويون العرب قديما ، وقد أشرنا إليها فيما سبق ذكره عن التوسعات المجازية ، مما يؤكد أن اللغويين العرب قد أدركوا هذه الظاهرة قبل غيرهم من اللغويين .

وهذا التحول الدلالى يمثل صعوبة أمام المترجمين ، وخاصة الذين يقومون بترجمة الأعمال الأدبية ، ولقد تنبه إلى صعوبة الترجمة منذ أكثر من ألف عام أبو عثمان الجاحظ الذى أدرك أن ترجمة الشعر تفقده كثيرا من مقوماته الفنية ويقول فى ذلك :

« . . والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل تقطّع نظمه، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع العجب ،ولا الكلام المنثور، والكلام المنثور المستبدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذى تحوّل من موزون الشعر . »من أجل ذلك وضع الجاحظ للمترجمين شروطا يجب أن تتوافر عندهم حتى يتمكنوا من الترجمة « . . فلابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفه، وينبغى أن يكون أعلم الناس، باللغة المنقولة، والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما . . »(٥٠)

والجاحظ يتصور أن اللسان لا يتمكن من لغتين معا بدرجة واحدة ، وأن إتقان إحداهما يكون على حساب الأخرى ، كما يتصور أن المترجم مهما بلغت درجة إتقانه للغة اجنبية فانه لا يفى الترجمة حقها « .. فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرة ، وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفع مثل أرسطوطاليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون . .»(٥١) والجاحظ بهذا يبين صعوبة الترجمة .

---

(٥٠) الحيوان ج ١ ص ٧٥ ـ ص ٧٦ .
(٥١) الحيوان ج ١ ص ٧٥ ـ ص ٧٦ .

فنقل المعنى من لغة إلى أخرى أمر لا يتاح بسهولة ، كما أنه لا يتصف بالكمال وخاصة تلك المعانى التى حدث لها نقل من الحقيقة أو من المعنى الأصلى إلى المجاز . والذى ينظر فى ترجمات الكتب المقدسة يستطيع أن يرى بسهولة مدى اختلاف المترجمين للنص الواحد أو حتى اللفظة ، كما حدث فى ترجمة لفظ الجلالة (الله) عند ترجمة القرآن الكريم ، بل إن التفسيرات التى تدور حول النص الواحد تختلف باختلاف الثقافات والبيئات المختلفة والمذاهج التى يسلكها علماء التفسير .

وقد ترجع صعوبة الترجمة إلى ما قد يصيب اللغة من توسعات وتضخم عن طريق بعض الظواهر الأخرى ، مثل (الترادف) الذى يعنى وجود لفظين أو أكثر لمعنى واحد ، مثل ما يروى من أسماء الخمر والسيف والأسد والحجر وغير ذلك . وبصرف النظر — الآن — عما يقال فى الترادف أو تلك الألفاظ. ويشبه (الترادف) فى هذا الأثر ما يعرف (بالمشترك) أو (الاشتراك) وهو يعتمد على وجود معنيين أو أكثر للفظ واحد مثل كلمة (العين) التى أورد اللغويون لها أكثر من عشر معان . ومن ذلك أيضا ما يعرف (بالتضاد) الذى يقوم على اشتراك معنيين متناقضين فى لفظ واحد ، مثل كلمة (الجون) التى ذكرناها آنفا والتى تطلق على الأسود وعلى الأبيض .

فالمجاز والترادف والاشتراك والتضاد عوامل تؤدى إلى نقل المعنى إلى معان أخرى ،وذلك النقل يؤدى بدوره إلى صعوبة نقل المعانى من لغة إلى أخرى عن طريق الترجمة أو التلخيص أو غير ذلك .

وهذه العوامل التى أدت إلى التوسع فى المعنى بنقله إلى معان أخرى سنتناولها إن شاء الله ، فيما سنعقده عن عيوب الفصاحة بشىء من التفصيل .

ولا يسعنا الآن إلا أن ننتقل إلى ما يسميه البلاغيون (فصاحة المتكلم) لنوضح العلاقة بينها وبين علم الدلالة أو دراسة المعنى .

ثالثا : علاقة فصاحة المتكلم بعلم الدلالة

رأينا فيما سبق ما يمكن أن يؤديه الفرد من ألوان صوتية تؤثر فى المعنى ، ولقد ذكرنا فيما سبق أن للفرد أثرا يتضح عند الإلقاء أو الأداء ، فجهارة المتكلم لها دورها الكبير فى وضوح المعنى لأن الصوت الواضح لدى المتكلمين يساعد على تحقيق الاستماع الكامل والفهم الكامل ، والعكس صحيح لأن عدم وضوح اللفظ يؤدى إلى عدم وضوح معناه فى ذهن سامعه .

وإذا سلمنا بأن الهدف المطلوب هو وضوح الدلالة فى ذهن السامع ؛ فإن المتكلم الفصيح يتحتم عليه أن يكون حذرا ودقيقا ومحايدا ، لأن عدم حيدته قد تؤثر فى تغيير الدلالة لدى السامعين . وهناك عوامل أخرى تقع على عاتق المتكلم ؛ هى مراعاة النبر الذى قد يؤدى تغييره إلى تغيير الدلالة ، وكذلك مايعرف باسم (التنغيم) قد يؤثر أيضاً فى المعنى .

وفصاحة المتكلم تتعلق بعوامل أهمها القرائن المحيطة به ، والمؤثرة فيه عند الكلام ، وهذه القرائن قد تكمن فى قدراته الخاصة التى يتمتع بها ؛ كطريقته فى النطق أو قوة شخصيته ، أو مكانته بين سامعيه ، كما قد تتعلق هذه القرائن بمقتضيات الأحوال أو المقام والمقال ، وهذا لايخص الفصاحة وحدها وإنما يتعلق بالبلاغة أيضاً .

ولقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، ونحن نخشى الاستطراد فى الحديث ، والتكرار المفسد ، كما أننا سنتناول عيوب الفصاحة فيما سيأتى إن شاء الله ، وأكثر هذه العيوب تتعلق بالمتكلم . أى أننا سنتناول الجانب السلبى فى فصاحة المتكلم فى الفصل القادم ، كما أننا تناولنا الجانب الايجابى منه عندما تناولنا فصاحة المتكلم فيما سبق .

وخلاصة رأينا أن علم المعنى يرتبط مع فصاحة المتكلم بروابط وثيقة لأن المتكلم يستطيع أن يؤدى معناه بطريقة قد تزيده وضوحا وجلاء ، وقد تنقصه وتزيده غموضا وإبهاما ، بل إن المتكلم يضيف إلى المعنى أشياء كثيرة تتعلق بالمقام الذى يتحدث فيه ، وبقدرة السامعين على إدراك المعانى الجانبية ، وتدور فصاحة المتكلم فى أكثر أحوالها حول الخطيب ، لأن أكثر مقتضيات الأحوال تتعلق بأدائه ، ولأن قدرته على الأداء ومدى تأثيره يرجع إلى إمكاناته الخاصة .

ولنا عودة إلى المتكلم فى الفصل القادم — إن شاء الله .

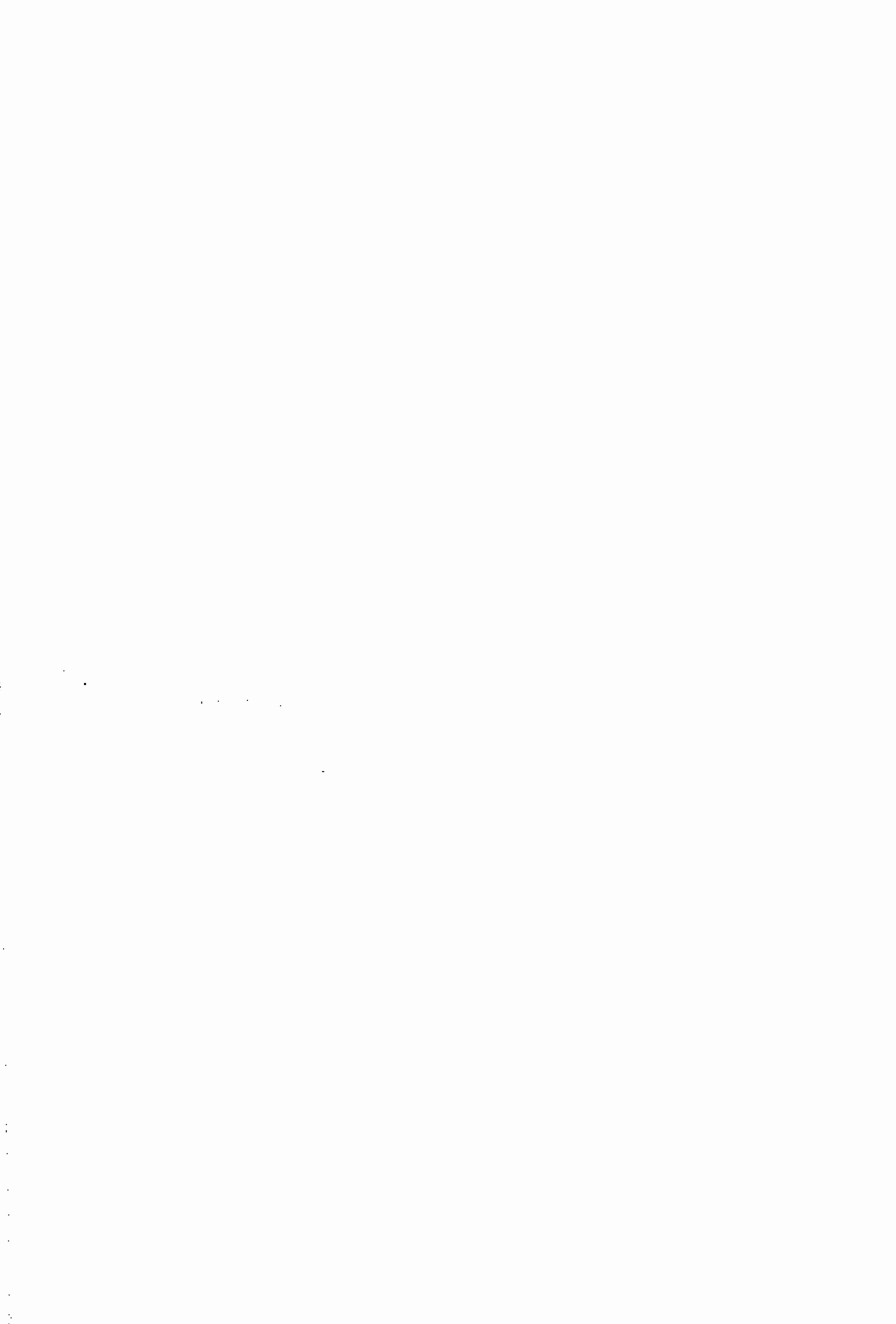
الباب الثالث

عيوب الفصاحة

ويتكون من فصلين :

الأول : عيوب الكلام :

الثاني : عيوب الكتابة :



نرى أن استكمال هذا البحث يتطلب منا أن نعرض الجانب الآخر للفصاحة، ونعنى به معوقات الفصاحة أو عيوب الفصاحة ، فقد تصاب الفصاحة بأمراض تسبب لها الفناء والتقويض ، والفصاحة فى ذلك كأى ظاهرة أو علم ، لها مايقويها ويدعمها من العوامل والشروط التى ترتقى بها ، وتقربها من الأذهان ، وتجعلها نافعة فى حياة الناس ، كما لها من المعوقات التى تصيبها بالجمود والتخلف ، وتمنعها من الوصول إلى الأهداف المرجوة لها ، وتنفى عنها صفاتها الأساسية التى تحدد معالمها وخصائصها بين الظواهر أو العلوم الأخرى .

أغلب أسباب الازدهار والتطور ، أو الانحاط والجمود المتعلقة بعلم أو فن ترجع أول ماترجع إلى الإنسان القائم على هذا العلم أو ذلك الفن ، وهذا ينطبق تماما على الفصاحة ، فتوجد الفصاحة ، وتزدهر بالفصحاء القائمين عليها ، الحريصين على إبرازها فى كلامهم المنطوق ، أو فى كتاباتهم المختلفة . كذلك تصاب الفصاحة بالفساد والفناء بسبب الناطقين الذين انتفت عنهم صفات الفصاحة ، أو الكتاب الذين عجزوا عن مراعاة شروطها وتوافر أسبابها .

ومن ثم فاننا سنصنف تلك العيوب التى تعبر عن الجانب السلبى للفصاحة إلى مظهرين يضمان أقساما أخرى ، ونعنى بهما :

أولا : العيوب المتعلقة بالكلام المنطوق .

ثانيا : العيوب الخاصة بالكتابة .

وهذا التصنيف لايخالف كثيراً منهجنا الذى سلكناه فى البابين السابقين ، ونعنى به التصنيف العام الذى يدور حول فصاحة الكلمة ، وفصاحة الكلام وفصاحة المتكلم ، وفى الحقيقة نرى أن حديثنا عن العيوب المتعلقة بالكلام المنطوق ،سيتناول إن شاء الله فصاحة المتكلم وفصاحة الكلام والكلمة ، كما أن تناولنا لعيوب الكتابة سيشمل أيضا فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام ، فلا اختلاف فى نظرنا بين التصنيفين الأول والثانى .

وحديثنا عن عيوب الفصاحة مجال يتسع فيه القول ، لكننا سنحاول — إن شاء الله — أن نأخذ الجانب الذى يتعلق ببحثنا ، محاولين أن نتجنب الاستطراد الذى يبعدنا عن هدفنا المرجو ، لكننا فى نفس الوقت سنبتعد عن الإيجاز المخل .

الفصل الأول

عيوب الكلام



نعنى بالكلام هنا الكلام المنطوق الذى يبدو فى صورة أحاديث وخطابة ، أى الكلام المؤدى ، لأن الكلام المكتوب شىء آخر ، لأنه قد افتقد كثيراً من صفات الكلام المنطوق .

وعيوب الكلام المنطوق تقسمها على أساس مصدر العلة أو العيب ، وليس على أساس المظهر الخارجى للعيب الكلامى ، وهذه العيوب قسمان هما :

أولا : عيوب عضوية Organic

ثانيا : عيوب وظيفية Functional

ويصنّف تحت هذين القسمين مظاهر كثيرة خارجية تأخذ صورا مرضية متنوعة.

أولا ــ العيوب التى ترجع الى أسباب عضوية :

ومن المعروف أن نطق الأصوات يحدث بأعضاء النطق ، وهذه الأعضاء لها وظائف أساسية أخرى غير النطق ، كالتنفس لتغيير الهواء فى الرئتين والقصبة الهوائية ، أو كمضغ الطعام وتحريكه وتذوقه مما يقوم به اللسان ، كذلك الأسنان واللثة والحلق واللهاة والشفتان ، فهذه الأعضاء كلها لها وظائف غير النطق، وعملية النطق وظيفة أخرى تقوم بها إلى جانب قيامها بوظائفها الأساسية . وإصابة أى عضو من هذه الأعضاء يؤدى تبعاً لذلك إلى قصور فى وظائفها الأساسية أو الثانوية ، فالكلام الفصيح قد يصيبه القصور بسبب ما أصاب أعضاء النطق ، والإصابات التى تحدث لأعضاء النطق نوعان :

(أ) خلقيـــــة :

فقد يولد الانسان وفى أعضائه النطقية بعض القصور أو الزيادة التى تعوق الكلام الفصيح ، من ذلك الحالات النادرة التى يكون فيها سقف الحنك مفتوحا، أو لا يفصله فاصل عن التجويف الأنفى، ومثال ذلك النتوءات التى تحدث بالأسنان وكذلك أن يولد الإنسان مشقوق الشفة ، وكذلك وجود بعض من الالتحام

بين جزء وآخر من هذه الأعضاء . هذا بالإضافة إلى ماقد يكون بالمخ أو الغدد الصماء من أشياء خليقة مخالفة لعامة الناس أو الأسوياء .

وكل هذه الأشياء الخلقية تسبب قصورا فى أداء وظائف الأعضاء التى أصابتها فالقصور فى مركز الجهاز العصبى أو المخ قـــد يؤدى إلى العجز التام عن النطق أو العجز الجزئى، أما العيوب الخلقية بالأعضاء الأخرى فإنها تؤدى إلى إفساد الفصاحة كالإصابة باللثغة بأنواعها ، والحبسة التى تنتج عن عوامل مختلفة، كما قد تصيب الناطق باللغنة ، وغير ذلك من تلك العيوب التى قد تنتج عن أسباب أخرى للقصور فى الأعضاء .

(ب) مرضيـــــة :

وقد تخلق الأعضاء التى تستخدم فى النطق صحيحة سليمة ، لكن قد يصيبها فى مرحلة ما من عمر الإنسان مايتلفها أو يشوهها، أو يصيب تركيبها بالخلل، مثلما يحدث للأسنان مثلا أو اللسان أو الشفتين ، كما قد يصيبها أشياء عارضة تزول بزوال مؤثراتها ، كالأمراض العارضة التى تصيب الأنف والفم والحلق والرئتين والوترين الصوتيين .

وهذه الإصابات المرضية تؤدى بدورها إلى قصور فى النطق ، وهذه العيوب المتعلقة بالنطق سنتناولها بالتفصيل إن شاء الله .

لكن قد يطرأ على أعضاء النطق عوارض مرضية أو أصابات مفاجئة تؤدى إلى فقدان النطق مثل تلك التى تحدث فى المخ ، والمخ مركز للجهاز العصبى كله ، إليه ينتهى الكلام ، ومنه يصدر أيضا ، ولقد تعددت وجهات النظر فى تفسير العلاقة التى تربط اللغة أو الكلام بالمراكز العصبية فيذهب البعض إلى جعل الطبقة التى تغطى المخ cortex مقسمة إلى مناطق أو مراكز ، وهى الطبقة التى تسمى (الطبقة السنجابية) أو (اللحاء) ، وهذه الطبقة يعتقد أنه يتم فيها

عملية التنسيق الخاصة بالجهاز العصبي ، ويرى علماء وظائف الأعضاء وعلم النفس أنها ثلاث مناطق هي منطقة الحس ،ومنطقة الحركة ، ومنطقة الترابط ، ويرون أن منطقة الترابط لهـا دور كبير في التعليم ، لأنها تقوم بربط مناطق الحس والحركة معا . [1]

وهذا الرأي يقابله رأي آخر ،ينكر أن تكون للغة مراكز مميزة ،وإنما يدور هذا الرأي حول النظرة التي ترى أن الكلام شأنه في ذلك شأن أي نشاط عقلي أو جسماني آخر يتطلب نشاط جميع المخ [2] .

ولا تعنينا في هذا المقام الاختلافات التي نشأت عن تلك النظريات أو وجهات النظر ،وإنما يعنينا أن نبين أن ثمة علاقة وثيقة بين سلامة المخ والفصاحة، كما أن ثمة علاقة وثيقة بين المخ الذي قد أصابه قصور والفساد الذي قد يلحق بالفصاحة ، وهذا لا يمنعنا من الإشارة إلى الرأي الذي يأخذ به أكثر علمـاء النفس ، عندما ينظرون إلى علاقة اللغة بالجهاز العصبي ،وخاصة اللحاء أو الطبقة السنجابية ؛ وتتلخص وجهة نظرهم في أن هناك نصفين في الدماغ ، وأن كلا منهما يحكم الطرف الآخر المعاكس للبدن ،لكن مركز التحكم في أعضاء الصوت يوجد في موقف وسط ، ولهذا يسيطر النصفان على عمليات إخراج الصوت ، ويعتبر طومسون Thomson من أشهر الذين فصلوا هذه الفكرة ،فهو يرى أن نصفي الدماغ يسيطران معاً على أعضاء الصوت في حالة إخراج الضوضاء ، أو القيام بعمليات البلع والعمليات الأولية الأخرى المماثلة ،لكن حين يأتي الأمر إلى اللغة والكلام

---

1 — How The Brain works By : S. L. Franz P. P. 29-32
— Social psychology By ; Allport P. P. 29 — 30

2 — The Backward child By : C. Burt p p. 325 — 327

نجده يرى أن النصف الأيسر هو الذى يسيطر فى حالة الشخص الأيمن، وأن النصف الأيمن هو الذى يسيطر فى حالة الشخص الأعسر [٣] .

هذا عن اللحاء أو عن المخ بوجه عام ، أما عن أعضاء النطق الأخرى فقد تصاب بما يغير وظائفها ، ويقلل من فصاحة المتكلم مثلما يحدث فى حالات المخصيين الذين تتغير أصواتهم ، ومثل سقوط بعض أو كل الأسنان ، أو ماقد يصيب الوترين من عوامل تؤدى إلى شدهما أو إرتخائهما ، ولقد تناول الجاحظ قديما هذه الحالات فى كتابى الحيوان والبيان والتبيين ، وسنذكر طرفا منها فى حينه إن شاء الله .

هذه هى بعض الأسباب أو العلل التى تسبب عجزا أو قصورا فى النطق ، وهى علل متصلة بالأعضاء التى قد تصاب بتلف أو عجز بسبب الخلقة أو بسبب المرض ، وينتج عن ذلك عجز عن كل أو بعض الكلام ، عما يفقد الإنسان فصاحته .

ثانيا عيوب ترجع الى أسباب وظيفية :

قد تكون الأعضاء المؤدية للكلام صحيحة سليمة من الناحية الحيوية (البيولوجية) ، لكن قد تسبب لها عوامل أخرى ما يجعل وظائفها مؤداة بطريقة غير كاملة ، وهذه العوامل التى تصف الوظائف بالنقصان قد تكون داخلية فى الإنسان نفسه أو خارجية محيطة به ، والعوامل الداخلية قد تكون إرادية أو مزاجية ، مثل تكلف المتكلم فى نطقه رغبة منه فى أن يصبغ نطقه معينة بصبغة كأن يتشادق ، أو يتفيهق أو يدخل على نطقه اللثغ أو الغنة ، ويكون ذلك بنقل مخارج الحروف ، أو إشراك بعض المخارج فيما ليست له ، ومن ذلك ميل بعض النساء

---

3 — Instict, Intelligence and character By: Thomson (G. H.) P, 104 London 1949

انظر فى ذلك أيضا ارتقاء اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة ص ٢١ د. صالح وشماع .

على وجه الخصوص إلى إدخال بعض اللثغ فى نطقهن لبعض الحروف، كما يحدث فى الراء رغبة منهن فى التدلل ، ومثلما يفعلن فى بعض الحروف المطبقة، كالطاء التى يحولنها إلى تاء ، والضاد إلى دال ، وكما يحدث أيضا فى تحويل القاف إلى كاف أوهمزة .

أما العوامل الداخلية غـــير الإرادية فهى مرتبطة بمؤثرات خارجية ، أى بعوامل نفسية أو اجتماعية ، أى أن المتكلم قد يحاط فى بيئته بما يدفعه إلى سوء العادة فى نطقه ، فالكلام ليس مقاطع صوتية فقط تحدثها أعضاء النطق ، بل هو ما تحمله الأصوات أيضا من معان ، وانفعالات ، ورغبات مرتبطة بمثيرات خارجية حوله ، وهذه العوامل المختلفة يمكن أن تصنف ضمن عاملين هما : العامل النفسى ، والعامل الاجتماعى ، وهذان العاملان يمكن أن يلقيا ضوءا على عيوب النطق لدى الأطفال الذين التصقت بهم عثرات فى نطقهم ، وظلت ملازمة لهم فى شبابهم ، فقد يكون عدم توافق الإنسان مع بيئته وخاصة الطفل ، واعتقاده أن موقفه من أى شىء يمكن أن يجلب له الأذى - يؤدى إلى التردد والخوف ، ويقوض التوافق الذى بينه وبين بيئته ، وهذا الشعور الذى يحس به نحو بيئته يسبب له معوقات كلامية ، مثل التهتهة أو اللجلجة التى قد تصاحبه فى مراحل حياته المختلفة ، مما ينفى عن كلامه صفات الفصاحة ، ويمكن أن نطلق على تلك الظروف المحيطة بالإنسان عند طفولته والتى تؤدى إلى قتل فصاحته (بسوء النشأة) ؛ فالعامل الاجتماعى يسبب تبعا لذلك عاملا نفسيا ، فالطفل الذى تحيط به ظروف بيئية سيئة قد يتولد عنده الشعور بالخوف والتردد ، وعدم الثقة، بل ربما تؤدى به تلك الظروف إلى شخصية عصبية Neurotic كما أن تدليل الأبوين لأطفالهما أو إهمالهما يؤدى إلى الكلام غير السوى .

ولا يقتصر الأمر على الناطقين فقط بل هناك عوامل تؤثر فى الفصاحة تتعلق بالسامعين ،وقد يؤدّى الكلام بأعضاء سليمة للنطق ،لاتؤثر فيها عوامل داخلية أو خارجية ،ولا تتخلف صفة من صفات الفصاحة عند أداء المتكلم ، لكنها قد تجد آذانا غير مستجيبة لسماعها،أى أن الكلام الفصيح المنطوق يجب أن يلق مكانا صالحا ليستقر فيه ، وتظهر فيه ثماره ، فالسامع يجب أن تكون حالته الشعورية متوافقة إلى حد ما مع ذلك الكلام الفصيح الذى وقع فى أذنيه ،وهذا ما يمكن أن يطلق عليه مراعاة المقام ، أو القرائن المصاحبة للكلام . والكلام الذى لا يترك أثرا فى سامعه ، ولا تكون له استجابة لديه ، يفتقد كثيرا من قيمته لدى هؤلاء السامعين .

ولقد استقرت نظرة اللغويين وعلماء النفس على أن الكلام تكتمل مقوماته بالمتكلم الفصيح ،والمستمع الجيد ،لكننا نرى عاملا آخر له آثاره التى لا يستهان بها، ونعنى به الوسط الموصل بينهما ، فلابد أن يحمل الكلام من أجهزة النطق عند المتكلم بموصل صادق أمين حتى تتلقاه أذن السامع،وهذا الموصل هو الهواء الذى يمتلىء به الكون ، ومن الواضح فيزيائيا أن الوسط المفرّغ من الهواء لا يوصل الصوت، فالهواء هو الذى يحمل الصوت بجميع صفاته لينقله إلى الأذن ، لكن هذا الوسط الموصل قد تداخله بعض الأصوات الخارجية التى قد تفقد الصوت المحمول بعض خصائصه .

كل هذه العوامل الخلْقية والمرَضية ، وما يتصل منها بالأعضاء أو الناحية الوظيفية تؤدى ــ بنسبة ما ــ إلى انتقاص فصاحة المتكلم ،أو الفصاحة المنطوقة، وهذا الانتقاص يظهر فى صورة عيوب فى النطق،ونستطيع أن نوضح هذه العيوب النطقية فى مظاهر متنوعة، وقد تنبه الأقدمون إلى كثير منها ونبهوا إلى خطورتها،

وهى كما يلى :

١ — البكم والخرس والصمم : —

والبكم Mutisme يقال : إنه النطق مع عىّ أو بله .

وقيل إن الأبكم : هو الذى يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر .

أما الخرس فقد قيل فيه : إنه المنع عن الكلام خلقة .

وقيل هو منعقد اللسان عن الكلام وقد أخرسه الله(٤) .

والصمم هو المنع عن السمع .

وهذه الصفات ليست عيوبا فى فصاحة الكلام فقط ، بل هى عيوب فى الإنسان الذى حرم الكلام والسمع ، فليس هناك كلام حتى يوصف بالفصاحة أو عدمها . ومن ثم فإن آفات البكم والخرس والصمم قاتلة للفصاحة والكلام. وهذه العيوب فى أغلب حالاتها تكون خلقية ، لكن قد يحدث الخرس والصمم فى مراحل متأخرة من عمر الإنسان . والذين يولدون بالعاهات السابقة لا يكتسبون فصاحة بعد ذلك ، ومع ذلك فهناك حالة نادرة ومشهورة هى حالة (هيلين كيلر) الأمريكية Helen Keller التى ولدت سنة ١٨٨٠ م ، وتتلخص حالتها فى أنها قد أصيبت بفقد السمع والبصر وهى فى شهرها العشرين ، فلم تكن قد حصلت من لغتها القومية إلا القليل الذى لا يفى برغباتها ، ولم تستطع بعد ذلك أن تتعلم ألفاظا وجملا تعينها على التعبير اللغوى ، ويقال : أن أمر تربيتها قد تولته سيدة اسمها (آن سليفان) فأخذت تعلمها الأشياء عن طريق اللمس ، كأن تأخذ لعبة وتضعها فى يدها وتكتب لها فى يدها الأخرى (ل ع ب ة)، ثم تكرر ذلك عدة مرات ، حتى تستطيع أن تدرك الحروف التى تتكون منها هذه الكلمة ، وأن تكتبها كما أرادت ، فعلمتها بذلك كتابة الحروف والكلمات، ثم انتقلت بها إلى تعليم القراءة من كتاب ذى حروف بارزة ، ثم علمتها بعد ذلك النطق عن طريق مخارج النطق باليد حتى تعلمت نطق الكلمات والجمل ، وبهذا

(٤) الافصاح فى فقه اللغة الباب الثالث ص ٢١٢ .

قامت اليد مقام الأذن فى إدراك المسموعات . ويقال : إن (هيلين) قد دخلت المدرسة وتعلمت المواد الدراسية ، ودخلت الجامعة ، وتفوقت على غيرها من الأصحاء ، كما تمكنت من كتابة الشعر ، وتأليف الكتب[٥] ، وينسب إليها بعض الكتب مثل :

The Story of My Life, and the World I live in,

وهناك عيوب فى نطق المتكلم أقل درجة من البكم والخرس مثل :

العىّ : هو العجز عن النطق .

والحَصَر : هو امتناع الكلام والقراءة على صاحبه .

والفهاهة : هى أن يصاب الإنسان بالكلالة والعىّ .

الارتاج : هو استغلاق الكلام عند طلبه بسبب الحَصَر أو العى أو النسيان.

وهى معان قريبة ،أو صفات مختلفة للعاجز عن الكلام ،وهناك صفات أخرى مثل : الكهام : وصف للسان الكليل عن البلاغة ، ومثل : المفحم : صفة للمهزوم الذى لم يجد جوابا يدفع به حجة خصمه .

٢ ـ احتباس الكلام وثقل اللسان :

ويصنف تحت هذا المظهر من عيوب النطق مجموعة أمراض كلامية تعرف باسم Aphassia [٦] ويترجم علماء النفس هذه اللفظة بكلمة (حبسة) أو (عقلة) .

والحبسة : هى تعذر الكلام عند إرادته ، وهى خلاف الطلاقة التى هى صفة من صفات الفصاحة ، ويقال : فى لسانه حبسة : أى ثقل يمنع من الإبانة .

---

(٥) اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها د٠ عبد العزيز عبد المجيد ص ٣٥ ـ ص ٣٦ ٠

(٦) امراض الكلام تاليف الدكتور مصطفى فهمى ص ٥٩ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٦ ٠

والعقلة : هى اعتقال اللسان وامتساكه ، وهو استعمال مجازى أصله الاعتقال الذى يحدث للدابة عندما تربط بحبل يمنعها من الفرار ، وعجز اللسان عن أداء وظيفته يبدو وكأنه مقيد بعقال .

وهناك درجات من احتباس الكلام وثقل اللسان أخف من الحبسة والعقلة هى :

اللّوثة : البطء فى الكلام .

الرُّتّة : التردد فى الكلام ، والأرتّ : الذى يتردد فى الكلمة وألا تكاد كلمته تخرج من فيه .

٣ ـ عيوب طلاقة اللسان :

وهى عيوب قد تصيب السلاسة وطلاقة اللسان Fluency ، وأهم صورها التهتهة أو اللجلجة ، وهى عيوب تتمثل فى ثقل اللسان وتردده ، واللجلاج : هو الذى يردد الكلمة فى فيه ولا تكاد الكلمة تخرج منه ، وهذه العيوب قد تطلق عليها الرّتّة أو اللوثة أيضاً . وقد تطلق التهتهة Stuttering على أكثر اضطرابات الكلام لأنها أشهر عيوب الكلام التى يلاحظها علماء النفس ،وعلماء الأصوات لدى الصغار والكبار .

والتهتهة تكون بتكرارات آلية غير مكونة للمقاطع الصوتية أو الكلمات، وقد تكون أيضاً بإطالة الأصوات الأولى فى المقاطع أو الكلمات عن طريق زيادة النغمة أو كمية الصوت ، ويضيف علماء النفس صورا أخرى للتهتهة : كأن يتحرك الفك دون إخراج أى صوت ، أو كإدخال بعض الأصوات القصيرة ، أو الكلمات التى لا محل لها فى تكوين الجملة[٧] .

---

(٧) انظر فى ذلك ما كتبه هاريمان فى موسوعة علم النفس تحت مادة باثولوجيا الكلام :

Encyclopedia of Psychology : Harriman (editor). New Yourk 1946.

ويجب أن نلاحظ الفرق بين التهتهة التى تلازم كثيرا من الأطفال ، وما قد يصاحب الكبار من التهتهة ، فمن المسلم به أن التهتهة ظاهرة مرضية فى الأطفال والكبار ، لكنها قد تكون وقتية عند الأطفال ، أما إذا استمرت مع الطفل فى مراحل عمره التالية فإنها تستوجب الرعاية المضاعفة ، وقد توقفنا عند مسببات أمراض الكلام أو معوقات النطق فى بداية حديثنا فى هذا الفصل ، ونستطيع أن نقول : إن أكثر تلك الحالات التى تظهر فيها التهتهة عند الكبار يكون سببها متصلا بتلف أو عيب عضوى ، وخاصة فى المركز العصبى ، وهذا لا يمنع أن يكون للعوامل الأخرى نصيب فى ذلك التأثير . ويؤكد علماء النفس أنه لا توجد أى خصائص بدنية تميز أصحاب التهتهة من غيرهم(٨) . ويؤكدون على العوامل النفسية ، مثل نزعة الإلحاح وروح التأديب فى بعض الأمور ، كالنظافة وآداب المائدة وغير ذلك مما يدقق فيه الآباء ، ومن الأسباب الهامة أيضا تعليم الأعسر استعمال يمناه . ويرى هارعان فى مادة (باثولوجيا الكلام) التى كتبها فى الموسوعة النفسية ، أن أى طريقة لعلاج التهتهة غير قابلة للتعميم مهما كان نجاح تلك الطريقة ، وربما يرجع ذلك إلى تعدد مسببات التهتهة .

وخلاصة القول فى التهتهة أنها آفة من آفات الفصاحة تصيب المتكلمين من عدة اتجاهات ، وقد يسهل علاجها إذا لم تكن أسبابها عضوية .

والتكرارات الصوتية الآلية لا تطلق على التهتهة فقط ، وما يقال عن التهتهة يقال أيضاً عن ظواهر مرضية لطلاقة اللسان مثل :

التمتمة : وهى رد الكلام إلى التاء والميم ، وتكرار ذلك بطريقة آلية أيضا

الفأفأة : وتكون بتردد حرف الفاء .

الجمجمة : هى إخفاء الشيء فى الصدر ، وهى ألا يبين المتكلم كلامه .

---

(٨) ارتقاء اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة د. صالح الشماع ص ١٥٧ .

انظر أيضا : أمراض الكلام للدكتور مصطفى فهمى فيما كتبه عن اللجلجة ص ١٦٣ ــ ١٩٤ ، وعلاجها ص ١٩٧ ــ ص ٢٢٧ .

الهيثمة : والمتكلم الموصوف بها لايفهم كلامه، ومثلها الدندنة وهى الكلام الخفى الذى لايفهم .

الزمزمة : تراطن العلوج عند الأكل وهم صموت لاتستعمل اللسان ولا الشفة، لكنه صوت تديره فى خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضها عن بعض .

الضغضغة : أن يتكلم فلا يبين كلامه .

الثغثغة : تتابع الكلام فى عجلة واضطراب ، وتكون بتحريك المتكلم أسنانه فلا يبين كلامه ، والكلام المثغثغ هو الذى به خلط .

التغتغة : تكون للشيخ الذى لم يفهم كلامه لسقوط أسنانه[٩] .

وهى ترديد الصوت بغير أن يسمع ولايبين .

وهذه صفات لتكرار الصوت فى الفم بصورة مرضية ، وهى لاتؤدى إلى كلمات صحيحة سليمة ، وهذه الصفات المختلفة قد يطلق عليها التهتهة أو اللجلجة ، وهى فى جملتها آفات للطلاقة والفصاحة التى يتصف بها المتكلم .

٤ ـ عيوب ابدالية وصوتية :

وهى عيوب تصيب نطق المتكلم الفصيح ، وقد تكون بطريقة إبدالية لمواضع النطق أو مخارج الحروف Points of Articulation ، وينتج عن ذلك الإبدال نطق صوت مخالف للصوت أو الحرف المراد نطقه كما يحدث فى بعض أنواع اللثغة التى ترجع بعض أنواعها إلى عيوب صوتية Voice Disorders ، والعيوب الصوتية أو اضطرابات الكلام وصف عام لأنها تشمل الإبدال وغيره ، وأظهر هذه الحالات المرضية التى يتمثل فيها الإبدال مايعرف باللثغة .

واللثغة : Lisping من العيوب الشائعة فى الصغار والكبار، وهى تنشأ عن تغيير مخارج الحروف كما أشرنا ، مثل جعل السين ثاء ، أو جعل الراء غينا أو

---

(٩) الافصاح فى فقه اللغة ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

ياء ، وقد يكون ذلك الإبدال ناتجا عن عيب خلق بيولوجى ، أو عيب وظيفى أو فسيولوجى ، فقد يكون اللسان به التصاق غير طبيعى من أسفله مع أسفل الفم ، فتتقيد حركته من الأمام قليلا مما يمنعه من أداء وظيفته كاملة عند نطق الحروف الأمامية مثل الراء والسين . وقد تكون ثنايا الفم غير منتظمة أو بها نتوءات تعوق اللسان السليم من حركته الطبيعية ، فيتسبب عن ذلك انزلاق ، أى أن بعض الحروف التى تشترك فيها اللثة أو أصول الثنايا لايتاح للسان أن يرتكز عندها بسبب تلك العيوب السنية ، فيسقط إلى أسفل فيما بين الثنايا كما يحدث فى لثغة السين التى تتحول إلى ثاء ، ويمكن أن ـ . المخرج إلى مخرج بعيد عنه كثيرا ، مثلما يحدث فى لثغة الراء التى ترتد إلى أعلى الحلق لتشبه الغين ، ويرى أبو عثمان الجاحظ أن الحروف التى تدخلها اللثغة أربعة أحرف هى : القاف ، والسين ، واللام ،والراء ، كما يرى أن هناك لثغة خامسة هى لثغة الشين، ولم يذكرها مع الأربعة السابقة لأن الخط العربى لايصورها ، وإنما تخرج من مخرج مخالف للحروف المعروفة له ، ثم يوضح الجاحظ بعد ذلك اللثغات التى تعرض لتلك الحروف وهى :

اللثغة التى تعرض للسين تكون ثاء ، مثل ُبثرة إذا أرادوا ُبسْرة ، ومثل : بثم الله إذا أرادوا بسم الله .

اللثغة الثانية هى التى تعرض للقاف : ويلاحظ الجاحظ أن صاحبها يجعل القاف طاء ، فاذا أراد أن يقول : قلت له ، قال : طلت له، وإذا أراد أن يقول: قال لى ، قال طال لى .

أما اللثغة التى تقع فى اللام فلها صورتان عند الجاحظ :

الحالة الأولى : هى التى يجعل أصحابها اللام ياء فيقولون : جمى بدلا من جمل.
الحالة الثانية : ويجعل أصحابها اللام كافا ، ومثال ذلك عندما عرض لرجل اسمه عمر ، فانه كان إذا أراد أن يقول : ما العلة فى هذا ..؟ قال : مَكْعِكّة

فى هذا[١٠] ... ؟

والملاحظ أن الحالة الثانية للثغة غريبة علينا ، وهذا لايعنى أنها لم تكن موجودة فى بيئة الجاحظ وأنه الجاحظ لم يلاحظها .

أما لثغة الراء فهى كثيرة وتدور على ألسنة كثير من المتكلمين ، ولثغة الراء عند الجاحظ تقع فى أربعة أحرف هى :

جعل الراء ياء ، فاذا أراد صاحبها أن يقول : عمرو ، قال : عمى .

جعل الراء غينا ، فاذا أراد صاحبها أن يقول : عمرو ، قال : عمغ .

جعل الراء ذالا ، فاذا أراد صاحبها أن يقول : عمرو ، قال : عمذ .

جعل الراء ظاء ، فاذا أراد أن يقول مرة قال : مظة[١١] .

وفى الحقيقة نرى أن الجاحظ قد استوفى أنواع اللثغ ، بل قد أورد نظرة المجتمع لكل منها ، وخاصة اللثغة التى تحدث للراء، ويقول الجاحظ : « ... واللُّثغة التى فى الراء إذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة ، ثم التى على الظاء ثم التى على الذال ، أما التى على الغين فهى أيسرهن ، ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده ، وأحدّ لسانه ، وتكلف مخرج الراء على حقها ، والإفصاح بها ، لم يك بعيدا أن تجيبه الطبيعة ، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا »[١٢] .

كما يذكر الجاحظ أشهر اللثغات ، وهى تلك التى عرفت لدى أصحابها المشهورين مثل لثغة واصل بن عطاء ، ولثغة موسى عليه السلام ، ولثغة محمد ابن شبيب المتكلم، وأسهلها لثغة محمد بن شبيب التى كانت تقع فى الراء التى تصير غينا ، وصاحبها كان يستطيع أن يحمل نفسه على تركها ، ولكنه كان يتركها ،

---

(١٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤ ـ ص ٣٥ .
(١١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥ .
(١٢) البيان والتنبين ج ١ ص ٣٦ .

ويقول الجاحظ : أنا سمعت ذلك منه[١٣] .

أما لثغة واصل بن عطاء فإنها كانت فى الراء أيضاً ، لكن الجاحظ يرى أنها غريبة ، ولا تقع فى الحروف الأربعة السابقة ، ويبدو أنها كانت متمكنة منه ولم يستطع التخلص منها أو تخفيفها ، من أجل ذلك تجنب واصل بقدر مايتاح له الكلمات التى بها راء ، ولم تتح له مقدرة إسقاط الراء من كلامه إلا بعد تدريب طويل ، وثقافة لغوية واسعة ، حتى صار يخاطب ويجادل خصومه بكلام خال من الراء .

لكن نجاح واصل بن عطاء فى تجنب الراء من كلامه قد دفعه أحيانا إلى استخدام كلمات غير مشتملة على الراء ، ويعلم أنها أقل فصاحة من غيرها[١٤] ، فكان واصل بن عطاء إذا أراد أن يذكر (البُرّ) قال : القمح أو الحنطة ، والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية ، وهو يعلم أن لغة من قال: بر ، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة .

ومن العيوب الإبدالية أيضاً ما يعرف عند القدماء العرب باسم :

اللُّكْنة : وهى عيب يرجع إلى عجز الناطق عن اكتساب عادات النطق الخاصة باللغة الجديدة التى يريد أن يتكلمها ، فتلتصق تلك العادات التى نشأ عليها وتعلمها من لغته الأم ، ولا يستطيع التخلص منها بسهولة عند تكلمه باللغة الجديدة ، وهذا لا يعنى أن اللكنة تلازم كل متعلم للغة أجنبية ، بل هناك من ينطقون اللغات الأجنبية بطلاقة دون أن يلحظ السامعون أن لغتاتهم الأصلية مخالفة ، ومن أجل ذلك فان تعلم اللغات الأجنبية لدى المعاهد المتخصصة تصون اللسان من اللكنة التى قد تداخله .

---

(١٣) البيان والتنبين جـ ١ ص ٣٧ .
(١٤) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٧ .

وقد لاحظ الجاحظ أن العجم وبعض العرب الذين عاشوا بينهم قد اعترتهم اللكنة ، ويذكر الجاحظ مجموعة من خطباء وشعراء العجم الذين لم يتخلصوا من لكنتهم مثل زياد الأعجم ،أحد شعراء الدولة الأموية ،الذى كان يجعل السين شينا ، والطاء تاء ، فاذا أنشد قوله :

فتى زاده السلطان فى الودِّ رفعةً   إذا غير السلطان كلَّ خليل

فانه كان يقول : « فتى زاده الشلتان » .

ومثل سُحَيْم عبد بنى الحسحاس ، وهو عبد حبشى شاعر قتل فى خلافة عثمان ابن عفان ، وكانت لكنته فى قلب الشين إلى سين[١٥] .

والكثير منهم يقلبون بعض حروف الحلق وخاصة الحاء والعين ،وهذا شائع بيننا الآن ، فتقلب الحاء إلى هاء والعين إلى همزة ، كما تشيع أيضا لكنة قلب القاف إلى كاف ، والصاد إلى سين ، والطاء إلى تاء ،والضاد إلى دال .

٥ ـ عيوب التكلف :

قد يخلق المتكلم سليم الأعضاء ، وليس بها قصور يمنعها من أداء وظائفها الكلامية ، ولم تؤثر فيها عوامل خارجية توجهها وجهة غير صحيحة فى النطق، لكن قد تداخلها عوامل مزاجية رغبة من صاحبها فى أن يسلك مسلكا وعرا ، يكلفه جهدا فوق طاقاته ، فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مختلفا فى قدراته وطاقاته ، لكن بعض الناس يطلب من قدراته أن تؤدى ماهو فوق إمكاناتها، ومن ثم يأتى أداؤها ناقصا مشوها فلا تصل تلك القدرات إلى أداء ما فوقها ، كما لم تحتفظ بأدائها الموسوم بها ، أى أنها قد افتقدت أداءها عندما حاولت أن تسمو فوق طاقاتها ، ولم تصل إلى غاياتها بتلك القدرات المتواضعة؛ فقد يوهب خطيب الجهارة ، وسعة الشدقين ، والحلق ، وطول النفس ، والذكاء الذى

---

(١٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ٧١ ـ ص ٧٢ .

يتيء له الوصول إلى قلوب السامعين ، فيحاول بعض الذين لم ينالوا حظه من الخلقة أن يصلوا إلى فصاحته فى القول ، وقدرته على التأثير فى سامعيه ، فيخرج كلامهم وقد غلبت عليه الصنعة والتكلف ، فلا يقع فى آذان سامعيه إلا موقع الاستهجان ، والنفور ، والاستهزاء ، وسبب ذلك أنه وضع نفسه فى مكانة غيره ، فشعر الناس بالفرق بينه وبين من يقلده وارتسمت فى أذهانهم صورته الموسومة بالنقيصة ، كما ارتسمت صورة المثال الذى يقلده بالكمال التام ، فازدادت الهوة بينهما ، واتسعت الفرقة بهذا التكلف ، وبهذا المسلك الصعب الذى سار فيه . ولو احتفظ المتكلف بقدراته وأعطاها حقها ، ولم يقسرها على مافوق طاقتها ، لما التصقت به نقيصة ، ولما وجهت إليه ضروب اللوم ، ولما اقترنت صورته بصورة من هو أعلى منه درجة .

وقد تنبه القدماء إلى هذه الحقيقة «.. والناس لا يعيرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ، ويؤنبون العي ، فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب ، ومماتنة العيى الحصر للبليغ المصقع ، فى سبيل مماتنة المنقطع المفحم ، للشاعر المفلق ، وأحدهما ألوم من صاحبه ، والألسنة إليه أسرع . . . » [١٦] .

ونستطيع أن نوجز مظاهر التكلف فى التى تفسد الفصاحة ، ونرى منها :

(أ) العيى الذى يتكلف الخطابة ، والحصر الذى يقف موقف المصاقع :

وكلاهما قد كلف نفسه فوق طاقتها ، ووقف موقفا ليس أهلا له فظهر عجزه الشديد ، وموقف كل منهما يشبه موقف الضعيف الهزيل الذى يلاكم أو يصارع أحد

---

(١٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢ .

أبطال العالم المحترفين ، وهو موقف يثير الضحك لدى بعض الناس، كما يثير الشفقة لدى الآخرين .

وكلا العي والحَصَر غير فصيح ، لكن تكلفهما مكانة الفصحاء يزيدهما انتقاصا ، ويؤكد مدى بعدهما عنها .

(ب) التشادق والتقعير والتقعيب :

والتشادق قد يكون بأن يفتح المتكلم فمه حتى يزداد اتساعا ، أو أن يلوى شدقه بالكلام من أجل التشبه بالفصحاء ، أما التقعير : فهو أن يتكلم الناطق بأقصى فمه ، أى أنه ينقل مخارج الحروف الامامية إلى ما فوق الحلق ، أما التقعيب : فهو شبيه بالتقعير . وتوجد كلمات أخرى للدلالة على هذا المعنى هى :

المقمقة : هى التكلم بأقصى الحلق .

التفيهق : هو التوسع فى ملء الفم بالهواء الذى يحمل الصوت ، وهو مأخوذ من الفهق بمعنى الامتلاء والاتساع .

ويبدو أن هذه الصفات كانت متعلقة بالعرب سكان الصحراء الذين قد خلقت لهم صدور واسعة تمتلىء بالهواء ، وأنوف كبيرة ، وأشداق رحبة ، مما يتناسب مع بيئتهم التى يعيشون فيها ، ومن ثم خرجت أصواتهم قوية خشنة غليظة ، حتى يتمكن العربى من إرسال صوته إلى أقصى مكان ليزجر إبله ، ويفزع عدوه ، ويستغيث عند نزول الكرب . وغالبا ما يستحب من الخطيب فى هذه البيئة أن يكون صوته بهذه الكيفية ، لأن سامعيه قد تعودوا هذا اللون من الصوت ، وربما قد صار من المقبول بعد ذلك أن يأتى صوت العربى فى البادية بهذه الصورة ، لأن المستمعين لديهم حاسة الذوق التى تستجيب وتعى هذا الصوت ، لكن الحضرى الذى يصطنع هذه الصفات الصوتيه يثير فى نفس سامعيه التقزز والنفور .

ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التشادق والتفيهق فى الكلام ،

وعاب المتشادقين والثرثارين ، والذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها ، والأعرابى المتشادق ، وهو الذى يصنع بكفيه وبشدقيه مالا يستجيزه أهل الأدب من خطباء المدر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون ، وقال « إياى والتشادق ، وقال « من بدا جفا »[١٧] .

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا السلوك الكلامى مرتبط بالآداب الاسلامية المتصلة بالحديث والمجالس، وهى آداب حضارية بلاشك، كما أنه يتفرع عن نهى عام هو الاتصاف بصفات الجاهلية التى يغلب عليها الجفاء ، وقد تربى لدى المسلمين ذوق جديد نماه الإسلام ، وهذّبه سلوك المسلمين داخل مجتمعهم الجديد، ذلك الذوق الذى يتأفف من كل مايؤذى الشعور العام ، سواء كان قولا أم فعلا .

والتشادق والتفيهق والتقعير وما شابه ذلك سلوك صوتى قد تحاماه الذوق الإسلامى الجديد ، ولايقبل من الخطباء والمتكلمين وخاصة أهل القرى الذين يتشبهون بأهل البادية فى نطقهم .

(جـ) قد يتكلف الخطيب او المتكلم ، فيقف موقفا لا يقدر عليه :

وهو انطلاق من سوء العادة ، والمسلك المزاجىّ المخالف لسلوك الأسوياء ، كأن يخطب خطيب خطبا فى مقام لايناسبه ، وبعد أن يقف بين الناس يكتشف حقيقة نفسه ، أو تهرب منه ألفاظه ومعانيه ، ولاتسعفه قريحته بما ينقذه من موقفه هذا ، عند ذلك تظهر عليه علامات ومظاهر لاتستحب من الخطيب ، وتقلل من فصاحته ، وهى :

النحنحة والسعلة : وهما دليلان على أن الخطيب قد كبا زنده ، ونبا حده، وليس لديه ما يخفى به عجزه ، إلا ذلك السعال وتلك النحنحة ، وهما إشارة لدى سامعيه بضعفه الذى يقلل من مقدرته الخطابية عندهم ، فينزلونه من مكانته

---

(١٧) انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣ ، ص ٢٧١ .

الرفيعة إلى مكانة وضيعة ، لأنه خيب ظنهم ، وفاجأهم بما لم يتوقعوه عنده ، وقد ذم القدماء هذين المظهرين ، قال بشر بن المعتمر :

ومن الكبائر مِقْوَلٌ متتعتع   جم التنحنح متعبٌ مبهورُ

وقال الأشل البكرى :

تَنَحْنح زيدٌ وسعَل   لمّا رأى وَقْعَ الأسَلْ
ويلُ أمّه إذا ارتجل   ثمّ أطال واحْتَفَلْ

وقال سهم بن حفص :

نعوذ بالله من الإهمال   ومن كلال الغرب فى المقال

« ومن خطيب دائم السعال »(18)

وشبيه بالنحنحة والسعال فى هذا الأثر البهر والارتعاش والرعدة والعرق ، وهى إشارات دالة على أن الخطيب ليس متمكنا مما يقول ، وليس مالكا لزمام القول الفصيح الذى يصدر عن متكلم فصيح ، له ملكة يقتدر بها على ذلك القول . والمتكلم الفصيح لايضطرب ، ولايصاب بهذه الظواهر لأنه قوى موهوب متمكن .

ويقول أبو مسمار العكلى فى مثل هذا النوع من الخطباء :

لله درّ عامر إذا نطق   فى حفل إملاك وفى تلك الحَلَقّ
ليس كقوم يعرفون بالسَّرق   من خطب الناس ومما فى الورق
يلفقون القول تلفيق الخَلَق   من كل نضّاح الذّفارَى بالعرقْ

« إذا رمته الخطباء بالحَدَق »

ومن نتائج تكلف هذه المواقف عدم مراعاة مايجب أن يكون الكلام عليه ، فيتصف كلامه باللحن والخطأ ، وغير ذلك من العيوب التى تقلل من الفصاحة .

---

(18) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٠ ــ ص ٤٢ .

(د) ومن العيوب أيضاً الثرثرة وعدم مراعاة أذواق السامعين وقدراتهم العقلية .

هذه عيوب أو أمراض قد تصيب المتكلمين والكلام، وهى بدورها أمراض للفصاحة التى تستهدف الوضوح والإبانة ، لكن هذه العيوب التى تحدثنا عنها تبعد الكلام عن الفصاحة ، وتسد الطريق إليها .

والفصاحة لا تكون فقط فى الكلام المنطوق المؤدَّى ، بل تتمثل أيضاً فى الكلام المكتوب ، وهو الذى قد افتقد كثيرا من صفات وخصائص الكلام المنطوق ، لكنه مرتبط بخصائص أخرى .

وهذا ماسنحاول أن نعالجه فى الصفحات القادمة إن شاء الله ، متلمسين العوائق التى تذهب الفصاحة عن ذلك الكلام المكتوب ، وتسد الطريق إليها .

الفصل الثاني

عيوب الكتابة



نعنى بعيوب الكتابة هنا عيوب الفصاحة المكتوبة ، أو الكلام الفصيح المكتوب ،وهذا جانب نستكمل به ما بدأناه فى هذا الجزء، وهو فصاحة الكلام المنطوق .

وسنتناول — إن شاء الله — الكتابة من جانبين :

أولا : الكتابية الإملائية ، وماقد يلابسها من عيوب .

ثانيا : فن الكتابة .

والحديث عن الجانبين يتسع كثيرا ، ومن الممكن أن يفرد له بحث خاص ، لكننا سنحاول أن نوجز القول ، محددين الجانب السلبى الذى يعيب الفصاحة المكتوبة ، أو يمنع تحقيقها وظهورها فى الكلام المكتوب .

اولا : الكتابة الاملائية والخط

الكتابة من أهم الاختراعات التى توصل إليها الإنسان ، ولولاها لما وصلت الإنسانية إلى هذا التقدم الحضارى الموروث والمعاصر ، لأن الكلام المنطوق لايعلق فى الذهن منه إلا القليل ، ولقد ضاع شعر كثير ، ونثر أكثر بسبب عدم الكتابة عند العرب قبل الاسلام .

والكتابة فى أبسط معانيها تعنى جعل الرموز الصوتية المسموعة رموزا مرئية ،بينما الكلام المنطوق إشارات صوتية مسموعة ،وهى إشارات اصطلاحية متعارف عليها بين أبناء البيئة الواحدة ،أو بين عدد من البيئات أو القوميات .

ونعنى بالكتابة هنا الكتابة الأبجدية التى نستعملها الآن، وذلك لأن الكتابة قد مرت بعدة مراحل خلال نموها ، فلقد كانت فى القديم كتابة تصويرية وقد ازدهرت فى مصر القديمة ، وعرفت بالكتاب الهيروغليفية ، كما عرفت لدى العراقيين القدماء وهم الشوميريون .

لكن هذه الكتابة التصويرية قد تطورت ، وأصبحت تعتمد على المقاطع بدلا من الصور ، وأشهر الكتابات المقطعية القديمة مايعرف بالخط المسمارى، ثم ظهرت بعد ذلك الكتابة الأبجدية التى عرفت عند الكنعانيين والفينيقيين ، ثم السريان والنبط والعرب وأخيرا الاوروبيين .

وارتقت الكتابة لإحساس الكاتبين بالمسئولية الملقاة عليهم ، لأن الكاتب مسئول دائما عن كتاباته. وإزاء هذه المسئولية يحاول أن يطور ويحسن، وازاء هذا الشعور ترتقى الكتابة وخاصة الأدبية منها . أما الكلام المنطوق فإن ثمة قيودا تحيط به ، لكنه مع ذلك يذهب مع الرياح ، ولايبقى منه إلا ماسجل وقيد — فى أيامنا هذه — على أشرطة معدة للتسجيل ، وهو اختراع لايقل أهمية عن اختراع الكتابة الذى أفاد الإنسانية، وتسجيل الكلام على هذه الأشرطة قد يكون أكثر دقة من تسجيله بالكتابة على الورق أو الجلود والأخشاب ، وذلك لأنه يحتفظ بأكثر الخصائص الصوتية للمتكلم ، وما يجب أن يكون عليه الكلام ، وما يتناسب مع كل مقام ، كتسجيل النبر والتنغيم ، ودرجات الفونيم، وغير ذلك مما لم تتمكن الكتابة من تسجيله ، وقد يأتى الوقت الذى تأخذ فيه أشرطة التسجيل جزءاً كبيراً من وظيفة الكتابة .

ونحن نرى أن الكتابة ستظل محتفظة بمكانتها الكبيرة فى اللغات وسيتعاون معها التسجيل الصوتى على حفظ اللغة والتراث ، كما أننا نرى فى نفس الوقت أن الكتابة سيدخلها تعديل وتبسيط فى المستقبل حتى يتاح لهـــا أن تؤدى وظيفتها كاملة .

ومعنى هذا أن الكتابة بها بعض العوائق التى تقلل من وظيفتها فى حفظ اللغة كاملة ، وتقف حائلا أمام تحقيق الفصاحة ، فما يعوق تكامل اللغة يؤدى قطعا إلى انتقاص فصاحتها ، وإذا كان الأمر كذلك فما تلك العوائق الكتابية التى تمنع الفصاحة من الظهور أو الكمال ؟

فى الحقيقة تبدو لنا عملية الكتابة مرتبطة ارتباطا وثيقا بعملية القراءة ، ونحن عندما نقرأ فإننا نحول الرموز الكتابية إلى لغة حية متحركة، وعندما نكتب فإننا نحول هذه اللغة إلى تلك الرموز ، وكأن تلك الرموز الكتابية — فى رأينا — إنسان نائم لا أثر له فيما حوله ، وعندما يستيقظ ذلك النائم — أى تتحول الكتابة إلى قراءة — يبدو الأثر واضحا والحياة نابضة .

وإذا كان هناك مايعوق تحويل الثابت إلى متحرك ، أو تحويل الكتابة إلى قراءة — فإن ذلك ينفى عن اللغة كثيرا من صفاتها الأساسية ، ومن ثم تنتفى الفصاحة .

ونستطيع أن نوجز ما يعوق الفصاحة عندما تكون اللغة مكتوبة فيمايلى :

(ا) الزيادة والحـــذف :

يلاحظ القارىء العربى بسهولة هذه الظاهرة الشائعة فى الكتابة العربية ، فهناك حروف تكتب ولاتقرأ ، وقد تكون لتلك الحروف وظائف لغوية أخرى ، لكنها قد تعوق القارىء كثيرا ؛ مثال ذلك همزة الوصل : التى تكتب وتنطق فى أول الكلام أو إذا لم يسبقها متحرك ، وتكتب ولاتنطق فى أثناء الكلام أو إذا سبقت بمتحرك ، فكتابتها مع عدم قراءتها تساعد على الوقوع فى الخطأ ، وخاصة أولئك الذين لايحظون بثقافة لغوية واسعة ، ومن ذلك أيضاً : زيادة الألف فى الفعل المسند إلى واو الجماعة ، فهى ألف لاتنطق ، لكن النحاة قد وضعوها بعد هذه الواو ليميزوا بين المفرد والجمع ، والاسم والفعل .

ومثال الزيادة أيضاً الواو فى (عمرو) للتمييز بينها وبين (عمر)[1] .

---

(١) من مواضع الزيادة الكثيرة الدوران أيضا زيادة الالف فى : مائة ، مائتان وثلاثمائة .... تسعمائة ، والواو فى أولئك ، اولو ، أولى .

أما الأمثلة التي تحذف فيها الحروف فهي كثيرة : فهناك حروف تنطق ولا تكتب مثل : (هذا) و (هذه) و (هذان) وكلمة (ابن) عندما تقع بين والد ومولود، وكذلك قد ينطق حرف في بعض الأعلام ولكنه لا يكتب مثل: (اسحق) و (داود) وكذلك كلمة (رحمن) وحذف الألف من لفظ الجلالة (الله) ، والألف من (سموات) ومن كلمة (إله) وكذلك حذف ألف (يا) من (يأيها) و (يأيتها) و (يابن) و (يابنة) وحذف الألف أيضاً من أسماء الإشارة (هؤلاء) و (أولئك) وحذف اللام الثانية من (الذى) و (الذين) ، وكذلك ألف (لكن) ، ويعلل اللغويون هذا الحذف الذى يحدث فى حروف بعض الكلمات أنه جاء للتخفيف وكثرة الاستعمال .

ونحن نلاحظ أن لغات كثيرة تزيد حروفا لا تنطق فى الكلمات ، وهذا شائع فى الانجليزية والفرنسية . ولقد علت أصوات فى العصر الحديث تنادى بكتابة ماينطق فقط ، لكن هذه الأصوات قد خفتت ، ونحن نرى أن كتابة ماينطق فقط من الحروف أمر لا يضر باللغة ، ولا يصيب تراثنا وعقائدنا بشىء . وسيأتى الزمان الذى تتغير فيه كثير من الأشياء المتعلقة بالكتابة .

(ب) كتابة الألف اللينة فى الاسماء والافعال :

وتحدد قواعد الإملاء كتابة الألف اللينة فى الفعل الثلاثى بالرجوع إلى أصل الألف ، فتكتب ألفا إذا كان أصلها واوا ، وتكتب ياء إذا كان أصلها ياء ، وكذلك الأسماء الثلاثية ، أما ماهو فوق الثلاثى من الأفعال فانه يكتب بالياء ، وكذلك الأسماء إلا ما انتهى منها بالألف المسبوقة بالياء فإنها تكتب بالألف مثل الأفعال الآتية : (أحيا ، تحيا ، استحيا . .) ومثل الأسماء الآتية :(الفتيا ، التقيا ، الدنيا ، الثريا ، القضايا ، الرزايا .) وخرج عن القاعدة أو الاستثناء كلمة (يحي) .

ورسم الألف اللينة فى الاسم والفعل بهذه الصور يشكل اضطرابا لدى القارئين ، بل ربما يختلط على القارىء العادى الألف والياء فى الكلمات .

ونعود فنقول : إننا لانرى ضررا يسببه رسم الألف ألفا ، للثلاثى وغير الثلاثى من الأسماء والأفعال .

(ج) عـدم كتابة الصوائت القصيرة :

الـكتابة العربية لاتسجل التسلسل الصوتى منتظما وراء بعضه كما يحدث فى اللغة الانجليزية مثلا ، وإنما تـكتفى بإشارات فوق أو تحت الـكلمة ، وشأنها فى ذلك شأن اللغات السامية كالعبرية وغيرها . وقد تـكون عدم كتابة الصوائت متتالية ومسجلة بانتظام مفيدا من ناحية السرعة والاختصار فى الـكتابة ، لـكنه يشكل فى نفس الوقت صعوبة عند القراءة ، هذا إذا أضفنا أن الـكتابة العربية تنحو نحو التخلص من التشكيل .

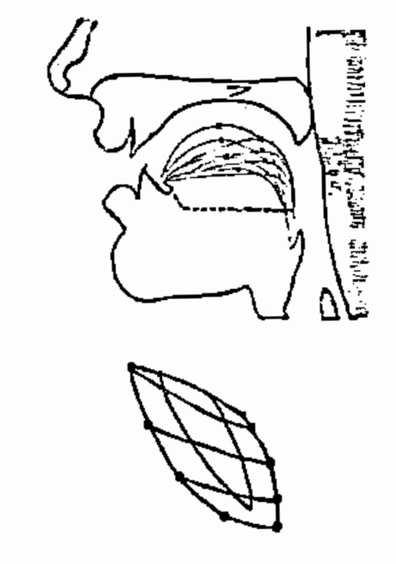
والتخلص من التشكيل يعنى حذف (رسم الصوائت القصيرة) المعروفة فى الـكتابة العربية ، أما إذا افترضنا أن الـكتابة لابد أن تراعى (التشكيل) فى كل حروفها ، فان هذا التشكيل التام سيؤدى إلى البطء الشديد ، فالتشكيل يؤدى حذفه إلى صعوبة القراءة كما يؤدى رسمه كاملا إلى البطء فى الـكتابة .

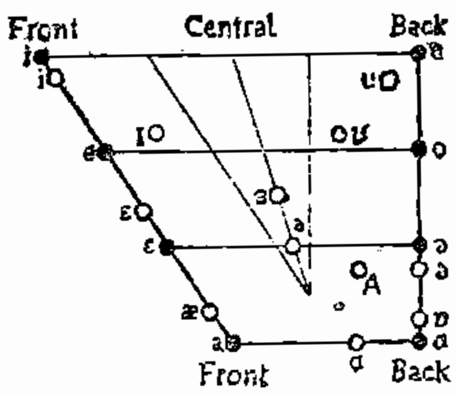
كما أننا يجب أن نشير إلى أن رسم الصوائت بالطريقة العربية أى التشكيل لايفى بالغرض عند إرادة تسجيل درجات من الفونيمات الصائتة مثل الإمالة وغيرها ، فالصوائت العربية القصيرة لها ثلاثة أشكال فى الـكتابة فقط (الفتحة ، الضمة ، الـكسرة) لـكن توجد صوائت أخرى بين الفتحة والضمة وبين الضمة والـكسرة ، وبين الفتحة والـكسرة ، وتوضيحـا لذلك نورد درجات الفونيم الصائت كما حددها دانيال جونس D Jones الذى حاول أن يبين مركز كل صائت فى الفم ووضع اللسان عند نطقه وهى ثمانية درجات من الصوائت(٢) .

---

(2) Dictionary of Language and Linguistics
R. R. K. Hartman and F C. Stork. p. 31
— Ida C. Ward: The Phonetics of English Fifth, Edition, 1972 p.p. 70 –123

الصوائت الثمانية ووضع اللسان عند نطقها





الصوائت الثمانية هى :

1	2	3	4	5	6	7	8
i	e	3	a	ɑ	ɔ	o	u

وقد يرى البعض أننا لسنا بحاجة إلى كتابة الدرجات الفرعية للصوائت لكن الحاجة تبدو ماسة فى دراسة القراءات القرآنية، وفى نطق الأعلام الأجنبية وغير ذلك .

(د) عـدم ظهور النبر والتنغيم فى الكتابة :

توجد فى الكتابة العربية علامات للترقيم والتمييز بين الجمل ، مثل الفواصل والنقط وعلامات الاستفهام والتعجب والتنصيص ، وهى مفيدة حتما ، لكنها ليست كافية لإظهار الخصائص الصوتية المختلفة التى تصدر من الناطقين الذين تتعدد أحوالهم ومواقفهم ، فقد تصاغ جملة واحدة لتصلح فى مواقف مختلفة ، وتصحب كل جملة منطوقة فى موقف ما ـ نغمة مخالفة لغيرها من النغمات التى تصاحبها فى موقف آخر ، ولا توجد فى الكتابة العربية ما يميز معانى الجملة الواحدة فى المقامات المختلفة ، وإنما تفهم معانيها فقط من سياق الحال ، فمثلا قولنا : (سلام عليكم) فى مقام التحية ، تخالف قولها فى مقام التذكير ، أو الوعد ، أو الوعيد ، أو التوبيخ ، أو غير ذلك ، وليس فى الكتابة العربية ما يميز بين حالاتها المختلفة ، فهى مكتوب بطريقة واحدة ولم تضف إليها إشارة كتابية عند اختلاف تلك الحالات ، وإنما يجهد القارىء نفسه حتى يستعيد صورتها التى كانت عليها قبل أن تكتب .

وهذا العيب يمكن أن يضاف إلى عيوب الكتابة الفنية ، لأن بعض النصوص أو الخطب تحتاج إلى مقدمات توضح بها المقامات التى قيلت فيها ، وأحاطت بها ، ولولا تلك المقدمات لانصرف ذهن القارىء إلى أشياء بعيدة تسبب سوء الفهم ، أو بعد التفسير .

وبعد ، فإلى أى مدى تكون هذه العيوب عوائق للفصاحة . . ؟

لا يختلف علماء اللغة فى أنها عيوب ، لكن فريقاً منهم يرى أنه لا يمكن تجنبها ، لأن اللغة تتطور والخط او رسم الكلمات لا يتغير ، وينتج عن ذلك فى نظرهم أنه لو طابقنا بدقة بين الكلام المنطوق والكلام المكتوب فى فترة من الفترات فلا تلبث الكلمات المنطوقة بعد ذلك أن تتطور وتترك الرسم . وهذه العيوب فى الحقيقة لا تتعلق بالفصاحة فقط وإنما تتعلق باللغة ، ويعجز اللغويون عن معالجة هذه

العوائق ،وهى عوائق فى نظرهم تعليمية ،وموجودة فى كل اللغات . لكننا نرى أنها عوائق للغة عامة والفصاحة خاصة ،ويجب أن توضع فى حسبان الباحثين فى اللغة .

° ° °

ثانيا : الكتابة الفنيـــة

نعنى بالكتابة الفنية هنا الأدب المكتوب شعرا أو نثرا ،فنحن لانقصد النثر الفنى فقط ، وإنما أردنا ما يقابل الكلام المنطوق الذى تحدثنا عنه آنفا .

وعيوب الكتابة كثيرة لكننا سنتلمس منها ما يؤثر فى فصاحة الكلام المكتوب،ولقد سبق أن أشرنا إلى بعض منها فى ثنايا الفصول السابقة ،وسنحاول أن نبرزها فى هذه الصفحات من البحث محاولين الإيجاز ، وهى تتمثل فى :

١ ـ المحسنات البديعية المتكلفة :

لايقتصر الأمر على لون بديعى وحده ، بل تمثل المحسنات البديعية المتكلفة كلها العبء الكبير الذى يعوق اللغة الفصيحة من أداء وظيفتها ، وإذا كانت المحسنات البديعية هدفا يسعى إليه الكاتب أو الشاعر فإن تحقيق ذلك الهدف يقف حائلا أمام تحقيق البلاغة والفصاحة .

ويصرح الخطيب القزوينى أن المحسنات البديعية تبع للوجوه البلاغية الأخرى ويقول عنها : « .. وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسنا . . . » ويوضح التفتازانى هذه الجملة معلقا بقوله : « أى وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخر سوى المطابقة والفصاحة تورث الكلام حسنا . . . »[٣] . ويؤكد الخطيب القزوينى هذه الفكرة بوضوح عندما يتحدث عن البلاغة فيقول : « البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره والثانى : أعنى التمييز منه ما يتبين فى علم متن اللغة أو التصريف أو النحو أو يدرك بالحس ، وهو ماعدا التعقيد المعنوى . وما يحترز به عن الأول

---

(٣) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٢٨٣ ـ ص ٢٨٤ .

ـ أعنى الخطأ ـ علم المعانى ، وما يحترز به عن الثانى ـ أعنى التعقيد المعنوى ـ علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقة على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع . . ، [٤] .

وإذا كانت المحسنات البديعية فى نظر عدد من رجال البلاغة ـ تبع للبلاغة وذيل لها ، فما بالنا بالمتكلف من هذه المحسنات . . ؟ لاشك أن المتكلف المصنوع يعوق الفصاحة والبلاغة ، ويوصف الكلام الذى انتشرت فيه هذه الألوان المتكلفة بالعيب ، لأنه قد افتقد السلاسة والوضوح اللذين يقوم عليهما الفهم .

ويستطيع القارىء العربى أن يلمس ذلك الأثر السىء الذى يترتب على الولوع بالمحسنات البديعية ،فيما وصل الينا من أدب عصور الانحطاط ، ونعنى بذلك على وجه الخصوص العصرين المملوكى والتركى اللذين قد وصف أدبهما بالضحولة، والركاكة ، وكثرة المحسنات البديعية التى لم تأت عن طبع وذوق سليم .

ولا بأس من إيراد بعض النصوص التى تزدحم بالمحسنات البديعية التى تنفى عن الكلام بلاغته وفصاحته، ولقد شغف كثير من الأدباء بالألوان البديعية حتى فى عصور ازدهار الأدب ، لكننا سنورد بعض النماذج التى تتمثل فيها ظاهرة التكلف البديعى المخل ، ومثال ذلك ما كتبه محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ . والذى كان يتولى ديوان الإنشاء فى عهد بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل ، والذى قد افتخر به معاصروه ، فيقول النووى عنه : « كان محيى الدين أجل كتاب العصر ، وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدول ، والذى افتخر به أبناء عصره على الأول . . ، [٥] ، ولقد أورد له القلقشندى رسالة نورد بعضا منها : « حرس الله نعمة مولاى . . ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لايرخم ، وأحمد عيشه لاينصرف،ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون وممدود ،ومن فضله وظله

(٤) شروح التلخيص جـ ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٩ .
(٥) نهاية الارب جـ ١ ص ٣٠١ .

كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتمسة إلا بلام التوكيد، ولا عدوُّه إلا بلام الجحود ، هذه المفاوضة إلى ـ أعزه الله ـ تفهمه أنا بلخافلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به منتصبا للمكايد ، وممتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد ، وماذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدِّر لها من الاحتمالات اسوأ تقدير ، ونعوت صحبته تكررت لجاز قطعها بسبب ذلك التكرير . . . » (٦) .

ونلاحظ بيسر ما أصاب هذه الرسالة من تعقيد بسبب استخدامه مصطلحات علم النحو فى كتابته ، وهى مصطلحات تبعد القارىء عن المعنى الذى يقصده الكاتب ، ويبدو أن استخدام الاصطلاحات الخاصة بالعلوم فى ذلك الوقت كانت اتجاها معروفاً فى الكتابة ، لكنه اتجاه يسىء بلا شك إلى البلاغة والفصاحة لأنه يؤدى إلى التعقيد فى المعنى ، كما قد يؤدى إلى التعقيد اللفظى بسبب مما يورده الكاتب من ألفاظ وتركيبات ، فإذا نظرنا مثلا إلى قوله : « ومنادى جوده لا يرخم ، وأحمد عيشه لا ينصرف ، نجد تعقيداً يؤدى إلى الاحالة والفساد فماذا يفيد انصراف العيش أو عدم انصرافه ، أو ترخيم وعدم ترخيم الجود . . . ، إن المعنى لا يستقيم من هذه التركيبات التى استهدف بها الكاتب الألوان البديعية كالتورية وغيرها .

والملاحظ أن الكتّاب قد شغفوا كثيرا بهذا الاتجاه الذى يدخل الاصطلاحات العلمية فى الكتابة ، وهو اتجاه عرف عندى أبى العلاء نفسه فيقول فى إحدى رسائله « . . حرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهاو وذو تصعيد ، وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس ، وجعل الله رتبته التى كالفاعل والمبتدأ نظير الفعل فإنها لا تنخفض أبدا ، فقد جعلنى أبدا إن حضرت عرف شانى ، وإن غبت لا يجهل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء إذا قلت: زيد أقبل الإبل الإبل ، بعدما كنت كهاء الوقف، ان ألقيت فبواجب، وان ذكرت فغير لازب، إنى وان غدوت فى زمن كثير الدد، كهاء العدد ، لزمت المذكر ،

(٦) صبح الاعشى جـ ١ ص ١٧٦ .

فأنت بالمنكر ، مع إلف يرانى فى الأصل ، كألف الوصل ، يذكرنى لغير الثناء ، ويطرحنى عند الاستغناء . . . »[٧] .

ومن الواضح أن ماتكلفه أبو العلاء فى رسالته هذه من اصطلاحات نحوية، وألوان بديعية ،قد أبعد القارىء كل البعد عن المعنى الذى تستهدف الرسالة التعبير عنه ، فالقارىء يحاول أن يبحث عن العلاقات التى تربط بين هذه الاصلاحات العلمية ، وهذا تعقيد لاجدال فى إفساده للفصاحة التى تستهدف الإبانة والوضوح والسلاسة ، كما نلاحظ أن المحسنات البديعية التى أوردها قد سلك فيها مسلكا صعبا ، مثل السجع الذى أورده ، فلقد التزم فيه بما لاحاجة له ، فنلاحظ أنه قد ألزم نفسه بثلاثة أحرف فى كل فاصلة ، ففى الجملتين الأوليين قد التزم بالهاء والألف والهمزة فى (الهاء) و (انتهاء) والدال والألف والنون فى الجملتين الثالثة والرابعة فى (ضدان) و (متباعدان) والألف والنون والياء فى (مكانى) و (شانى) ، والدال والألف والهمزة فى (النداء) و (الابتداء) . كل هذا إلى جانب الجناس وغيره من فنون البديع . ونحن نحس أن أبا العلاء يتعمد هذا السلوك فى الكتابة حتى يظهر مقدرته فى اللغة والعلوم الأخرى ، لكنه فى نفس الوقت ينفى عن كلامه صفة الفصاحة بسبب ذلك التعقيد .

ومن النصوص التى تمثل الإفراط فى المحسنات البديعية التى تعوق الفصاحة والبلاغة ـــ رسائل لرجل فى القرن السادس اسمه يحيى بن سلامة الحصكفى المتوفى سنة ٥٥١ هـ، ويذكر ياقوت الحموى فى معجم الأدباء أنه تلميذ التبريزى[٨] ومن النصوص المنسوبة إليه قوله[٩] : « . . . فآنس أجمالا تُزَمّ ، وأحمالا تُضَمّ ، وأحوالا تهول ، وأهوالا تحول ، وأوجالا تصول ، وأصوالا تجول ،

---

(٧) رسائل أبى العلاء طبع مرجليوث ص ١٤ .
(٨) معجم الادباء جـ ٢٠ ص ١٨ .
(٩) رسائل الحصكفى ص ٢١ ـ مخطوط بدار الكتب نقلا عن : الفن ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف ص ٢٢٦ .

وسمع تذاور القطان بمفارقة الأوطان ، وتثويب الداع، بوشك الوداع، وللحداة زجل . وعلى القوم عجل ، وقد بنيت القباب ، وحثت الركاب ، وفى الخدور أشباه البدور ، وتحت الأكلة ، أمثال الأهلة ، وأيدى النوى لاعبه ، وغربانه ناعبة ، والحى قد طرُق ، والصواع قد سُرق، وضمن مؤذن العير ، لمن جاء به حمل بعير ، ياله من عامرىّ ، يئس من عام رِىّ » .

ويبدو واضحا التكلف الشديد فى هذه القطعة التى تزخر بألوان الأجناس المختلفة ، مما قد صعب على القارىء أن يتابع الفكرة ، فانتفت عن النص صفات الفصاحة ، وأصبح النص معرضا لهذه الألوان البديعية وخاصة الجناس .

٢ ــ السعــة والتضــخم :

إن اللغة العربية تعد أغنى اللغات بالألفاظ ، وهذه الكثرة اللفظية التى تزدحم بها المعاجم اللغوية العربية توضح مدى الثراء الذى تحظى به لغتنا . لكن هذه الكثرة قد تسبب أضرارا للغة ، وأمراضا للفصاحة ، لأن كثيرا من تلك الألفاظ لها ما يزاحمها من المعانى أو الألفاظ الأخرى ، ذلك التزاحم الشديد الذى يؤدى إلى أن بعض الألفاظ قد تأخذ مكان غيرها بدون حق ، مما قد يؤدى إلى الخلط والاضطراب .

وهذا التوسع أو الثراء اللغوى ثراء زائف فى بعض مظاهره ، فهو يشبه فى زماننا هذا ما يسمى (بالتضخم النقدى أو المالى) الذى يعنى وجود النقود وكثرتها التى تزيد عن الإنتاج أو الأشياء المعروضة للبيع ، ويمكن أن نلخص تلك المظاهر التى يبدو فيها التوسع أو التضخم واضحا فيما يلى :

(أ) المــــترادف :

من الواجب أن واضع اللغة ــ أى المجتمع ــ يضع لكل معنى اللفظ الخاص به ، والذى لا يتعداه إلى غيره ، ولا يتعدى غيره عليه ، لكن الذى نلاحظه فى لغتنا العربية يخالف هذا المطلب ، فقد نجد لفظين أو أكثر للدلالة على معنى واحد ، وهذا التعدد اللفظى للمعنى الواحد هو الذى يعرف بالمترادف .

وظاهرة الترداف قد شغلت كثيراً من اللغويين قديما وحديثا بين مؤيد ومعارض[١٠]، ولسنا بصدد مناقشة هذه الآراء، وإنما يهمنا في هذا المقام أن توضح أثره في الفصاحة باعتباره ظاهرة لغوية موجودة في لغتنا .

وهذه الظاهرة تعيب اللغة والفصاحة، لأن تعدد الألفاظ للمعنى الواحد يؤدى إلى الخلط ، فكثير من تلك الألفاظ التي يعتقد أنها مترادفة ، لاتتساوى في المعنى مساواة تامة ، فهي صفات ، لكن يبقى عدد كبير من الألفاظ يمكن أن يطلق عليه لفظ مترادف ، وقد تنج عن عدة أسباب ، ولقد حاول عدد من اللغويين تفسير هذه الظاهرة ، وأهم تلك الأسباب :

(أ) بعض الكلمات مع تكوينها ودورانها على الألسنة تأخذ شكلين مختلفين ، ويصبحان مع الاستعمال مترادفين مثل:جذب وجبذ ، وإنس وإنسان.

(ب) دخول بعض اللهجات المحلية في اللغة، ويصبح للمعنى الواحد أو الشيء الواحد أكثر من لفظ يدل عليه ، مثل : سكين ومدية .

(ج) وجود بعض الكلمات الدخيلة في اللغة يساعد على ظهور الترادف كما في أسماء الخمر مثل الخندريس والاسفنط .

(د) نيابة بعض الصفات عن الاسم مع شيوع تلك الصفات .

(و) نسيان بعض الفروق الدقيقة بين بعض الألفاظ أدى إلى اشتراكها في دلالة واحدة مما هيأ الظهور للترادف [١١] .

---

(١٠) انظر المزهر للسيوطي ج ١ ص ٤٠٢ ، نجعة الرائد ، وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد لابراهيم اليازجي ، قاموس المترادفات والمتجانسات للأب رفائيل نخلة اليسوعي ، اعجاز القرآن لباقلاني .

(١١) وأكثر هذه الأسباب قد فصلها السيوطي في المزهر ج ١ ص ٤٠٢ ــ ٤١٣ ، انظر كلام العرب للدكتور حسن ظاظا ص ١٠٢ ــ ص ١١٠ ، دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص ٢١١ .

ومن الطبيعى أن يحدث خلط واضطراب من وجود ثمانين اسما للعسل مثلا ، وأن يكون للسيف خمسون اسما كما يذكر ابن خالويه ، وكذلك ماقد يكون من أسماء كثيرة للخمر والأسد والحجر والفرس والناقة وغيرها ، وكثرة المترادف تؤدى بهذا الخلط إلى ما يمنع من تحقيق الفصاحة وذلك كقول الراعى :

ولذٍّ كطعم الصَّرْخَدىّ طرحته عشية خمس القوم والعين عاشقة

يقول صاحب اللسان : صرخد موضع نسب إليه الشراب ، ويتبادر إلى الذهن أن (الصرخدى) هو الخمر المنسوب إلى هذا المكان ، كما يفسر صاحب اللسان كلمة (لذّ) بالنوم .(١٢) وهنا يحدث اضطراب — من وجهة نظرنا — لأن المفروض فى الخمر أن تنعش شاربها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يوصف النوم بالإنعاش والحركة والنشاط ، ذلك فى نظرنا لايتوافق مع النوم الذى يتسم بالسكون والاسترخاء .

ولكننا عندما نعلم أن الصرخدى هو العسل فان المعنى يمكن عندئذ أن يستقيم ، وذلك لأن للعسل أكثر من ثمانين اسما كما ذكر السيوطى فيما نقله عن كتاب مفقود لصاحب القاموس يسمى (ترقيق الأسل لتصفيق العسل) ، وأسماء العسل عنده هى :(١٣)

« العسل ، الضَّرْب ، الضَّرَبَة ، الضَّرِيب ، الشَّوْب ، الذَّوْب ، الحَمِيت ، التحموت الجَلْس ، الوَرْس ، الأَرْى ، الإذواب ، الثَّوْمة ، اللِّمّ ، النَّسِيل ، النَّسِيلة ، الطِّرْم ، الطِّرِّم ، الطِّرَام ، الطِّرْيَم ، المستفشار ، المُسْتَفْشَار ، الشَّهْد ، الشُّهْد ، المِحْرَان ، العُفَافة ، العُنْفُوان ، المَاذِىّ ، الماذِيَّة ، الطِّنّ ، الطَّن ، البِلَّة ، البَلَّة ، السَّنُّوت ، السَّنُّوْت ، السنوة ، الشراب ، الغَرَب ، الأَس ، الصبيب ، المَزْج ، المِزْج ، ولُعاب النحل ، والرُّضاب ، ورضاب النحل ، وجَنَى النحل ، وريق النحل ، قَىْء الزنابير ، الشَّوْر ، والسَّلْوى ، ومُجَاج النَّحل ، الثَّوَاب ، والحافظ ، والأمين ، والضحل ، والشفاء ، واليمانية ، اللَّوَاص ، السَّلِيق ، الكُرْسُفِى ،

---

(١٢) انظر لسان العرب مادة « لذّ » .

(١٣) المزهر جـ ١ ص ٤٠٧ — ص ٤٠٨ .

واليَهْقيد ، السَّلْوانة ، والسُّلْوان ، والرَّخْف ، والجَنَى ، والسُّلاف ، والسُّلافة ، والسَّرو ، الشرو ، والصميم ، والحُثُّ ، والصَّهْباء ، والخِيم ، والخَوُّ ، والضج ، والسَّدى ، والرَّحيق ، والرُّحاق ، والصَّمُوت ، والمجُّ ، والجلب والحَلَب ، العِكْبِرُ ، والنحل ، والاصبهانيه ، والصرخدى .

ولقد تعمدنا أن نورد هذه الأسماء كاملة حتى يتبين لنا مدى ماقد يسببه استعمال مثل هذه الألفاظ للدلالة على معنى واحد من خلط واضطراب ، وقد يحدث فقدان الفصاحة بهذا الخلط ، وباستعمال الألفاظ الغريبة التى ترادف العسل، وغيره من الألفاظ التى حدث لها هذا التضخم اللغوى الذى يقع على كاهل اللغة بما يعوقها من أداء وظائفها كاملة .

(ب) المشـــترك :

لايختلف المشترك عن المترادف فى الأثر الذى يتركه فى اللغة عامة والفصاحة خاصة لأن وجودهما يفقدان كثيرا من الألفاظ دقتها فى أداء المعنى المراد ، وعدم الوضوح لدى القارئين أو السامعين ، والدقة والوضوح مطلبان ضروريان لظهور الفصاحة وتمامها .

ويعنى لفظ (المشترك) كما أوضحه ابن فارس والثعالبى والسيوطى : « أنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة » (١٤) .

والمشترك ظاهرة لغوية قد أكد وجودها أكثر الباحثين فى اللغة ، وحاولوا أن يعللوا أسباب وجودها فى اللغة ، وهذه الأسباب يمكن أن نوجزها فيمايلى :

١ – قد يقع المشترك من واضعين، بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى، ثم يضعه واضع آخر

---

(١٤) انظر الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٩٦ ، فقه اللغة وسر العربية لابى منصور الثعالبى ، والمزهر جـ ١ ص ٣٦٩ .

لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين فى إفادته المعنيين ، وهذا ما نجده عند القبائل العربية .

٢ — قد يقع من واضع واحد لغرض الإبهام على السامع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة[١٥] .

٣ — وقد يقع أيضا النقل ، وهذا كثير مثل النقل القائم على المشابهة ، أو العلاقات المجازية، مثل كلمة(العين) التى هى عضو للإبصار عند الإنسان والحيوان والطير ، لكنها قد انتقلت لتفيد دلالات أخر مثل عين الماء ،والعين بمعنى الدراهم والدنانير ، والعين بمعنى وجهاء الناس ، والعين بمعنى الجاسوس ، والعين بمعنى الحسد ،وعين الشىء وسطه ونفسه، والنقل المجازى لا يحدث اشتراكا الا إذا انقطعت العلاقة بين الأصل والمجاز .

٤ — قد يقع بسبب تشابه الصيغ مثل صيغة الجمع وصيغة المفرد فى الكلمتين الآتيتين : فالنوى جمع نواه ، والنوى البعد ، ويسمى أستاذنا الدكتور ظاظا هذا اللون من الاشتراك ، بالاشتراك الكاذب[١٦] .

ونلاحظ أن كثيرا من الألفاظ التى عدها بعض اللغويين من المشترك ليست منه عند البعض الآخر ، والأصل أن تكون الألفاظ المشتركة فى لفظة واحدة منفصلة الدلالة ، لا تقوم بينها علاقة ما ، كتلك العلاقات التى تقوم على التشابه أو ألوان المجاز ، وهذا يؤدى فى النهاية إلى حذف أعداد كبيرة مما قد وضعه اللغويون فى المشترك اللفظى ، ويبقى فى النهاية عدد من الألفاظ يمكن أن يمثل المشترك تمثيلا حقيقيا ، وقد وقع هذا العدد من المشترك اللفظى بسبب أو بآخر من الاسباب التى حاولنا إيجازها .

---

(١٥) المزهر جـ ١ ص ٣٧٠ .
(١٦) كلام العرب ص ١٠٩ .

ومن أمثلة المشترك الذى يؤدى الشغف باستعماله إلى الخلط والاضطراب وفقدان الفصاحة ـ كلمة جلْس فى الابيات الآتية : —

لقد رأيت هـذريا جلْسا	يقود من بطن قديد جَلْسا
ثم رقى من بعد ذلك جلْسا	يشرب فيه لبنـا وجلْسا
مع رفقة لا يشربون جَلْسا	ولا يؤمُّون لهمْ جلْسا (١٧)

ولفظة جلْس الاولى معناها : رجل طويل ،والثانية : جبل عال، والثالثة: جبل ، والرابعة : عسل ، والخامسة : خمر ، والسادسة : نجد .

ومثل كلمة « العمّ » فى البيت الآتى(١٨) :

يا عامر بن مالك يا عمّا	أفنيت عمًّا وجبرتَ عمّـا

فالعم الاولى أراد به : يا عماه . والعمّ الثانى أراد به قوما أو جما وجبرت آخرين .

وكلمة (جَلْس) فى الابيات الاولى ، وكلمة (عم) فى البيت الذى تلاها توضح مدى ما قد يسببه استعمالها ، لاشتراك أكثر من معنى فى كل لفظ منها ، والقارىء الذى يريد كلاما واضحا صريحا يقع فى اضطراب عندما يرى هاتين الكلمتين بهذا الاستعمال أو ذاك ، بل إن الكثيرين يتوقعون أن يكون عامر بن مالك هذا قد أفنى أعماما له ، أو اخوة له بطول عمره المديد ، أى قد أفنى أعماما له ، أو أعماما امائل البيت .

ومن الألفاظ التى وقع فيها اشتراك كثير كلمة (عين) ومن الامثلة التى حدث فيها غموض فى استعمالها ما يأتى :

ما غلام له ثمانون عينا	زاهرات كأنهنّ الدرارى
ثم شاة جاءت بعنز وديك	فى ليالى الشتاء والأزهار

(١٧) المزهـر جـ ١ ص ٣٧٦ .
(١٨) المزهـر جـ ١ ص ٣٧٠ .

إن قارىء هذه الأبيات لا يستطيع بيسر أن يحدد ما يريده الشاعر بكلمة (عين) هنا ، لأن كلمة (عين) لها دلالات كثيرة جدا ، ومثل هذين البيتين يدخلان فى الألغاز بما فيهما من غموض بسبب عدم وضوح كلمة عين ، وهذا اللغز يتخرج أو تحل عقدته اذا عرفنا أن كلمة عين هنا تعنى (الدينار)[١٩] .

ومن ذلك البيت المنسوب إلى معن بن زائدة :

ألا رُبَّ عينٍ قد ذَبَحْت لطارقٍ فأطعمته من عينه وأطايبه

ولا يذهب غموض كلمة (عين) الثانية إلا بعد أن تعرف أنه يقصد بها سنام الإبل[٢٠] .

والأمثلة التى توضح أثر انتشار المشترك فى فقدان فصاحة الكلام ، كثيرة وإنما قد اكتفينا بما يلقى الضوء على ما نريد توضيحه .

(جـ) الاضـــــداد :

يصرح السيوطى « بأنه نوع من المشترك » ، ويؤكد ذلك بقوله : « قال أهل الأصول : مفهوما اللفظ المشترك إما أن يتباينا ، بأن لا يمكن اجتماعهما فى الصدق على شىء واحد ، كالحيض والطهر ، فإنهما مدلولا القرء ، ولا يجوز اجتماعهما لواحد فى زمن واحد . أو يتواصلا ، فإما أن يكون أحدهما جزءا من الآخر كالممكن العام للخاص ، أو صفة لذى السواد فيمن سمى به .. »[٢١] .

ولا يعنينا الآن كون التضاد نوعا من المشترك أو عدم كونه ، وانما يعنينا أثره فى اللغة والفصاحة ، فهو ظاهرة مرضية تعوق الفصاحة ، لكن يخفف من أثره الضار قلة عدده فى اللغة ، فما ينطبق عليه حدود وشروط التضاد عدد قليل

---

(١٩) المزهر جـ ١ ص ٣٧٥ .
(٢٠) المزهر جـ ١ ص ٣٧٥ .
(٢١) المزهر جـ ١ ص ٣٨٧ .

من الألفاظ ، ويرى بعض المحدثين من دارسى اللغة أن عدد ألفاظ ظاهرة التضاد يمكن أن ينحصر فى عشرين كلمة تقريبا[٢٢] . وذلك طبقا لما رآه بعض الباحثين فى مجمع اللغة العربية .

ويرجع ظهور التضاد إلى أسباب مختلفة منها :

١ — قد يلجأ بعض المجتمعات إلى أن تعبر بالضد عمدا للتفاؤل أو لتخفيف وقعها على النفس ، متأثرين بما لديهم من معتقدات موروثة أو من عادات سلوكية فى مجتمعاتهم مثل كلمة (السليم) فتطلق على اللديغ أى الذى لدغته حية ، أو لسعته عقرب ، وهذا قريب مما يشيع فى الريف المصرى عندما يطلقون على المريض بأنه (متعافى) أو (به عافية) ، كما يسمى الأعمى أحيانا (بالبصير) كما يشيع فى البيئة المصرية أيضا أن يطلق على الأسود لفظ (الأبيض) .

٢ — وقد لاحظ القدماء أنه قد يوضع للنقيضين لفظ واحد من قبيلتين ، ثم يأتى الزمن الذى أدى إلى جمع اللغة فدخلت اللفظتان فى اللغة معا لتدل كل منهما على معنى يناقض الآخر ، ثم لا يفرق بعد ذلك بينهما لاتحادهما فى لفظ واحد ، وذلك مثل ما يورده السيوطى[٢٣] (فالسدفة) فى لغة تميم الظلمة ، و (السدفة) هى الضوء فى لغة قيس ، و (الناهل) فى كلام العرب : العطشان ، و (الناهل) الذى قد شرب حتى روى ، و (طلعتَ على القوم) اذا غبت عنهم حتى لا يروك ، و (طلعتَ عليهم) اذا أقبلت عليهم حتى يروك .

وظاهرة الأضداد تشبه ظاهرتى الترادف والاشتراك اللفظى فى أنها تسبب اتساعا وتضخما فى اللغة ، ولقد حاول بعض الباحثين وهو المرحوم الأستاذ أحمد أمين فى بحث قد قدمه إلى مجمع اللغة العربية — أن ينقّى اللغة العربية من

---

(٢٢) كتاب فى أصول اللغة مجموعة القرارات التى اصدرها المجمع ج ١ ص ٧٣ — ص ١٠٨ .

(٢٣) المزهر ج ١ ص ٣٨٩ — ص ٣٩٠ .

الترادف والمشترك اللفظي والتضاد ، وهو بحث يحمل عنوان (اقتراح ببعض الاصلاح في متن اللغة) ولقد اتخذ المجمع قرارا في ديسمبر ١٩٦٤ يعقب فيه على ذلك البحث، وينص ذلك القرار على أن كلمات التضاد والاشتراك اللفظي ليست كثيرة ، وليس فيها عبء على اللغة العربية .. أيا ما كان سبب التضاد والاشتراك اللفظي واختلاف اللغويين حولها ، فان ما ثبت من كلمات التضاد والاشتراك اللفظي ليست كثيرة ، ويعول في تحديد معناها على السياق والقرينة ، ووجودها في المعجم قد يحتاج إليه في فهم النصوص القديمة ، وليس فيها مع ذلك عبء على اللغة، وليست العربية بدعا في ذلك.ومهمة واضعي المعجم أن يتحروا استعمال هذه الألفاظ في النصوص الصحيحة ، قبل الحكم بأنها من الأضداد ، أو المشترك اللفظي .. »[٢٤] كما ينص التقرير الذي كتبه الدكتور ابراهيم أنيس حول هذا البحث أن دراسته للترادف بالشروط التي يراها المحدثون ينتج عنها أن عدد المترادف في لغتنا مقبول ولا يعد إشكالا في اللغة ، كما يرى أن وضع معجم لتحديد دلالات الألفاظ التي تستمد من النصوص المنحدرة منها سيخلص اللغة مما يعلق بها ، كما يرى أن اللغة العربية ليست بدعا بين اللغات الأخرى فيما يتعلق بالترادف والتضاد والمشترك اللفظي[٢٥] .

ومع ذلك فإننا نرى ما يراه أستاذنا الدكتور ظاظا[٢٦] الذي يرى أن عددا كبيرا مما يسمى بالترادف والمشترك والأضداد يعتبر أكثرها من التضخم المنهك للغة.

وهذه الظواهر تعيب الفصاحة التي تهدف إلى الإبانة بالقول الواضح الصريح الذي خلص من العيوب التي ذكرناها ،الدال على معناه دلالة تامة ، والمتميز بالسلاسة والعذوبة .

وكما يسبب الترادف والمشترك فقدان الفصاحة بما يسببانه من الغموض

---

(٢٤) كتاب في أصول اللغة ص ٧٣ .

(٢٥) كتاب في أصول اللغة ص ١٠٨ ــ ص ١٠٩ .

(٢٦) كلام العرب ص ١١٦ .

والإبهام والتعقيد ، فالتضاد قد يكون له نفس الأثر السلبي في الفصاحة ، ومن أمثلته التي تترك في نفس القارىء شعورا بالغموض ، كلمة سوى التي وردت في بيت حسان بن ثابت :

أتانا فلم نَعْدِل سواه بغيره   نبي أتى من عند ذي العرش هاديا

ويشعر قارىء هذا البيت بالغموض والتعقيد إلى أن يعلم أن سوى من الأضداد ، فهي بمعنى (غير) وبمعنى (عين التي للتوكيد) مثل : سوى الرجل : أي غيره ، وسوى الرجل : أي عينه ، وهذا سوى فلان أي فلان بعينه[٢٧] ، واستعمال حسان بن ثابت لكلمة (سوى) على غير المشهور ، فاستعمالها الشائع هو الذي بمعنى (غير) ، ولقد سبّب هذا الاستعمال الغموض والإبهام .

ومن الأمثلة أيضا: لَمَقْتُ الشيء ألْمُقُهُ لَمْقاً اذا كتبتهُ ،وقد تستعمل لَمَقْتُ أيضا بضد ذلك فتقول : لمقته اذا محوته .

والجَلَل : الشيء الصغير ، والجلل : العظيم .

والهاجد : المصلي بالليل ، والهاجد : النائم .

والبَسْل : الحرام ، والبَسْل أيضا : الحلال .

الزوج : الذكر ، الزوج : الأنثى .

الطرب : الفرح ، الطرب : الحزن .

الساقب : القريب ، الساقب : البعيد .

القشيب : الجديد ، القشيب : الخَلَق .

الجادي : السائل ، الجادي : المعطي[٢٨] .

والخيلولة : للشك واليقين ويستدل الثعالبي على ذلك بقول أبي ذؤيب[٢٩] :

---

(٢٧) المزهر جـ ١ ص ٣٩٢ .

(٢٨) المزهر جـ ١ ص ٣٩٢ ـ ص ٣٩٨ .

(٢٩) فقه اللغة وسر العربية لابى منصور الثعالبى ص ٥٦٦ ط الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

فَبَقِيتُ بَعْدَهُمُ بعيش ناصِبٍ وإخَالُ أنى لاحق مستتبعُ

ويفسر الثعالبي (إِخَال) بقوله : أي أتيقّنُ .

واستعمال مثل هذه الألفاظ قد يؤدى إلى غموض المعانى ، إذا أسىء استخدامها ، وهى بسوء الاستعمال تؤدى إلى فقدان الفصاحة .

٣ ـ المعرّب والدخيل :

اللغة التى تدب فيها الحياة لابد أن تأخذ وتعطى غيرها من اللغات ما قد تحتاج إليه ، وذلك مرتبط بالتطور الحضارى الذى تنتمى إليه اللغات ، فوجود المعرب والدخيل فى اللغات أمر طبيعى ، لكن الكثرة منهما فى لغة ما قد تضر باللغة ، ذلك أن دخول كلمات أجنبية لها نظائرها فى اللغة القومية أمر قد يؤدى إلى فناء الكلمات الأصيلة وشيوع الأجنبى مكانها ، لكن دخول الكلمات الأجنبية التى لامقابل لها فى هذه اللغة أمر تحتمه الحضارات ، فاذا ابتكر اختراع جديد فى أمة متحضرة فان انتقال ذلك الاختراع إلى أمة أخرى يصحب معه ذلك الاسم الذى ارتبط به ، وقد ينشط أبناء هذه الأمة لوضع اسم من لغتهم يقابل أو يطابق ذلك المخترع الجديد ، لكننا نرى أن انتقال المخترع بلفظه إلى لغة ما لا يضرها ، طالما أن ذلك المخترع ليس له ما يقابله تماما فى اللغات الاخرى ، وبشرط ألا يكون ذلك الاسم الذى وضع له دالا على معنى آخر .

والمعرب والدخيل لفظتان تطلقان على الكلمات الأجنبية التى دخلت اللغة العربية ، والفرق بين اللفظتين يتلخص فى اتجاهين هما : [٣٠]

ا ــ إذا جاءت لفظة أجنبية ، وهذبت من حيث لفظها ، بحيث أشبهت الأبنية العربية القحة فى ميزانها الصرفى ــ اعتبرت من المعرب . أما إذا بقيت على وزن غريب على اللغة العربية فهى من الدخيل .

---

(٣٠) كلام العرب ص ٧١ .

ب ـــ اللفظة الأجنبية التى استعملها العرب الذين يحتج بكلامهم تعتبر من المعرب، حتى ولو لم تكن من حيث بناؤها ووزنها الصرفى مما يدخل فى أبنية العرب . أمّا ما دخل بعد ذلك فإنه يعتـــبر من الدخيل ، أى الذى جرى على الألسنة والأقلام من اللغات الأجنبية . وهذا التحديد يفضله الدكتور ظاظا .

وفى الحقيقة تبدو عملية استقصاء الدخيل واستخراجه من كلام العرب فى مختلف الصور ـــ صعبة المنال ، لأنها تحتاج إلى جهد عدد كبير من الباحثين الذين يتمتعون بقدر كبير من التعمق فى اللغات الأجنبية التى اختلطت أجناسها وثقافاتها باللغة العربية على مدى عصورها المتلاحقة ، هذا إذا عرفنا أن لغات سامية متعددة قد تداخلت مع اللغة العربية ، وهذه اللغات السامية تتشابه مع اللغة العربية فى كثير من الأصول والصيغ ،ويرى الدكتور ظاظا أن معرفة الألفاظ الأجنبية التى لم تأت من شعوب سامية أخرى ـــ أسهل بكثير من اللغات السامية الأصل، لأن معرفة مصدرها يبدو أكثر سهولة .

ولقد حاول الباحثون العرب أن يميزوا الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية بقدر ما يتاح لهم ، ومن هؤلاء الباحثين شهاب الدين أحمد الخفاجى صاحب كتاب (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) ، وكما يبرز فى هذا المقام دور السيوطى فى جمعه الآراء الكثيرة التى اعتقدت مع أصولها . وكذلك كتاب المعرّب لأبى منصور الجواليقى .

ومن أمثلة الدخيل والمعرّب فى شعر الشعراء الذين قد شغفوا باستعمال الدخيل للتظارف أو التلمح قول الأعشى :

فذاك وما أنجى من الموت ربه   بساباط حتى مات وهو محرزق

ويقول السيوطى إن (محرزق) معرب (هرزوقا) أى مخنوق ، ويرى أن أصله نبطى .

ومثل قول الشاعر :

وقد أقلتنا المطايا الضمر ... مثل القِسىّ عاجها المُقَمْجِر

ويرى السيوطى أن (المقمجر) أو (القمنجر) معرب (كَمَانْكَر) أى القواس يصنع الاعوجاج بالقسى[٣١] .

وقد يتلمح الشاعر العربى بإدخال بعض الكلمات الدخيلة فى شعره كما فعل العمانى عندما خاطب الرشيد فى قصيدته التى مدحه بها وقد اشتملت على بعض الألفاظ الفارسية :

من يلقه من بطل مُسْمَرْنَدْ ... فى زغفة محكمة بالسَّرْد

تجول بين رأسه و (الكرد)

فالمسرندى : الذى يغلب ويعلو ، والسرد : سمر الزرد ، والكرد : أصله (كردن) أى العنق .

ويقول العمانى أيضاً فى هذه القصيدة :

لما هوى بين غياض الأُسْد ... وصار فى كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهرَ آبِ سَرْدْ[٣٢]

آب سرد : ماء بارد . ومثل :[٣٣] .

وكَلَّمَتْنى وقع الأسنَّة والقنا ... وكافر كُوبات لها عُجَرٌ قَفْدُ

بأيدى رجال ما كلامى كلامهم ... يسوموننى مَرْدا وما أنا والمردُ

كافر كوب : هى المقرعة ، ومرد : رجل الفارسية .

ومثل قول يزيد بن ربيعة بن مُفرِّغ :

آبَ اسْت نبيذ است ... عصارات زبيبَ اسْتْ

سمية روسبيذ است

---

(٣١) المزهر ج ١ ص ٢٩٠ .
(٣٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٢ .
(٣٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٣ .

آب : ماء، است : فعل من أفعال الكينونة بالفارسية ، روسبيد : مشهورة أى زانية ، وروسبيد : مكون من (رو) أى الوجه ، و (سبيد) أى أبيض بالفارسية .

ولقد لجأ شعراء كثيرون إلى مثل هذه الطريقة لغرض التملح والتظرف، وقد يقبل هذا السلوك من التعبير لدى معاصريه ، لكنه غريب فى غير عصره ، فهو بذلك من أسباب فقدان الفصاحة لما يشيعه عشاق هذا اللون من غرابة فى اللفظ ، وما يدخلونه من ألفاظ أعجمية لا حاجة لهم فى التعبير بها .

بقى أن يقول : إن أشد آفات الفصاحة فتكا بها هو ما يتمثل فى :

٤ ـ العـــامى والملحـــون :

والعامية تنشأ عن تحريف للألفاظ العربية الصحيحة بحيث تجرى على ألسنة العامة أو السوقة ، وقد تظل العامية مفصولة عن العربية الفصحى ، أى قد نجد العامة يجرفون إليهم سيلا من الألفاظ الفصيحة ويحرفونها ، ولكنهم عندما يتخاطبون مع الجهات الرسمية فإنهم لابد أن يرقوا إلى مستوى الفصحى ، لكن هذا الازدواج لا يمكن أن يمكث طويلا لأن الحياة قائمة على التفاعل والامتزاج، وبعوامل كثيرة يمكن أن تؤثر العامية فى الفصحى تأثيراً كبيراً ، وفى كل عصر يمكن أن تكون فيه ازدواجية فى اللغة ، لكن لغتنا قد استطاعت أن تقاوم آفاتها فى كل عصر بما لها من قداسة وسلطان مستمد من الدين الحنيف ، لكن زماننا هذا به آفة العامية التى ساعد على نمائها عوامل كثيرة أهمها الوسائل الإعلامية ، كالإذاعتين المسموعة والمرئية ، والصحافة ، ودور النشر عامة، وهذه العوامل التى تتصل بالناس عن طريق السمع أو البصر كان من الممكن أن تقضى على تلك الازدواجية ، وترتقى بلغة التعامل اليومية ، لكن هذا الهدف لم يتحقق بعد ، فما زالت الازدواجية قائمة ، بل إننا نجد أن أخطبوط العامية قد امتدت

أطرافه إلى هذه الوسائل الإعلامية بمساعدة أولئك الذين يتكلمون ويكتبون للناس بها .

وفى هذا السلوك الإعلامى خطر ستظهر نتائجه بعد فترة من الزمن .

وخطر العامية يصيب الفصاحة فى ذلك التحريف الذى يحدث للفصحى ، ولقد اهتم عدد من الباحثين بدراسة اللهجات ، والمستويات اللغوية للغة العربية المعاصرة ، لكن هذه البحوث وغيرها ما زالت فى ظلال المكتبات يعلوها الغبار ، وتنتظر من يخرجها للضوء ، وتنتشر بين طلاب المعرفة .

والفرق بين العامى والملحون أن الملحون لفظ دخل عليه تغيير صوتى انحرف به عن الفصيح ، وقد يستعمل لفظ (العامى) ليراد به العامى والملحون معاً ، ودراسة العامية مجال متسع جداً . وقد أعدت رسائل جامعية ، وكتب كثيرة فى هذا المجال . كما قام عدد من الباحثين بنشر كتب الملاحن ولهجات القبائل والأقطار .

ومن الأمثلة التى توضح هبوط الأدباء إلى آفة العامية ما نراه عند رجل مثل عبد الله النديم الذى عبر بالفصحى والعامية وكان من الممكن أن يلتزم الفصحى ، لكنه سقط الى التعبير بالعامية عن طريق الزجل أو الكتابة فى الصحافة ، بغض النظر عما دفعه إلى الكتابة بالعامية . ويقول النديم معللا نزوله إلى العامية بقوله :

أنا أريد أحمد ربى بعد الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع فى أدبى أسمعك حسن الاشعار

فقال :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكة

ندخل على أسيادنا بسرور ونغنم الخير والبركة

فقالت :

هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم والا فنك

دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة دقنك[٣٤]

وما فعله عبد الله النديم ليس إلا صورة لما حدث قبله وبعده من سقوط الأدباء فى مهاوى العامية متخذين لذلك أعذارا ، والذى ينظر فى كتابة عدد كبير من أدبائنا الآن، وفى الصحافة ،نجد أن العامية تزحف وتنتشر فى الصفحات الكثيرة التى تخرج إلينا كل يوم . ولا يسعنا إلا أن نقول ما قاله الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات « السرعة ، والصحافة ، والتطفل ، هى البلايا الثلاث التى تكابدها البلاغة فى هذا العصر .. »ويقول فى نهاية حديثه عن الصحافة : « .. من أجل ذلك طغت العامية ، وفشت الركاكة ،وفسد الذوق ،وأصبحت العناية بجمال الاسلوب تكلفا فى الأداء ، والمحافظة على سر البلاغة رجعه الى الوراء ، ولم يبق للملخصين للغة الوحى وأدب الرسالة إلا أن يكتبوا لأنفسهم ولمن يعصمهم الله من أعقاب هذا الجيل »[٣٥] .

ولقد اجتهد رجال كثيرون من حماة الفصحى فى القديم والحديث ونبهوا الى خطر العامية وما قد يكون له من أثر فتاك للفصحى ، فمنذ الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ ﻫ نجد تراثا يدل على جهود إلى المخلصين للذوذ عن الفصحى ، وتوضيح داء عضال هو ما تلحن فيه العوام ،ولقد شعر الخلفاء والمثقفون منذ بداية الدولة العباسية بفساد الألسنة ،وأرسلوا أبناءهم إلى البادية ليتلقفوا الفصاحة من الأعراب

---

(٣٤) عبد الله النديم بين الفصحى والعامية د. نفوسة زكريا سعيد ص ٩٧ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ .

(٣٥) دفاع عن البلاغة لاحمد حسن الزيات ص ١٩ ، ص ٢٢ .

الذين لم تتلوث ألسنتهم بالعامىّ والملحون، كما أحس الخلفاء والمثقفون ووجوه القوم بهذا فعقدوا الندوات فى بيوتهم لاستقبال العلماء والأدباء ،ولسماع الآراء والمناقشات التى تدور بينهم فى اللغة والأدب، كما استجلب أولئك الخلفاء العلماء والرواة لتأديب أبنائهم ، وها هو أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي قد أرسله أبوه الذى كان يعمل سقاءً إلى البادية وهو صغير ليتلقى الفصاحة من الأعراب، وترجع مقدرة المتنبى اللغوية إلى تلك النشأة ، وكتب التاريخ تحفظ فى طياتها مجالس الرشيد العلمية ، والمجالس الأدبية الأخرى التى كانت تعقد فى البصرة وبغداد وغيرهما .

ولقد شعر العلماء بخطر العامىّ والملحون فنهضوا لجمع اللغة على ذلك النهج الذى اتبع فى جمع الأحاديث النبوية ، ولقد نجح العلماء فى تلقفها من أعراب البادية ، والرواة ، ولقد تحقق قدر كبير من جمع اللغة بجمع الأدب عامة والشعر خاصة .

كما نبه أولئك العلماء إلى ضرورة الحذر من كلام المولدين ، بل إننا نرى بعضهم قد تحرج من رواة شعر مَنْ يستشهد بشعرهم ، مثل ما فعل الأصمعى عندما وصف جرير والفرزدق بأنهما مولدان وأنه قد همّ برواية شعرهما .

ولقد نبه الباحثون قديما وحديثا إلى ضرورة الحذر من آفة العامية منذ عهد الكسائى إلى اليوم ، وهى جهود محمودة ، كما اهتمت الجامعة بهذه الجهود ، وقد قدمت رسائل علمية فى كليات الآداب ودار العلوم فى هذا المجال . كما قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بجهود محمودة لكننا ننتظر منه أكثر مما قدمه لنا . ولعل الأيام القادمة تأتى بما يغنى .

ونعود فنقول : إن خطر العامية يهدد الفصاحة فى كل زمان ، ولولا القرآن الكريم الذى يحفظ اللغة ويدفع عنها عوادى الآفات لأصبحت العربية الفصحى

لغة أخرى أو فى بطون الكتب . والفضل يرجع أولا وأخيرا إلى الله الذى هيّأ لنا الاسلام دينا باقيا على مر الزمان .

وبعد ، فقد حاولنا فى هذا الباب أن نصف الداء حتى لنصل للدواء ، وأدواء الفصاحة التى حاولنا توضيحها تتمثل فى جانبيها : المنطوق والمكتوب ، وربما كانت بعض الأدواء أظهر من بعض ، ولقد حاولنا الإيجاز فيما عرضنا ، لأن أية قضية من قضايا هذا الباب يمكن أن تكون بحثا مستقلا بذاته، وإنما قد حاولنا أن نبرز الجانب المتعلق بهدفنا الذى نسعى اليه .

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الخاتمة

وبعد ، فقد طفنا باحثين عن الفصاحة قديما وحديثا — التى تمت بوشائج قوية إلى الأدب ، والبلاغة ، واللغة بعلومها المختلفة ، مستعينين بما قد يوضح طريقنا عند علماء النفس والاجتماع والفيزياء وغيرهم ، متطلعين إلى نتائج وثمار نرجو لها أن تكون زادا لمن أراد أن يواصل السير فى هذه الدروب .

نعم ، فليست الفصاحة درساً محصورا فى هذا الفرع من المعرفة الإنسانية أو ذاك ، وإنما هى ظاهرة متشعبة الفروع ، ويقع على الباحثين فيها أن يتلمسوا تشعباتها فى تلك العلوم التى أشرنا إليها آنفا ، وربما يتراءى لبعض الباحثين فى المستقبل أن ظاهرة الفصاحة يجب أن تفسر على ضوء علوم أخرى لم نشر إليها .

والفصاحة التى وسعنا من مجالاتها وذلك عندما قمنا بتفسيرها على ضوء ما أسفرت عنه علوم العصر — ظلت تدرس مئات السنين كمقدمة فى كتب البلاغة العربية ،وفى ثنايا البحوث اللغوية ،فلقدكانت النظرة إلى الفصاحة وما تزال إلى الآن — محصورة فى نطاق ضيق بين البلاغة واللغة ، فالبلاغيون يضمونها إلى مباحثهم ، لكنهم لايصنفونها فى علوم البلاغة المتأخرة ، كالبيان والمعانى والبديع، بينما يرى اللغويون أن الفصاحة واقعة فى بحوثهم اللغوية .

فالفصاحة ليست حكرا للبلاغيين ، كما أنها ليست أسيرة للغويين فقط .
إنما قد امتدت إلى معارف أخرى أبدعتها الإنسانية فى عصرنا الحديث .
فهى إطار شامل يمكن أن تعالج اللغة فيه معالجة نافعة .

ومن ثم فإننا نرى أنه قد آن الأوان الذى يجب فيه أن تستقل الفصاحة وتتبوأ

مكانتها اللائقة بها ، وتبرز كغيرها من العلوم اللغوية الأخرى التى استقلت ، وبرز دورها فى معالجة اللغة فى جانب من جوانبها .

فالفصاحة بعد هذا الطواف يجب أن تكون علما مستقلا . وهى فى رأينا لها مقومات كثيرة تصبو إلى جعلها علما له موضوعاته وأسسه وأهدافه ، و لعلنا لا نكون مبالغين عندما نرى أن مقومات علم الفصاحة الذى ندعو إليه أكثر وضوحا وقوة من أسس ومقومات بعض العلوم التى استقلت وظهرت فى العصر الحديث ، أو التى تطلع العلماء إلى تحقيقها مثل الترجمة الآلية أو التلقائية Automatization ، فلقد تطلع اللغويون وغيرهم بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن يكون لديهم علم يحقق لهم الترجمة التلقائية بما سيكون له من قواعد، وعلى الرغم من جهود الباحثين وآمالهم العريضة لتطوير ذلك العلم إلا أن نتائج جهودهم كانت محدودة ، لأن الترجمه الآلية قد انحصرت فى بعض النصوص الرياضية والاحصائيات ، ويحاول الباحثون أن يصلوا بعلم الترجمة الآلية إلى كفاءة عليه . وفى رأينا أن أكثر الصعوبات التى تقف فى سبيل الترجمة الآلية حتى تثبت كعلم - هى الفروق العديدة بين اللغة الانسانية أو البشرية المتميزه بالمرونة وبين ما يمكن أن تتصف به لغة الحاسبات الآلية من جمود وصرامة ، وفضلا عن ذلك ما تتميز به لغة عن أخرى فى النحو الصرف والأصوات وغير ذلك .

لكن الفصاحة العربية إطار لمعالجة لغة إنسانية متصلة بحياة البشر الذين ينطقونها وبعقائدهم وآمالهم وآلامهم . كما أنها إطار مناسب للربط بين علوم اللغه العربية التى انفصلت عنها ، وأصبح بينها حدود فاصلة ، ومناطق حرام ، فلقد صارت علوم اللغة تدرس لذاتها ، وأصبح عدد من قضايا تلك العلوم ترفا لغويا، وحاجتنا اليوم إلى التئام علوم اللغه كبيرة وماسة ، والدراسات الأسلوبية فى اللغات الأخرى قد بلغت كثيراً من غاياتها ، وفى نظرنا أن معالجة اللغة بعلم الفصاحة الذى ندعو إليه يعيد إليها كثيرا مما افتقدته .

وعلم الفصاحة لايكرر ماجاءت به العلوم اللغوية الأخرى من موضوعات وقضايا، كالبلاغه والنحو والصرف والصوتيات وعلم الدلالة، وهذا لا يمنع من اشتراكه معها فى معالجة بعض القضايا، كما أنه ليس مما يمنع أن يستعين علم الفصاحة بهذه العلوم اللغوية وغيرها، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الفيزياء، وعلم وظائف الأعضاء، والفلسفه، وغير ذلك..

كما أن علم الفصاحة ليس صورة لعلم اللغة العام الذى ظهر فى العصر الحديث لأننا نرى أن علم الفصاحة وصفى ومعيارى فى آن واحد، فهو يعالج الكلام المؤدى وصفا وتقويما، لكن علم اللغة العام يسعى إلى وصف اللغة من حيث هى لغة وعلم الفصاحه يختص باللغة العربية - فيما نرى الآن - أما علم اللغة أو علم اللغة العام فانه لا يختص بلغة معينة.

ونحن ندرك أيضاً أن نتائج العلوم اللغوية ليست صارمة ومحددة تمام التحديد، كالعلوم التجريبية بل إن قدرا من النسبية يدخل فى اطرادها وفى تصورنا أن علم الفصاحة العربية يمكن أن تتحدد معالمه فيما يلى :-

١ — موضوعه : الكلام الصحيح الصريح العذب — نطقا وكتابة — الذى يصيب معناه، ويكشف عنه بوضوح، والكلام الذى يتصف بهذه الصفات يكون موضوعا لعلم الفصاحة عندما يكون محللا إلى عناصره الاولى، أو عندما يكون مركبا ومؤدّى.

٢ — أسسه ووسائله ومنها :

(أ) التركيب : وتظهر جوانب منه فى موضوعات استقر وضعها فى البلاغة والنقد.

(ب) التحليل : ويتمثل فى مباحث النحو والصرف والأصوات اللغوية

(جـ) الأداء : وتظهر جوانبه فى علم الأصوات اللغوية وعلم النفس وعلم المعنى، وعلم الإشارة .

(د) الاستقبال : وتتضح مظاهره بعلم الفيزياء وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء وعلم المعنى وعلم الاشارة وعلم الاجتماع وغير ذلك .

(هـ) الإحصاء : وتظهر جوانبه فى علم الإحصاء .

٣ ــ أهدافه : إن الأهداف المباشرة لأى علم من العلوم هى للكشف عن حقائق ، وإلى جانب هذه الأهداف المباشرة توجد أهداف غير مباشرة يمكن الانتفاع بها بعد تحقيق الأهداف الأولى ــ فى أغراض علمية أوتربوية، وهدف علم الفصاحة العربية المباشر هو الكشف عن حقائق متعلقة بالمادة اللغوية عند تحليلها وتركيبها ، وعند نطقها وكتابتها ، كذلك الكشف عن حقائق متعلقة بالمتكلمين والسامعين ، ويمكن أن تكون بعد ذلك أهداف غير مباشرة بعد الكشف عن تلك الحقائق ، ونستطيع أن نتصور بعضا منها فيما يلى : ــ

(ا) تنقية المادة اللغوية،أو متن اللغة مما قد يشوبه من أشياء تعلق به ، تنفى عنه صفة الفصاحة .

(ب) تلازم التحليل والتركيب عند التعامل مع المادة اللغوية بالنظر أو الإنشاء ، مع تعلقها بالدلالات .

(جـ) ترشيد الأداء والارتقاء به، وهذا جانب عملى ووظيفى للغة ، ومعالجة العوائق التى تمنع من تحقيقه .

(د) توجيه الاستقبال إلى مايحسن به، والربط الكامل بينه وبين الاداء ، وفى ذلك تكامل تام لعملية الكلام .

وإذا كانت الدعوة إلى علم الفصاحة العربية ثمرة من ثمار هذا البحث فان

طموحنا لايتعدى أن يكون خطوة فى هذا الطريق ،وأملنا يتعلق بمواصلة الجهد الذى يبذله الباحثون فى هذا الاتجاه .

وبعد فان البلاغيين القدماء حين جعلوا الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة كان إحساسهم صادقا بأن الفصاحة ليست بلاغة خالصة ،بحيث لا يمكن إدماجها فى المعانى أو البيان أو البديع ، بل هى تمت إلى البلاغة بقدر ماتمت إلى علوم كثيرة أثرت فيها .

ولسنا بحاجة إلى أن نبرز الثمار أو النتائج الأخرى فى نهاية بحثنا ،لاننا نثق بقدرة القارىء على ملاحظتها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل نافعا للدين والوطن والإنسانية وأن يكون خطوة على الطريق لاستكمال بحث جوانب علم الفصاحة .

المراجع العربية التى وردت الاشارة إليها

الآمدى (الحسن بن بشر) الموازنة بين الطائيين
تحقيق : السيد أحمد صقر ١٩٦١

ابراهيم أنيس « دكتور » الاصوات اللغوية ـ الطبعة الرابعة نشر مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧١

ابراهيم أنيس « دكتور » من أسرار اللغة ـ ط الرابعة نشر مكتبة الانجلو سنة ١٩٧٢ .

ابراهيم أنيس « دكتور » موسيقى الشعر ط ـ الرابعة . مكتبة الانجلو سنة ١٩٧٢ .

ابراهيم أنيس « دكتور » دلالة الألفاظ ـ ط الثالثة مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧٢

ابراهيم أنيس « دكتور » اللهجات العربية ـ ط الثانية لجنه البيان العربى سنة ١٩٥٢ م .

ابراهيم جمعة قصة الكتابة العربية ـ دار المعارف سنة ١٩٤٧

ابراهيم سلامة « دكتور » بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ـ طبعة الأنجلو سنة ١٩٥٢

ابراهيم محمد نجا فقه اللغة ـ القاهرة دار النيل للطباعة سنة ١٩٥٧

ابراهيم اليازجى لغة الجرائد ـ القاهرة مطبعة المعارف سنة ١٣١٩ هـ

ابراهيم اليازجى نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد.
« جزءان » الطبعة الثانية حريصا ـ لبنان، سنة ١٩١٣

ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد) المثل السائر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط الحلبي سنة ١٩٣٩

ابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات بن محمد) النهاية فى غريب الحديث والأثر ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود الطناحى. نشر الحلبي

ابن الأنبارى الأضداد ـ ط بيروت ١٩١٢ مع مجموعة أخرى بهذا العنوان

ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص ـ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٣ م .

ابن جنى (أبو الفتح عثمان) سر صناعة الاعراب ـ تحقيق لجنة بوزارة المعارف نشر مصطفى البابي الحلبي ط ١٩٥٤

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) مقدمة ابن خلدون نشر دار الشعب ط سنة ١٩٧٠ م .

ابن رشيق القيرانى العمدة فى صناعة الشعر ونقده تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٥٥ .

ابن سنان الخفاجى سر الفصاحة ـ تحقيق عبد المتعال الصعيدى ط صبيح سنة ١٩٦٩ .

ابن سيدة المخصص ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة .

ابن سيدة المحكم فى اللغة ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ؟

ابن دريد جمهرة اللغة ـ طبعة حيدر اباد الدكن سنة ١٩٤٥

ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا) معجم مقاييس اللغة ـ تحقيق عبد السلام هارون طبعة عيسى البابى الحلبي ١٣٦٦ - ١٣٦٩هـ

ابن القزاز القيروانى — ضرائر الشعر تحقيق الدكتور محمد مصطفى هدارة، والدكتور محمد زغلول سلام . نشر منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٣

ابن سلام (محمد بن سلام الجمحى) — طبقات فحول الشعراء ـ دار المعارف سنة ١٩٥٢

ابن طباطبا — عيار الشعر ـ تحقيق د. طه الحاجرى ، د . محمد زغلول سلام ط التجارية سنة ١٩٥٦ م

ابن قتيبة — أدب الكاتب ـ السلفية سنة ٩٤٦ م

ابن قتيبة — الشعر والشعراء ـ دار أحياء الكتب العربية ١٣٦٤ ١٣٦٦ هـ

ابن قتيبة — تأويل مشكل القرآن ـ طبعة الحلبى سنة ١٩٥٤

ابن قتيبة — المعارف ط المطبعة الاسلامية سنة ١٩٣٤ م

ابن المعتز — البديع ـ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى ط ـ البابى الحلبى (سنة الطبع غير مذكورة)

ابن منظور — لسان العرب . طبع بيروت ١٩٥٦ م

ابن النديم — الفهرست ١٩٧٩ المكتبة التجارية ١٣٤٨ هـ

ابن هشام — مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ ط التجارية (لم يذكر سنة الطبع)

ابن هشام — أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ـ المطبعة التجارية سنة ١٩٥٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

ابن وهب — البيان فى وجوه القرآن (نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر) ط لجنة التأليف

والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ م ط الرسالة بالقاهرة تحقيق د. حفنى شرف سنة ١٩٦٩م

ابن يعقوب المغربى — مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح — ط دار السعادة بمصر سنة ١٣٤٢ هـ ط الثانية .

أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) ديوان الحماسة سنة ١٩٢٥

أبو حيان التوحيدى — الامتاع والمؤانسة — تحقيق أحمد أمين

أبو حيان التوحيدى — المقابسات — تحقيق حسن السندوبى سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٩ م

أبو عبيدة — مجاز القرآن — نشر الخانجى سنة ١٩٥٤

أبو العلاء المعرى — شروح سقط الزند — دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٣م

أبو العلاء المعرى — رسائل أبى العلاء — ط مرجليوث

أبو العلاء المعرى — رسالة الغفران الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٩ تحقيق عائشه عبد الرحمن ط دار المعارف

أبو على القالى — الامالى — دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م

أبو الفرج الاصفهانى — الاغانى — ط دار الكتب المصرية ١٩٢٣ م.

أبو هلال العسكرى — كتاب الصناعتين — تحقيق على البجاوى ط عيسى الحلبى سنة ١٩٧١ م

أحمد ابراهيم موسى — الصبغ البديعى فى اللغة العربية . دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٩ .

أحمد أمين — ضحى السلام — ط التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م .

أحمد أمين — ظهر الاسلام — « « « « ١٩٤٥ م

أحمد تيمور أسرار العربية ـ مطابع دار الكتاب العربى ١٩٥٤

أحمد تيمور السماع والقياس « « « ١٩٥٥

أحمد تيمور تصحيح لسان العرب
القاهرة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ

أحمد حسن الزيات دفاع عن البلاغة ــ نشر عالم الكتب . مطبعة الاستقلال الكبرى سنة ١٩٦٧ م

أحمد عيسى المحكم فى أحوال الكلمات العامية
ط مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٩ م

أمين آل ناصر الدين دقائق العربية
بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣ م .

أمين الخولى فن القول
القاهرة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٤٧ م .

أمين الخولى مناهج تجديد ــ دار المعرفة سنة ١٩٦١ م.

أرسطوطاليس فى فن الشعر ــ ترجمة الدكتور شكرى عياد دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ م .

أرسطوطاليس الخطابة ــ تحقيق عبد الرحمن بدوى ط النهضة المصرية سنة ١٩٥٩ م .

أنستاس مارى الكرملى أغلاط اللغويين الأقدمين ـ بغداد سنة١٩٣٣م .

أنيس فريحة (دكتور) نحو عربية ميسرة ــ بيروت دارالثقافة١٩٥٥ م

الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب) إعجاز القرآن ــ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى ط صبيح سنة ١٩٥١ م القاهرة .

تمام حسان (دكتور) مناهج البحث فى اللغة
مكتبة الإنجلو المصرية سنة ١٩٥٥ .

تمام حسان (دكتور) اللغة فى المجتمع ، مترجم ، دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٩ وهو كتاب من تأليف م . م لويس .

تمام حسان (دكتور) اللغة مبناها ومعناها — نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م .

التفتازانى (سعد الدين التفتازانى) شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح - دار السعادة بمصر سنة ١٣٤٢ هـ .

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) فقه اللغة وسر العربية — المكتبة التجارية ط مصطفى محمد سنة ١٩٢٣ م .

ثعلب (أبو عباس أحمد بن يحيى) قواعد الشعر — القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) مجالس ثعلب — تحقيق عبد السلام هارون ط القاهرة سنة ١٩٦٩ .

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى فصيح ثعلب — المتن لثعلب والشرح للهروى - نشر عبد المنعم خفاجى ط القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين — أربعة أجزاء تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الثانية — الناشر مكتبة الخانجى سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) الحيوان — سبعة أجزاء تحقيق عبد السلام هارون الحلبي سنة ١٩٤٧ م

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) المحاسن والأضداد (المنسوب للجاحظ) مطبعة الفتوح الأدبية سنة ١٣٣٢هـ .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البخلاء (الساسي سنة ١٣٢٣ هـ)

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) رسائل الجاحظ (الساسي سنة ١٣٢٣ هـ)

جان بياجيه — اللغة والفكر عند الطفل — ترجمة الدكتور أحمد عزت راجح — ط ونشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٥٤ م

جيروم ستولنيتز — النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية — ترجمة الدكتور فؤاد زكريا — ط جامعة عين شمس سنة ١٩٧٤م

جبر ضومط — فلسفة اللغة العربية وتطورها طبع المقدم والمقتطف بمصر سنة ١٩٢٩

جورجي زيدان — الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية مراجعة الدكتور مراد كامل — طبع بمطابع الهلال (سنة الطبع غير مذكورة)

جمال الدين نوح (دكتور) الصوت — ط وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥ م

الجواليقي (أبو منصور موهوب أحمد بن محمد) المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم — تحقيق أحمد شاكر القاهرة ط دار الكتب سنة ١٣٦١ هـ

حازم القرطاجني — منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق الحبيب بن خوجة تونس ١٩٦٦

حسن ظاظا (دكتور) — الساميون ولغاتهم — دار المعارف سنة ١٩٧١م

حسن ظاظا (دكتور) — اللسان والإنسان — « « « ١٩٧١ م

حسن ظاظا (دكتور) — كلام العرب — « « « ١٩٧١م

حسن عون (دكتور) — اللغة والنحو مطبعة رويال إسكندرية سنة ١٩٥٢ م

حسين نصار — المعجم العربي نشأته وتطوره
دار الكاتب العربي سنة ١٩٥٦ م

الحصري (إبراهيم بن على الحصري القيرواني) زهر الآداب — ط القاهرة سنة ١٩٢٥ م

حفني ناصف — مميزات لغات العرب ، وتخريج ما يمكن من اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك — المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٤ هـ

الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد) بيان إعجاز القرآن (رسالة ضمن ثلاث رسائل) حققها الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام — ط المعارف بمصر ١٩٥٥ م

الرماني (أبو الحسن على بن عيسى) النكت في إعجاز القرآن (رسالة ضمن ثلاث رسائل) حققها محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام ط دار المعارف سنة ١٩٥٥ م

الرماني (أبو الحسن على بن عيسى) معاني الحروف - تحقيق د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي ط نهضة مصر سنة ١٩٧٣ م

رمضان عبد التواب (دكتور) لحن العامة . ط دار المعارف سنة ١٩٦٧ م

رينيه ويليك ، وأوستن وارين نظرية الأدب — ترجمة محي الدين صبحي ، مراجعة د. حسان الخطيب — مطبعة خالد الطرابيشي بدمشق سنة ١٩٧٢ م

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) أساس البلاغة — ط بيروت سنة ١٩٦٥ م

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) تفسير الكشاف — ط الاستقامة سنة ١٩٥٣ م

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) المفصل في علم اللغة
ط دار التقدم سنة ١٣٢٣ هـ

السبكي (بهاء الدين السبكي)　عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح
ط دار السعادة بمصر سنة ١٣٤٢ هـ ط الثانية

السبكي (تاج الدين السبكي)　طبقات الشافعية . المطبعة الحسينية بالقاهرة .

السكاكي　مفتاح العلوم ـــ الطبعة الأولى مصطفى البابى
(يوسف بن أبى بكر محمد بن على) الحلبى سنة ١٩٣٧ م

السعيد محمد بدوى (دكتور)　مستويات العربية الفصحى فى مصر
دار المعارف سنة ١٩٧٣ م

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)　كتاب سيبويه ـــ نشر درنبورج باريس ١٨٨١ ـــ ١٨٨٩ م

سيد نوفل (دكتور)　البلاغة العربية فى دور نشأتها ـــ القاهرة ١٩٤٨م

السيوطى (عبد الرحمن جلال الدين السيوطى) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها.
تحقيق على البجاوى ـــ دار إحياء الكتب العربية
« البابى الحلبى » سنة ١٩٥٨ م

السيوطى (عبد الرحمن جلال الدين)　الاقتراح فى علم أصول النحو
ط حيدر أباد بالهند سنة ١٣١٠ هـ

شاخت (يوسف)　تراث الاسلام ـــ ترجمة حسين مؤنس الكويت.
عالم المعرفة يناير ١٩٧٨ م

شوقى ضيف (دكتور)　الفن ومذاهبه
الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ مكتبة الأندلس

شوقى ضيف (دكتور)　البلاغة تطور وتاريخ
ط دار المعارف سنة ١٩٦٥ م

شوقى ضيف (دكتور) تاريخ الأدب العربى ـــ الطبعة السابعة
دار المعارف سنة ١٩٧٦ م

صالح الشماع اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة
دار المعارف سنة ١٩٥٥ م

طه أحمد إبراهيم (دكتور) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى
إلى القرن الرابع
ط التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م

طه الحاجرى (دكتور) الجاحظ حياته وآثاره ـ دار المعارف١٩٦٢م

طه الحاجرى (دكتور) تحقيق « رسالة فى الجد والهزل »مع بول كراوس

طه الحاجرى (دكتور) فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية
مطبعة رويال الاسكندرية سنة ١٩٥٣ م

عباس محمود العقاد اللغة الشاعرة ـــ مزايا الفن والتعبير فى اللغة
العربية ـــ القاهرة مكتبة الانجلو سنة ١٩٦٠ م

عبد الجبار الأسد أبادى (القاضى أبو الحسن) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل
الجزء السادس عشر « إعجاز القرآن » تحقيق
أمين الخولى الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب
المصرية سنة ١٣٨٠ — ١٩٦٠ م

عبد الرحمن محمد أيوب(دكتور) اللغة بين الفرد والمجتمع
ترجمة لكتاب أوتويسبيرسن ـــ ط مكتبة
الانجلو سنة ١٩٥٤ م

عبد الرحمن محمد أيوب(دكتور) دراسات نقدية فى النحو العربى
نشر مكتبة الأنجلو ط مخيمر سنة ١٩٥٥ م

عبد العزيز عبد المجيد (دكتور) اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها — ط دار المعارف سنة ١٩٥٢ م

عبد القاهر الجرجانى دلائل الاعجاز — تعليق وشرح عبد المنعم خفاجى — الطبعة الأولى مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٩ م

عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة — تعليق أحمد مصطفى المراغى مطبعة الاستقامة سنة ١٩٢٢

عبد القاهر الجرجانى الرسالة الشافية — رسالة منشورة ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز — تحقيق محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام — دار المعارف سنة ١٩٥٠ م

عبد المجيد عابدين (دكتور) المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية — القاهرة سنة ١٩٥١ م

عز الدين اسماعيل (دكتور) الأسس الجمالية فى النقد العربى عرض وتفسير ومقارنة — القاهرة سنة ١٩٥٥ م

على بن ظافر الازدى غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات تحقيق د . محمد زغلول سلام والدكتور محمد الصاوى الجوينى ط دار المعارف سنة ١٩٧١

على عبد الواحد وافى (دكتور) فقه اللغة ـ ط لجنة البيان العربى ١٩٥٦ م

على عبد الواحد وافى (دكتور) علم اللغة ـ ط مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ م

على عبد الواحد وافى (دكتور) اللغة والمجتمع — الطبعة الثانية عيسى الحلبى سنة ١٩٥١ م

على عبد الواحد وافى (دكتور) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م

على العنانى (بالاشتراك مع : ليون محرز ، محمد عطية الإبراشى) الأساس فى الأمم السامية ولغاتها ـ وقواعد اللغة العبرية وآدابها ـ نشر وزارة المعارف المصرية

فندريس اللغة ـ ترجمة د . عبد الحميد الدواخلى ، د . محمد القصاص ـ نشر مكتبة الانجلو ١٩٥٠ م

قدامة بن جعفر نقد الشعر ـ القاهرة سنة ١٩٣٤ م

القزوينى (الخطيب القزوينى) الإيضاح على تلخيص المفتاح ـ ط دار السعادة بمصر سنة ١٣٤٢ ه ط صبيح سنة ١٩٥٠ م

القلقشندى (أبو العباس أحمد) صبح الأعشى ـ القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ م

كدراتوف الأصوات والاشارات ـ ترجمة شوقى جلال ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ م

كمال بشر (دكتور) علم اللغة ـ الأصوات ـ القاهرة ١٩٧٠ م

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل فى اللغة والأدب القاهرة سنة ١٩٣٦ م

مجمع اللغة العربية مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التى أقرها المجمع ـ المطابع الأميرية سنة ١٩٦٠ م

مجمع اللغة العربية كتاب فى أصول اللغة (مجموعة القرارات ـ التى أصدرها المجمع من الدورة التاسعة والعشرين إلى الدوره الرابعة والثلاثين) المطابع الأميرية سنة ١٩٦٩ م

مجمع اللغة العربية كتاب فى أصول اللغة(أعمال ونصوص وقرارات

من الدورة الخامسة والثلاثين إلى الحادية والاربعين) المطابع الأميرية سنة ١٩٧٥ م

محمد خلف الله أحمد — من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ط عيسى الحلبي سنة ١٩٤٧

محمد خلف الله أحمد — معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ـ ط عيسى الحلبي سنة ١٩٧١ م

محمد زكى العشماوى (دكتور) — قضايا النقد الأدبى المعاصر الدار المصرية العامة للطباعة والنشر سنة ١٩٧٥ م

محمد غنيمى هلال (دكتور) — النقد الادبى الحديث ـ الطبعة الثالثة دار ومطابع الشعب سنة ١٩٦٤ م

محمد غنيمى هلال (دكتور) — الرومانتيكية ، نشأتها، فلسفتها ،قضاياها وآثارها القاهرة سنة ١٩٥٦ م

محمد غنيمى هلال (دكتور) — الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٦٠ م

محمد كرد على — رسايل البلغاء — الطبعة الثالثة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٤٦ م

محمد المبارك — خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد — القاهرة جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٠ م

محمد مصطفى هداره (دكتور) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ـ الطبعة الثانية ط دار المعارف سنة ١٩٧٠ م

محمد مصطفى هدارة (دكتور) مشكلة السرقات فى النقد الادبى — مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٨ م

محمد مصطفى هدارة (دكتور) مقالات فى النقد الأدبى ـ دار القلم ١٩٦٤ م

محمد مصطفى هدارة (دكتور) تحقيق كتاب سرقات أبى نواس لمهلهل بن المزرع ـ نشر دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٥٧ م

محمد مندور (دكتور) النقد المنهجى عند العرب ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ م

محمد مندور (دكتور) منهج البحث فى الادب واللغة دار العلم للملايين بيروت

محمد النويهى (دكتور) الشعر الجاهلى ـ منهج فى دراسته وتقويمه الدار القومية للطباعة والنشر (لم يذكر تاريخ الطبع)

محمود السعران (دكتور) اللغة والمجتمع ـ راى ومنهج الطبعة الأهلية بنغازى، ليبيا سنة ١٩٥٨ م

محمود السعران (دكتور) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى دار المعارف سنة ١٩٦٢ م

محمود فهمى حجازى (دكتور) المدخل إلى علم اللغة دار الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٧٦

المرزبانى (أبو عبد الله محمد ابن عمران) الموشح ـ تحقيق على البجاوى ط نهضة مصر ١٩٦٥

المرزوقى (أبو على أحمد بن محمد بن الحسن) شرح ديوان الحماسة نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون القاهرة سنة ١٩٥١ م

مصطفى فهمى (دكتور) أمراض الكلام ـ مكتبة مصر بالفجالة. ط الرابعة سنة ١٩٧٦ م

مصطفى ناصف (دكتور) نظرية المعنى فى النقد العربى دار القلم سنة ١٩٦٥ م

نفوسة زكريا (دكتورة) عبد الله النديم ـــ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م

النويرى (شهاب الدين بن أحمد) نهاية الأرب فى فنون الأدب ط دار الكتب المصرية

هنرى فليش اليسوعى (الأب) العربية الفصحى ـ تعريب وتحقيق د.عبدالصبور شاهين ـــ المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٦٦ م

ياقوت الحموى معجم الأدباء ـ ط دار المأمون سنة ١٩٣٦ ـــ سنة ١٩٣٨ القاهرة .

ياقوت الحموى معجم البلدان ـ ط دار السعادة سنة ١٩٠٦ م

يحى بن حمزة العلوى الطراز ـ مطبعة المقتطف سنة ١٩١٤ م

يوهان فك العربية دراسة : فى اللغة واللهجات والأساليب ط دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٧٠م

الدواوين :

ديوان أبى تمام تحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف سنة ١٩٧٦

ديوان أبى نواس ج١ تحقيق ايفالد فاجنر ط لجنة التأليف والترجمة والنشر وتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى القاهرة سنة ١٩٥٣ م

ديوان الأعشى شرح الدكتور محمد محمد حسين بيروت سنة ١٩٦٩

ديوان أمرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ م

ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصغير فى دار المعارف سنة ١٩٦٣ م

ديوان جرير	دار المعارف ١٩٧١ م
ديوان حسان بن ثابت	نشر عبد الرحمن البرقوقى مصر ١٩٢٩ م تحقيق د . سيد حنفى ط الهيئة المصرية سنة ١٩٧٤ م
ديوان الحطيئة	تحقيق نعمان أمين طه ط الحلبى سنة ١٩٥٨ م
ديوان زهير بن أبى سلمى	بشرح الأعلم الشنتمرى المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، مطبعة التقدم ١٣٢٣ م
ديوان طرفة بن العبد	طشالون سنة ١٩٠٠ م
ديوان علقمة الفحل	بشرح الأعلم الشنتمرى نشر أحمد صقر القاهرة سنة ١٩٢٥ م
ديوان الفرزدق	ط الصاوى القاهرة سنة ١٩٣٦ م
ديوان المتنبى بشرح العكبرى	ط مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٦ م
ديوان مسلم بن الوليد	تحقيق الدكتور سامى الدهان ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ م
ديوان النابغة	ط بيروت سنة ١٩٢٩ م
ديوان الهذليين	ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ م

المراجع الأجنبية

- **Allport (T.T.H)** : Social Psychology. Houghton and Mifflino Co. U.S.A. 1924.
- **Firth, John Rupert)** : Papers in Linguistics. London Oxford University Press, New Yourk, Toronto, 1957.
- **Firth, (John Rupert)** : The Semantics of Linguistic Science. "Lingua" Volume 1,4 Sept. 1948.
- **Gimson (A.C.)** : A Practical Course of English Pronunciation. First Published 1975. By Edward Arnold Ltd.
- **Hartmann (R.R.K) and Stork (F.C.)** : Dictionary of Language and Linguistics. The Language Centers, Universities of Nottingham and Sheffield.
- **Harriman (editor)** : Encyclopedia of Psychology. New Yourk 1946.
- **James E. Nation** . Diagnosis of Speech and Language Disorders. The C.V. Mosby Company Saint Louis 1977.
- **Lowis M.M** : Language in Society. London, Nelson 1947.
- **Meyer, Leonard, B.** : Emotion and Meaning in Music. (Univ. of Chicago Press, 1957).
- **Moore, Jared, S.** : The Work of Art and its Material. J. of Ae. & Arts Cr. Vol. VI.
- **Marjorie Boulton** : The Anatomy of Poetry. Routledge & Kegam Paul. London, Henley and Boston 1977.
- **Osborne, Harold** : Aesthtics and Criticism. (N.Y., Philosophical Liberary, 1955).
- **Otto Jesperson** : Language: Its Nature, Development and

Origin. London, George Allen and Unwin Ltd. (1st. Published 1922).

— **Patterson, W.M.**: The Rhythm of Prose. New Yourk 1916.

— **Richards, I. A.**: Meaning of Meaning London, 1949.

— **Richards, I. A.**: Principles of Literary Criticism. (N.Y., Harcourt, 1950).

— **Richards, I. A.**: Philosophy of Rhetoric. London, 1936.

— **Richards, I. A.**: Emotive Meaning Again. Philosophical Review, LVII, 1948.

— **Rosamond E. M. Harding**: An Anatomy of Inspiration. 2 ed (Cambridge, Heffer, 1942).

— **Sidney Zink** : "Poetry and Truth". Philosophical Review, Vol. Liv (1945).

— **Stevenson, C.L.**: Ethis and Language. (Yale U.P., 1943).

— **Sapir, Edward** : Language, An Introduction To The Study of Speech. New Yourk, Harcourt, Brace and Company, 1921.

— **Thomson, G.H.** : Instinct, Intelligence and Character. G. Allen and Unwin Ltd. London, 1949.

— **Ward Ida C.** : Phonetics of English. Fifth edition. Heffer Cambridge, 1972.

— **William Geddie** : Twentieth Century Dictionary W. and R. Chambers Ltd. 1954.

— **Willam, H. Parkins** : Speech Pathology. 2 ed. The C.V. Mosby Company Saint Louis.